مكتبة مصر

نجيب محفوظ

السراب

السَّرَاب

مطبوعات مكتبة مصر

السراب

تأليف
نجيب محفوظ
الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨ -

١

إنى أعجب لما يدعونى للقلم ، فالكتابة فن لم أعرفه لا بالهواية ولا بالمهنة ، ويمكن القول بأنه فيما عدا الواجبات المدرسية على عهد صباى ، والأعمال المكتبية المتعلقة بوظيفتى ، فإننى لم أكتب شيئا على الإطلاق . والأعجب من هذا أنى لا أذكر أنى سودت خطابا أو رسالة طوال الدهر الذى عشته فى الدنيا وهو ما ينيف على ربع قرن من الزمان . والحق أن ـــ الرسالة ـــ كالكلام ـــ رمز للحياة الاجتماعية ، وعنوان للوشائج التى تصل ما بين الناس فى هذه الحياة ، ولست من ذلك كله فى شىء . ألسنا نشذب الأشجار فنبتر ما اعوج من أغصانها وفروعها ؟ فلماذا نبقى على من لا يصلحون للحياة من أفراد الناس ؟!. لماذا نتسامح بل نهمل فنفرضهم على الحياة فرضا أو نفرض الحياة عليهم كرها ؟. لهذا يسعون فى الأرض غرباء مذعورين ، وقد بلغ الذعر منهم أحيانا أن يخبطوا على وجوههم كالمحمومين فيدوسوا بأقدامهم المتعثرة ضحايا أبرياء .

أقول مرة أخرى إننى لا أذكر أننى كتبت كتابة تستحق هذا الوصف . كذلك طالما أعيانى الحديث وأعجزنى ، فكنت إذا اضطررت إلى كلام تلعثمت وأدركنى العى والحصر ، ولم يكن الإعياء فى قوة النطق أو الكتابة ، إنه أجل من ذلك وأخطر وإن العى والحصر والعجز لأتفه عواقبه على وجه اليقين . ولذلك حق لى أن أتساءل عما يدفعنى الآن إلى الكتابة . وليس الأمر قاصرا على رسالة تدون ، إنه شوط طويل تنقطع دونه الأنفاس ، وإنى لأعجب لما يستفزنى من نشاط لم أعهده ، وحماس لم آلفه ، حتى ليخيل إلى أنى سأواصل الكتابة دون تردد أو تعب ، فى الليل والنهار ، وبعزيمة لا تعرف الخور ، فلماذا يا ترى هذا العناء كله ؟ ألم آو عمرى إلى الصمت والكتمان ، ألم تظفر الأسرار من صدرى

بقبر مغلق تستكن فيه وتموت ؟، فما سر هذا الإلحاح العنيف ؟، وكيف سللت القلم لأنبش قبرا تراكم عليه ثرى الإخفاء !. لقد ضاعت الحياة ، والقلم ملاذ الضائع ، هذه هي الحقيقة . إن الذين يكتبون هم فى العادة من لا يحيون ، ولا يعنى هذا أنى كنت أحيا من قبل ، ولكننى لم أكن آلو أن أرنو لأمل بسام أستضيء بنوره ، وقد خمد هذا النور . ولست أكتب لإنسان ، فليس من شأن المرضى بالخجل أن يطلعوا إنسانا على ذوات نفوسهم ، ولكنى أكتب لنفسى ، ونفسى فحسب ، فطالما داريت همساتها حتى ضللت حقيقتها ، وبت فى أشد الحاجة إلى جلاء وجهها المطموس فى صدق وصراحة وقسوة ، عسى أن يعقب ذلك شفاء غير مقدور . أما محاولة النسيان فلا شفاء يرجى منها . والحق أن النسيان خرافة بارعة وحسبى ما كابدت من خرافات . ولعل فى شروعى فى الكتابة آية على أننى قد عدلت عن فكرة الانتحار نهائيا ، وما كان الانتحار بالجزاء الذى لا يستحقه إنسان قضى على نفسين ، بل هو دون ما يستحق بكثير ، ولكن ما حيلتى والحياة لا تتورع عن وسيلة فى سبيل الدفاع عن نفسها ؟. ولو كان الماضى قطعة من المكان المحسوس لوليت عنه فرارا ، ولكنه يتبعنى كظلى ، ويكون حيثما أكون ، فلا مناص من أن ألقاه وجها لوجه بعين غير مختلجة ، وقلب ثابت ، ومهما يكن من أمر فالموت أهون من الخوف من الموت . وإنه لعمل فيه سحر ، تستحيل به هذه الصحائف نفسا خالصة بغير حجاب . ولست أدعى العلم ، فما ناصبت شيئا العداء كالعلم ، وإنى لغبى كسول ، ولكنى عانيت تجارب مرة زلزلتنى زلزالا ، وليس كالتجارب كاشف عن مطاوى النفوس . إنى لأتلهف على رفع النقاب ، وهتك الأسرار ، لأضع أصبعى على موطن الداء ومكمن الذكريات ومبعث الآلام ، ولعلى بذلك أتفادى نهاية محزنة ، وأنجو من آلام لا قبل لى بها ، وأتلمس فى الظلماء سبيلا . لست فى الواقع إلا ضحية ، ولا أقول ذلك تخفيفا من ذنبى ، ولا تهربا من تبعتى ، ولكنه حق وصدق ، فالحق أنى ضحية ، إلا أننى ضحية ذات ضحيتين . وأشد ما يحز فى نفسى أن إحدى الضحيتين هى أمى !.

أفظع بها من حقيقة لا تصدق . كيف أنسيت أنها سر حياتى وسعادتى ، وأننى لا أحتمل الحياة بدونها ! ولكنى كنت أحيا على حافة عالم الجنون ، وهكذا فقدت كل شيء ، ووجدت نفسى فى خلاء مظلم مخيف .. أنى رجل مؤمن عميق الإيمان ، وأعلم علم اليقين أنى سأبعث حيا فى اليوم الموعود ، ولست أخشى آلام ذلك اليوم وأهواله — إذا تجردت أمام الله بما فى يمينى وبما فى شمالى — قدر ما أخشى أن أبعث على الحال التى عانيتها فى دنياى . أروم بعثا جديدا حقا ، ويومذاك تصبح آلامى لا شيء يطويها الفناء إلى الأبد ، فيمكننى لقاء أحبائى بقلب صاف ونفس نقية طاهرة .

كانت أمى وحياتى شيئا واحدا ، وقد ختمت حياة أمى فى هذه الدنيا ، ولكنها لا تزال كامنة فى أعماق حياتى ، مستمرة باستمرارها . لا أكاد أذكر وجها من وجوه حياتى حتى يتراءى لى وجهها الجميل الحنون ، فهى دائما أبدا وراء آمالى وآلامى ، ووراء حبى وكراهيتى ، أسعدتنى فوق ما أطمع ، وأشقتنى فوق ما أتصور ، وكأنى لم أحب أكثر منها ، وكأنى لم أكره أكثر منها فهى حياتى جميعا ، وهل وراء الحب والكراهية من شيء فى حياة الإنسان ؟!. فلأعترف بأنى أكتب لأذكرها هى ، ولأستعيد حياتها هى ، بذلك تعود الحياة كلها . وبذلك أصل ما انقطع من حبل حياتى ، لعل الأمل أن يتجدد فى النجاة . يبدو لى كل شيء الساعة غامضا متواريا ، كأن الشيطان يذر فى عينى رمادا ، ولكن مهلا إنى أتلمس سبيلى فى صبر وأناة ، ورائدى أمل الغريق فى النجاة ، ومن ورائى نية صادقة فى تجديد حياتى وبعثها خلقا جديدا ، ولئن شق على الطريق أو تولانى القنوط ، أو خذلنى حيائى ، فلن يبقى أمامى إلا الموت ..

٢

ما جزاء الميت ـــ عندنا معشر الأحياء ـــ إذا واراه التراب ؟. أن نفر من ذكراه كما نفر من الموت نفسه !. ولعل فى هذا حكمة غالية ، ولكن أنانيتنا تأبى إلا أن تضفى على هذه الحكمة أسفا حانقا مضحكا . ولقد فررت من بيتنا موليا كل شىء ظهرى كالخائف المذعور ، ثم مضيت أثوب إلى رشدى فى هدوء نسبى ، وأدرك هول الخطب الذى نزل بى ، ففاض بى حنين موجع ، وفزعت يداى إلى خزانة الذكريات فاستخرجت كل ما بقى منها ، ألا وهى صورة !.

هى صورة كبيرة يظهر فيها جدى جالسا على مقعد كبير ، بجسمه الضخم وكرشه الكبير ، وشاربه الأبيض كأنه هلال فوق فيه ، فى بذلته العسكرية المحلاة بالنياشين ، وأقف أنا عند ركبتيه لا أكاد أجاوزهما إلا قليلا ، أتطلع إلى عدسة المصور بعينين باسمتين وقد التصقت شفتاى فى توتر من يغالب ضحكة تغالبه . ووقفت أمى إلى يمين جدى معتمدة بساعدها الأيسر مسند الكرسى الكبير ، فى فستان طويل يشتمل عليها من العنق إلى القدمين ، ولا ينحسر من ساعديها إلا عن اليدين ، بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حالمة تقطر حنانا وتخلو من بريق ينم عن الحيوية وحدة المزاج . يا له من وجه شاء الرحمن أن يكرره فى وجهى حتى لقد قيل إنه لا يفرق بيننا إلا الشباب !. هذه صورة تطل على من عالم الذكريات . ولقد ثبت عينى الملتهبتين على الوجه المحبوب طويلا حتى لم أعد أرى شيئا سواه . كبرت قسماته فى عينى حتى خلتنى روحا صغيرا يعيش فى أحضانها ، واشتد ما يحيط بى من صمت فتهيأ لى أن هذا الفم المطبق سيفتر باسما ويسمعنى من عذب الحديث ما العهد به غير بعيد . إن الصورة شىء عجيب فكيف غابت عنى هذه الحقيقة ؟. هذه أمى بجسمها وروحها ، هذه أمى بعينيها وأنفها وفمها ، وهذا الصدر

الحنون الذى التصقت به عمرى . رباه .. كيف أقتنع بأنها رحلت عن الدنيا حقا ؟!. أجل إن الصورة شيء عجيب ، ويبدو لى الآن أن كل شيء عجيب فى هذه الدنيا ، وقاتل الله العادة فهى التى تقتل روح العجب والإعجاب فينا . كانت هذه الصورة معلقة بحيث تراها العين فى كل حين ، بيد أنى أراها الآن شيئا جديدا ، أطالع فى صفحتها حياة عميقة كأن نفحة من الروح الطليق قد استكنت بها ، وأرى فى هاتين العينين نظرة شاردة تبعث الألم . إن هذه الصورة حية بلا ريب ، ولن أسترد بصرى منها ولو جننت . عكفت عليها طويلا ، ثم تملكتنى رغبة قوية فى تخيل حياة صاحبتها فى جميع أطوارها من المهد إلى اللحد . تخيلتها طفلة تحبو ، وصبية تلهو بعرائسها . ألا ليتها خلفت لى صورا أستعيد بها أحلام طفولتها السعيدة ! ثم تخيلت عهد الشباب الرطيب ، وهى غادة حسناء ترنو بطرفها الساجى إلى الأمل والسرور وتلهو بلذة الفتوة المشبوبة ، لقد عاصرت عهده الحلو ، وكنت ثمرة لخصبه ونضارته ، ومع ذلك فقد ضاعت معالمه وولت آثاره . غشيه الظلام كأننى لم أرتع حضنه وأرضع ثديه . وكنت إذا تخيلته فيما مضى من أيامى تخيلته فى حيرة وقلق ، وساءلت نفسى فى خجل واستياء ألم تنبض بدمه الحار تلك الرغبات الجامحة التى تستأثر الشباب ؟!. ولعل عاطفتى الغامضة تلك هى التى دفعتنى فى صباى إلى تمزيق الأثر الباقى لهذا الشباب الأول . فقد دخلت حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدت أمى منكبة على درج مفتوح فى صوان الملابس تنظر فى شيء بين يديها ، فاقتربت منها فى خفة تحدونى شطارة الغلمان المدللين ، وأدخلت رأسى تحت ذراعها المبسوطة ، فرأيتها ممسكة بصورة عرسها !، وبادرت تحاول إرجاعها إلى مخبئها ، ولكننى أمسكت بها فى عناد ، وحملقت فيها بدهشة ، فرأيت شابا جالسا وأمى واقفة مستندة إلى كرسيه كالوردة الناضرة . وتعلقت عيناى بصورة الرجل فأدركت أنه أبى ، وإن كنت أراه أول مرة ، بل أراه بعد أن امتلأ الفؤاد له خوفا وكراهية ، وارتعشت يداى ، واتسعت عيناى انزعاجا ، ثم لم أدر إلا ويداى تمزقانها إربا ،

ومدت لى يدا تحاول استنقاذها ، ولكنى تغلبت عليها فى حنق وهياج ، فلبثت صامتة وقد لاح فى عينيها الصافيتين الحزن والأسف . وكأننى لم أقنع بما فعلت فتصديت لها غاضبا وسألتها بلهجة تنم عن الاحتجاج : علام تأسفين ؟!

فبسطت أسارير وجهها بشيء من الجهد وقالت :

— يا لك من طفل مشاكس !.. ألا ترى أنى آسف على صورة شبابى ؟.. لقد مزقت صورة أمك وأنت لا تدرى .

وكانت ذكرى تلك الحادثة تعاودنى فى فترات متباعدة فتحز فى نفسى ، وتملأنى حيرة وقلقا ، فأمضى متسائلا عما دعاها حقا إلى الاحتفاظ بتلك الصورة ولماذا أحزنها تمزيقها ؟، ثم أحاول أن أنفذ بخيالى إلى ما فاتنى من حياتها ، فأنقلب متفكرا مغتما .

هكذا فقدت صورة الشباب الأول ، وإننى لآسف على فقدانها — الآن — أسفا خالصا ، ولكن أليس ذلك أسفا مضحكا بعد أن امتدت يدى إلى صاحبة الصورة نفسها فقضت عليها ؟!.

٣

ولم أكن الحظ العاثر الوحيد الذى ابتليت به حياتها . روت لى يوما قصة زواجها ، فى حذر وحرص شديدين ، خاصة وهى تسرد الذكريات الباسمة على ندرتها ، فكانت تذكرها فى عجلة واقتضاب وتحرج ، وكأنها فى أعماقها تخشانى ، أو كأنها أشفقت منى أن تخفف لطافة الذكرى من حدة كراهيتى لأبى .

على جسر إسماعيل رآها أبى أول مرة !. وكان « الحانطور » ينطلق بأمى وجدى فى بعض الأصائل للتنزه والفرجة ، ففى مرة مر بهما « حانطور » يتربع بصدره شاب مزهو بشبابه وثرائه أو على الأصح بما ينتظره من ثراء ، فوقع بصره

على وجهها ، وسرعان ما وجه عربته فى أعقابها حتى بيتنا فى المنيل . وكانا كلما غادرا البيت صادفاه فى الطريق وكأنه ينتظر . ولم أدع هذا الفصل من القصة يمر بى دون ملاحظة ، فسألتها عن الغزل فى تلك الأيام وكيف كان ، وتلقت سؤالى بريبة وحذر ، ولكنى ما زلت بها حتى استنامت إلى ، فاستسلمت لرقة الذكريات . وقالت إنه كان يبعث إليها بنظرات تومض بالابتسام ، أو يلتفت نحوها باهتمام وهو يفتل شاربه الغزير الأسود ، بيد أنه لم يتعد حدود الأدب قط. وتفكرت مليا ، وتهت فى بيداء الخيال الحالم ، فعانيت أحاسيس الدهشة والحيرة والضيق، ثم رفعت إليها عينى — ولم يكن لنا من سلوى فى تلك الأيام إلا مواصلة الحديث — وسألتها مبتسما عن كيف كانت تلقى تلك المقدمات الغزلية . ولم يخف عنها ما فى سؤالى من خبث فتضاحكت ، وكانت إذا ضحكت اهتز جسمها من الرأس إلى القدم ، وقالت إنها كانت تتجاهله بطبيعة الحال ، وتنظر فيما أمامها دون أن تلوى على شيء ، وتظل على حالها كأنها تمثال ذو برقع أبيض !. وداخلنى شك ، وقلت إنى أسألها عن الباطن لا الظاهر . عن القلب لا الوجه ، ونازعتنى النفس إلى مصارحتها بما يدور فى خلدى ، ولكن خانتنى الشجاعة ، وعقلنى الحياء ، ولو رجعت إلى قلبى لعرفت الجواب ، فهذا القلب من ذاك ، يجرى بهما دم واحد ، ويسجعان عن خفقان واحد ، فهل أنسى أنى وقفت كثيرا كمثل التمثال والقلب شعلة نار ؟!.

وتقدم الشاب يطلب يدها ، لم يكن ذا عمل ولا علم ، بل ولا مال حتى ذلك الوقت ، ولكنه كان أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين . ولما علم جدى بموافقة الأب واستعداده لتكفل ابنه وأسرته ، سر بالخطبة سرورا لا مزيد عليه ، وفرح بجاه الأسرة العريق . وقيل له إنه جاهل جهل العوام ، فقال وما حاجته إلى العلم ؟ وقيل له إنه بلا عمل ، فقال وما حاجته إلى العمل ؟. بل قيل له صراحة إنه شاب ذو أهواء جامحة وإنه سكير عربيد ، فقال إنه يعلم أنه شاب وليس براهب . ولم يكن جدى طماعا جشعا ، ولكنه كان يروم السعادة لابنته .

ويحسب أن المال كفيل بتحقيق تلك السعادة ، هذا إلى تأثر باسم الأسرة التى تود مصاهرته ، واطمئنان إلى سمعتها الكريمة ، وفضلا عن ذلك كله فهو نفسه لم يكن حصل على الابتدائية ، ولم يكن يخلو من ميل للشراب والمقامرة . وبذلك صارت كريمته حرما لرؤبة لاظ أو رؤبة بك لاظ كما كان يدعى ، وظن جدى أنه فرغ من الواجبات الملقاة على عاتقه بتزويجه أصغر كريمتيه . ولكن ما كاد ينقضى أسبوعان على ليلة الزفاف حتى عادت أمى إلى بيت جدى دامعة العينين كسيرة الفؤاد !. وانزعج جدى انزعاجا شديدا ، ولم يكد يصدق عينيه ، ثم علم أن الشاب قد عاود سيرته الماضية فى الحانات ولما يمض الأسبوع الأول من زواجه ، وأنه كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس ، وأنه أوسعها ضربا فى ذلك اليوم الذى غادرت فيه قصره . واستفظع جدى الأمر ، وكان على تربيته العسكرية الصارمة رقيق القلب ، ويحدب على ابنتيه حدبا عظيما ، فغضب غضبا شديدا ، ومضى لتوه إلى قصر لاظ ، وصب جام غضبه على الشاب وأبيه معا ، ولبثت أمى فى بيت جدى حتى وضعت أختى الكبرى . وسعى نفر من أصدقاء الطرفين إلى إصلاح ذات البين ، ووصل ما انقطع من حياة الزوجية ، وكلل مسعاهم بالنجاح فرجعت أمى وطفلتها إلى قصر لاظ مرة أخرى . وامتد مكثها به شهرين ، ثم نفد صبرها فهجرته إلى بيت جدى مهيضة الجناح . والحق أنها لم تذق الراحة إلا أياما معدودات ، ولكنها تصبرت وتجلدت عسى أن تصلح الأيام ما فسد من حاله ، فلم يكن يزداد إلا فسادا ، ولم تعد ترى فيه إلا سكيرا عربيدا لا يرعى لشىء حرمة ، فأيست منه ، ولاذت ببيت أبيها ، وسعى الرجل إلى استردادها ، مقرا بإدمانه الشراب ، محاولا إقناع جدى بأنه من الممكن أن تستقيم الحياة الزوجية مع إدمان الشرب ، ولكن جدى وقف منه موقفا صلبا فطلقها ، ومرت أشهر فوضعت أمى أخى الأوسط ، وعاشت فى كنف أبيها متمتعة بعطفه وحنانه . ثم ترامت إليهم أنباء غريبة عن رؤبة لاظ تقول إن الفتى الطائش قد حاول فى ساعة نزق وجزع أن يدس السم لأبيه متعجلا حظه من

الميراث ، ولكن الأب اكتشف الجريمة بوساطة الطباخ ، فطرد ابنه من قصره ، ووقف نصف ثروته لجهة خير ، ووقف النصف الآخر على الابن الأكبر ، ولعله لم يشأ أن يوقفها كلها للأخ الأكبر حتى لا يوغر صدر ابنه الشرير عليه فيعرضه بذلك لأذاه .. واستيقظ رؤبة لاظ بعد حلم طويل بالثروة الواسعة على فقر نسبى ، فلم يعد يملك من حطام الدنيا إلا ربع وقف ورثه فى ذلك الوقت عن أمه — وهى غير أم أخيه — يقارب الأربعين جنيها شهريا . وبيتا ذا طابقين فى الحلمية انتقل إليه بعد طرده من قصر لاظ . وأثارت تلك الأنباء شجنا فى بيت جدى صفقت له ضلوع الذين يشفقون على مستقبل الوليدين الصغيرين ، فقد تضاءلت نفقتهما ، وتجهم مستقبلهما . وتشاور جدى وجدتى وأمى فى الأمر ، وانتهى بهم تبادل الرأى إلى أن يقابل جدى لاظ الكبير ، وأن يستعطف قلبه للوليدين البريئين حتى يغير وصيته لصالحهما ، ومضى جدى إلى قصر لاظ ، وحادث الرجل فيما جاء من أجله ، ولكنه وجد منه قلبا قاسيا وأذنا صماء ، ولعن بمحضره الابن وذريته ، فعاد جدى محزونا ثائرا .

وكان من سخرية الأقدار أن مات لاظ بك فى نفس العام الذى سعى ابنه فيه إلى القضاء عليه . وانقضى من الدهر سبعة أعوام فبلغت أختى راضية الثامنة ، وبلغ أخى مدحت السابعة أو نحو ذلك . وفى ذلك التاريخ حدث ما غير مجرى حياة أسرتنا الهادئ . وشاءت الأقدار أن يتم ذاك التغير بحادثة تافهة مما يعرض فى الطريق ، إذ كان جدى يغادر ناديا للقمار بشارع عماد الدين قبيل الفجر بقليل فرأى نفرا من السوقة يلتفون بأفندى ويوسعونه ضربا وهو يتخبط بينهم هائجا مترنحا ، فبادرهم هاتفا أن يكفوا عنه ، ومضى صوبهم غاضبا ، ثم لحق به شرطى على الأثر . وما كاد النفر يتفرقون حتى رأى جدى رؤبة لاظ فى حالة سكر بين وقد سال الدم من أنفه . ودهش جدى وتولاه الارتباك من وقع الدهشة ، ولكنه تقدم من الرجل دون تردد وسنده بذراعه وهو يوشك أن يقع . كان ما مضى قد سحب النسيان عليه ذيوله أو كاد ، وكان الرجل من الناحية الأخرى يوالى

إرسال النفقة لوليديه على استهتاره وعربدته ، فلم يكن بين الرجلين عداء ، ودعاه جدى إلى « حانطوره » فأطاع ، وأمر جدى السائق بالذهاب إلى الحلمية ، وخيم عليهما فى الطريق صمت عجـــيب ، فلم ينبس أحدهما بكلمة ، ولما بلغت العربة البيت أوسع له جدى لينزل ، ولكنه أمسك بذراع الرجل ودعاه إلى بيته . واعتذر جدى بتأخر الوقت ولكن الآخر لم يقبل اعتذاره وأبى إلا أن ينزل معه وكان ما يزال ثملا مخمورا فأذعن جدى على رغمه ، فمضيا معا إلى حجرة الاستقبال وخيوط الفجر الزرقاء تنشب فى الظلماء . وارتمى رؤبة لاظ على مقعد وجذب جدى فأجلسه على مقعد قريب ، وسرعان ما ولى عنه سكوته فغلبه الانفعال والتأثر وراح يقول بلسان ثقيل حلت الخمر والانفعال عقدته « أرأيت الأوباش كيف انهالوا على لكما وصفعا ؟!.. أرأيت إلى الإهانة البالغة تنزل بكرامتى ، وأنا رؤبة بن لاظ ، ربيب القصر العتيق ؟!. هذه هى الدنيا يا عماه .. وما بالى أدعوك بعمى ؟ لقد جاوزت الأربعين ولم تعد أنت الخمسين إلا بقليل ، فما أحرانى أن أدعوك بأخى ، ولكنى أدعوك عمى احتراما وإجلالا ، فإنك بمنزلة أبى .. أستغفر الله أنت أعظم من ذلك وأجل ، لا تؤاخذنى بما أنطق من لفظ ، واللفظ شىء تافه ، أما ركلى بأقدام الأوباش فشىء خطير ، أليس كذلك ؟!. لقد مات أبى غاضبا على ، ويقولون إنه لا يظفر بالسعادة من حرم رضاء الوالدين ، أحقا هذا يا عماه ؟!. حتى ولو كان أحد الوالدين أبى ؟!. رباه ، لقد سئمت هذه الحياة ، إنها حمى وهذيان وجنون متواصل ، لشد ما تتوق نفسى إلى الهدوء والطمأنينة ، أليس هذا هو الندم ؟!، امدد إلى يدك يا عماه ، ولنقسمن معا بهذا الفجر الطالع أنِ نبدأ حياة جديدة لا إثم فيها ولا فجور ، رد إلى زوجى وطفلى وأسكنى أسرتى .. هلم .. واشتد احمرار عينيه حتى ظنه جدى باكيا ، ولم يجد بدا من أن يطيب خاطره . وعندما انطلق به الحنطور صوب المنيل وقد تحرك سطح الأرض رويدا بالأفواج الأولى من الساعين إلى الرزق ، أغمض عينيه فى ارتياح ، وتفكر فى الأمر مليا ، وكان يود

أن يرى ابنته سيدة لبيت يخصها . وفى نفس الشهر ردت أمي إلى زوجها السابق واجتمع شمل الأسرة . ولكن لم تدم هذه الحياة الجديدة إلا أسبوعين !. بل لعلها لم تدم إلا يوما واحدا ، وتحملت أمي بقيتها صابرة متصبرة حتى أقضها الإشفاق على طفليها من شر السكير العربيد ، فحملتهما وفرت إلى جدى المسكين . وثار الرجل ثورة عنيفة ، ومضى لتوه إلى التائب الزائف وانهال عليه تعنيفا وتقريعا وازدراء ، واستمع الآخر إليه صامتا ، ثم قال له إن زوجه هي الملومة لأنها لا تود العيش معه وإنه لا ذنب له إلا أنه يسكر !. وغادره جدى يائسا وبيده شهادة الطلاق . انقطعت حياة الزوجية إلى الأبد ، وكنت أنا ثمرة تلك التوبة الكاذبة !..

وقد سمعت جدى يمازحني يوما فيقول لى : « لقد جئت إلى هذه الدنيا نتيجة لحماقتي أنا دون سواى .. » ولكن ما أكثر الذين جاءوا هذه الدنيا فى أعقاب الحماقات . ونشأت فى بيت جدى ، فلم أعرف بيتا سواه ، بل لم أعرف من الأهل غير جدى وأمي ، لأنى حين أخذت أعى ما حولى كان أبى قد استرد أخى وأختى ، وكانت جدتى قد ماتت . ولم أعرف أن لى أبا إلا بلسان أمي ، وحديثها المفعم مرارة وحزنا ، فنمت كراهيتى له على الأيام . وقد أتم الرجل قسوته عليها فلم يكتف باسترداد ابنه وابنته ، ولكنه حال بينهما وبين رؤية أمهما ، فمرت الأعوام تلو الأعوام وهى لا ترى لهما أثرا . وترامت الأخبار إلينا تقول إن الرجل يكاد يحبس نفسه دون العالم كله ، فارا من الدنيا وما فيها بسكر متواصل لا يفيق منه نهارا ولا ليلا ..

٤

كان بيت جدى بالمنيل مولدى وملعبى ودنياى . وكان يتكون من دورين كبيرين نقيم فى الأعلى منهما ، وله فناء صغير . لست أريد التحدث عن البيت ، ولكنى أتلهف على استعادة الماضى ، وما من ماض إلا وله بيت تحوم حوله ذكرياته ، إن حياتى لا تنفصل عن ذاك البيت أبدا ، ولن تنفصل عنه ما حييت ، وما البيت ببناء وعمارة وهندسة ، ولكنه برج ثابت فى الزمان يأوى إليه حمام الذكريات ، الساجع بالحنين إلى ما انقضى من أعمارنا ، فلأنقب فى غيابات الماضى عن أقصى ما يستطيع أن يستقبله رأسى من موجات الذكريات ، إنى أغمض عينى متواريا عن عالم المحسوس ، كى أهيئ لروحى سكينة تنطلق فيها إلى الماضى الخالد . ولأعترف أنى شديد الحنين إلى الماضى ، وقد بت فى هذه الفترة الأخيرة أشد ما أكون حنانا إليه ، ولعل ذلك منى ليس إلا توقا صريحا إلى الطفولة ، وإنى لأدرك ما فى هذا الحنين والتوق من خطورة هى سر دائى الأسيف فى الحياة ، ومع أننى عشت حياتى متطلعا إلى ذلك الماضى ـــ راضيا أو ساخطا ـــ شديد الشعور بما يشدنى إليه من رباط وثيق ، إلا أننى أقف عاجزا حيال سجفه الكثيفة ، ترتد ذاكرتى حسيرة عن أرق عهوده وأخطرها . هأنا أغمض عينى فى تشوف وتساؤل ، فيعشو بصرى إلى نور خافت ، أرى يدى الصغيرة وهى تمتد إلى القمر من على كتف أمى . يا لها من ذكرى !. ولكم تمتد أيدينا إلى أقمار ليست دون ذلك القمر منالا ، وتعاودنى ذكرى جهد مضن بذلته كى أزدرد حلمة الثدى فيصدنى شىء مر مذاقه . وشارب جدى الهلالى وأناملى تشده فى سرور لا مزيد عليه . وتحطيم أصص الزهور ، وكيف هوت إحداها مرة من حافة الشرفة على ذراع البواب النوبى فكادت تكسرها . وكان من عادتى ألا أستسلم للنوم حتى أمتطى منكب أمى فتذهب بى وتجىء بطول البيت وعرضه ،

وكلما توانت حثثتها بقدمي . وكنت أرفل دائما فى فساتين البنات ، وشعرى مسدل حتى المنكبين . وقد بدا لأمى يوما أن تهيئ لى بذلة عسكرية محلاة بالنجوم والنياشين ، فارتديتها مسرورا ، وقطعت البيت فى عجب وخيلاء ، ضابطا عظيما ذا ضفيرة تتهادى على ظهره !. ولم يكن جدى يرتاح إلى ذلك التدليل المفرط . ولكنه لم يجد من رقته متسعا للإشراف على تربيتى ، إذ كان يغادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادى القمار إلا قبيل الفجر . وكان من ناحية أخرى يشفق من تكدير أمى لسوء طالعها ، ولأنه لم يبق له فى شيخوخته سواها . عشنا ثلاثتنا وليس للأب إلا ابنته وليس للأم إلا ابنها ، وكانت أمى تهفو لذكريات أختى وأخى بعين دامعة وفؤاد كسير ، وتتلهف على رؤيتهما ولو ساعة واحدة ، ولم تجد فى حزنها من عزاء سواى ، فأودعتنى حضنها ، لا تحب أن أبرحه ، وتود لو أجعل منه مرتعى ومراحى ودنياى جميعا . وهفت نسائم الحياة رخاء ، فلم أدرك إلا بعد فوات الوقت أنه كان حنانا شاذا قد جاوز حده ، ومن الحنان ما يهلك . كانت مصابة فى صميم أمومتها فوجدت فى أنا السلوى والعزاء والشفاء ، كرست حياتها جميعا لى ، أنام فى حضنها ، وأقضى نهارى على كتفها أو بين يديها ، وحتى فى الأويقات التى كانت تتعهد فيها شئون البيت لم أكن أفارقها ، أو لم تكن تدعنى أفارقها ، وحتى فى المطبخ كنت أمتطى منكبها مفترشا رأسها بخدى متسليا بمشاهدة الطاهى وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويخرط البصل ، بل كنا نستحم معا فتحطنى فى طست عاريا ، وتجلس أمامى متجردة فأرشها بالماء وأقبض على رغوة الصابون النافشة على جسدها فأدلك به جسدى ، ولم نكن نغادر البيت إلا قليلا ، فصلتنا بآل أبى مقطوعة ، وخالتى كانت تقيم فى ذلك الوقت بالمنصورة مع زوجها ، فإذا خرجت فى النادر لزيارة إحدى الجارات اصطحبتنى معها . على أننا كنا نواظب على زيارة السيدة زينب ، ولعلها الزيارة الوحيدة التى كنا ننتظرها بفارغ صبر . ولم يكن يسيئها شيء مثل أن تثنى على امرأة من معارفها بما يثنى به على الأطفال عادة ، فكانت

تتطير من الثناء وترقيني من العين في إشفاق عميق ، ومن عجب أني لا أذكر التعاويذ والرقى باستهانة أو ازدراء ، وإني لمؤمن بها ، بل إني لأومن بكل ما كانت تؤمن به أمي . وقد نلت من الثقافة حظا ، وحصلت على البكالوريا ، ولكن بقى لى إيمانى القديم سالما غير منقوص ، وهيهات أن يتزعزع إيمانى بالله ورسله وأوليائه والدعوات والتعاويذ والأضرحة .

بيد أننى لا أستطيع أن أقول إننى استكنت إلى تلك الحياة بلا تململ . ولعلى ضقت بها فى أحايين كثيرة ، وتطلعت إلى الحرية والانطلاق . ولعل ضيقى ذاك مضى يزداد بتدرجى فى مدارج النمو ، وآى ذلك أنها أقبلت تخوفنى أشياء لا حصر لها لتردنى عما أتطلع إليه من حرية وانطلاق . ولتحتفظ بى فى حضنها على الدوام . ملأت أذنى بقصص العفاريت والأشباح والأرواح والجان والقتلة واللصوص ، حتى خلتنى أسكن عالما حافلا بالشياطين والإرهاب ، كل ما به من كائنات خليق بالحذر والخوف . ذاك عهد بعيد ، ولكنه لا يزال حيا فى صدرى ودمى ، وهو الذى جعل من الخوف جوهرا أصيلا فى نفسى تدور حوله حياتى جميعا ، فنغص على صفوى ، ورمانى بتعاسة لا تريم ، وما أنا إلا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعرا ، وأخاف الناس ، وأخاف الحيوان والحشرات ، وأفرق من الظلام وما يرصدنى من أوهامه ، وأتحامى جهدى أن أنفرد بقط ، وهيهات أن أنام فى حجرة بمفردى . على أن الخوف كان أعمق فى حياتى من هذه الأشياء التى يتمثل لى فيها ، لقد استطال ظله الكثيف حتى أظل الماضى والحاضر والمستقبل ، واليقظة والنوم ، وأسلوب الحياة وفلسفتها ، والصحة والمرض ، والحب والكراهية ، فلم يترك شيئا خالصا . وقد عشت جل حياتى الماضية غرا جاهلا لا أدرى لتعاستى سببا ، ثم جلت لى المحن جوانب من حياتى ، هاتكة بقسوتها ما استتر من الخفايا الأسيفة ، بيد أن شعورى بالعجز لا يفارقنى ، وهو يستند فى الحق إلى قصور ثقافتى وضعف ثقتى فى قواى العقلية . كانت أمى مبعث هذه الآلام ولكنها كانت الملاذ الوحيد منها ، فآويت

إليها فى غير حيطة ..

ومن ذكريات ذلك العهد التى لا تنسى ، موقفنا — أنا وأمى — على قبر جدتى فى المواسم نكلله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترحمين . وكنا نتحدث كثيرا عن القبور وأهل القبور ، وكيف يرقدون ، وكيف يستقبلون ، وماذا يلقون من شدة وحساب ، وكيف تنزل عليهم الآيات نورا ، يذهب وحشتهم ويلطف جفوتهم ، ولما كان القبر قبر أم أمى فقد أحببته حبا جما . وكنت إذا وجدت منها غرة هرعت إلى جانب منه ، أنشب فى ثراه أظافرى ، وأحفر فى عجلة لعلى أطلع على ذاك المجهول المنطوى تحت الأرض . ولشد ما كان يحز فى نفسى أن أسمعها تردد « إنا لله وإنا إليه راجعون » أو « آخرتنا التراب » أو « الموت نهاية كل حى » فسألتها مرة فى دهشة :

— سنموت جميعا ؟!.

فساءها السؤال ، وحاولت أن تلهينى عنه ، ولكنى وقفت عنده لا أتزحزح فقالت :

— بعد عمر طويل إن شاء الله .

فرمقتها بإشفاق وسألتها مرة أخرى .

— وأنت يا أماه !..

فقالت لى وهى تدارى ابتسامة :

— طبعا . سأموت يوما ما ..

فوقع قولها من نفسى موقعا أليما وهتفت بها :

— كلا .. كلا .. لن تموتى أبدا .

وربتت على رأسى بحنان وقالت برقة :

— ادع لى بطول العمر ، كما أدعو لك يستجيب لك الرحمن الرحيم .

وبسطت كفى الصغيرتين ودعوت الله من أعماق قلبى . وعيناى مغرورقتان بالدموع .

٥

أأظل الدهر فى حجرها كأننى عضو من أعضاء جسدها ؟! جاوزت الرابعة من عمرى ، وجاء سن الرفاق واللعب . ولم يكن لى من مهرب فى البيت إلا الشرفة ، وهى تطل على فناء البيت ، وتشرف على الطريق . وكان أطفال الأسرة التى تسكن الدور الأول يلعبون فى الفناء ، فجعلت أنظر إليهم بعينين مشوقتين ، فيتطلعون أحيانا بأعين قرأت فيها دعوة صامتة اهتزت لها جوانحى ، واستأذنت أمى يوما فى الانضمام إليهم ، فقالت لى بارتياع : ماذا حدث لعقلك ؟.. ألا ترى أنهم لا يكفون عن العراك ؟!.. ما عسى أن أفعل لو ضربوك أو جرحوك ؟.. أو خرجوا بك إلى الطريق لا تنقطع به العربات ؟. بل ماذا تفيد منهم إلا الشقاوة وسوء الأدب ؟ أما أنا فأقص عليك القصص ، وإذا شئت خرجنا معا لزيارة السيدة . إذا كنت تحبنى حقا فلا تفارقنى .

ولاح فى وجهى التذمر والامتعاض فاستطردت تقول :

ـــ لقد حرمت رؤية أختك وأخيك ، ولم يبق لى فى الدنيا سواك ، وها أنت تود فراقى ، سامحك الله ..

فتوددت إليها قائلا :

ـــ إنى أحبك أكثر من أى شيء فى الدنيا ، ولكنى أريد أن ألعب ..

ولكنها لم تكن لتذعن لرغبتى تلك ، وكنت إذا ضقت بإصرارها بكيت أو ثار بى الغضب ثورة لا أعف فيها عن شد شعورى وتمزيق ثيابى ، ولكن شيئا لم يكن ليجعلها تذعن لرغبتى فى الابتعاد عنها . وفيما عدا ذلك لم تدخر وسعا لمرضاتى . كانت تبتاع لى اللعب أشكالا وألوانا . وإذا لمست ضيقى ومللى دعت بطفل من أطفال الجيران ليشاركنى لهوى تحت سمعها وبصرها . بيد أن ذلك كله لم يرو غلتى ، فتحينت منها غفلة يوما وانسللت هاربا من الشقة أكاد أخرج من

جلدى فرحا ، واستقبلنى الأطفال فى الفناء بدهشة وترحاب معا . ومع أنه كان بيننا شبه تعارف إلا أنه لم يسعنى الاقتراب منهم ، فوقفت مكانى فى ارتباك وحياء ، وسرعان ما أطلت أمى من الشرفة ونادتنى فى حدة الغضب ، ولكن أكبر الأطفال تقدم منى ، ودعانى إلى اللعب ، وهو يقول لى : « لا تبالها ! » ولأول مرة لم أبال صوتها . فاندفعت إلى حلقة اللعب ، وأخذت مكانى فى سرور لا يوصف ، ولم تكد تمر دقائق حتى شجر خلاف بينى وبين أحدهم فلطمنى على وجهى ، وذهلت ذهولا شديدا فلعلها كانت أول لطمة تلقيتها فى حياتى ، وارتميت على ساعده وغرست فيه أسنانى ، ولم يتردد رفاقه فانهالوا على ضربا وركلا ، وتوعدتهم أمى فى غضب شديد ، ولكنهم لم يقلعوا عنى حتى هددتهم بقذفهم بالقلة ، فغادرونى فى حالة يرثى لها . ودعتنى للصعود إليها ، وكنت ألهث والدموع ملء عينى ، فقهرنى الحياء وتسمرت قدماى فلم ألب نداءها ، ولم أرفع بصرى عن الأرض ، ولم أفارق موقفى حتى جاء البواب فحملنى إليها . وغسلت لى وجهى وساقى وهى تقول فى انفعال شديد :

ـــ تستاهل .. تستاهل .. هذا جزاء من يخالف رأى أمه ، إن الله يغفر كل شيء إلا من يعاند أمه ، فلن يغفر له . هذا هو اللعب مع الأطفال ، فكيف وجدته ؟!.

آلمتنى هزيمتى أمامها أضعاف ما آلمنى الضرب ، ورحت أؤكد لها كذبا أن الحق كان على ، وإنى كنت المعتدى . ومن عجب أن أمى نفسها لم تكن تكثر من الاختلاط بالناس ، فلم يألف بيتنا الضيوف إلا فيما ندر . وكان جدى يضيق بعزلتها ، ويحثها دائما على المعاشرة لتسرى عن نفسها . ثم شاء الله أن يؤنس وحشتنا ، فحلت خالتى ضيفة ببيتنا هى وأسرتها !. كانت خالتى تقيم مع زوجها ـــ مدرس لغة عربية ـــ بالمنصورة ، فانتقلوا إلى القاهرة ليقضوا بيننا شهرا من العطلة الصيفية . وجدت نفسى بين ستة من الأولاد وبنت ، فأفلت الزمام من يد أمى على رغمها . وكان أكبر الأولاد فى العاشرة ، وأصغرهم

يحبو ، فانقلب البيت الهادئ سركا تقفز به القرود والنسانيس ، فلعبت — ولهوت حتى كدت أجن من الفرح والسرور . لعبنا الجديد والحجلة ، والوابور ، والاستغماية .

ولما ضقنا بالبيت انطلقنا إلى الطريق وأنا لا أكاد أصدق . وأرادت أمي أن تحول بيني وبين الانطلاق معهم ، ولكن خالتى تصدت لها قائلة :

— دعيه يلعب مع الأولاد يا أختى !.. لو كان بنتا ما جاز لك أن تحجبيه قبل الأوان !.

كانت الشقيقتان مختلفتين فى المزاج على تقاربهما فى الشبه . كانت خالتى مفرطة فى السمنة ، ميالة للمرح والمزاح ، لا تكرب نفسها بالقلق على أبنائها بغير داع . وكانت إذا غادر جدى البيت غنت بصوت لطيف محاكية « منيرة المهدية » . أما أمي فتبدو على العكس من هذا كله . فهى نحيفة ، منزوية ، كثيرة المخاوف والقلق ، مفرطة فى الحنان لحد الشذوذ . وقد أرهقت ظروف حياتها أعصابها ، فكانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تلفها كآبة شاملة . ولعلها لم ترتح كل الارتياح لإقامة شقيقتها بيننا ذلك الشهر ، لا لفتور فى عواطفها نحوها ، ولكن لأن أبناءها استأثروا بى من دونها ، وأفسدونى عليها . وشكت مرة إلى خالتى ما تخافه على من حوادث الطريق ، فضحكت المرأة باستهانة وقالت لها بلهجة لم تخل من لوم :

— « هل ابنك من لحم ودم وأبنائى من حديد !.. قوى قلبك وتوكلى على الله ! » . أما أنا فقد نسيت فى سعادتى الشاملة تعاليم أمي جميعا ، واستسلمت للسرور شهرا صادف حياتى الرتيبة كالحلم البهيج ، وألقيت بنفسى فى أحضان اللعب بشراهة ونهم ، لا أستشعر تعبا ولا مللا . وفى الليل إذا آوينا إلى البيت كنت أضع عمامة زوج خالتى على رأسى وأحكى لهجته فى الحديث ، وأتجشأ كما يتجشأ ، وأتمتم عقب ذلك قائلا : « أستغفر الله العظيم » والكل من حولى يضحكون !.

كان شهرا كالحلم، ولكن الأحلام لا تدوم، وقد انقضى. ورأيت بعين الحسرة الحقائب وهى تعد وتكوم استعدادا للرحيل . وحم الفراق ، فكان عناق وسلام ، وحملتهم العربة جميعا ومضت ، وأنا أودعهم من الشرفة بطرف دامع كسير .

وقالت لى أمى :

ـــ كفاك لعبا وجريا فى الشارع ، ثب إلى رشدك ، وعد إلى كما كنت لا تفارقنى ولا أفارقك .

وأصغيت إليها فى صمت . كنت أحبها ملء فؤادى ولكنى كنت أهفو كذلك للعب والمرح . وبدا لأمى أن تحضر لنا خادمة صغيرة ، وسمحت لها بأن تلاعبنى تحت سمعها وبصرها . فكانت رفيقا خيرا من عدمه على أى حال ، كانت صبية دميمة ، ولكنها كانت أفضل لى من الطاهى الهرم وأم زينب العجوز . وكانت أمى محافظة على صلاتها ، فجعلت أقلدها إذا صلت ، ولعلها وجدت الفرصة مناسبة فمضت تلقننى مبادئ الدين كما تعرفه . عرفت الدين مبتدئا بالجنة والنار ، فانضافت إلى معجم مخاوفى كلمات جديدة ، بيد أنها كانت مصاحبة هذه المرة لعاطفة صدق وحب وإيمان .

٦

وأدت حال أمى تلك معى إلى تأجيل تاريخ التحاقى بالمدرسة ، فقاربت السابعة دون أن أتعلم حرفا . وتدخل جدى فى الأمر ، فدعانى يوما إليه وهو جالس بالشرفة على مقعده الطويل الهزاز ، وعرك أذنى مداعبا وقال لى :

ـــ طالما رغبت فى الانضمام إلى أترابك من الغلمان ، فالآن قد فك الله أسرك ، وسنأذن لك بالاشتراك معهم فى حياتهم عمرا طويلا ، ستدخل المدرسة !.

أنصت إليه فى دهشة بادئ الأمر إذ لم أكن أدرى شيئا عن المدرسة ، ثم بدا لى أنه سيطلق سراحى فنظرت إلى أمى بين مصدق ومكذب ، ولشد ما دهشت حين رأيتها تبسم إلى فى تشجيع واستسلام ، فانبعث الحبور فى صدرى فياضا ، وهتفت بجدى متسائلا :

ــ هل ألعب فى المدرسة كالأطفال ؟.

فهز الشيخ رأسه الأبيض وقال :

ــ طبعا .. طبعا .. ستلعب كثيرا وتتعلم كثيرا ، ثم تصير فيما بعد ضابطا مثلى ..

فسألته فى لهفة :

ــ متى أذهب ؟..

فابتسم الرجل قائلا :

ــ قريبا جدا ، سأقيد اسمك غدا ..

وفى صباح الغد ــ وكنا فى مطلع الخريف ــ ألبسونى بدلة وطربوشا وحذاء جديدا فعاودتنى ذكريات العيد السعيد ، ومضى بى جدى إلى عطفة قاسم غير بعيد من بيتنا ، ودخلنا ثانى بناء صادفنا إلى اليسار ، مدرسة الروضة الأولية الأهلية ، وقد وقع عليها الاختيار لقربها من البيت ، كانت تتكون من فناء متوسط ودور واحد من ثلاث حجرات ، فصلين وحجرة الناظر . وقد استقبل الناظر ــ وهو صاحب المدرسة أيضا ــ جدى بالاحترام والإجلال ، ولاطفنى فى محضره برقة ، وأطرى نظافتى وجدة ثيابى ، فآنست إليه واستبشرت به خيرا . وتم إثباتى بين تلاميذ المدرسة فى دقائق ، ودفع جدى المصروفات ، وعدنا وهو يقول لى :

ــ أنت الآن تلميذ عظيم ، وستفتح المدرسة يوم السبت القادم ..

وأعلنت أمى عن ارتياحها ، ولكنها لم تستطع مداراة ما اعتراها من كآبة ، حتى برم بها جدى وقال لها بشىء من الحدة :

ـــ ماذا تفعلين غدا إذا بلغ السابعة وأخذه أبوه !..

فرمقت جدى بنظرة فزع وألم وهتفت قائلة :

ـــ لن يكون هذا وأنا على قيد الحياة .

وفى يوم السبت المنتظر أوصلنى جدى إلى المدرسة وعاد من حيث أتى . وقد تعلقت بيده وهو يغادرنى ، واستشعرت خوفا مباغتا أنسانى طول اشتياق إلى تلك الساعة ، واقترحت عليه أن يعود بى !. ولكنه ضحك ضحكته الرنانة وقال وهو يومىء بأصبعه إلى التلاميذ :

ـــ إليك أهلك الجدد ..

وقفت على كثب من الباب فى ارتباك لم أعان مثله من قبل ، وتولانى الندم ، ونظرت إلى التلاميذ المتفرقين فى الفناء بخوف وحياء ، وتمنيت ألا تقع عين على . ولكن أناقتى وجدة ثيابى لفتتا إلى الأنظار فغضضت بصرى فى خجل شديد . وتساءلت حتام يطول ذاك العذاب ؟. بيد أن غلاما اقترب منى وحيانى ، ووقفت معى كأننا أصدقاء . ثم سألنى بغير مناسبة :

ـــ هل أبوك الذى جاء بك .

وكنت أعد جدى جدا وأبا ، فحنيت رأسى دلالة الإيجاب ، فعاد يسألنى :

ـــ ما مهنته ؟.. وما اسمه ؟.

ولئن كان الحديث ضايقنى ، إلا أنى رحبت بذاك السؤال خاصة ، فقلت بفخار :

ـــ الأميرالاى عبد الله بك حسن .

وقال لى الغلام إن أباه فلان بك كذلك وقد نسيته . ولعله ضاق بصمتى وجمودى فغادرنى وانضم إلى غيرى من الرفاق . اشتدت بى الوحشة وتساءلت ترى أأستطيع أن أندمج فى أولئك الغلمان ؟ هل يمكننى حقا أن ألاعبهم أم تتكرر المأساة التى وقعت لى فى فناء بيتنا ؟. وتقبض قلبى خوفا ، ولو واتتنى الشجاعة على الانسحاب من موقفى والعودة إلى البيت لفعلت . ثم دق الجرس فأنقذنى من

أفكارى ، وأوقفونا صفا ، وأدخلونا الفصل . لم أكن أتصور حتى ذلك الوقت إلا أننى التحقت بملعب كبير ، فلما أن جلست إلى قمطر ، وراح المدرس الشيخ يفتتح العام الدراسى بالإرشادات التقليدية الخاصة بالنظام وعدم الحركة والكلام ، أيقنت أنى دخلت سجنا .. وتولتنى الدهشة والانزعاج ، ترى أأخطأ جدى أم خدعوه ؟، وطار خيالى إلى البيت فتمثلت لى أمى فى جلستها وحيدة ، وتساءلت ترى هل نسيتنى ؟. إنها الآن تراقب أم زينب وهى تكنس الحجرات وتنفض الأثاث ، ألم تفكر فى ؟.. هل تطيق فراق طول اليوم كله ؟!. وانتهت الحصة الأولى دون أن ألتفت لحظة واحدة إلى كلام الشيخ ، ولا عجب ، فقد قررت أن يكون ذلك اليوم الأول والأخير . وفى دقائق الاستراحة رأيت الناظر يمر بباب الفصل ، فتنفست الصعداء . ومضيت نحوه بلا تردد إذ لم أكن نسيت لطفه ورقته ، واقتربت منه فى حياء ، فالتفت نحوى فى دهشة ، ورمقنى بعينين جامدتين متسائلتين فظننته قد نسينى ، وقلت بصوت لا يكاد يسمع :

— أنا ابن الأميرالاى عبد الله بك حسن .

فسألنى بدهشة :

— وماذا تريد ؟.

فلممت أطراف شجاعتى وقلت :

— أريد أن أعود إلى البيت .

فصرخ فى وجهى بصوت غليظ كالرعد :

— عد إلى قمطرك .. عمى فى عينك ..

وأذهلنى صراخه ، فعدت إلى مكانى يكاد يغمى على من الرعب والألم . ولبثت فى مكانى مروعا محزونا . وفى أثناء النهار شعرت بحاجة إلى التبول ولكنى كتمتها فى خوف شديد ، ولم أفكر مطلقا فى استئذان المدرس فى الخروج . وغلبنى الحياء فى الفسحة فلم أستطع أن أسترشد بأحد عن موقع المرحاض .

وجعلت أتململ تململ الملدوغ ، وأشد على ركبتي فى ألم وجزع . ومر الوقت فى ثقل وعذاب حتى دق جرس الخروج فأطلقت ساقى للريح ، فبلغت البيت فى ثوان ، وارتقيت السلم وثبا ، وفى الشقة وجدت أمى فى انتظارى ، فهتفت بى لما رأتنى :

ــ أهلا بنور العين ..

ووقع بصرها مصادفة على البنطلون ، فبدا فى وجهها الانزعاج ، وتمتمت بصوت منخفض :

ــ رباه .. بلت على نفسك !.

وانفجرت باكيا ، وقلت لها منتحبا :

ــ لن أعود إلى المدرسة ، إن جدى لا يدرى عنها شيئا ، وإنى أكره الناظر والمدرسين والتلاميذ ، أنقذينى منها ولن أبتعد عنك ما حييت ..

فجففت دموعى ، ونزعت ملابسى ، وهى تقول برقة :

ــ لا تقل مثل هذا الكلام ، ستألفها وتحبها ، كيف تبقى فى البيت والغلمان جميعا فى المدرسة ؟، وهل يمكن أن تصير ضابطا مثل جدك إذا تركت المدرسة ؟!.

وواصلت البكاء ، وألححت فى الشكوى ، ولكنها جعلت تلطف من حزنى وتحذرنى من البوح لجدى بشكواى أن يغضب ويحتقرنى . ولأول مرة أعارت دموعى أذنا صماء .

* * *

وبدا لها ــ كى تشجعنى على مواصلة الحياة الجديدة أن توصلنى كل صباح إلى المدرسة ، فكنا نذهب معا ، وأدخل أنا المدرسة بينما تقف هى على الطوار المقابل لها ، وأظل ملازما للسور ، أبادلها النظرات والابتسام من خلال قضبانه ، والكآبة ترين على صدرى والضيق يمسك بخناقى . كرهت المدرسة وحياتها جميعا ، ولكنى أجبرت على الذهاب إليها ، ولم ينفعنى عصيانى ولا بكائى ولم يغنيا عنى شيئا ، فأيقنت أنه قضى على بسجن طويل الأمد . ولأول مرة وجدتنى

أحسد الكبار على حريتهم . وأغبط النساء على قبوعهن فى البيوت . وإلى ذلك العهد يرجع سرورى بيوم الخميس ، فكان اليوم المفضل عندى من الأيام ، أما بقية أيام الأسبوع فقد جفوتها واستثقلتها ، وكنت أستشعر الكآبة ابتداء من أصيل يوم الجمعة ، ويمر السبت والأحد والاثنين والثلاثاء فى ضيق وتبرم ، حتى يأتى صباح الأربعاء فأتنفس الارتياح ، ثم أستيقظ عند الفجر الخميس وأتقلب تحت الغطاء فى سرور وحبور والدنيا لا تسعنى من الفرح . ولذلك تفوقت فى دروس الخميس ، ولم تعد المحفوظات والديانة .. على أن ذلك العهد لم يخل من ذكريات تثير الابتسام ، وإن بدت لى وقتذاك فى إطار من الجد والصرامة ، من ذلك أننا كنا نبتاع السميد فى الفسحة ، وإذا أعوزنا الملح استعضنا عنه بالجير الطافح من جدران الفناء . وكان مدرسنا الشيخ يروق له أن يشرب كوبا من العرقسوس فى أثناء الحصة الأولى ، فكان إذا تناول الكوب يأمرنا بالوقوف وبإدارة ظهورنا له حتى لا يصيبه مكروه من أعيننا النهمة . وجاءنا يوما متجهما وقال إنه شعر ليلة أمس بمغص وإنه لا يشك فى أن أحدنا استرق إليه النظر وهو يشرب العرقسوس ، وأنذرنا إذا لم نرشد عن الجانى بالضرب على أيدينا جميعا ، ولما كنا نجهل الجانى فقد ضربنا جميعا . وكان زميله الآخر شيخا هرما رقيق النفس ، فلم يكن يضرب أحدا إلا إذا أعيته الوسائل ، وكانت طريقته المفضلة فى إسكات التلاميذ وضبط النظام أن يخوفنا بالعفريت الذى يسكن أرض الحجرة من قديم الزمان ، قائلا أنه لا يحب الضوضاء ، وكان إذا أفلت الزمام من يده يجلس القرفصاء وينقر على أرض الغرفة ثم يقول بخشوع ورهبة « عفوك يا سيدنا .. إنهم لا يدركون شيئا .. لا تركبهم وسامحهم هذه المرة »

أما الدراسة فإنى لم أتعلم شيئا على الإطلاق . ولعل الفن الوحيد الذى أتقنته فى مدرسة الروضة الأولية هو قياس الزمن بمراقبة تحول ضوء الشمس عن جدران الفصل ، وأنا أعد الثوانى فى انتظار جرس الخروج . وكان المعنى الوحيد الذى يتضمنه توجيه سؤال من المدرس أننى سأضرب كذا مسطرة على ظاهر كفى .

ولم أحفظ فى بحر عام دراسى إلا بعض السور القرآنية الصغيرة التى كنت أسمع أمي ترددها فى صلاتها . وجاء الامتحان فى نهاية العام فظفرت بجملة أصفار تكفى لجعلى مليونيرا لو ظفرت بها فى غير الشهادة الفاضحة . ولما اطلع جدى على الشهادة غضب . وقال لأمى بحدة :

ــ هذا نتيجة تدليلك .. لقد .. أفسدته يا ستى .

ثم توعد الناظر شرا ، ومضى لمقابلته فى المدرسة . ورجع إلينا بعد ساعة وهو يقول بارتياح :

ــ نجحت يا سيدى بالقوة ، وإياك أن تسقط فى السنة التالية !.

وكان يداعبنى أمل بأن سقوطى ربما عدل بهم عن إرسالى إلى المدرسة ، فلما بشرنى بذاك النجاح المغتصب خاب أملى . وجاءت السنة الثانية فلم تكن بخير من الأولى . وزاد من شقائى هفوة لسانية عثرت بها فضاعفت من تنغيص حياتى بقية المدة التى قضيتها فى الروضة الأولية ، رفعت أصبعى مرة لأستأذن المدرس فى الخروج ، ولكن بدلا من أن أدعوه « يا أفندى » أخطأت وأنا لا أدرى فقلت له « يا نينة ! » .

وضج الغلمان بالضحك ، وضحك المدرس نفسه وقال لى بسخرية :

ــ إيه يا سيد أمك ؟..

وقهقه الفصل بالضحك ، وتولانى الذهول ، ولبثت ذاهلا حتى اغرورقت عيناى ، لم يكن لى فيهم رفيق أو صديق ، فقد بدا عجزى عن اتخاذ الأصدقاء منذ ذاك العهد البعيد ، فلم يرحمنى أحد منهم ، ودعونى منذ تلك الهفوة بنينة حتى غلبت على اسمى الحقيقى ، وكنت أتحاماهم مقهورا مغلوبا على أمرى ونار الغضب ترعى صدرى .

وفى نهاية العام جاءتنى شهادة الأصفار فاتهمت أمى المدرسة . وقرر جدى أن يلحقنى بالمدرسة الابتدائية ، ولما كنت متخرجا فى مدرسة أهلية اشترط الناظر أن أؤدى امتحانا ، ومضى جدى بى إلى المدرسة قبيل افتتاح العام

الدراسى ، وانتظر نتيجة الامتحان . ولم تكن بحاجة إلى الانتظار ، ورجا الناظر أن يقبلنى بصرف النظر عن نتيجة الامتحان ، وأراد الرجل أن يجامل جدى لكبر سنه ومقامه فطلب إلى أن أكتب اسمى « كامل رؤبة » ولكننى أخطأت فى كتابة رؤبة فاعتذر الناظر من عدم إمكان قبولى . وعاد بى جدى وهو يسخر منى طوال الطريق ، وقال لأمى وهو ينفخ :

— لا فائدة ترجى من إعادته إلى المدرسة الأولية ، فسأحضر له مدرسا خصوصيا هذا العام .

وأنصت إليه وأنا لا أصدق أذنى ، سألته وأنا أدارى فرحى :

— هل أبقى هذا العام فى البيت ؟

فحدجنى بنظرة غاضبة من عينيه الخضراوين وقال بغيظ :

— يا فرحة أمك بك !.

٧

واستقبلت عاما مثمرا لأول مرة فى حياتى ، وجلست آمنا مطمئنا بين يدى مدرسى الشيخ ، أتلقن مبادئ العربى والحساب . بدأت أخطو الخطوات الأولى فى طريق التعليم ، وإن مضت ساعات الدراسة فى ثقل وضيق كالعادة ، ولكى أضمن معاملة حسنة من المدرس أجلست أمى غير بعيد من باب حجرة المدرس للاستنجاد بها عند الحاجة ؟، ولا عجب فإن ذكرى العامين اللذين قضيتهما فى مدرسة الروضة — ما بين ضرب المدرسين واعتداء التلاميذ — لم تمح من نفسى قط . ولم أكن أتصور حتى ذلك الوقت أن التعليم واجب ضرورى سأؤديه شطرا طويلا من العمر ، ولكنى عددته عقابا فرض على لسبب لا أدريه ، ولم أيأس من أن يلين قلب جدى يوما فيعفينى منه .

على أن أمى لم تكن أسعد حالا منى . كانت تعانى عذابا من نوع أشد . وقد

ازدادت كآبة فى تلك الأيام ، فلم تكن تخلو إلى نفسها حتى تبكى مر البكاء . ولم تكن تجلس إلى جدى حتى تفاتحه بالأمر الذى يقض مضجعها ، أجل لم يعد يفصل بينى وبين التاسعة إلا أشهر قلائل ، فإذا بلغتها حق لأبى أن يضمنى إليه ، وهو لا بد فاعل كما فعل بأختى وأخى من قبل . وقد تهددنا ذاك الخطر حين بلغت السابعة ، ولكن جدى كتب إلى عمى — وهو من كبار المزارعين فى الفيوم — راجيا أن يستشفع لى عند أبى ليتركنى فى كفالة جدى حتى أبلغ التاسعة ، وقبلت الشفاعة بمعجزة من السماء . وها قد اقتربت التاسعة ، ولسوف أنتزع من أحضان أمى ما لم يتنازل أبى عن حقه فى استردادى . وبكت أمى يوما فى محضر جدى وقالت له :

— لقد فقدت راضية ومدحت فلم تقع عليهما عيناى منذ تسع سنوات ، ولم يبق لى إلا كامل ، فهو عزائى الوحيد فى هذه الحياة ، ولا أدرى ماذا أفعل إذا سلبنى الرجل إياه .

وهز جدى رأسه الأشيب متبرما ، وكان ذاك الحديث يكربه ، وقال لها :

— وماذا بيدى أن أفعل ؟!. هذا حكم الشرع وما لنا من حيلة فيه ، والرجل الذى تعنينه هو أبوه على أى حال ، وليس برجل غريب !.

فهتفت أمى فى تألم واحتجاج :

— أبوه !!.. أتدعو هذا الوحش أبا ؟!، يا أسفى على راضية ومدحت فى البيت الذى جعل السكير منه حانة . إن الأبوة لم تختلج بصدره قط . وكامل قد ترعرع فى رعايتى ونهل من حنانى ، ولم يدر شيئا عن شواذ المخلوقات ، فإذا أخذه الرجل هلك بين يديه ، وهلكت هنا وحدى ..

وخنقها البكاء فأمسكت عن الكلام مرغمة ، ولما استردت أنفاسها استطردت تقول :

— هل تتصور يا أبى أن كامل يستطيع أن يعيش بعيدا عن أمه ؟إن يدى هاتين تطعمانه وتلبسانه وتنيمانه ، إنه يخاف خياله ، وإنه لتفزعه زفرات الصراصير ،

فكيف يأذن الشرع بأن ينتزع مثل هذا الطفل من أحضان أمه ؟!.

وقطب جدى متبرما ، وبدا وكأنه ضاق بشكواها ، بيد أن وجهه لم يكن مرآة صادقة لقلبه ، وكثيرا ما كان يبدو ساخطا والقلب منه ندى بالرحمة ، ولم يزد وقتذاك على أن قال : كفاك شكوى وبكاء . إن قسم له أن يمكث بيننا مكث ، وإن أراد الله أن يذهب إلى أبيه فلا راد لقضائه ..

ذاك كان قوله ، أما صنيعه فكان شيئا آخر . فقد حزم أمره يوما ومضى إلى أبى ليفاوضه فى شأن استبقائى فى كفالته . والحق أن جدى كان يحبنى حبا بالغا . أحبنى لأنى كنت أنيس شيخوخته ، والطفولة تحرك فى الشيخوخة أعماق الصدور ، وأحبنى لحبه أمى التى لبثت إلى جانبه بعد وفاة جدتى ترعاه بحنانها وعطفها وحبها . ذهب الشيخ إلى أبى وانتظرنا وأيدينا على قلوبنا . ومر وقت الانتظار على أمى فى عذاب لا يمكن أن أنساه مهما امتد بى العمر . لم يكن ليقر لها قرار أو يسكن لها جانب ، وجعلت تخاطبنى حينا وتخاطب نفسها أحيانا . ودعتنى مرات إلى مشاركتها فى الابتهال إلى الله أن يكلل مسعى جدى بالنجاح . ومضيت أرقبها بعينين محزونتين حتى انتقلت عدوى قلقها إلى صدرى فاستعبرت باكيا . انتظرنا طويلا — أو هكذا خيل إلينا — يشملنا حزن وقلق ، تسبح أعيننا دمعا ، وتلهج ألسنتنا بالدعاء ، حتى سمعنا جرس حنطور فهرعنا إلى الشرفة ، فرأينا جدى وهو يقطع فناء البيت بخطاه الثقال .. وعدنا إلى الباب ففتحناه ، ودخل جدى صامتا وهو يحدجنا بنظرة لم ندرك لها معنى .

ومضى إلى حجرته فتبعناه وقد خانت أمى الشجاعة أن تسأله عما وراءه ، وراحت تهمس بصوت متهدج « يا ربى .. يا ربى ! » وخلع طربوشه بأناة وهو يتحامى عينى أمى ، ثم جلس على مقعد كبير قريب من فراشه ، ثم ألقى علينا نظرة طويلة وقال بصوته الأجش وكأنما يخاطب نفسه :

— رجل مجرم !.. ماذا كنت تنتظرين من رجل مجرم ؟

وابيض وجه أمى وارتعشت شفتاها ، ولاح فى عينيها القنوط ، وجعلت

أردد بصرى بين جدى وأمى فى قلق وخوف . وتركنا جدى لشقائنا هنيهة ، ثم رثى لنا فرفع عن وجهه نقاب التجهم ، وقهقه ضاحكا ، وقال بصوت ينم عن الظفر :

— لا تقتلى نفسك كمدا يا أم راضية . فقد أذعن الشيطان بغير تعب طويل .

بهتنا بادئ الأمر ، ثم تهللت وجوهنا بشرا ، وتلألأ نور الفرح فى عينى أمى ، ثم جثت على ركبتيها أمام جدى وأشبعت يده تقبيلا وهى تقول بلهفة :

— حقا ؟.. حقا ؟.. هل رحم الله قلبى الكسير ؟.

وأخذ جدى يفتل شاربه فى ارتياح بينما عادت أمى تسأله بنفس اللهفة :

— أرأيت راضية ومدحت ؟.

فهز رأسه آسفا وقال :

— كانا فى المدرسة !.

فدعت لهما دعاء حارا وعيناها تغرورقان . ولم يكن جدى يزورهما لكراهيته لأبى ، ولأنه لم يكن ينتظر استقبالا كريما فى بيته . ثم قص جدى كيف قابل أبى فى الفراندا وبين يديه زجاجة خمر وكأس مترعة . وكيف تلقاه بدهشة واستغراب ، وكيف أنه لم يعد له من عمل فى الحياة إلا الشراب ، ولعل اضمحلاله ذاك الذى جعله ينقاد لاقتراحه متنازلا عن عناده القديم .

وقد بدا أول الأمر وكأنه يرتاب فيما يلقى على سمعه ، فلما أن تبينه ضحك فى سخرية وازدراء من غير ما معاندة أو غضب وقال ببساطة :

— لا دماغ لى للتربية ، ولأكون مرضعة من جديد . خله عندك إذا شئت ولكن لا تطالبنى بمليم واحد ، هذا شرط صريح ، وإذا طولبت بمليم واحد فيما يستقبل من الأيام انتزعته منكم فلا تقع عليه أعينكم ما حييت .

وقبل جدى الشرط ، وكان يحدسه مقدما من قبل أن يذهب إليه ، ولكنه عجب كيف أن الرجل لم يبد عن أية رغبة فى رؤية ابنه : ولا سأل عنه على

الإطلاق . ثم قال جدى :

ـــ لم يعد رؤبة لاظ إنسانا ، لقد انتهى الرجل .

فغمغمت أمي فى حزن وكآبة :

ـــ واحزناه على راضية ومدحت !.

فقال جدى يطمئنها :

ـــ إن راضية فى السابعة عشرة ومدحت فى السادسة عشرة ، ولم يعودا طفلين ..

* * *

وثبنا إلى طمأنينتنا المعهودة ، فنجونا من ذاك الخوف الذى اعترض سبيلنا مهددا ، وواصلت الدراسة فى البيت أعالجها بصعوبة وضيق . واستدار العام ، وحل الخريف وكثر الحديث عن الدراسة والمدرسة ، وأيقنت أنى معاد قريبا إلى السجن . وقلت يوما لأمى :

ـــ إذا كنت تحبيننى ولا توافقين على أن يأخذنى أبى فلماذا ترضين بأن تفرق المدرسة بيننا ؟.

فضحكت ضحكتها الرقيعة وقالت :

ـــ يا للعار !. كيف تقول هذا وأنت الرجل الكامل ؟! ألا ترغب أن تكون يوما ضابطا كبيرا مثل جدك ؟ وماذا يبقى إذا هجرت المدرسة إلا أن تشتغل بائع فول أو كمسارى ترام !

ومضى بى جدى إلى مدرسة العقادين بمصر القديمة : ونجحت فى الامتحان هذه المرة . وهل العام الدراسى ، وانتظمت فى المدرسة كارها مرغما . وكان الحنطور يوصلنى صباحا إلى المدرسة ، ويعود بى مساء إلى البيت ، وفى نظير ذلك منع جدى أمى من توصيلى بنفسها كما كانت تفعل على عهد المدرسة الأولية . عدت مرة أخرى إلى المدرسة ، وعانيت من جديد الدروس والنظام وقسوة المدرسين وسخرية التلاميذ . كانت حياتى المدرسية شقاء كلها . وأكد

ذلك الشقاء أنني كنت ملكا مستبدا فى بيتى وعبدا ذليلا فى مدرستى . وطالما تحيرت بين الحب الذى يغمرنى فى البيت وبين عصا المعلم وسخرية التلاميذ .

وقد اكتسبت عداوة المدرسين ببلادتى وخمود ذهنى حتى أطلق على بعضهم « الغبى الممتاز » وكان مدرس الرياضة إذا انتهى من شرح درس سألنى عنه وما يزال بى حتى أجيب إجابة ترضيه فيتنفس الصعداء ويلتفت نحو التلاميذ قائلا « لا بد أنكم فهمتم ما دام سى كامل قد فهم » ويضج الفصل بالضحك !

أما التلاميذ فكان دأبهم السخرية منى ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وكان عجزى عن إنشاء علاقة صداقة حقيقة مرة لا شك فيها فلم أظفر فى حياتى بصديق . والحق أنى لست أسوأ من كثيرين ممن يتمتعون بصداقات سعيدة ، ولكنى شديد النفور بطبعى ، شديد الخجل ، محب للوحدة والعزلة ، عديم الثقة فى الغرباء ، وزاد طبعى تعاسة ما جبلت عليه من صمت وعى وحصر ، فلم أحسن الكلام قط ، فضلا عن الدعابة والمزاح ، لذلك جميعه رمونى بثقل الدم ، وقد آلمتنى هذه الصفة ، حتى سألت أمى يوما :

— هل أنا ثقيل الدم يا أماه ؟

فرمقتنى بنظرة ارتياع وقالت بحدة :

— من قال عنك ذلك ؟.

فقلت فى حياء :

— التلاميذ كلهم ؟.

فصاحت بغضب :

— قطعا لألسنتهم . إنهم ينفسون عليك أدبك الكامل ، والحنطور الذى يحملك بينما يتسكعون على أقدامهم ، إياكِ وأن تتخذ منهم صديقا ..

ومتى كنت فى حاجة إلى مثل تلك النصيحة ؟! وهكذا كابدت الحياة فى المدرسة فى وحدة ، يطالعنى روح عداوة وبغضاء من الجو المحيط بى . ولعلها كانت لا تخلو من غبطة لو أننى أسهمت فى مسراتها ، ولكن خجلى الشديد

أجبرنى على مقاطعة الألعاب بأنواعها كالكشافة والكرة والقسم المخصوص ، حتى الرحلات المدرسية لم توافق أمي على الاشتراك فيها أن يصيبنى مكروه ، وكان التلاميذ يتحدثون عن الأهرام وأبى الهول ودار العاديات والفسطاط فأسترق السمع فى حيرة وحزن وكأنى أستمع إلى سائحين يقصون عن بلاد نائية !. ولشد ما ينتابنى من خجل إذ أقرر أن عينى لم تقعا من القاهرة ـ المدينة الوحيدة التى عشت بين أسوارها ـ إلا على شوارع معدودات هى كل حظى من مشاهدات فى هذه الدنيا الواسعة . ولم يكن لى من عزاء فى تلك الأيام إلا أن أنفرد بأمي فى الشرفة أو فى حجرتها ، ثم نأخذ بأطراف الحديث ، كأن ليس لحديثنا من نهاية . وكانت عصا المدرس تذكرنى بأن على واجبا ينبغى أن أؤديه قبل النوم ، فأقبل على الكتاب مستكرها ، وأذاكر بلا روح ولا حماس وسرعان ما يترنح رأسى ويرنق النوم بجفنى .

* * *

ويوما قرئت علينا ـ فى حصة الديانة ـ هذه الآية الكريمة « فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه إلخ .. » فلا أذكر أنى انزعجت لشيء انزعاجى لها ، لم أطق أن أتصور أن أفر من أمي فى يوم مهما كانت فظاعته ، وأن أغادرها فى أهواله بقامتها النحيلة الرقيقة وعينيها الخضراوين الحنونين ، فقاطعت الشيخ على غير وعى منى هاتفا :

ـ كلا .. كلا ..

وأحدثت مقاطعتى دهشة فى الفصل لأنى لم أكن أنبس بكلمة ، ولم يدرك أحد ما أردت ، ولم يلبثوا أن ضجوا ضاحكين ، وغضب الشيخ ، وحملنى مسئولية الإخلال بالنظام ، فأقبل نحوى متغيظا ولطمنى على وجهى بعنف وحنق . ورحبت باللطمة كعذر ظاهر للبكاء إذ كنت أقاوم دموعى جاهدا ودون جدوى .

لقد زلزلتنى هذه الآية الكريمة ، وكانت أول نذير لى عن مأساة الحياة ..

٨

حياة رتيبة ، كابدتها على استكراه ، بيد أنها لم تخل من هزات عنيفة . فذات مساء عاد جدى مبكرا على غير عادته . وقلقت أمى لأنه لم يكن يرجع إلى البيت قبل الفجر . واقتحم علينا الحجرة متجهما ، فنهضت أمى مستطلعة . ورفعت رأسى عن الكتاب ، وقبل أن تسأله عما به قال بحدة وهو يضرب طرف حذائه بعصاه :

ــ زينب ، كارثة نزلت بالأسرة .. فضيحة ستجعلنا مضغة الأفواه !

فنطقت عينا أمى بالفزع ، وهتفت بصوت متهدج :

ــ رحماك يا ربى !.. ماذا حدث يا أبى ؟

فقست نظرة عينيه الخضراوين ، وقال بصوت أجش غليظ :

ــ ابنتك .. راضية .. هربت !.

وشحب وجه أمى ، وخلجت عيناها ، وجعلت ترنو إلى جدى بنظرة مستنكرة لا تجد سبيلا إلى تصديق ما صك أذنيها ، ثم غمغمت بصوت كالأنين :

ــ هربت !.. راضية !.. هذا محال !.

فضرب جدى الأرض بقدمه حتى ارتجت أركان الحجرة وصاح بغضب :

ــ محال ؟!. بل هى الحقيقة الواقعة ، هى الفضيحة العارية ، هى الضربة القاصمة لكرامتنا ..

ولم تحر أمى جوابا كأنما فقدت النطق . وتنفس جدى بشىء من الجهد ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ــ أى جنون سلبها الرشاد !.. ليس هذا الدم الفاسد بدمنا !. هذا دم شيطانى يفضح سوء فعله الأصل القذر الذى استمد منه . لقد مات جدها وهو يصب لعناته على رأس أبيها فحلت اللعنة بذريته .

وازدردت أمى ريقها وتمتمت فى ارتياع :

ـ أفظع بها من كارثة !. كيف ضلت الفتاة ؟!. لقد أفسد السكير العربيد عليها حياتها : ما أتعسها !.

فقال جدى باستياء وحنق :

ـ لا تنتحلى لها الأعذار. لا شىء فى الوجود يسوغ هذا الفعل الشائن ..

فغمغمت أمى بصوت باك :

ـ لست أنتحل لها الأعذار ، ولكنها تعيسة ما فى ذلك من شك ..

وساد صمت محزن ، ولبثا يتبادلان نظرات الغم والكدر والقنوط ، وقد أصغيت إلى ما دار بينهما بانتباه شديد ، فأدركت أهونه ، وغابت عنى خطورته الحقة ، كان الأمر يتعلق بأخت لم تقع عليها عيناى . لماذا هربت ؟ وأين اختفت ؟ وتساءلت :

ـ لماذا لم تحضر إلينا ؟.

فصاح بى جدى حانقا :

ـ اخرس !.

وارتمى على مقعد ، واستطرد يقول :

ـ جاءنى عمها فى النادى : وأبلغنى الخبر . قال إنه لا يعلم شيئا عن حقيقة الحال . وقد أبرق له مدحت للحضور فورا ، فجاء بلا إبطاء ، ثم أخبره الشاب باختفاء شقيقته . أما المجرم السكير فلم يزد على أن قال « فى داهية » . ثم ذهبنا معا إلى بعض أصدقاء العم من رجال المحافظة وأفضينا إليهم بالخبر الشائن سائلين معونتهم .

وتريث جدى دقيقة ثم استطرد :

ـ ويل للسكير المجرم !.. إنه المسئول الأول عن هذه المأساة ، لأذهبن إليه وأحطمن رأسه !.

ولاح الانزعاج فى عينى أمى فقالت بجزع :

ــــ كلا .. كلا .. هذا يزيد من حالنا سوءا .

فقال جدى بإصرار :

ــــ ينبغى أن يجزى عن شره شرا .

فقالت أمى بتوسل :

ــــ لا شأن لنا به .. فلنركز اهتمامنا فى العثور على الفتاة علنا نقيم ما اعوج من أمرها ..

فحدجها بارتياب وتساءل :

ــــ لماذا تلحفين فى الحيلولة بينى وبين الذهاب إليه ؟.

فلاح فى وجهها الارتباك وتمتمت :

ــــ أخاف أن يزداد الأمر سوءا .

فقال جدى بحنق :

ــــ بل تخافين أن يؤدى الشجار إلى أن يسترد كامل . إنك لا تقيمين وزنا لشىء ، ولا تكترثين لغير نفسك ، ألا لعنة الله عليكم أجمعين .

ولبس البيت رداء الحزن فكأنه فى حداد ، واهتصرتنا أيام سود فنكد العيش ، وكدت أختنق فى ذلك الجو القاتم . وقد غير جدى نظام حياته ، وتخلف عن سهراته المعتادة فى النادى وكان يغيب خارج البيت طوال النهار دون أن ندرى عن مكانه شيئا ، على حين تقضى أمى النهار ساهمة أو باكية . وجاءنا جدى ذات مساء ، فلما أن وقع بصره على أمى بادرها قائلا :

ــــ عثرنا على ضالتنا أخيرا ..

فجرت أمى نحوه وهى تصيح :

ــــ حقا !.. اللهم ارحمنا ..

فقال جدى بصوت تنم نبراته عن الارتياح والسرور :

ــــ أرسلت الفتاة المجنونة إلى مدحت كتابا تنبئه بأنها تعيش فى بيت زوجها بينها ، وتسأله المغفرة عن سلوكها الذى اضطرت إليه اضطرارا ..

وتنهدت أمى من الأعماق وقالت وعيناها تدمعان :

ـــ ألم أقل لك !!.. إن راضية فتاة طاهرة ولكنها تعيسة الحظ ، رباه .. أين هى الآن ؟ خبرنى بكل ما تعلم .

فقال جدى بهدوء :

ـــ سافرنا إلى بنها ، أنا وعمها ومدحت ، فوجدناها فى أسرة طيبة محترمة ، وتعرفنا إلى زوجها وهو شاب موظف بالحقانية يدعى صابر أمين . فأخبرنا أنه استأجر شقة بشارع هدايت بشبرا وأنه سينقل إليها هذا الأسبوع . وقالت راضية : إن زوجها تقدم لخطبتها ولكن أباها رفضه بغلظة ، وأنه رفض قبله شابا آخر تقدم لخطبتها كذلك .. ولعلها الخمر التى لم تبق على ذرة من إنسانيته فأنسى واجباته وبدد مرتباته ، واستبد بها اليأس فهربت مع الشاب . وسافرا إلى أسرته حيث كان المأذون فى انتظارهما .

وأصغت أمى إليه وهى تبكى بكاء حارا ، بعثه الحزن والارتياح معا ، ثم قالت :

ـــ سأسافر إليها غدا ..

فقال جدى بتأكيد :

ـــ ستجدينها فى بيتها غدا أو بعد غد ..

وعادت تتساءل :

ـــ لماذا لم تأتى إلى أنا .؟

فقال جدى كمن يعتذر عن الفتاة :

ـــ لعلها خجلت أن تأتى بخطيبها إلينا وهى هاربة من وجه أبيها ، وعلى أية حال لنحمد الله على هذه النهاية التى لم نكن نحلم بها ..

٩

ركبنا الحنطور جميعا لأول مرة ، فجلس جدى وأمى فى الصدارة ، وجلست على المقعد الخلفى . كانت أمى من الفرح فى نهاية ، وقد بدت بعد ما عانت فى الأيام الأخيرة من هم وحزن وكأنها استردت شبابها الأول . كانت عيناها تتألقان بنور السرور البهيج ، وكان لسانها يسبح بالحمد والشكر . وانتقل سرورها إلى صدرى ففرحت برحلتنا السعيدة . وجعلت أفكر فى شقيقتى التى سأراها لأول مرة بعد دقائق بدهشة وسرور ، وقلق لم أدر له سببا ، ترى ما شكلها ؟ وكيف تلقانا ؟ وهل تحبنا ؟. وقطعت أمى على حبل أفكارى فسألت جدى بلهفة :

ــ هل أجد مدحت هناك ؟

فقال جدى وقد اعتمد مقبض عصاه بيديه :

ــ الراجح أن يكون هناك .. لقد تواعدنا على ذلك .. ولاحت فى عينيها نظرة حنان ورجاء . وسارت العربة ميممة شبرا . ورحت أتسلى بمشاهدة المارة والعربات والترام ، حتى بلغ الحنطور مقصده ، وانعطف إلى شارع هدايت ، ثم وقف أمام بيت متوسط الحجم ، مكون من ثلاثة أدوار . وغادرنا العربة وصعدنا إلى الدور الثانى وأمى تقول بصوت كالهمس : « ما أشد خفقان قلبى » ، ودق جدى الجرس ، وفتح الباب ، ودخلنا . رأيت فتاة وشابين ، وقبل أن أعاينهما هرع اثنان منهما إلى أمى ، فلم أر إلا عناقا حارا : ولم أسمع إلا تنهدات الدموع . رمقت الثلاثة بحيرة وخجل وصمت . وطال العناق ، وطال البكاء ، حتى تدخل جدى بينهم ضاحكا وهو يقول :

ــ إليك زوج ابنتك صابر أفندى أمين .

وتقدم الشاب من أمى فقبل يدها ، وقبلت جبينه ، ولم ألبث أن رأيت نفسى

محط أنظار الجميع . وقالت أمى وهى تبتسم خلال دموعها :

ـــ أخوكما كامل ..

وهرعت نحوى شقيقتى ، وضمتنى إلى صدرها ، وقبلتنى بحرارة ، وأنا مستسلم بين يديها لا آتى حراكا ، ولا أنطق بكلمة ، وصاحت بفرح :

ـــ رباه ، إنه شاب يافع !.. إنه نسخة منك يا أماه !

ثم ضمنى شقيقى إلى صدره وقبلنى وهو يقول بسرور :

ـــ يا له من شاب خجول !.

ولم أكن حتى تلك اللحظة قد أنعمت النظر إلى وجه من وجوههم ، وظللت غاضا بصرى ، والخجل يحرق جبينى وخدى . ثم مضوا بنا إلى حجرة الجلوس . فجلست أمى بين راضية ومدحت ، وجلس جدى لصق زوج أختى ، وأقعدتنى شقيقتى إلى جانبها ، وقالت أمى وهى تجفف دمعها :

ـــ يا رحمتاه !. وجدتكما شابين بعد أن انتزعتما منى طفلين ، الحمد لله والشكر لله ..

فقال زوج أختى بتأثر :

ـــ يا لها من حياة هى بالمأساة أشبه ! وإنى لأشكر الله على أن جعلنى الفرصة التى هيأت لكم هذا اللقاء !.

وسالت الأشواق القديمة حديثا فياضا لا ينضب معينه ، وانثالت عليهم الذكريات والخواطر ، وشكا كل بثه وهمه ، وامتزجت الدموع بالبسمات . وكانت تلوح فى عينى أمى بين الحين والحين نظرة دهشة كأنها لا تصدق أن الله قد جمع شمل الأسرة بعد تفرق ونوى . ولما شغلوا بأنفسهم عنى أخذت أفيق من الخجل ، وأسترد أنفاسى ، وشعرت بأنى ـــ لدرجة كبيرة ـــ وحدى ، فداخلنى ارتياح ، ولكن سرعان ما انتابنى قلق وضيق ، وجعلت أسترق النظر إلى راضية ومدحت . بهرنى جمال أختى ، رأيتها أقصر من أمى قليلا ولكنها ممتلئة بضة ، ميالة للبياض ، أما وجهها فصورة من وجه أمى ، وصورة من وجهى

أيضا ، بعينيه الخضراوين الصافيتين وأنفه الدقيق المستقيم . أما مدحت فأنموذج من نوع آخر ، بدين فى غير إفراط ، مستدير الوجه والرأس ، أبيض الوجه مشرب بحمرة ، أسود العينين ، ينم مظهره عن الفحولة والقوة وإن لم يجاوز الثامنة عشرة . وكان يقهقه ضاحكا لأتفه الأسباب ، ويبدو فرحا صحيحا معافى : استرقت إليهما النظر باستطلاع واهتمام ، وسرعان ما جذبنى إليهما شعور بالحب والعطف ، واستنمت إلى روحهما المرحة الباسمة . بيد أننى لم أنعم بشعور الوحدة طويلا ، فربما اتجهت صوبى الأنظار وبذلت المحاولات لحملى على الكلام ، واستدراجى لمشاركتهم سرورهم ، ولكننى لم أنبس بكلمة قانعا برد الابتسام بالابتسام . ولئن كان كل شيء مما يكتنفنى يدعو للغبطة إلا أننى لم أخل من مشاعر قلق غامض رغبنى أكثر من مرة فى الرحيل ، وقالت لى راضية باسمة :

— كان مولدك عسيرا ، والله يعلم كم تألمت أمنا ، ولبثنا أنا ومدحت فى الحجرة المجاورة نبكى ، ثم أدخلنا فى النهاية ورأيناك فى اللفة شيئا كقبضة اليد فانهلنا عليك بالقبل .

وقهقه مدحت وقال :

— وأردت أن أطعمك قطعة من الشيكولاتة فحملونى إلى الخارج .

وقالت راضية برقة :

— وكنا نتخيلك فى وحدتنا ببيت أبينا فنقول لعله يحبو الآن ، أو أنه يمشى ويلعب ، أو هذا أوان المدرسة . وعلى فكرة أى سنة بلغت من دراستك ؟.

وشعرت بحرارة احمرار خدى ، وانعقد لسانى ، فأجاب عنى جدى قائلا بلهجة لا تخلو من تهكم :

— إنه يعيد السنة الأولى الابتدائية وهو فى العاشرة من عمره .

فقال مدحت ضاحكا :

— الحال من بعضه ، فقد التحقت بالزراعة المتوسطة بعد سقوط عامين بالثانوى !.

وقالت أمى :

ـــ إن جدك يريد أن يجعل منه ضابطا ..

فهز مدحت رأسه وقال :

ـــ عليه إذن أن يحصل على البكالوريا .

وكان جدى من الذين ألحقوا بالمدرسة الحربية بالابتدائية فقال بازدراء :

ـــ إن بكالوريا اليوم لا تعدل ابتدائية الأمس ..

ثم دار الحديث عن الحياة فى بيت أبى ، حتى قالت راضية :

ـــ كنا فى الحقيقة نعيش بمفردنا ، ولم نكن نرى أبانا إلا مرة فى الصباح الباكر ، ثم نمضى وقتنا معا ، نذاكر أو نلعب أو نتحدث ، وقد حمدنا الله على تلك الوحدة .

وتنبهت أمى إلى الشطر الأخير من الكلام . وتنهدت فى إشفاق ، فقال جدى :

ـــ إن كان أبوكما أعفاكما من عشرته ومخالطته حقا ، فقد فعل خيرا يستحق عليه الشكر والدعاء !

وانقضى النهار كله فى جو عابق بالحب والأشواق ، وعدنا إلى المنيل مجبورى الخاطر . واتصلت الأسباب بعد ذلك بيننا وبين شقيقتى ، وكان مدحت يزورنا كلما سنحت له فرصة .

واستقبلت عاما مثيرا توزعتنى فيه الحيرة وحب الاستطلاع والتجربة القاسية . صدمنى فى مطلعه هروب أختى وما علمت بعد ذلك من زواجها ، فحبلها ، ثم إنجابها طفلة . وتساءلت نفسى كما ساءلت أمى عن معنى هذا كله ، لماذا هربت من أبى إلى رجل غريب ؟. لماذا لم تأت إلينا ؟ ولماذا تزوجته ؟. وكيف حبلت ؟. وكيف خرجت زينب الصغيرة إلى نور الدنيا ؟.. وارتبكت أمى حيال إلحاحى وتطفلى ، وجعلت تصطنع لى الأجوبة الكاذبة حينا وتتأنانى حتى أكبر حينا آخر ، فإذا لججت تكلفت لى حزما غير معهود ولا مألوف .

فلم أظفر منها بشيء ينقع الغلة ، وفى الوقت نفسه شعرت بأن ثمة سرا يراد إخفاؤه عني . ثم جاءنى العون من حيث لا أدرى ، فتطوعت الخادمة لإماطة اللثام عما حير خيالى وألهبه . كانت تكبرنى بأعوام ، وكانت دميمة قبيحة ، ولكنها كانت تكرس فراغها لخدمتى وكانت تخلو بى فى أويقات نادرة إذا شغلت أمي بعمل أو حاجة . ويبدا أنها استرقت السمع يوما إلى ما يدور بيني وبين أمي عن الألغاز التى استثارتنى من سباتى ، فصارحتنى مرة بأنها تعلم أمورا خليقة بأن تعرف ، وانجذبت إليها على قبحها فى اهتمام وسرور ، وواجهت التجربة بلذة وسذاجة . على أن العهد بها لم يطل ، فما أسرع أن ضبطتنا أمي متلبسين . ورأيت فى عينى أمي نظرة باردة قاسية فأدركت أنى أخطأت خطأ فاحشا . وقبضت على شعر الفتاة ومضت بها فلم تقع عليها عيناى بعد ذلك . وانتظرت على خوف وخجل . ثم عادت متجهمة قاسية ، ورمت صنيعى بالمذمة والعار ، وحدثتنى عما يستوجبه من عقاب فى الدنيا وعذاب فى الآخرة . ووقع كلامها منى موقع السياط حتى أجهشت باكيا ، ولبثت أياما أتحامى أن تلتقى عينانا خزيا وخجلا .

١٠

حدثت معجزة — على حد تعبير جدى — فنجحت فى الامتحان . ونقلت إلى السنة الثانية ، وإن كنت قضيت عامين فى السنة الأولى . ولما اطلع جدى على الشهادة قال لى مداعبا :

— لو كنت ما أزال فى خدمة الجيش لجئتك بفرقة الطوبجية ، وأمرتهم بإطلاق أربعة وعشرين مدفعا احتفالا بنجاحك .

على أن جدى إذا كان لم يمكنه أن يطلق لنجاحى أربعة وعشرين مدفعا ، فقد قذف حياتى بقنبلة — عن قصد حسن — كادت تودى بى . حدث أن زاره يوما

ضابط متقاعد فى الخمسين من عمره ممن عملوا تحت قيادته فى السودان . وعقب انصرافه مباشرة جاءنا جدى فى الشرفة وراح يتفرس فى وجهينا فى صمت وإن نم وجهه عن ارتياح وسرور . ثم قال مخاطبا أمى بلهجة مليئة بالمرح :

— اتبعينى بمفردك يا زوزو هانم !.

وانفجرت ضاحكا لذاك التدليل اللطيف . على حين تبعته إلى حجرة نومه ومنيت نفسى ببشرى جميلة .. وغابت أمى مقدار ساعة ثم عادت إلى ، وما أن وقعت عليها عيناى حتى بادرتها قائلا :

— أهلا وسهلا يا زوزو هانم ...

وقهقهت ضاحكا ، ولكنها ابتسمت ابتسامة باهتة على غير ما انتظرت ، وجلست على كرسيها يلوح فى عينيها السهوم والتفكير ، وساورنى القلق ، فملت نحوها وسألتها عما ألم بها ؟ فقالت لى باقتضاب :

— أمور تافهة لا تهمك .

ولكن تهربها ضاعف من رغبتى فى معرفة ما وراءها ، فألححت عليها أن تفضى إلى بمكنون صدرها ، فنفخت فى تبرم ، ورجتنى أن أمسك . وجلسنا صامتين طويلا ، ثم تجاذبنا أحاديثنا المعتادة فى فتور . ودعينا إلى العشاء فأكلت لقمات معدودات ، ولما تهيأنا للنوم وقفت أمام المرآة طويلا ، ثم استلقيت إلى جانبى . ووضعت راحتها على رأسى وقرأت سورا قصارا من القرآن كالعادة ، حتى رنق النوم بجفنى . واستيقظت فى الهزيع الأخير من الليل ، فخيل إلى أنى أسمع حسا كالهمس ، فأرهفت أذنى فأيقنت أنها تغمغم ، وظننتها تحلم ، فناديتها حتى استيقظت . ولبثنا مستيقظين حتى أسفر الصبح .

وفى اليوم التالى زار جدى ذلك الضابط المتقاعد ، وحدث ما حدث بالأمس فدعا جدى أمى إلى حجرته ، ولبثا منفردين زهاء الساعة ، ثم جاءا معا إلى الشرفة وهى تتعلق بذراعه وتهتف بانفعال وتأثر شديدين !

ـــ كلا .. كلا .. هذا محال ، ولا أحب أن يعلم شيئا . ولكنه لم يأبه فيما بدا وقال لى بحزم :

ـــ إنى منتظرك فى حجرتى .

وجعلت أمى تتوسل إليه وتضرع ، ولكنه رجع إلى حجرته وأنا فى أعقابه على حين مضت أمى إلى حجرة نومنا فى حالة غضب واستياء . وجلس جدى على مقعده الكبير ، وأمرنى أن أقترب منه ، فاقتربت فى رهبة وخوف حتى وضع يده النحيلة على منكبى ، ورمقنى بنظرة دقيقة ثم قال :

ـــ أريد يا كامل أن أحدثك بأمر هام : لا زلت صغيرا بغير شك ، ولكن يوجد فى مثل سنك من ينهض بأعمال الرجال ، وأحب أن تفهمنى جيدا ، فهل تعدنى بذلك ؟.

وأجبت بطريقة آلية :

ـــ أعدك يا جدى .

فابتسم إلى متلطفا ثم قال :

ـــ الأمر هو أن رجلا فاضلا غنيا من أصدقائى يرغب أن يتزوج من أمك ، وإنى أوافق على ذلك رغبة منى فى سعادة أمك ، فلا بد للمرأة من رجل يرعاها ، وأنا قد جاوزت الستين ، وأخاف أن أموت قبل أن تضطلع أنت بواجبك كرجل فلا تجد من تعتمد عليه فى الحياة .

وواصل كلامه باستفاضة ، ولكن عقلى كل فلم يتابعه ، ولم أعد أفقه معنى لما يقول .

شلت عبارة « يتزوج من أمك » مسامعى ، وانفجرت فى دماغى ، واتسعت عيناى دهشة ورعبا وتقززا وتساءلت : هل يعنى جدى ما يقول حقا ؟. أجل لقد روت أمى لى قصة زواجها ، ولكن كان ذاك قصة وتاريخا بعيدا ، ولم أتصوره حقيقة واقعة أبدا . وذكرت لتوى الخادمة المطرودة فغاض قلبى فى صدرى وقلت لجدى وأنا ألهث :

ــ أمي لا تتزوج . ألا تفهم ما هو الزواج ؟!.

ولم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك ، ثم قال مبتسما :

ــ الزواج سنة من سنن الله ، والله يفضل المتزوجين على غير المتزوجين ، ولقد تزوجت أنا جدتك ، كما تزوجت أمك فيما مضى ، وكما تتزوج حضرتك يوما ما . أصغ إلى يا كامل ، أريدك على أن تذهب إلى أمك وتقول لها إنك ترغب فى تزويجها مثلى ، وإن سعادتك تضاعف بسعادتها .. ينبغى أن توافق على ما يسعدها ، وحسبها ما قاست من أجلكم جميعا .

وجعلت أطرافى تنتفض انفعالا وتأثرا ، ونظرت إلى جدى كما تنظر الفريسة إلى معذبها ، ثم سألته بصوت متهدج :

ــ أيريد أن يأخذها ذلك الرجل ؟.

فابتسم وقال لى :

ــ نعم ، ولكن ليرعاها ويسعدها .

فسألته بحدة وأنا لا أدرى :

ــ وأنا ؟.

فقال برقة بالغة :

ــ إن شئت ذهبت معها ، أو بقيت عندى على الرحب والسعة ..

فعضضت على شفتى بقسوة لأحبس دمعى ، وتراجعت فجأة فأفلت من يده ، وركضت خارجا متجاهلا نداءه ، وعدوت إلى حجرة نومنا ، فوجدت أمي جالسة محمرة العينين من البكاء ، وفتحت لى ذراعيها فارتميت بينهما منتفض الأطراف من التأثر ، وبادرتنى قائلة :

ــ لا تصدقه ، أعنى لا تصدق أن شيئا مما قال لك سيقع ، لا تبك ولا تحزن .. واعذاباه .!

وحدجتها بنظرة استغراب واستنكار ، وصحت بها :

ــ ألم تقولى إن هذا عار وحرام ؟!.

فشددت على بحنان وهى تقاوم ابتسامة ، ثم قالت :

ـــ لعل جدك قال لك إنه يريد أن يزوجنى ، ولكنه لم يقل بلا ريب أننى وافقت على هذا الزواج ، والحق أنى رفضته لأول وهلة ، وبلا أدنى تردد ، وودت لو لم تعلم عن الأمر شيئا على الإطلاق ، ولما أعطانى مهلة للتفكير قلت . .

وقاطعتها بحدة قائلا :

ـــ ولكن يريد لك أمرا معيبا محرما !؟

فصمتت قليلا وهى ترنو إلى بطرف حائر . ثم استطردت متجاهلة اعتراضى :

ـــ قلت إن المهلة مضيعة للوقت ، وأبيت أن أجعل هذا الأمر موضوعا للتفكير ، وذلك من أجلك أنت ، من أجلك وحدك ، فلا تحزن ولا تغضب ، ولا تظن بأمك الظنون .

ولئن أخرجنى كلامها من ظلمات القنوط إلا أننى أصررت على ترديد اعتراضى حتى قالت لى بعد تردد :

ـــ لم أقل أبدا إن الزواج من العيوب أو المحرمات ، بل هو علاقة شريفة يباركها الله ، إنى ذممت عيوبا أخرى .

وانعقد لسانى حياء وخجلا ، وربتت هى على خدى لتسرى عنى وقالت بصوت ينم عن العتاب :

ـــ يا لك من طفل جحود ، ألا تستأهل تضحيتى فى نظرك كلمة شكر ؟.. أتراك تذكرها فيما يقبل من العمر ؟. أبدا !.. لتتزوجن يوما ولتغادرنى وحيدة بلا رفيق ولا أنيس !.

وقطبت ساخطا ، وقلت بحماس :

ـــ لن أفارقك ما حييت .

عبثت بشعرى مبتسمة ، ولاحت فى عينيها الجميلتين نظرة ساهمة ..

١١

سارت حياتى المدرسية فى بطء وتثاقل يدعوان لليأس ، فبلغت الرابعة عشرة وما جاوزت السنة الثالثة الابتدائية ، وكان جدى يقول متأففا :

ـــ متى تقبل على الدراسة بهمة ونشاط ؟ متى تعرف واجبك ؟ ألا ترى إذا اطردت دراستك على هذا المنوال فستنتهى منها وقد استوفيت سن المعاش ؟!.

ولشد ما كانت تأسى أمي لذاك التهكم المر ، وكانت تسأله دائما ألا يلقيه فى وجهى أن تنكسر نفسى فأزداد بلادة ، أو تقول له :

ـــ الذكاء من عند الله ، وحسبه ما جمله به من كريم الخلق ، لأنه كالعذراء حياء وأدبا !.

وكان أن كابدت حياتى تطورا خطيرا لا أذكر متى بدأ ولا كيف بدأ ، وأخشى أن يكون الخيال قد زور منه أمورا على الذاكرة ، دبت فى النفس والجسم يقظة غريبة ، سرت فى أطرافى قلقا واضطرابا . طافت بى فى وحدتى أحلام جديدة ، وغيبنى فى المدرسة شرود ركز شعورى كله فى نفسى . وكنت إذا انطلقت بى العربة من المدرسة إلى البيت سرحت طرفى فى آفاق السماء وبنفسى لو أحلق إلى ذراها المتلفعة بتلك الزرقة الغامضة . ولشد ما انتابتنى الكآبة وغشينى الكدر فروحت عن قلبى بالدمع الغزير . ولا أنسى الأشواق الغامضة ، والمخاوف المجهولة ، والأنات المهموسة ، والشعيرات النابتة . رباه إلى كائن يتمخض عن حياة مخوفة مجهولة ، تعبث بى شياطينها فى النهار والليل ، فى اليقظة والأحلام .

واكتشفت بنفسى ـــ تحت ضغط تلك الحياة ـــ هواية الصبا الشيطانية لم يغرنى بها أحد إذ كنت معدوم الرفاق . فاكتشفتها كما اكتشفت أول مرة فى حياة البشر . واستقبلتها بالدهشة واللذة ، ورضيت بها عن كل شىء فى الوجود ،

وجدت فيها أنسا لوحدتى الغريبة ، وعكفت عليها فى إدمان ، وراح خيالى يقطف لى من صور المخلوقات ما أزين به مائدة العشق الوهمية .

ومن عجيب أن خيالى فى عشقه لم يعد دائرة الخوادم بالمنيل اللاتى يسعين حاملات الخضر والفول . ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثم ولت ، إنها سر دفين ، أو هى داء دفين . كأنى موكل بعشق الدمامة والقذارة !!. إذا طالعت وجها ناضرا مشرقا يقطر نورا وبهاء ملكنى الإعجاب ، وبردت حيوانيتى ، وإذا صادفنى وجه دميم ذو صحة وعافية أثارنى وتملكنى ، واتخذته زادا لأحلام الوحدة وعبثها . وأفرطت إفراط جاهل بالعواقب . وخيل إلى جهلى المفرط أن أحدا سواى لا يدرى بها ، حتى سمعت يوما ـــ فى فناء المدرسة ـــ بعض التلاميذ يتقاذفون بها فى غير حياء فانزعجت انزعاجا فظيعا وتولانى خجل أليم . ومنذ تلك الساعة أمضنى الألم ، وكدر صفوى تأنيب الضمير والشعور بالذنب .. ولم يكن ذاك ليصدنى عن ممارستها ، فقضيت وحدتى فى لذة جنونية سريعة يعقبها نكد طويل .

وكانت تسطع فى أيامنا الرتيبة ساعات باسمات فتزورنا أسر من الجيران والأقارب ، سيدات وبنات فى سن الصبا ، وربما قدمت سيدة بنتها على سبيل المداعبة :

ـــ هذه عروس كامل .

فكانت أمى تلقى هذه المداعبة وأمثالها بفتور ملحوظ ، لا يخفى على مخاطبتها ، ولا على . فازددت شعورا بالحياء وبالنفور ، وبالخوف خاصة حيال المرأة . ثم لا تفتأ ـــ عقب انصراف الزائرات ـــ تنتقد مداعباتهن الفاضحة المفسدة للأخلاق !.. ومضيت فى حياتى الوحيدة الموحشة أتململ تحت ضغطها المتواصل دون أن أبدى حراكا ، أنتهب لذاتها الخفية فى جزع ويأس ، وأجنى مر الشعور بالذنب وقد شق على الخلاص ، فى عزلة غابت بى عن خضم الحياة . على أننى كنت أدرك إدراكا غامضا أنه توجد حياة واسعة فيما وراء أفقى الضيق .

كنت أسترق السمع إلى ما يتناثر من أحاديث التلاميذ عن السياسة والسينما والألعاب الرياضية والبنات ، وكأننى أصغى إلى سكان كوكب آخر . وددت لو كان لى بعض فصاحتهم ومرحهم وحبورهم ، وددت لو يرفع ذاك الحاجز الأصم الذى يحبسنى دونهم . ولكم رمقتهم بعينين محزونتين كأنى سجين ينظر من خلال القضبان إلى الطلقاء . بيد أنى لم أحاول قط أن أنطلق من سجنى ، لم يكن ليغيب عنى ما ينتظرنى فى دنيا الحرية من قسوة ومهانة ، بل أنى لم أسلم فى سجنى من أذى وسخرية وتهجم ، ذاك سجنى فلأقنع به فيه لذاتى وألمى ، وفيه أمان من الخوف . إنه سجن مفتوح الباب ولكن لا سبيل إلى تجاوز عتبته ، ولم أجد من متنفس غير الأحلام . كنت أمكث فى الفصل غائبا عما حولى وخيالى يصنع المعجزات ، يحارب ويقتل ويقهر ، يمتطى متون الجياد ويعتلى الطائرات ويقتحم الحصون ويستأثر بالحسان وينكل بالتلاميذ تنكيلا مروعا ، حتى لابست أحيانا حركات رأسى وتقلصات وجهى وانعكاسات من تلك الأخيلة ، يرتفع لها الرأس كبرياء ويقطب الوجه قسوة وتشير اليد بالنذير والوعيد !.

ولم تقف أحلامى عند حد الخلق فطارت إلى ملكوت الخالق . وكان إيمانى قديما راسخا يعمر قلبى وروحى بحب الله وخوفه معا . وقد أديت الفرائض فى سن مبكرة أخذا عن أمى ومحاكاة لها . ولما أجدت لى لذاتى الخفيفة شعورا بالذنب لم يكن لى به عهد قوى شعورى الدينى ، ولفحت إيمانى لهفة حارة إلى الله ورحمته فما ختمت صلاتى مرة حتى بسطت يدى مستغفرا . بيد أن أشواقى لم تقف عند حد ، وانقلبت طلعة لمعرفة الله ، وتمنيت من صميم فؤادى لو كان أتاح لعبيده رؤيته وشهود جلاله الذى يحيط بكل شىء ويوجد فى كل مكان . وسألت أمى يوما :

— أين يوجد الله .

فأجابتنى بدهشة :

— إنه تعالى فى كل مكان ..

فرنوت إليها بطرف حائر وتساءلت فى خوف :

— وفى هذه الحجرة ؟.

فقالت بلهجة تنم عن الاستنكار :

— طبعا .. استغفره على سؤالك هذا !.

واستغفرته من أعماق قلبى ، ونظرت فيما حولى بحيرة وخوف ، وذكرت بقلب موجع كيف أنى ألم بالإثم تحت بصره القريب لشد ما حزنى الألم ، وغصنى الندم ، ولكنى ما فتئت أغلب على أمرى .

* * *

وشق على النزاع المتواصل فانتهى بى إلى التفكير الجدى فى الانتحار . بلغت وقتذاك السابعة عشرة ، وكنت أستعد لامتحان الابتدائية للمرة الثالثة بعد أن أخفقت مرتين فى عامين متتاليين . تملكنى الفزع والقنوط وازددت فزعا وقنوطا للامتحان الشفوى ، فما كانت لى قدرة على الكلام ، ولا قلب أواجه به الممتحن . وقد سألنى الممتحن الإنجليزى فى العام السابق عن معالم القاهرة التى زرتها ؟ وكان كلما سألنى عن أثر من آثارها أو موقع من مواقعها أجبت بأننى لا أعرفه ، فظننى أتهرب من أسئلته وأسقطنى . تملكنى الخوف وأوردنى مهالك القنوط ووجدتنى لأول مرة ألقى على الحياة نظرة عامة شاملة متأثرا خط الحياة من البداية إلى النهاية ، حتى لم أعد أرى منها إلا البداية والنهاية متعاميا عما بين هذا وذاك . ميلاد وموت ، هذه هى الحياة !. وقد فات الميلاد فلم يبق إلا الموت . سأموت وينتهى كل شىء كأن لم يكن ، ففيم تحمل هذا العناء ؟!. فيم أكابد الخوف والضيق والوحشة والجهد والامتحان ؟!. وازدحمت برأسى ذكرياتى المحزنة عن الحياة التى أحياها .. امتحان لا حيلة لى فيه ثم سقوط فسخرية مريرة ، حرمان من أفراح الحياة التى يحظى بها التلاميذ . دعاؤهم لى بالأبكم ، رميهم إياى بثقل الدم حتى رآنى تلميذ مرة قادما وكان قريبا من باب مسجد المدرسة فكور كفه على أذنه كأنه يدعو للصلاة وصاح فى وجهى منشدا « يا ثقيل

الدم ! » وقهقه الآخرون ضاحكين . وأذكر أن مدرسا أراد يوما أن يختبر معلوماتنا العامة ، فلما جاء دورى ووقفت مبهوتا لا أجيب عن شيء سألنى عن اسم رئيس الوزراء ؟ ولازمت الصمت ، فصاح بى « هل أنت من بلاد الواق ؟! » . كانت مناسبات الإضراب كثيرة ، ولكننى لم أشترك فى مظاهرة على الإطلاق ، وقد أضربت المدرسة يوما وخرجت فى مظاهرة عن بكرة أبيها ، إلاى ، فقد تخلفت فى الفناء مرتبكا خائفا على كونى من أكبر التلاميذ سنا ، ورآنى على تلك الحال مدرس عرف وقتذاك بوطنيته فقال لى معنفا : « لماذا خرجت عن الإجماع ؟ أليس هذا الوطن وطنك أيضا ؟! » ووجدتنى فى حيرة شديدة بين تعنيف المدرس وبين وصايا أمى التى تحلفنى كل صباح على اتباعها . يا لها من ذكريات خليقة بأن تفقد الحياة كل قيمة . أليس فى الموت غناء عن هذا كله ؟. بلى وإنى لأتمنى الموت . وملأت تلك الأفكار على شعاب قلبى فأجمعت على أن أرمى بنفسى إلى النيل .. وعندما أتى المساء صليت طويلا ، ثم نمت ويدى قابضة على يد أمى ، وأنا أظننى فى عداد الأموات . وجعلت فى الصباح أسترق النظر إلى وجه أمى فى خوف وحزن ، وأثر فى نفسى هدوؤها وجمالها ، فغالبنى شعور بالبكاء ، وأكربنى ألا أستطيع توديعها ، وساءلت نفسى فى إشفاق كيف تتلقى الصدمة ؟. وهل تطيق الصبر عليها ؟ سأكون المسئول عن تكدير هاتين العينين الصافيتين ، وتجعيد صفحة هذا الوجه المنبسط ، وزوال هذه الطمأنينة إلى الأبد ثم خفت الخور فجأة فأمدنى اليأس بقوة جديدة ، وحفزنى إلى الهرب . وأتيت على قدح الشاى وعيناى لا تفارقان وجهها ، ثم حييتها وغادرت الحجرة منقبض الصدر مرير النفس وركبت الحنطور ، وألقيت على البيت نظرة وأنا أغمغم : « الوداع يا أماه ، الوداع يا بيتنا العزيز » . وانطلقت العربة حتى طالعنى جسر الملك الصالح فدق قلبى بعنف حتى شق على التنفس . ينبغى أن ينتهى الآن كل شيء . دقائق معدودات ثم الراحة الأبدية . ولم يكن لدى علم عن عذاب المنتحر فى الآخرة ، فلم أشك فى أنى أستهل حياة مطمئنة . واقترب الجسر

رويدا ، وراح توقيع سنابك الخيل يصك قلبى ، ولاحت منى التفاتة إلى النيل فرأيت لآلئ تنتشر على صفحته الدكناء ، وخلتنى أتخبط على أديمه والأمواج الهادئة الصامتة تتقاذفنى بغير مبالاة ، مطمئنة إلى نتيجة الصراع . وتوثبت لما عقدت العزم عليه بجنون فغاب عن خاطرى كل شيء فى الحياة فهتفت بالحوذى العجوز وهو ينعطف إلى الجسر :

ـ قف !.

فشد الرجل على الزمام وتوقفت العربة ، فغادرتها متعجلا وأنا أقول له !

ـ اسبق إلى نهاية الجسر وسألحق بك مشيا على الأقدام .

وانتظرت ريثما ابتعد عنى عدة أذرع ثم ملت إلى سور الجسر ، وأشرفت على النهر بقامتى الطويلة . وحادثت نفسى قائلا : « يقولون إننى لا أحسن شيئا فى الحياة .. ولكننى سأفعل الآن ما لا يسع أحدا الإقدام عليه ! » . وألقيت على الماء نظرة متحجرة ، وتمثل لى ما سأفعله بسرعة البرق ينبغى أن يتم كل شيء فى ثوان وإلا أفسد على تدخل المارة غرضى ، أتسور السور ثم ألقى بنفسى ، ولن يستدعى ذلك مع حزم الأمر إلا لحظات . وانقبض قلبى وأنا أنظر إلى الماء الجارى وقد بدا تحت النظرة العمودية سريعا صاخبا فدار رأسى . واحد .. اثنان .. وسرت فى بدنى قشعريرة ، ترى ما إحساس الإنسان إذا هوى من شاهق ؟.. وكيف يكون اصطدامه بالماء ؟ وكيف إذا غاص تحت لجته ؟. ومتى يخلص الإنسان من عذاب الغرق ؟!. وشددت قبضتى على حافة السور ، وتقلصت ساق ، وقلت بلسانى أن سينتهى كل شيء حالا ، ولكننى كنت فى الواقع أتراجع وأتقهقر وتخور قواى . هزمتنى الخواطر والتصورات التى اعترضت عزمى . لا ينبغى للمنتحر أن يفكر أو يتخيل ، لقد تفكرت وتخيلت فانهزمت . واشتد خفقان قلبى . وتراخت قبضتاى عن السور . ثم تحولت عنه متنهدا كالذاهل . وحملتنى ساقاى المخلخلتان إلى نهاية الجسر حيث تنتظر العربة ، فركبت ، واستلقيت على المقعد فى إعياء حتى غالبتنى رغبة فى النوم .

وطالما ساءلت نفسى عما أنقذنى من الموت ذلك الصباح ؟ فقال قلبى : إنه الخوف ،! وقال لسانى : إنه الله الغفور الرحيم .

ولا شك أنى بالغت فيما يتعلق بدوافعى نحو الانتحار ، لأنى حصلت على الابتدائية فى ختام العام !.

١٢

فقدت أسرتنا الصغيرة مظهرا من أجمل مظاهرها فاختفت من أفقها العربة والجوادان والحوذى العجوز . باع جدى العربة والجوادين واستغنى عن الحوذى . وعلمت مما تسقطته من الحديث أنه خسر ليلة فى النادى خسارة جاوزت المعهود ، فاضطر إلى اقتراض ما يساوى معاشه من النقود . ولما كان رجلا مطبوعا على النظام فقد آثر أن يبيع العربة والجوادين على أن يربك ميزانيته . لشد ما أحزننا بيع العربة ، وضياع الجوادين ، ووداع عم كريم الحوذى العجوز الذى قضى عمره فى خدمة جدى حتى فقد فيها أسنانه . ولقد بكيت الجميع بكاء مرا دون أن أنبس بكلمة . وكان جدى يعيش فى نادى القمار أكثر مما يعيش بيننا ، ولم تكن له من سلوى أو فرجة سواه وخاصة عقب تركه الخدمة . ولم يكن يحاول إخفاء سيرته بما جبل عليه من صراحة وميل للمرح ، فكثيرا ما كان يقص على أمى طرفا مما يصادفه فى سهراته ، فيقول هازا رأسه الأشيب : « بالأمس لازمنى سوء الحظ طوال الليل حتى قبيل الختام بقليل فعوضت خسارنى جميعا بضربتين موفقتين » ، أو يقول : « يا للطمع الأشعبى !. أضاع على بمقامرة واحدة فى أخريات الليل عشرين جنيها ربحتها بشق النفس » . ولكنه كان بوجه عام مقامرا عاقلا إن جاز لى أن أقول ذلك ، تستأثر به لذة المقامرة الجنونية دون أن تنسيه طاقة ميزانيته وواجباته كرب لأسرتنا ولا أشك فى أن أمر مستقبلى قد شغله كثيرا ، لا لذاتى فحسب — وإن غمرنى دائما

بحبه ورعايته — ولكن لارتباط مصير أمى بمصيرى . ثم كان من تعثر حياتى المدرسية فأخذت الابتدائية فى السابعة عشرة وقد اقترب هو من حدود السبعين ، وأخذ القلق يساوره كثيرا وهو أعلم بما جمع من ثروة لا تكاد تذكر . على أنه كان يتغلب دائما على قلقه بما طبع عليه من ميل للتفاؤل مرده فى الغالب إلى ما وهبه الله من صحة حسنة لم تزايله رغم طعونه فى السن . إلا أن خسارته الأخيرة ذكرته بقلقه ومخاوفه ودفعته إلى أن يعالجها بالحيطة والحرص ، فقال يوما لأمى بعد تردد غير قليل وكانا يتحدثان عن مستقبلى :

— أرى أنه لا يجوز أن يجهل كامل أباه هذا الجهل المطلق .

فامتقع وجهها ورمقته باستنكار وتساءلت :

— ماذا تعنى يا أبتاه ؟.

فقال جدى بغير مبالاة :

— أعنى أنه يجب أن يتعرف إليه . هذا أمر ضرورى وإلا بدا فى أعين الناس وكأن لا أب له ..

فقالت أمى بصوت متهدج :

— هذا أب الجهل به أشرف .

فلاح فى وجه جدى الضيق وقال بحزم :

— كأنك تخافين أن يسترده إذا رآه ، فيا له من وهم لا يدور إلا فى رأسك ، وإنى لعلى ثقة من أنه سر سرورا كبيرا حين هيأت له الأقدار من يربى ابنه عنه . ولكنى أرى الآن أن ينبغى أن يتعرف كامل إلى أبيه . وقد صممت على أن أذهب به إليه ، فمن يدرى أنه لا يحتاج إليه غدا ؟. هل ضمنت أن أبقى له إلى الأبد .؟ ولا تنسى أن كامل وشيك الإلتحاق بالمدارس الثانوية وربما أقنعت أباه بمعاونتى فى تعليمه !.

ولا شك أن أمى كانت تتحفز للمعارضة ، فلما سمعت الشطر الأخير من كلامه فتر تحفزها وبدا الحزن فى عينيها ، ولم تنبس بكلمة ، ولما غادرنا جدى

اغرورقت عيناها بالدموع فاقتربت منها متأثرا محزونا وجففت عينيها ، وقلت لها :

— لا شيء يستدعى البكاء يا أماه .

فابتسمت إلى ابتسامة باهتة وقالت بحزن :

— لا شيء حقا . ولكنى أبكى الأيام الماضية يا كامل .. أبكى الطمأنينة المطلقة التى استنمت إليها طويلا . كانت الحياة رغيدة طيبة لا يكدرها علينا مكدر ، اليوم يتحدث جدك عن الغد ، وهو إذ يتحدث عنه يملؤنى خوفا وقلقا . لندع الله معا الا يشتت شملنا ، وأن يطيل لنا فى عمر جدك ، ويغنينا عن الناس ..

ثم تفكرت مليا ، وقالت لى وهى تحدجنى بنظرة غريبة :

— قابله إذا قابلته بأدب فهو أبوك على أى حال ، ولكن لا تنس فيما بينك وبين نفسك أنه هو الذى عذبنا جميعا .

وجرت على شفتى ابتسامة خفيفة لهذا التحذير الملفوف الذى لم أكن فى حاجة إليه . ليس فى وسعى أن أحب شخصا كرهه أبوه . ثم فكرت فى تلك الزيارة المرتقبة بين ابن وأبيه لأول مرة ، وحاولت أن أتخيل صورة لأبى ، أو أن أتذكر صورته القديمة التى مزقتها بيدى فلم أفلح .. وشعرت بنفور شديد من الزيارة وتمنيت لو يعدل جدى عن رأيه .

ولكنه قرر أن نقوم بزيارتنا فى صباح اليوم التالى ، وقال لى وهو يستحثنى :

— ينبغى أن نبكر فى الذهاب إليه قبل أن يغيبه السكر !

وخرجنا معا ، قطعنا الطريق إلى محطة الترام مشيا على الأقدام . ثم أخذنا الترام إلى العتبة ، ومنها إلى الحلمية ، ثم سرنا إلى شارع مبارك . وجعل يوصينى فى الطريق بما ينبغى أن أتحلى به فى حضرة أبى من الأدب والتودد . قال لى :

— أنت خجول جدا ، منطو على نفسك ، وأخاف أن يظن ما بك نفورا منه فيبادلك نفورا بنفور خصوصا وأنه لم يهتم يوما بحب إنسان ، فانفض عنك الجمود ولاقه بالتودد والرقة والألفة .

ووقفنا أمام بيت كبير مكون من دورين ، لا يبدو من دوره الأول إلا أعلاه لارتفاع سور البيت ، وطرقنا بابا ضخما ، ففتح عن صرير غليظ ، وبرز لنا بواب نوبى طاعن فى السن ، فسلم على جدى باحترام وترحيب وتنحى جانبا وهو يقول :

ـــ رؤية بك فى السلاملك ..

وسك الاسم مسمعى ، فشعرت على رغمى بما يربطنى بهذا البيت . وتملكتنى رغبة مباغتة فى الرجوع والتقهقر ، ولكنها كانت رغبة لا سبيل إلى تحقيقها ، ونظرت فيما أمامى فرأيت حديقة كبيرة ، وسرعان ما سطعت أنفى رائحة الليمون الزكية . هى حديقة كبيرة تأخذ الناظر بضخامة أشجارها ما بين نخيل وليمون وتوت ويزدحم جوها بالفروع والأغصان ، وتغطى أرضها بالأوراق الجافة ، وبها وبالجو المحيط بها مسحة حزن وكآبة انسربت إلى نفسى فى غير إبطاء . وفى نهايتها يقع البيت ، وقد بدأ السلاملك مقاما على سوره جدار خشبى يحجب ما بداخله عمن فى الحديقة . سبقنا البواب إلى الداخل ليستأذن للقادم ، ثم عاد بعد قليل وهو يدعونا باحترام ، وسار بين يدينا فى ممشى من الفسيفساء . تبعت جدى فى قلق يزداد بتوغلنا فى الحديقة ، وعندما أخذت فى ارتقاء السلم جف حلقى من الاضطراب . وبدا أبى واقفا ينتظر ، فألقيت عليه نظرة سريعة من وراء جدى .

كان وقتذاك فى الستين من عمره ، ربعة ، بدينا وإن بدا فى جلبابه الأبيض الفضفاض أبدن من الواقع بكثير ، أبيض البشرة ، محمر الوجه والعنق ، منتفخ الأوداج ، محتقن الوجه بالدم ، أما قسمات وجهه فكبيرة واضحة فى غير تنافر . أصلع الرأس ، أسود العينين ، وقد جحظت مقلتاه وتشابكت بهما خطوط حمر دقيقة كالشعيرات ، وقلقت بهما نظرة زائغة شاردة خاملة بددت ما كانت ضخامته خليقة بأن تبعثه فى النفس من رهبة . خامرنى شعور بالغرابة والإنكار والنفور ، وحقدت على جدى المسئول عن الزيارة . اشتد بى الإنكار عندما

وضح لى أنه لم يبد آى الترحيب بنا إلا تلك الوقفة الخاملة . تصافح الرجلان ، وسمعت صوتا غليظا ذكرنى بصوت أخى مدحت يقول :

ـــ أهلا وسهلا .. كيف حالك يا عبد الله بك ؟

فرد جدى قائلا :

ـــ الحمد لله .. وكيف أنت ؟!

وتنحى جدى قليلا ليكشف عنى وأومأ إلى قائلا وهو يبتسم :

ـــ كامل ابنك .

وتقدمت منه فى ارتباك ظاهر وعيناى متطلعتان إليه ، فحدجنى بنظرة متفحصة فى اهتمام شديد وقد لاح فى عينيه نور خافت ، ثم مددت يدى ، وعند ذاك قال جدى ولعله أراد أن يتفادى من خطأ رآنى حريا أن أقع فيه :

ـــ اقهر هذا الخجل وقبل يد والدك !

وأدركت مراده فقبضت على اليد الممدودة إلى ولثمت ظاهرها ، ورفعت إليه عينى فوجدته مبتسما ، وسمعته يقول :

ـــ مرحبا بالابن الذى لم يعرف أباه !.. ما شاء الله (والتفت نحو جدى مستدركا) صار رجلا وفرع أباه طويلا .

فضحك جدى ضحكته العظيمة وقال :

ـــ أجل إنه رجل .. ولكن لا تثريب عليه إذا كان لم يعرف أباه !.

وتفرس أبى فى طولا وعرضا ، ثم دعانا إلى الجلوس ، فجلسنا على مقعدين متقاربين وجلس على كنبة فى الصدر وراء خوان من الخشب الأسود المطعم بالصدف وضعت عليه قارورة حمراء وكأس ووعاء صينى ملىء ثلجا .

كانت القارورة مملوءة إلا قليلا ، وكانت الكأس فارغة إلا قليلا . لم أكن رأيت الخمر أبدا ولكنى أدركت توا أنى حيال الشراب الملعون الذى فعل بأسرتنا الأعاجيب ، وسرعان ما ملأنى التقزز والنفور .

واستدرك جدى قائلا :

— أى نعم ما ذنبه المسكين ؟.. إنه لم يعرف لنفسه أبا ، ولا حيلة له فى هذا ، ولا داعى لإثارة ذكريات ولت . بيد أننى وجدته رجلا كما تقول ، وقد حصل هذا العام على الابتدائية ، وعما قليل يلتحق بالمدارس الثانوية ، فاستنكرت أن يظل على جهله أباه ، واقترحت عليه أن أقدمه لك ، فرحب باقتراحى مسرورا ، وها أنا قد فعلت والحمد لله .

وكانت عينا أبى لا تتحولان عنى فلم أتخفف من ارتباكى وحيائى ، ولما ختم جدى كلامه لاحت فى عينيه الشاردتين نظرة ارتياب وسألنى :

— أحقا سرك أن تقدم إلى ؟.

فأجبته بصوت لا يكاد يسمع :

— نعم ..

فسألنى وهو ينظر إلى بمكر :

— أتحب أن تمكث معى !؟.

وانقبض قلبى ، ولاحت فى عينى نظرة حائرة . ما عسى أن أقول !؟. إن وصايا جدى ، لا تزال تطن فى أذنى ولكن هبنى أجبت بالإيجاب فدعانى إلى البقاء معه فكيف يكون المصير ؟! كلا ، لا يسعنى هذا وعضضت طرفى مطبقا شفتى ولم أنبس بكلمة . وقهقه أبى بصوت ارتعد له جدى وهو يحدجنى بنظرة استياء :

— ترفق به يا رؤبة بك . إنه لم يفترق عن أمه قط وليس أشق على النفس من تغيير عادة ، ولكنى أؤكد لك أنه سر جدا بتعرفه بك . لا تأخذ عليه صمته وارتباكه فإنه كالعذراء حياء .

فهز أبى رأسه الأصلع المستدير وفوه لا يزال منفرجا عقب القهقهة ، وسألنى فيما يشبه التحدى :

— هلا مكثت معى فترة من عطلتك ؟.! شهرا أو أسبوعين ؟!

فبادر جدى قائلا :

ـــ أما هذا فعن طيب خاطر !..

وفطنت إلى ما فى قول جدى من إيحاء موجه إلى ، فوجدتنى كالفأر فى المصيدة . وتولانى ضيق كاد ينشق له صدرى ، ولعنت ذلك التصميم المزعج الذى حدا بجدى إلى سوق إلى هذا البيت الكئيب . وانعقد لسانى فى بأس وعناد ، حتى قال أبى متهكما :

ـــ هذا قولك أنت يا عبد الله بك ، ولكنى أتساءل عن رأى كامل بك !..

وآلمنى تهكمه ، وانقلبت إلى حال من التعاسة فلم أنطق ولم أرفع رأسى . وتذكرت أمى بلهفة المستغيث شأنى إذا اشتد بى كرب . وقهقهه أبى ساخرا وقال :

ـــ ولعله يسر بمعرفتى ولكن من بعيد ..

وتغيرت لهجته الساخرة فقال بصوت ينم عن القوة :

ـــ ألا تعلم أننى إذا أردت أن تبقى هنا لم يحل دون ذلك حائل ؟!.

وتريث لحظة ريثما يحدث تصريحه الأثر المطلوب ، ثم ضحك مستدركا :

ـــ لا تخف ، لا حاجة بى إلى هذا على الإطلاق ..

وساد صمت رهيب . ولعل جدى أدرك أن الرجل قد كشف بقوله ذاك عن شعور عدائى . وشعرت أنا بغريزتى أن كلينا يجد نحو صاحبه نفورا لا خفاء فيه .. وهالنى ما صدم جدى من خيبة مريرة وتوقعت أن يوسعنى تعنيفا وتقريعا . ثم قال جدى بصوت منخفض :

ـــ ابنك سيئ الحظ يا رؤبة بك ، فقد حرم نعمة التعبير عما يدور بخلده . إنه طفل خجول لا يدرى عن الدنيا شيئا فترفق به واعذره ..

فقال أبى بغلظة :

ـــ ما هذا الذى تقول يا عبد الله بك !.. خجول ، عذراء ، لا يدرى شيئا !. ماذا فعلتم به ؟ لقد كانت له أخت عذراء ومع ذلك فقد هربت مع رجل ، فمن أية جبلة هو ؟!.

وشعرت بطعنة نجلاء تصيب قلبى . واندفع الدم إلى وجه جدى فقطب غاضبا وقال بكبرياء :

ـــ لقد اختارت أخته أن تمضي إلى زوجها بعد أن يئست من عدالة أبيها !.

وروح عنى قوله . أما أبى فاسترسل ضاحكا وقد احتقن الدم بوجهه وبدا فظا قاسيا ممقوتا ، ثم قال بسخرية :

ـــ تقول بعد إن يئست من عدالة أبيها !.. اسمح لى أولا أن أملأ كأسا (وملأ الكأس وعل منها جرعة) هلا شربت معى ؟.. كلا ؟.. كما تشاء فلكل إنسان داء . ولنعد الآن إلى قولك . ماذا قلت يا حسن بك ؟! بعد أن يئست من عدالة أبيها ؟!. وأنت ؟! ألم تيأس من عدالة أبيها ؟!

فنظر إليه جدى باستنكار وازدراء وسأله :

ـــ ماذا تعنى ؟!

ـــ أريد أن أقول إن الفتاة إذا كانت قد يئست من أبيها فإن جدها لم ييأس من عدالته ، وآى ذلك أنك جئتنى اليوم بهذا الفتى لا لتقدمه لى كما قلت ، فقد كان يمكن أن يحدث ذلك فى أى وقت من الماضى ، ولكن لتخبرنى أنه عما قليل سيلتحق بالمدارس الثانوية ،.. وهنالك المصروفات .. هه !!.

فخرج جدى عن طوره وصاح به مغضبا :

ـــ لقد أعيانى إصلاحك فيما مضى ، ومن الحمق أن أحاول ذلك الآن !.. لقد ربيته حتى صار رجلا دون أن يكلفك مليما واحدا ..

فصفق أبى ساخرا وقال وقد أخذ صوته يعلو :

ـــ آه من مكر الرجال ! بالأمس جئتنى سائلا أن أترك الغلام لكم ، واليوم تمن على أن ربيته حتى صار رجلا !.

مرحى .. مرحى ، هلا تذكرت اتفاقنا السابق ؟.

فاشتد حنق جدى وقال بصوت وشت نبراته بانفعاله وتأثره :

ـــ أى اتفاق يا هذا ؟.. نحن لا نتحدث عن صفقة تجارية ، ولكن عن

ابنك ، فأين الأبوة والعطف ؟!.

فقال أبى بتهكم وازدراء :

ـــ الأبوة ؟.. العطف ؟.. يا لها من سجايا كريمة بيد أن المال يفسدها . يا عبد الله بك لندع الهذر جانبا فإنه لا يجمل برجل عسكرى مثلك خاض حروب السودان .!. وإنك لتعرفنى حق المعرفة فكيف زينت لك نفسك أن تقصدنى بهذا الرجاء الخائب ؟! تفكر فى الأمر مليا فإما تكفلت « به » كما اتفقنا أو اتركه لى إذا شئت .

ونظرت إلى جدى فوجدت وجهه ملتهبا بحمرة الغضب ، وتوقعت أن ينفجر فى الآخر ، ولكنه ضبط نفسه بجهد كبير ، وقال بهدوء :

ـــ لولا واجبى نحو ابنك لاستكرهت أن أقف منك موقفى هذا ، ولست أستجديك شيئا لنفسى ، ولكنى أريد أن أطمئن على مستقبل الفتى خصوصا وإنى رجل طاعن فى السن وقد أموت غدا ..

فقال أبى ضجرا :

ـــ إذا مت غدا تكفلت به !.

فقطب جدى مستاء ، وهالنى تعبير أبى القاسى فكرهته فى تلك اللحظة ضعف ما كرهته طول حياتى ، وكأنما نفد صبر جدى فنهض قائما مكفهر الوجه ، ونهضت معه كأننى مشدود إليه . وألقى إلى أبى بنظرة متعالية فى ترفع وغطرسة ، وقال :

ـــ لا أستطيع أن أقول إنك خيبت ظنى لأنى لم أحسن بك الظن قط ولكنها أخطاء نرتكبها كارهين ونحن أدرى بعواقبها . أستودعك الله .

وأخذ بيدى ومضى بى فغادرنا السلاملك وأبى يقول منهكما :

ـــ مع السلامة يا عبد الله بك .

هكذا كان أول لقاء بينى وبين أبى . وقد خرجت منه وبنفسى من النفور ما لا قبل لى به . وما كدت أجتاز باب البيت إلى الطريق حتى تنهدت ارتياحا ،

ودعوت الله بقلبى ألا يقضى على يوما بأن أطرق هذا الباب أبدا . وسرنا نحو ميدان الحلمية ، وجعل جدى يحث خطاه منكس الذقن محمر الوجه ، وهو يغمغم بكلام غير مميز ولا مفهوم وجعلت أسترق إليه النظر محزونا أسيفا ، وخائفا فى الوقت نفسه لشعورى بثقل مسئوليتى فيما أدى إلى الخصام . ثم أخذ صوته يتضح رويدا فسمعته يقول وكأنه يحدث نفسه « حيوان أعجم ، لماذا يرزق الله أمثاله أطفالا ؟. لماذا لم يعاقبه بالعقم ؟!. » ويقول أيضا : « يا لك من وغد !. أليس بقلبك ذرة من عاطفة الأبوة ؟. إنك لم تتركه لنا استجابة لرجائنا ، ولكنك بعته بنفقاته » .

وحين بلغنا المحطة لاذ بالصمت ، ووقعت على عيناه فحدجنى بنظرة قاسية وأصر على أسنانه وقال لى بحدة .

ــ وأنت يا سى قطران أتظل عمرك بغلا ! ألم يفتح الله عليك بكلمة طيبة ؟. ماذا كان عليك لو تظاهرت بالتودد إليه ؟ أحسبته يا أحمق سيرتمى عليك عشقا وولها !.

وأفزعنى غضبه كما يفزعنى الغضب عادة ، وارتعشت شفتاى كالطفل إذا شرع فى البكاء ، ورأى حالى فنفخ مغيظا محنقا ، وصاح بى :

ــ ما أسرع أن تبكى !.. ما الذى يبكيك ؟.. هل ظلمتك ؟. هل تجنيت عليك ؟.. لقد أخطأت خطأ غبى أحمق ، وما زدت على أن قلت لك أخطأت ، فهل كفرت ؟!.

ولم أنبس بكلمة طوال الطريق ، ولبثت محزونا منكسر الخاطر ، حتى ذكرت أنى عائد إلى أمى ، وأنى سأحدثها بكل شىء عما قليل ، فسرى عنى .

١٣

وزارنا يوما مدحت أخي ، فى الأسبوع الذى تلا مقابلتنا لأبى . ولما تفرست فى وجهه تلك المرة أيقنت أنه صورة طبق الأصل من أبى . وتساءلت فى حيرة عن سيرته وأخلاقه ، وهل يشابه أباه فيهما كما شابهه فى تكوينه الجسمانى ؟. والحق أنى رمقته بنظرة غريبة لم يفطن إليها أحد . على أنى أحببته كثيرا كما أحبنا كثيرا . وقد عاتبته أمى على ندرة زياراته لنا فقال لها :

ــ أنت أدرى بأخلاق المجنون !.

فضحكت بسرور لا مزيد عليه ، ورنوت إلى شقيقى بامتنان ، فالتفت نحوى وقال آسفا :

ــ علمت بما حدث فى المقابلة الأخيرة ..

فسألته أمى باهتمام :

ــ هل أخبرك عنها ؟.

فقال ضاحكا :

ــ حدثنى بها عم آدم البواب .

وداخلنى استياء شديد فهتفت مستنكرا :

ــ البواب !.. أكان يسترق السمع !.

فقال مدحت :

ــ كلا ، ليس به من حاجة إلى استراق السمع ، فما من كبيرة أو صغيرة إلا ويحيطه بها أبى ، فهو سميره القديم الذى يفضى إليه بمكنون صدره وإن لم ينج من شر لسانه فى غالب الأحايين . ولكم أحزننى الموقف الذى وقفه من جدى ، فوددت لو لقيته اليوم هنا لأعتذر إليه وأقبل يده .

وتجاذبنا الحديث طويلا ، وكان مدحت محدثا ماهرا ، يدير الحديث بطلاقة

وروح مرحة ، ويقهقه قهقهة أبينا العالية فيضاهيه فى جلجلتها دون برودتها وقسوتها ، فسرعان ما غبطته وأعجبت به وتمنيت لو كان لى بعض مرحه وطلاقته . وانساق الحديث إلى مستقبله ، وكان حصل على شهادة الزراعة المتوسطة صيف ذاك العام ، فقال :

ـــ سافرت إلى عمى فى الفيوم ليجد لى وظيفة بواسطة أحد معارفه الكثيرين ، لكنه لم يوافق على توظيفى بالحكومة ، وعرض على أن أتمرن فى عزبته بأجر عال على أن يؤجر لى أرضا فى القريب العاجل ، ورأيت فى عرضه فرصة تفتح لى أبواب الرزق العريض عن طريق الزراعة فقبلت .

ولكن أمى لم ترتح لهذا العرض وقالت معترضة :

ـــ أليس الأكرم أن تتوظف فى الحكومة ؟.

فضحك أخى طويلا ثم قال :

ـــ إن دبلومى لا يؤهلنى لوظيفة محترمة ، أما عمى فيهيئ لى فرص العمل المثمن والثروة .

ـــ وتعيش فى الفيوم حياتك ؟!

فقال باستهانة :

ـــ الفيوم من ضواحى القاهرة ! .

فقالت أمى بحزن :

ـــ طالما منيت نفسى باليوم الذى تستقل فيه بحياتك لنعيش معا ؟!..

فقبل يدها برقة وقال مبتسما :

ـــ سوف ترينني كثيرا حتى تمليني ..

ثم ودعنا وانصرف . وتنهدت أمى من الأعماق وقالت بحزن :

ـــ غاب عنى نصف حياته فى بيت المجنون ، وسيغيب النصف الآخر فى الفيوم !.

وتفكرت قليلا ثم قالت وكأنها تحدث نفسها !

ـــ إن عمه لم يعرض عليه ما عرض حبه فى سواد عينيه ، ولكنه ينوى بلا شك أن يزوجه إحدى بناته .

وسألتها ببساطة :

ـــ وماذا عليه لو فعل ؟!.

فحدجتنى بنظرة غريبة ، وهمت بالكلام أكثر من مرة ثم تنثنى عما همت به .

وقد صدق ظنها ، فجاءنا بعد ذلك بزمن غير طويل خطاب مدحت يخبرنا بخطبته لابنة عمه ، ويسمى لنا يوم الزفاف ويدعونا لحضوره . ولم تخف أمى استياءها ، وهالها أن يخطب بدون مشورتها أولا ، وقالت لجدى بغضب :

ـــ أرأيت إلى شقيق المجنون كيف خطف ابنى !!

ولم نحضر زفافه ، لأنى مرضت قبيل موعده ولزمت الفراش أسبوعين فنسيت أمى الزفاف بأفراحه وآلامه . وهكذا تزوج مدحت دون أن يحضر زفافه لا أبوه ولا أمه ، حتى قال جدى متهكما كعادته :

ـــ هذه الأسرة خلقها الله أعجوبة للبشر ، كل أسرة وحدة إلاها فهى أشتات لا تجتمع . اللهم عفوك ورضاك !.

* * *

واستدار الصيف واقترب ميعاد افتتاح الدراسة فألحقنى جدى بالسعيدية . وقد ذهبنا معا ، وقال لى فى الطريق :

ـــ لو كنت رجلا حقا لما أحوجتنى إلى الذهاب معك ، ولكنك لا تعرف الطريق إلى الجيزة وأنت ابن سبعة عشر ، وعلى أية حال احفظ الطريق جيدا . لقد كنت ضابطا فى مثل سنك !

وكان يتظاهر بالتذمر والسخط ، ولكننى شعرت بقلبى أنه مبتهج مسرور ، وأحسست بعطفه يشملنى ، فأخجلنى ما يتحمله فى سبيلى من المشقة وهو الشيخ السبعينى . وحين عودتنا ضربنى بعصاه برقة وقال :

ـــ إنك الآن طالب بالسعيدية ، فاجتهد ترفع رأسنا . أريد أن أراك ضابطا

قبل أن أرحل .

ودعوت له بطول العمر من أعماق قلبى . وسكت مليا ثم قال بغير مناسبة ظاهرة :

ـــ على أيامنا كانت الابتدائية شهادة عظيمة تعادل بحق أكبر الشهادات فى هذه الأيام !.

وهز رأسه ثم استدرك قائلا :

ـــ كانت أياما ، وكنا رجالا !!.

١٤

انتهت العطلة الصيفية فألم بى الحزن والكآبة . كانت المدرسة المنغص الأول لحياتى ، فكرهتها كرها عميقا صادقا . حقا كنت بصدد مدرسة جديدة اقترنت فى ذهنى بالرجولة والفخار ، ولكنها مدرسة على أية حال لا تخلو من مواعيد وفصول وتلاميذ ومدرسين وعقوبات ، ودروس تفوق صعوبتها بلا شك سابقاتها فى المدرسة الإبتدائية .

وفى صباح السبت الأول من أكتوبر استيقظت مبكرا بعد انقطاع هذه العادة الثقيلة أربعة أشهر ، وارتديت البدلة ، وتأنقت كعادتى وانتقيت رباط رقبة فاخرا من صوان جدى ! وألقت أمى على نظرة طويلة ثم قالت بسرور :

ـــ كالقمر وحق كتاب الله !.. وجه أمك على بشرة بيضاء ليس لى مثلها . محروس بعناية الرحمن .

ومضت توصينى بالحيطة فى المشى والركوب والنزول وعبور الطريق ، ودعت لى طويلا .. ولما غادرت البيت وقفت بالشرفة تراقب سيرى حتى غيبنى عنها منعطف الطريق . وواصلت السير مغتما محزونا حتى بلغت محطة الترام بشارع قصر العينى . ووقفت أنتظر الترام وحدى لأول مرة فى حياتى ،

فداخلني إحساس بالحرية لم يداخلني من قبل . وسرى عنى قليلا فوجدت شيئا من الارتياح ، ثم لاطفنى أمل فى بدء حياة جديدة !، حياة لا تكدرها التعاسة التى لازمتنى فى مدرسة العقادين . إنى ماض إلى مدرسة جديدة ، وسألقى أناسا جددا ، فلماذا لا أبدأ صفحة جديدة ؟ اللهم إنى إذا اجتهدت تحاميت قسوة المدرسين ؟ وإذا أحسنت التودد إلى التلاميذ اكتسبت مودتهم ودفعت زرايتهم ، وهذا شيء يقدر عليه الكثيرون فلماذا أعجز عنه وحدى ؟!. ورقص بين ضلوعى حماس بهيج ، وقلت لنفسى إذا نجحت فيما أخفقت فيه فى ماضى حياتى هيأت لنفسى حياة طيبة وحببت إلى قلبى الحياة المدرسية المقضى على بها أردت أم لم أرد . وذهبت إلى السعيدية متفيئا ظل الأمل الجديد الذى انبثق فى نفسى بغتة على محطة الترام !..

* * *

ولكنى وجدت الحياة أشق مما هيأ لى الأمل ، فحال خجلى الشديد ونفورى من الناس دون اكتساب صديق ، وضيع شرود ذهنى على اجتهادى هباء !. لشد ما عانيت من شرود ذهنى ! لقد سلبنى عقلى وأفقدنى كل قدرة على الانتباه وتركيز الفكر ، وجعلنى صيدا سهلا للمدرسين . وقد استيقظت مرة من شرودى — فى الأسبوع الثانى من حياتى المدرسية الجديدة — على مسطرة المدرس وهى تصدم جبينى ، وصوته وهو يسألنى بلهجة الوعيد :

— قلت تحد شمالا بماذا ؟.

فحملقت فى وجهه بارتباك وفزع حتى نسيت أن أنهض قائما فزعق بى :

— تفضل بالوقوف لترد على خادم أبيك !.

ونهضت فزعا ، ولبثت متصلبا دون أن أحرى جوابا ، فلطمنى على خدى وصاح بى :

— تحد شمالا بماذا ؟.

ولما لم أخرج عن صمتى لطمنى على خدى الآخر وسألنى :

ــ لندع مؤقتا ما يحدها شمالا ، فما هى التى أسأل عما يحدها شمالا ؟.

ولازمت الصمت وخداى يلتهبان ، فانهال على لطمة يمينا ولطمة شمالا وأنا لا أجرؤ على تغطية وجهى بيدى ، حتى انفثأ غضبه فأمرنى بالجلوس . وضج جانب من الفصل بالضحك ، وجلست أغالب دموعى . انقلبت مرة أخرى إلى أذى المدرسين وسخرية التلاميذ . ومضيت أجتر آلامى فى صمت واليأس يفتك بنفسى فتكا ذريعا . خبا الأمل وانتهت المحاولة الجديدة بالإخفاق السريع ، وعدت إلى تعاستى المعهودة . وعلى رغم ذلك تعلقت بخيط واه فكرست كل وقتى للمذاكرة عكفت على كتبى ساعات متواصلة ، ولكنه كان مجهودا ضائعا إلا أقله ، والحق أنى كنت أثبت عينى على الصفحات على حين يتطاير خيالى فى وديان الأحلام فلا أستطيع له . وهى أحلام تحركها الشهوة وتعبث بها الخادمات القذرات ، ثم تنتهى بالعادة الجهنمية التى أدمنت عليها مذ ناهزت الحلم ، فلا تفوت ليلة إلا وأنصهر فى أتونها فى لذة مفتعلة وندم موجع طويل .

ولم أقف من رغبتى فى صداقة الرفاق موقف الجمود المطلق ، ولكن أخفقت فى مسعاى إخفاقا كاملا . كان يقابل تلك الرغبة فى نفسى ميل أصيل للوحدة ، ونفور وخوف من الناس ، وانطواء على النفس دفعنى إلى الكتمان الشديد فلا أحب أن يقف إنسان على سرى ولا حتى مسكنى أو عمرى ، هذا إلى عجز عن الحديث ، وعدم فهم للنكتة فضلا عن تأليفها ، فلم يجد فى أحد من التلاميذ ميزة تجذبه إلى ، عادوا يرموننى بثقل الدم . أخفقت فى اكتساب صديق ، وعشت العمر بلا صديق . بيد أنى لم أكن أدرك حقيقة نفسى ، فاتهمت الرفاق دون نفسى بالعيوب التى حرمتنى الصداقة ، واعتقدت زمنا أنه لا صديق لى لأنه لا يوجد من هو أهل لصداقتى !. ما أعجب غرور الإنسان ! إن السماء والأرض لا تسعانه . وعلى عجزى ونقائصى كان يخيل إلى أحيانا أنى الكمال المطلق ، فهذا الحياء القاتل أدب ، وهذا الإخفاق فى الدراسة عبقرية بطيئة النمو ، وذاك الفقر المدقع فى الصداقة والحب تسام ، وأمدنى علم النفس ــ الذى درس لنا عاما فى

السنة الخامسة ـــ بألفاظ غامضة انتفعت بها فى إرضاء غرورى الكاذب . ومع ذلك كانت تثقل على ساعات يأس فأكاد أستشف الحقيقة ، وقد قلت لأمى يوما ، وهى الحبيب والصديق والأنيس الذى لم أظفر بسواه .

ـــ لا صديق لى ، التلاميذ يزدروننى !.

فتولاها الغضب ، وهتفت بى :

ـــ إن نعلك بألف رأس من هؤلاء التلاميذ . إنهم لا يحبون إلا من لا يجاريهم فى شطارتهم وسوء خلقهم ويحسدونك لحيائك وأدبك . لا تحزن فلا فضيلة وراء البعد عن الناس !.

فقلت محزونا : أشعر أحيانا بأنى وحيد فتثقل الوحدة على !.

وهالها قولى ورمقتنى بإنكار ، وقالت :

ـــ وأين أمك ؟.. كيف تقول هذا وأمك على قيد الحياة ؟. ألست أكرس حياتى لخدمتك ورعايتك ؟!.

أجل ، إنها تكرس حياتها لى ، وأنها كل شىء فى حياتى ، ولكن من لى خارج بيتنا ؟!.

واطردت حياتى المدرسية فى تعثر وتثاقل على رغم كونها تتوكأ على عكاز من المدرسين الخصوصيين .

ولشد ما كان يحزن جدى كلما سقطت فى امتحان ، ولم يعد يسخر منى فى مزاح ، ولعل طعنه فى العمر رده شديد الإشفاق على مستقبلنا ، فكان يقول لى :

ـــ لماذا تخفق هكذا يا كامل ؟. أكل عام بعامين ؟.. ألا ترى انى أتلهف على رؤيتك موظفا قبل أن أموت ؟.

وكان كلامه يقع من نفسى موقعا محزنا ، ثم أقول له .

ـــ ما ألوت أن ذاكرت حتى منتصف الليل .

وتبادر أمى إلى تأييدى فى قولى فيهز رأسه الأبيض ويتمتم :

ـــ الأمر لله .

ولذلك كنت أتوقع موسم الامتحان بقلق وخوف تتخللهما الأحلام المزعجة ، ولذلك أيضا كان يغرينى الحياء والغرور بتصنع التعب والتوعك فى الأشهر السابقة للامتحان لأعتل بهما على إخفاق المتوقع . وكانت أمى من ناحيتها تزور أم هاشم وتنذر النذور ، وتشد حولى عنقى التعاويذ . ولا أنسى مرة — وكنت قريبا من إمتحان الكفاءة — جاءتنى بامرأة ممن يقرأن الغيب مستعيذة بقدرتها على إنجاحى ، فحرقت المرأة بين يدى البخور ، وركزت فى المدفأة عصا قصيرة وأمرتنى أن أقفز فوقها ثلاث مرات ، وفعلت ما أمرت به ، فقالت لى بيقين : « ستنجح بإذن الرحمن » ، ولما سقطت فى الامتحان قلت لأمى متعجبا : « كيف أسقط وقد قفزت المرات الثلاث » ؟!.

وعلى رغم هذا كله واصلت الدراسة ، وطويت عهد الثانوى وحصلت على البكالوريا وقد ناهزت الخامسة والعشرين !..

١٥

وداخلنى على إخفاق المتواصل شعور بالزهو والرجولة . إن كثيرين من موظفى الحكومة لا يحملون إلا البكالوريا فأنا رجل ذو شأن !. ولست أطمع من ورائها انخراطا فى سلك الحكومة ولكنى أرجو أن أخرج بها من البيت ، أعنى أن أتحرر بها من ربقته التى تشدنى شدا يكاد يمزق ضلوعى . أجل لقد ملكنى شعور جامح هفا بفؤادى إلى التجدد والانطلاق . لم أعد غلاما يقاد من أنفه ، وها هى الحياة تستفزنى للتمرد والثورة . ولكن أى تمرد وأية ثورة ؟. على ماذا أو لماذا ؟ لم أجد جوابا واضحا ، والحق أنى لم أكن أفكر ، ولم يكن هياجى فكريا ، ولكن ثورة شعورية تنبعث من أعماق نفسى ، تروم الانطلاق والتغيير ، وتشوف إلى المجهول . لم أستبن هدفا على وجه التحديد ، وعانيت حنينا مؤلما غامضا كلما تحرك بصدرى شملنى بكآبة ووحشة . وكنت كلما استبدت بى تلك

الأحاسيس وقعت فريسة ليد الغضب الحمراء ، فثار بي الغضب لأتفه الأسباب .

وفى تلك الأثناء كان جدى يهدف إلى الثمانين ، وكانت أمى تقطع الخطوات الأولى بعد الخمسين .

انقلب جدى شيخا نحيلا ، ولكنه حافظ على صحته ونجا من شر الأمراض ، وتمتع بما وهبه الله من نشاط يحسد عليه ، ولم تزاوله روحه اللطيفة ودعابته الهادئة . أجل اضطر إلى تبديل نظام معيشته لأنه لم يعد يحتمل السهر الطويل المتواصل ، فكان يذهب إلى مقهى لونابارك صباحا ليجتمع بقلة من صحابه ، ويمضى فى النادى مساء ساعتين ثم يعود إلى البيت فى العاشرة ، وكان يمشى مشيته العسكرية فى قوة ووقار دون أن ينحنى له جذع . أما أمى فقد سارع إليها الكبر بنسبة أكبر منه إذا عدت بالقياس إلى عمرها . جف عودها ، واشتعل مفرق شعرها وسوالفها شيبا ، إلا أنها تمتعت بصحة جيدة ، كما حافظ وجهها على جماله وبهائه . وكانت ربما استسلمت فى أحايين للإهمال فلا تعنى عنايتها المعهودة بهندامها . ولشد ما كان يتولانى الحزن والاستياء لذلك ، حتى قلت لها مرة « لاقينى بالهيئة التى تلقين بها الضيوف » ، ولم تخيب لى رجائى ذاك فكانت تبدو لى وهى على أحسن حال ، وطابت نفسى ورضيت .

وظن جدى أن الفرصة تهيأت ليحقق الأمل الذى طالما حلم به الا وهو أن أصير ضابطا ، ولكننى كنت جاوزت السن المقررة للالتحاق بالمدرسة الحربية ، وحسب أن الشفاعة تستطيع أن تذلل تلك الصعوبة التى بددت حلمى فسعى إلى كثيرين من كبار الضباط ، ولكنه أفهم أن القانون لا يتسامح فى ذلك . وحزن جدى حزنا شديدا ، وقال لى آسفا :

— لو دخلت الحربية لضمنت لك مستقبلا حسنا ، ولاطمأن قلبى عليك وعلى أمك .

وهز رأسه فى سخط ، ثم سألنى :

ـ علام نويت ؟!.

فنظرت إليه فى حيرة ، ولم أحر جوابا ، فعاد يسألنى :

ـ ألا تفضل مهنة بعينها ؟.

واشتدت حيرتى لأن نفسى لم تنزع بى إلى مهنة غير الحربية وذلك بتأثير جدى نفسه وإيمانه ، فلم أدر بماذا أجيب ، وقلت :

ـ كنت أمنى نفسى بدخول الحربية ، أما الآن فالمهن كلها بالنسبة إلى سواء ..

ـ إنى أختار لك الحقوق فهى خير ما بقى لنا ؟. ولا أوصيك بالاجتهاد لأنه من العار أن يخفق الإنسان فى الجامعة ، وربنا يعيننا على مصروفاتها !.

أسفت على ضياع المدرسة الحربية من يدى ، ولكننى لم أدرك فداحة خسارتى إلا حين أيقنت أننى سأواصل الدراسة أربعة أعوام أخرى على الأقل ، أو ثمانية أعوام إذا سرت بالمعدل الذى لازمنى فى المدرستين الابتدائية والثانوية . وكنت بطبعى أكره الدراسة والمدرسة فنظرت إلى المستقبل بامتعاض غير قليل . ولم أكن أدرى عن الجامعة شيئا ، ولكن رجحت ألا تكون بغيضة كالمدرسة ، وقلت لنفسى إن طلابها فى سن الرجال فلا يمكن أن يمثلوا بى كإخوان لهم من قبل خلفوا فى نفسى آثارا لا تزول ، كذلك استبعدت أن يكون العقاب مما يجوز أن يعامل به رجال أو من هم فى حكم الرجال . ودأبت على تحبيب الدراسة المنتظرة إلى نفسى ، ولم آل عن تهوين خطبها ، حتى أستطيع أن أزدردها فى صبر وأناة . وفى صيف ذلك العام قيدت طالبا ـ بكلية الحقوق .

١٦

وفى صباح السبت من منتصف أكتوبر غادرت البيت مزودا بالدعاء قاصدا الجامعة المصرية . ووقفت على طوار المحطة أنتظر الترام ، وهو نفس الترام الذى كان يحملنى إلى المدرسة السعيدية ، ولم أخل ذلك الصباح ــ على امتعاضي ــ من شعور بالزهو . وإنى لفى انتظارى إذ طرق مسمعى صفقة مصراع نافذة فتحت بعنف فلطمت الجدار ، فارتفع بصرى إلى الدور الثانى من عمارة برتقالية اللون تقع أمام المحطة مباشرة ، حيث كانت توجد لافتة عيادة طبيب حتى قبل شهر تقريبا ، فوقع بصرى على فتاة فى الشرفة واقفة تحتسى شايا . أدركت لتوى أن أسرة سكنت الشقة بعد أن أخلاها الطبيب ، وثبتت عيناى على الفتاة ، وجعلت أتابعها وهى ترفع القدح إلى شفتيها فترشف رشفة ، ثم تنفخ السائل الساخن بفم مزموم . وتبدأ وتعيد لاهية بلذة الشراب . وبدا لى منها قامة طويلة وقد نحيف رشيق وبشرة قمحية ، فى سترة وتايير رمادى ، وكأنها وشيكة الذهاب إلى المدرسة فى احتشام الطالبات . وكانت تولينى جانب وجهها فلما اعتدل رأسها رأيت وجها مستديرا ، توحى هيئته بتنسيق جميل وإن لم أستطع تبين معالمه من موقفى ، تعلوه هالة من شعر كستنائى ، فبعثت فى نفسى أثرا بهيجا . ولم تبق هدفا لناظرى إلا قليلا ، ثم دارت على عقبيها ومرقت إلى الداخل . واحتفظت بصورتها فى حب استطلاع ريثما جاء الترام ، ثم ركبت متخففا بالأثر البهيج الذى بعثته فى من كآبة اليوم الذى تبدأ فيه الدراسة . على أنى وجدت فى الكلية مزايا خليقة بأن تذهب مخاوفى وإن لم تقلل من أسباب نفورى العام من الدراسة . من ذلك أن وقت الدراسة مقصور على أربع ساعات فى اليوم تنتهى عادة فى الساعة الواحدة ، ومنه تمتع الطلبة بحرية الحضور أو الغياب بلا رقيب ، ومنه وهو الأهم انعدام فكرة العقاب بل لمست فى روح الطلبة أن ما

يتهدد أساتذتهم أخطر مما يتهددهم هم . سررت بذلك كله ومنيت نفسى بأن تنتهى هذه الدراسة على مرها كما انتهت الدراسات السابقة ، ولم يكن جديدا على أن أتجرع دراسة على كره ونفور حتى التماله . وعندما عدت ذلك اليوم إلى المنيل شعرت بسرور مفاجئ هيأ لى أنى رجل خطير . ونصف أستاذ وربع وكيل نيابة !.

* * *

وفى صباح اليوم التالى ذكرت الشرفة وأنا أشارف المحطة فرفعت عينى مدفوعا بتطلع هادئ طبيعى ولكننى وجدتها خاليه ، وتسلل بصرى إلى الداخل فرأيت مرآة فى الجدار المواجه وإلى اليسار عمود سرير فضيا لامعا ومصباحا كهربائيا يتدلى من السقف ذا قبعة زرقاء كبيرة ، ثم بدا فى وسط الحجرة رجل فى الخمسين ذو نظارة ذهبية يزرر حمالة بنطلونه ، فخفضت بصرى ورحت أقطع الطوار جيئة وذهوبا . ولاحت منى التفاتة إلى المحطة المقابلة ، للترام الذاهب إلى العتبة ، فرأيت الفتاة واقفة — وقد عرفتها بقامتها وزيها — وبيدها كتاب . كانت فى وقار بدا حلوا بالقياس إلى عمرها الذى لا يجاوز العشرين ، ولم يكن بصرها يعلق بأحد ممن يحتشد حولها أو يمر بها ، فأثر تحفظها فى نفسى أثرا جميلا ملأنى احتراما وإعجابا ثم شعرت نحوها بانجذاب وحنان . ولم يكن تأثير المرأة فى بالأمر الجديد على نفسى ، فإنى أرى الحسان فى الطريق أو فى الترام ، وأتبعهن عادة نظرة رجل عابر أمضه الحرمان والوحدة والرغبة ، وأرجع منهن بالنشوة البديعة والهزة الموجعة . أما هذه الفتاة فلها شأن آخر ، فلن يكون موقفى منها موقف العابر ، ولكن موقف المقيم ومن هو فى حكم الجار ، فإنى أراها اليوم ، وأراها غدا ، وإلى ما شاء الله فضاعف ذاك من اهتمامى بها وحرك فى قلبى آمالا وهمية ، ومنانى بسرور متجدد ، فكأنه نوع من التعارف ولون من الأمل الغامض ، وملهاة سرور سلبى لا يطمع فى أكثر منه شخص خجول هياب مثلى . ثم ذهبت إلى الكلية طيب الشعور ، متسائلا : هل يمكن يا ترى أن تنتبه إلى ؟!.. وقد ذكرتها

فى أعماق الليل ، فى وحدتى النفسية ، وهذيان الأحلام الجنسية يعبث بخيالى ، فوجدت من نفسى اعتراضا وتمردا وإباء شديدا ، فأبعدتها عن أتون عادتى الذميمة ، مستديرا ، قانعا هنا بالحيوانات القذرة التى تلهب أحط الإحساسات من جسدى ..

* * *

وفى صباح اليوم الثالث انطلقت إلى المحطة وكأنى من التطلع على موعد ، وأرسلت ناظرى إلى المحطة المقابلة ، فرأيتها بموقف الأمس بقامتها الفارعة ووجهها البدرى ووقارها الجذاب . وسرى فى جوانحى الارتياح . ثم حدثتنى نفسى بأن أجد سبيلا إلى الاقتراب منها وهى لا تدرى بى لأروى ظمأى إلى معرفة وجهها عن كثب ، وحثنى الإشفاق من مجىء الترام الذى تنتظره إلى تنفيذ ما تطمح إليه نفسى دون تردد ، فاتجهت صوب المحطة الأخرى بقدمين قلقتين وقلب يغوص فى صدرى فرقا ، ومررت بها مسترقا النظر ، فرأيت فى عجلة المذعور عينين عسليتين صافيتين تقطران ملاحة ، وأنفا صغيرا دقيقا وشفتين رقيقتين ، ولعلها أحست حرارة بصرى فرفعت عينيها عرضا فالتقت عينانا ، وسرعان ما استرددت بصرى لأنه أيسر على أن أحملق فى قرص الشمس إبان إعتدالها من أن أحتمل وقع نظرة عين ، ومضيت إلى طرف الطوار ولبثت حائرا لا أدرى كيف أعود إلى المحطة الأخرى . وخيل إلى أنى ارتكبت شططا جنونيا فأوقعت نفسى فى ورطة عسيرة المخرج ، هكذا كانت تتراءى لى أتفه الأمور . ولبثت متسمرا حتى استقلت الفتاة الترام وخلا الطوار من المنتظرين فعدت إلى مكانى لاهثا ، وجعلت أحدث نفسى : أجمل بها من ملاحة ورشاقة واحتشام . وعشت مع خيالها يومى فلم أكد أنتبه إلى ما يلقى على من محاضرات . وعلى قدر ما نازعتنى النفس إلى تملى عواطفى على قدر ما إزددت كرها للمحاضرة التى تعترض سبيل أخيلتى ، ففاض بى شعور بالتمرد على تلك الحياة الدراسية التى تعذب عقلى وتتجاهل قلبى وشعورى وكأنى أنتبه إلى قلبى لأول مرة ، فأحس به

عضوا حيا مثل بقية الأعضاء ، يجوع جوع المعدة ، ويرق رقة النفس ، ويتشوف تشوف الروح ، فتمنيت أن أكرس حياتى لسعادته ، وإن استسلم لحنان المتعة التى تتفجر عنها ينابيعه .

تنهدت من الأعماق وأنا جالس فى نهاية قاعة المحاضرات بجسم حاضر وعقل غائب . وحدثتنى نفسى بأن وراء هذه الحياة الجافة الضيقة المكبلة بالأغلال حياة ناعمة واسعة حرة ، فهفت نفسى إليها فى جزع ولهفة . وعدت إلى الفتاة ، ولم يقنع خيالى هذه المرة بالرؤية . فخلق ما شاء له هواه فرأيتنى ألفت نظرها إلى ، واقتربت منها كما فعلت فى الصباح ، ولكننى لم أرتبك كما ارتكبت فأومأت إليها فى جسارة نادرة ، ويغلبها إبتسام المودة فتبسم إلى ، وأهمس لها بما أحب وتهمس لى كذلك ، ونركب الترام معا ، وفى مكان ما على شاطئ النيل أقول لها أحبك ، فتقول لى بوجه مضرج بالدم وانا ، فأهوى إلى خدها الثمه فى إعجاب واحترام وحب يسمو عن الشهوات ، أجل لا يحب خيالى أن يصورها لى إلا فى ردائها الطويل تحوط بها هالة الوقار والاحتشام .

* * *

وبكرت فى الذهاب إلى المحطة فى صباح اليوم الرابع فوجدت الشرفة خالية ، ونقلت بصرى إلى نافذة على يسار الشرفة فرأيت الفتاة من جانب وجهها ، وكانت تقف وقفة العناية والاهتمام التى يقفها الشخص حيال صورته على وجه المرآة ، ومضت تسوى شعرها وتمنحه اللمسات الختامية التى تشبه لمسات التدليل والمداعبة فانشرح صدرى وتتبعت يدها بجوارحى حتى خلتنى أجد مس الشعر الناعم وأشم عرفه الطيب . ثم رأيتها تتحول عن المرآة وتطل من وراء زجاج النافذة على الطريق فقدرت من اتجاه وجهها أن عينيها على طوار المحطة ، ونزعت بخجلى الفطرى إلى خفض عينى ، بيد أننى تشجعت ببعد المسافة بينى وبينها وثبت عينى بجهد قليل . ترى هل وقع بصرها على ؟. وهل ذكرت فتى الأمس الذى التقت عيناه بعينيها لحظة بديعة ؟. كلا إنها لا تحس لى وجودا ، ولن

تحس بهذا الوجود . لبثت قليلا ، ثم تراجعت إلى الداخل وغابت عن ناظرى . وقطعت طوار المحطة ذهابا وجيئة ، ثم عدت إلى موقفى ، وجاء ترام اثر ترام ثان وأنا بمكانى كالمنتظر . وفى أثناء ذلك ظهرت فى الشرفة فتاة فى العاشرة فى مريلة زرقاء أدركت لتوى أنها أختها . ثم رأيت فتاة تبرز من العمارة وتتجه صوب المحطة المقابلة . رأيتها تسير لأول مرة ، فتحدث مشية هادئة متزنة توافق وقارها الجميل وتناسب قدها الرشيق وقامتها الطويلة . وتحرك فى أعماق الإعجاب والاحترام . وأرسلت بناظرى حتى جاء الترام وصعدت إليه . استوفيت جزاء الانتظار سرورا وارتياحا ، وركبت الترام مزودا بأطيب أزاهر الأحلام ولم يخف عنى إهتمامى بها وسرورى باحتشامها ووقارها ، فلم أشك فى أن التطلع لذاك البيت سيكون من الآن فصاعدا هوايتى . وقلت لنفسى : « ما أحوجنى إلى رفيقة لحياتى فى مثل كمالها » ا، وضاعف من حسرتى أننى عشت حياتى لا رفيق . على أننى شعرت بقلق من جراء إفصاحى عن هذه الرغبة ، كما شعرت بحياء شديد . ولم تكن تلك أول مرة أفصح بها عن الرغبة فى الرفيق ، ولكنه كان إفصاحا عابرا وتشوفا عاما ورغبة بلا هدف معين وشوقا غامضا ، أما هذه فإفصاح خطير حرك حيائى وخوفى ، وتشوف خاص ، ورغبة يغرر بها أمل ، وشوق يستمد الوقود كل صباح . وأعجب ما فى شعورى أنه كان شعورا بيتيا إن صح هذا التعبير ، فانصب من بادئ الأمر على الفتاة وبيتها ، وما ذكرتها قط إلا وتحضرنى صورة البيت ، فامتزجت الصورتان فى مخيلتى ، ونالتا من اهتمامى وأحلامى نصيبا واحدا ا. وسرعان ما تمثلت فيها زوجتى !، ولا عجب فإنى امرؤ إذا وقعت عيناه على فتاة فى الترام نشطت أحلامه الشاردة فتصور أنه خطبها وعقد عليها وزف إليها والترام لا يزال فى منتصف المسافة ما بين جسر الملك الصالح وجسر عباس ! فكيف لا أتمثل فتاة الصباح زوجة ؟! وملكنى الإعجاب والاحترام ، وقدسية الإحساس البيتى ، وحنان العاطفة الزوجية ، وانتظم هذه الأحاسيس خيط موصول من الميل الصادق ، لعله الحب الذى لم يعرفه قلبى .

وفى صباح اليوم الخامس أطلت وقفتى حيال المرآة قبل أن أغادر البيت ، وألقيت على صورتى نظرة متفحصة . ينبغى أن أعترف هنا بإعجابى الشديد بذاتى .!! فلم تكن أنانيتى بقاصرة على سلوكى ، ولكنها امتدت إلى حب الصورة والإعجاب بها . ولشد ما أنعمت النظر إلى هاتين العينين الخضراوين الواسعتين ، وهذا الأنف الدقيق المستقيم ، وهذا الوجه الطويل المتناسق ذى البشرة البيضاء .. وكان تأنقى مضرب الأمثال فى البيت والمدرسة على السواء حتى لأذكر قول أستاذ اللغة العربية لى مرة : « لو أتقنت العربية أتقانك لعقد رباط رقبتك لما كنت أسوأ تلميذ عندى ! » نظرت إلى صورتى طويلا ذاك الصباح وجعلت أمى ترمقنى بإعجاب وتمازحنى بكلمات كالغزل فقلت لنفسى آه لو تدرى لمن أنا أتأنق !. وغادرت البيت فى ارتياح مطمئنا إلى ما عسى أن يتركه منظرى من أثر حسن فى نفس الفتاة إذا شاء القدر أن يلفت عينيها إلى . بيد أن ارتياحى لم يطل ، وذكرت أمرا طالما نغص على صفوى ، ففتر حماسى .. ذكرت ما رميت به كثيرا من ثقل الدم ، ولم أستبعد فى تلك اللحظة أن يكون ذلك العلة فى إخفاقى فى اكتساب صديق واحد ، وسرعان ما تكدر صفوى وتجهمت لى الدنيا .. وسرت بخطا ثقيلة حتى انتهيت إلى المحطة . ودار بصرى ينقب فى مكانها حتى استقر عليها فى الشرفة تحتسى الشاى كما رأيتها أول مرة . هناك نسيت كدرى وهمى ، وانشرح صدرى ، وانبعث السرور فى كل قطرة من دمى . هناك أدركت أنها سرورى وفرحى وأنها روحى وحياتى ، وأن الدنيا من غير طلعة محياها لا تساوى ذرة من رماد !.

* * *

وواظبت على ذاك الموعد الذى لا يدرى به الطرف الآخر شهرين أو يزيد ، يوما بعد يوم دون إنقطاع أو تأخير . تطلعت بناظرى حتى كل البصر ، ووهبتها الإعجاب والاحترام عن طيب خاطر حتى نوءت بهما ، وتمليت السرور والأحلام حتى نسيت الحقيقة والواقع ، وسحت فى دنيا الهيام حتى سلبت العقل

والرشاد ، حفظتها عن ظهر قلب ، طولا وعرضا ، إيماءة ولفتة ، ووقفة ومشية ، سكونا وحركة وعرفت من وراء زجاج النوافذ أسرتها من أب وأم وأخت وأخ ، كل هذا وهى لا تدرى بى ، ولا تحس لى وجودا ، وكأننى بالنسبة إليها ليس من سكان هذا الكوكب . وأمضنى الجزع والضيق ، وأحرقتنى الرغبة فى إثبات وجودى ، ولكن شدنى عجزى إلى موقفى لا أتعداه . حلمت فى شرودى كثيرا بأنى أعترض سبيلها ، وأتبعها ، أو أنى أبوح لها بإعجابى واحترامى . أما فى الحقيقة فلم تكن تبرز من باب العمارة حتى ينقبض قلبى حياء وخوفا ، وحتى أتهيأ لغض بصرى فيما إذا اتجه بصرها نحوى . ولعله كان أسهل على أن أرمى بنفسى من جسر الملك الصالح من أن أصمد لنظرة من عينيها . وكنت أتساءل فى يأس وجزع متى تنتبه لوجودى ؟ متى تدرى أن هنالك قلبا غريبا يكن لها من الوداد أضعاف ما يكنه لها الوالدان ؟!.. أليس غريبا أن يمر شخص مر الكرام بقلب يود لو يفرش شغافه تحت قدميه ؟!.

وتركزت أفكارى — تلك الفترة — فى قلبى بآلامه وآماله ، مخاوفه وأفراحه ، وشعرت شعورا قويا بحاجتى إلى نصيح أو مشير ، وكانت أمى هى صديقى الوحيد فى دنيا ، ولكنى لم أتوجه إليها بطبيعة الحال فى أزمتى تلك لشعورى بأنها ستقف من رغبات قلبى موقف العداوة !.. بيد أنى وجدت فى بعض المجلات التى يقرأها جدى صفحات مخصصة لأسئلة القراء فأملت أن أظفر منها بالمشير الذى أفتقد . وأرسلت إلى إحداها هذا السؤال الذى أقض مضجعى : « رجل ثقيل الدم ، أليس ثمة أمل أن يحبه محبوبه ؟ » وكان جواب المجلة « الحب سر من الأسرار لا شأن له بالخفة ولا بالثقل ، وقد يتعامى عن القبح والدمامة فلا تخف على حبك من ثقل دمك !!، وإذا جاز لنا نتفلسف عن طبيعة المرأة فلعله يصح أن نقول إنها مغرمة بالقوة والشجاعة ! » سررت بمطلع الإجابة . فلما أن بلغت ختامها خامرنى شعور بالخيبة ، وتساءلت عما يعنيه بالقوة ؟.. آه . لست قويا على أى حال ، والحق أن إدمانى العادة المرذولة جعلنى

نحيفا أكثر مما ينبغى وأضفى على بشرتى شحوبا . وعندما ذكرت الشجاعة لم أتمالك نفسى من ضحكة مريرة ، وعددت ما يخيفنى فى هذه الدنيا من الأناسى والأجواء والفيران والصراصير ، فعصر اليأس قلبى !.

ولكننى لم أسلم لليأس لأن النار التى تستعر بنفسى كانت أقوى من أن تخمدها ضربة من قبضة اليأس الباردة ، فأرسلت إلى المجلة هذا السؤال : « كيف أجذب محبوبتى ؟ »، وكان الجواب : « اذهب إلى أبيها أو ولى أمرها واطلب يدها إليه وإنى كفيل بأن تحبك . » رباه ، ما أقسى المجلة .!. إنها لا تدرى إلى أنى طالب ، وأن أمامى أربعة أعوام — أو ثمانية — قبل أن أصير رجلا مسئولا ، وأننى فوق هذا كله . أقدر على اقتحام أبواب جهنم منى على طرق باب محبوبتى لأطلب يدها ،.. يا أسفا ، ألا يعلم هؤلاء الناس ما الخجل ؟!. ما أرانى إلا مقضيا على بالهيام الصامت المنفرد وحبيبتى على قيد خطوة منى !.

١٧

واعترض سبيلى حادث لعله فى ذاته تافه — ولكنه غير مجرى حياتى . وكانت حياتى الدراسية نزاعا متواصلا بين عقلى الراكد ونفسى الشاردة يتمخض — كما تمخض فى الماضى — عن عناء شديد وثمرة قليلة . وقد بات الشرود لدى ملكة آسرة غلبت على نفسى جميع قواها العقلية ، حتى أشفقت من ألا أنال الليسانس قبل الخامسة والثلاثين !. على أنى عرفت من خطورة دراسة القانون أشياء غاب عنى شيء لا يكاد يقيم له الطلبة وزنا ، بل يقبلون عليه فى سرور ويعدونه رياضة ولهوا ، ذلك هو درس الخطابة . وكان يلقى علينا مرة فى الأسبوع فى مدرج عام يحضره جميع طلبة القسم الإعدادى . وفى أثناء الشهرين الأولين استمعنا إلى دراسة نظرية فى فن الخطابة ثم بدأ التدريب العملى . وطفق الأستاذ يدعو الطلبة إلى ارتجال الخطب فى الأغراض المختلفة فكانوا يخطبون بطلاقة ، وبأصوات

جهورية ، فى ثبات وشجاعة ورحت أنصت إليهم فى دهشة مقرونة بالإعجاب البالغ ، مأخوذا بطلاقتهم وشجاعتهم ، مذهولا لمقدرتهم على التصدى لهذا الموقف الرهيب حيال هذا الجمع الحاشد ، فكنت أتطوع بالخجل نيابة عنهم حتى يتفصد جبينى عرقا !. وما أدرى فى أحد الأيام إلا والأستاذ ينادى :

ــ كامل رؤبة لاظ !.

ونهضت قائما بحركة عكسية، فى الصف الأخير من المدرج ــ المكان المفضل عندى ــ حيث لا تقع على عين .. وأحدث اسمى اهتماما ساخرا ، فهمس أحدهم قائلا :

ــ هذا حفيد لاظوغلى !.

وتساءل آخر :

ــ اسم هذا أم فعل ؟!.

وقفت مبهوتا خافق الفؤاد ، فقال الأستاذ :

ــ تعال إلى المنصة ..

وتسمرت فى مكانى فى ارتباك لا قبل لى به ، رغبت أن أعتذر ولكن بعدى عن الأستاذ كان يوجب على أن أعلى صوتى فيسمعه الجميع ، فسكت على رغمى . ونظر الأستاذ إلى دهشا ، ثم قال :

ــ مالك واقفا لا تتحرك ؟.. تعال إلى المنصة !.

واستدارت الرءوس إلى حتى شعرت بأنى أحترق تحت وقعها ، واستحثنى الأستاذ بإشارة من يده ، فقلت على كره :

ــ لماذا ؟.

وضحك كثيرون من سؤالى ، وقال الأستاذ بحدة :

ــ لماذا ؟!. لكى تخطب يا أخى كالآخرين !.

وقلت بصوت منخفض لم يجاوز صفين من المدرج .

ــ لا أدرى كيف أخطب !.

وطبيعى أن صوتى لم يبلغ الأستاذ فتطوع طالب قريب بإبلاغ جملتى صائحا بلهجة ساخرة :

ـــ يقول إنه لا يدرى كيف يخطب !.

فقال الأستاذ بلهجة تنم عن التشجيع :

ـــ هذا درس تدريب ، وأخلق أن ينتفع به من لا يجيد الخطابة . تعال ..

ولم أر مناصا من الذهاب ، فحركت قدمى فى جهد وعذاب كأنى أساق إلى المشنقة ، ثم ارتقيت المنصة فى حالة ذهول ، ووقفت محدقا فى الأستاذ باستسلام واستعطاف موليا المدرج جانبى الأيسر . وأدرك الأستاذ ارتباكى فقال بلطف :

ـــ انظر إلى زملائك ، واملك جنانك ، وتكلم كأنك وحدك . لا بد من اعتياد هذه المواقف لأن حياة الحقوق لا تخلو ساعة منها وإلا كانت هراء لامعنى له . كيف تقف غدا فى ساحة القضاء سواء تحت ظل النيابة أم المحاماة ؟!. ادع شجاعتك واخطب هذا الجمع حاثا إياه على التبرع لإحدى الجمعيات الخيرية .

وتطلع إلى الجميع باهتمام شديد لم يحظ بمثله الخطباء المصاقع ، فحملقت فى الوجوه المتطلعة دون أن أرى شيئا ، ولفنى ذهول وخجل مميت فكدت أقع مغشيا على ، وتولانى ذلك الإحساس الحاد بالقنوط الذى يمسك بخناقنا فى الكابوس . ولم يخطر لى لحظة واحدة أن أفكر فى الموضوع ، ولعلى أنسيته ، ولم يكن يدور بخلدى إلا هذا السؤال : متى تنكشف هذه الغمة ! ومل الأستاذ الانتظار فقال :

ـــ تكلم . لا تخش الخطأ . أفصح عما ببالك جميعا .

رباه متى ينقضى هذا العذاب ؟ هيهات أن يرثى أحد لى . وهاهم الطلبة يتغامزون ويتضاحكون ، وقد قال أحدهم بلهجة من يحذر إخوانه من الاستهانة بى :

ـــ هكذا بدأ سعد زغلول .

وقال آخر :

ـ وهكذا انتهى !.

وصاح ثالث :

ـ انصتوا إلى بلاغة الصمت .

وامتلأ المكان ضجة وضحكات فدار رأسي وأخذت أتنفس بصعوبة ، ثم صممت على إنهاء ذلك الموقف المحزن فغادرت المنصة ومضيت صوب باب الخروج دون التفات إلى نداء الأستاذ ، وضجة الشياطين تلاحقنى وتصك أذنى ، وما زلت أخبط على وجهى محموما هاذيا حتى انتهيت إلى محطة الترام . ورحت أردد بتصميم وحنق « لن أعود .. لن أعود ، وكان ذلك التصميم البلسم الشافى لجرح ذلك اليوم . أجل لن أعود ، ولن تقع أعينهم على مرة أخرى ، ولن أعرض نفسي لبسمات الهزء والسخرية ، وأية فائدة ترجى من العودة إلى الكلية ما دامت حياة الحقوق لا تخلو ساعة من هذه المواقف ؟! الأفضل لى أن أسدل الستار على عهد الدراسة كله ، وحسبى ما عانيت من عبودية العذاب . وتعزيت بهذا التصميم عن جميع ما لحقنى من مهانة وإحراج بل نسيت به ألمى وحنقى فترطب صدري المحترق بنسمة ارتياح ، وعدت إلى البيت وليس أمام عينى إلا ذاك التصميم .. وبعد الغداء قصصت على جدى وأمى ما لقيت فى يومى من شدة ومكروه ، واختنق صوتى بالبكاء وأنا أقول :

ـ هذه حياة لا تطاق ، ولن أعود إلى الكلية أبدا .

وهال جدى الأمر فقال بانزعاج :

ـ أأنت رجل !!. ألا ليتك خلقت بنتا . إذن لكنت أكمل الفتيات ؟.. أتريد أن تقطع حياتك التعليمية فى الطور الأخير منها لأنك عجزت عن قول كلمتين !.. والله لو كانت أمك مكانك لخطبت الموجودين !.

وجعلت أمى تقبض أصابع يمناها وتبسطها فى تشنج وتقول :

ـ حسدوه .. حسدوه يا ربى !.

وحاول جدى أن يثنينى عن عزمتى تارة باللين وتارة بالعنف ، ولكن اليأس

ثبت عنادى فلم أنثن ، ولما فرغ صبره قال :

ـــ إذن ضاعت السنة ، وليس ثمة فائدة من إلحاقك بكلية أخرى بعد انقضاء شهرين ونيف على افتتاح العام الدراسى .

فركبنى الخوف أن يلقى بى تارة أخرى إلى عذاب التعليم فقلت :

ـــ ليس ثمة فائدة من مواصلة التعليم .

وقاطعتنى أمى هاتفة بألم :

ـــ لا تقل هذا يا كامل . بل لتواصلن التعليم سواء فى هذا المعهد أم أى معهد آخر .

وضرب جدى كفا بكف وهو يقول :

ـــ لقد جن ، وهذه نهاية التدليل .

ولكنى كنت كمن يدافع عن نفسه حيال الموت ، ولم يعد بى من صبر أواجه به الطلبة والدروس والامتحانات ، فقلت بقنوط :

ـــ لا أستطيع .. لا أستطيع .. ارحمونى !.

وثار جدل عنيف صمدت له بقوة لا قبل لى بها ، قوة مصدرها الخوف واليأس ، حتى سكت جدى مغيظا محنقا . وبعد فترة صمت مرهق سألنى :

ـــ أترغب أن تتوظف بالبكالوريا !.

فقلت خافض العينين :

ـــ نعم !.

واختلست منه نظرة فوجدته صامتا مقطبا ويده تعبث بشاربه الفضى . وحولت عينى إلى أمى فرأيتها مغرورقة العينَين . ومع ذلك فلست أشك فى أن معارضة جدى كانت نصف جدية فقط . ولو أنه أراد حقا أن يكسر عزمتى لما وسعنى مخالفته . والحق أن أمر مستقبلنا كان يحتل من تفكيره مكانا واسعا وخاصة فى تلك الأيام الأخيرة التى استوفى فيها شيخوخته ، ولعله ارتاح لاقتراح توظيفى ليطمئن على مصير أمى .

وهكذا انقطعت حياتى الدراسية بعد أن قضيت نيفا وشهرين بكلية الحقوق ، بيد أننى لم أجد السرور الذى كنت أحلم به . أجل لم أفكر لحظة واحدة فى الرجوع إلى تجربة الدراسة القاسية ، إلا أننى وجدت نفسى بحاجة شديدة إلى انتحال الأعذار الكاذبة عن انقطاعى عن العلم وفرارى من معاهده ، وتصوير نفسى فى صورة الضحية البريئة . ومع أن محاولتى تلك نجحت لحد ما مع الآخرين أو على الأقل مع أمى الصديقة لى بالحق أو الباطل ، إلا أنها لم تنفع معى إلا قليلا . ملأنى السخط والتبرم ، وثار بى نزوع نحو تأديب النفس ومعاقبتها ! واتخذ ذلك النزوع صورة حملة هجائية على نفسى ، فواجهت نقائصى فى تسليم واعتراف لأول مرة .

رأيت حياتى كما هى أحلاما شاردة سخيفة ، وخجلا وخوفا يميتان الهمم ، وأنانية مطلقة قضت على بعزلة لا يؤنسها صديق أو رفيق ، وجهلا بالدنيا وما فيها ، فلا زمان ولا مكان ، ولا سياسة ولا رياضة ، حتى المدينة الكبيرة التى ولدت وعشت فيها لا أعرف منها إلا شارعين ، وكأننى أعيش فى حجرة بمفازة !. وغشيتنى كآبة ثقيلة فاجتررت أحزانى فى وحدة قلبية مهلكة . ولكن أمى لم تفارقنى لحظة واحدة فى تلك الأيام السود ، ولم تطق الوقوف منى موقف المعارضة طويلا فسرعان ما تحولت من جانب المعارضة إلى جانب التأييد ، وتظاهرت بالسرور والارتياح ، وقالت لى يوما لتسرى عنى :

ــ الخير فيما اختار الله ، وهل نملك لأنفسنا شيئا ؟!. وعما قليل تصبح رجلا مسئولا ، ويجىء دورك فى تدليل أمك لتقضى بعض ما عليك من دين !.

وقضينا الساعات الطوال معا ، وأنا آنس بحديثها الطيب الشافى ، وبفضلها وحدها انكشفت عنى الغمة وتفتح قلبى للحياة ونفض عن جوهره غبار الوساوس ..

واستشفع جدى بضابط عظيم من رجالات الجيش ممن « عمل ملازما صغيرا تحت رئاسته فى السودان » على حد قوله ، ليجد لى وظيفة بوزارة الحربية وكلل مسعاه بالتوفيق ولكن الضابط أخبرة بأننى ربما عينت فى السلوم ولما قال جدى ذلك تجهم وجه أمى وقالت باستنكار :

ـــ السلوم ؟! ألا ترى أن كامل لا يستطيع العيش بمفرده ؟!

وكانت تظن السلوم بلدا قريبا كالزقازيق أو طنطا على الأكثر ، فلما عرفت حقيقتها ندت عنها ضحكة عصبية وعدت الأمر مزاحا . وصاح جدى متبرما :

ـــ وظفيه بنفسك ، أو عينيه فى حضنك وأريحينى !.

ولكنه لم يأل جهدا فسعى لدى معارفه القدماء من مواليد القرن التاسع عشر ممن عملوا قديما تحت قيادته ، ولعلهم تأثروا بشيخوخته الثمانينية ونشاطه الموفور .. وما أيقظ فى صدورهم من ذكريات فوعدوه خيرا ، ووجدوا لى بالفعل وظيفة بإدارة المخازن بديوان الوزارة العام . ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا إلا ثلاث محطات وعشر دقائق مشيا على الأقدام فرضيت أمى وقرت عينا ، وقدمت مسوغات التعيين وتقدمت للقومسيون الطبى العام كالمتبع ، وبالاختصار صرت موظفا من موظفى الدولة . وكان الشعور الذى لابسنى وأنا أغادر البيت ميمما الوزارة لأول مرة شعورا معقدا ، فيه زهو وخيلاء ، وفيه فرح بالتحرر من عبودية البيت والمدرسة على السواء ، ولا يخلو من قلق يساورنى كلما أقبلت على جديد من الأمر . ومضيت بقلب خافق إلى محطة « محبوبتى » لأن طريقنا أصبح واحدا منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحطات معدودات ، ولئن لم يكن فى الوظيفة إلا هذا لكان حسبى من الهناء والسرور ، واحتطت بقلبى الضعيف فوقفت فى الطرف البعيد من « الطوار » حتى لا يصعقنى وجودى على

كئب منها . وجاءت بعد حين قليل تتهادى فى مشيتها التى تجمع بين النشاط والوقار فاستقبلها قلبى بخفقان كزغردة اللسان ، ولبثت غاضا بصرى ولكن فى نشوة جعلت الدنيا من حولى أطيافا وترنيمات ، وجاء الترام فركبنا معا ، وكانت أول مرة يجمعنا مكان واحد فسرى من ملمسه إلى جسدى مثل الكهرباء ، ووددت لو ينطلق بنا بغير توقف . وإلى الأبد . وحين غادرت الترام عبرت الطريق متعجلا إلى الطوار وأرسلت بناظرى إلى مقصورة السيدات فوقعتا على ظهرها وهى جالسة عاكفة على كتاب بين يديها . ولما تحرك الترام التفتت فجأة إلى الوراء فوقع بصرها علي ثم ولتنى ظهرها ثانية . انتفضت من الرأس إلى القدم ، وتسمرت قدماى فى الأرض وعلقت عيناى بالترام حتى لم أعد أتبين من معالمه شيئا ، ثم واصلت السير غائبا عما حولى ، سكران بالنظرة التى جادت بها السماء ، وتساءلت فى ذهول ودهشة لماذا التفتت ؟. أى داع دعاها إلى ذلك ؟ بل أى داع يمكن أن يكون هذا إذا لم يكن تلبية لنداء روحى الخفى ؟ إن الراديو يلتقط الصوت من تضاعيف الهواء على بعد الشقة ، فما وجه الاستحالة فى أن تلبى الروح نداء روح أخرى مشحونة بالهيام والرغبة !! وازدهانى ذاك الخاطر وآمنت فى سعادة لا توصف بأن لروحى تأثيرا على روحها . ولكن رحمتك اللهم ، فلشد ما ارتجفت تحت وقع النظرة الخاطفة !. ترى هل أنكرت وجهى أم ذكرت به الفتى الذى تطلع إليها لحظة على المحطة منذ ثلاثة أشهر ؟! وكنت قد اقتربت من الوزارة فعاودتنى اليقظة رويدا ، وقلت لنفسى وكأنى أودع ساعة النشوة المولية « إنى أحبها ، وهذا هو الحب بلا زيادة ولا نقصان » !.

وخرجت من دنيا الهيام لأدخل دنيا الحكومة . وقدمت نفسى للمدير فقدمنى بدوره إلى زملائى فى الإدارة وكانوا تسعة . هؤلاء قلة بالقياس إلى الطلبة وإنهم لرجال حقا فلا يمكن أن أتوقع منهم زراية أو سخرية ، ورجوت من صميم قلبى أن أبدأ حياة جديدة غنية ، ولما لم يعهد إلى بعمل ذلك اليوم وجدت فسحة لمعاودة خواطرى السعيدة عن الحرية التى أمنى النفس بها ، والتى أرجو بها أن

أستنقذ نفسى من سجن البيت وعبودية المدرسة ، ثم عن النظرة السعيدة التى انتزعها روحى من الأعماق قوة واقتدارا .

* * *

وأقبلت على الحياة الجديدة بأمل جذاب . وظفرت بأول نوع من الصداقة عرفته فى حياتى ، وهو ما يسمونه بصداقة « المكاتب » هى صداقة جبرية تفرضها زمالة الموظفين فى المكتب الواحد . وقد فرحت بها بادئ الأمر لأنه لم يسعنى — أنا الذى لم أعرف فى حياتى صديقا — إلا أن أفرح بين تسعة من الرجال ينادوننى بلا كلفة ، ويستقبلوننى ويودعوننى بأطيب تحية . ولكن واأسفاه قام خجلى حاجزا منيعا بينى وبينهم . ثم أثبتت لى التجربة أن تلك صداقة لا تستحق الأسف عليها ، فهى تبدأ مع الصباح بالتحية والمداعبة وقد تنقلب عند الظهيرة إلى وقيعة دنيئة تختم بإنذار أو عقاب . والأدهى من ذلك أننى لم أعرف لى عملا مستقلا ، ولكن ما من واحد منهم إلا ويكلفنى بعمل آلى انفذه صاغرا . وربما قضوا أكثر النهار فى ثرثرة وتدخين وشرب القهوة وأنا مكب على الأوراق فى شبه سخرة . ولا شك أنهم فطنوا بمكرهم إلى أنى « غر خجول » فاستغلوا ضعفى أسوأ استغلال . وضاق صدرى ، وخبا سرورى بالحياة الجديدة فى الشهر الأول منها ، وأيقنت أنى المستجير من الرمضاء بالنار ! . وزاد من سوء حالى أن الشرود لم ينقطع عنى أثناء عملى فوقعت مرارا وتكرارا فى أخطاء السهو ، وتوالت على الانتقادات الساخرة والانذارات ممن يدعونهم « برؤساء اليد » فكأننى رددت إلى المدرسة بتلاميذها ومدرسيها ، فعاودتنى مرارة حياتى الماضية ، وصح عندى أنى لن أظفر براحة حقيقية ما دمت على صلة بأحد من الناس .. واجتررت الآمى فى خفاء . ولم أكن أثور على شىء قط مما يشقينى ، وكان ديدنى دائما أن أطيع بقلب دام كظيم ، وسخط مكتوم . وزاد البلاء حدة أننى لم أجد لحياتى متحولا ، ولا أملا فى الخلاص ولو بعد حين . وقد كنت أتجلد فى المدرسة أحيانا على أمل أنها ستنتهى يوما فأصير رجلا حرا مسئولا ، أما الآن فلم أر أمامى إلا

مستقبلا متجهما مريرا لا نجاة منه إلا الموت . أجل أدركت أنى لن أظفر بالراحة مدى الحياة ، وأنه لن تزايلنى الرغبة الخفية فى الهرب . ولكن إلى أين هذه المرة ؟. ولم يكن سر بلوتى فى عجزى حيال العقبات فحسب ، ولكن فى تضخيمها وتكبيرها ، فإنى نصبت من عقلى حرب أعصاب هائلة ضد نفسى .. لم أروض نفسى على الحياة فى الواقع ، ولم أوطنها على احتماله ، فلم أدر ما فلسفة الرضا أو الاستهانة ، كما أنى لم أقدر على فلسفة القوة أو الثورة ، وكان إذا صادفنى أمر لا يحتمل — والدنيا كلها عندى لا تحتمل — راح خيالى السقيم يصنع من الحبة قبة ، ولاقيت الهم بما يشبه الصبر فى الظاهر على حين أنطوى على نفسى فى كمد قاتل وغم فتاك . لذلك لم يخل مكان أحل فيه من عدو حقيقى أو وهمى . كان التلاميذ والمدرسون أعدائى القدماء فغدا الموظفون أعدائى الجدد .

* * *

ولكن كنت أنت العزاء والسرور !. الحياة صحراء قاحلة مهلكة وأنت بها وحدك الواحة الخضراء الرطيبة تلوذ بها النفس . ووالله ما حمدت للوظيفة من شىء إلا أن نقلنى طريقها إلى محطتك ، فعندها أنتظر كل صباح مطلعك حتى إذا رأيتك مقبلة فى خفة الغزال ووقار الطاووس تراجعت إلى طرفها البعيد فيما يشبه الذعر ودعوت الله أن يخفف عنى شدة الخفقان ثم أسترق إليك اللحظ متحاميا أن تلتقى العين بالعين فالتقاؤهما جلل لا يصمد له إلا الأكفاء . وإذا جاء الترام ركبنا معا ولا تدرين سرورى به إذ يحملنا معا ، ثم أغادره فيسير بك إلى هدفه المجهول مزودة بدعائى أن يصونك المولى ويسعدك ، وتبقى لى بعد ذلك صورتك عالقة بخيالى تذر على الأنس فى وحشة سجنى الجديد . ولكن إلام أظل على تلك الحال ؟ لقد صفق الجزع بقلبى ، وأمضنى الانتظار .

وزاد من التياعى أننى جعلت أراها فى الأصائل كما أراها فى الأبكار ، لأننى كنت أغادر البيت عصرا كما يحلو لكثير من الموظفين فى غير معارضة من أمى التى لم يعد بوسعها أن تعارض فى ذلك ، وكنت أهرع إلى محطتى القديمة تلقاء بيتها ،

فأقف بين المنتظرين مستطلعا مشرق روحى بطرف مشوق ، فأحيانا أرى الأم أو الأب أو الأخ أو الأخت ، وأحيانا أراها فى فستان بسيط أنيق من فساتين البيت يزلزل نفسى زلزالا شديدا .

لم أعد أرى لحياتى أملا إلا فى الرفيق الأنيس ، فهمت بها هياما ، واستأسرتنى رغبة صادقة حارة فى السعادة التى لم يكن لها من معنى فى نفسى إلا أن أفنى فيها وأن تفنى فى . بيد أننى لم أتجاهل العقبات ، وهل كان دأبى إلا تكبير العقبات ؟! فلم أنس أننى فى أول الطريق وأن مرتبى سبعة جنيهات ونصف ؟ ثم لاحظت بمزيد القلق أن ثمة رجلين يقفان معنا فى المحطة صباحا لا يفتآن ينعمان النظر فى وجه الفتاة باهتمام . أما أحدهما فرأيته يخرج مرات من العمارة التى تقيم فيها ، وهو رجل فى نحو الأربعين تلوح فى وجهه آى الرزانة والوقار ، ويتسم بطابع الموظفين الممتازين . وأما الآخر فشاب فى الثلاثين ميال للضخامة والبدانة مع أناقة ووجاهة ، إلا أن إيماءاته ونظراته تنم عن العجب والزهو . وعجبت لتطلعهما المتواصل إليها وما من داع إلى العجب ، ولكنى ظننتنى — ويا له من ظن مضحك — أول من تهيأ له كشف ذلك الكنز . وثار بى الغضب والحنق ، وتلوت دودة الغيرة فى سويداء قلبى . إنها لا تحيد عن نظرتها المستقيمة ولكن ترى هل تجهلهما حقا كما تجهلنى ؟. خصوصا هذا الجار الذى يقطن تحتها أو فوقها؟ وتقبض قلبى فزعا ويأسا ورمقتها بغيظ كأنها المسئولة عن اهتمام الناس بها؟.

واطردت حياتى بين عمل ممقوت وحب حائر غريب .

وكان بيتنا فى ذلك الحين يعد من البيوت السعيدة ، اطمأنت قلوب أهله ، نسكن خاطر الشيخ الهرم ، وقنعت أمى بما قسم لى ولها . بيد أن جدى قال لى يوما بلهجة ساخرة :

— ألا اخجل يا رجل وابتع لك فراشا ، أتظل الدهر تنام فى حضن أمك ؟!.

وابتعت بالفعل فراشا ولكنى ركبته فى نفس الحجرة فظلت تحوينا معا ، وهى الحجرة التى رأيت فيها نور الدنيا .

١٩

ثم كان صباح تاريخي فى حياتى إذ وقع بصرها على . والتقت عينانا . وهى قادمة نحو المحطة ، وارتعشت جوارحي وتساءلت وأنا أعانى الحياء : ترى ألم تذكر الفتى الذى رأته يوم لبت نداء روحى ؟! وأسكرتنى نشوة لم يخمدها مجىء الرجلين المنافسين نفسه . وحملنا الترام جميعا حتى محطة الوزارة فغادرته ، وهرعت إلى الطوار ثم بعثت بناظرى إلى مقصورة السيدات ، وكانت تجلس فى الصف الآخر ووجهها إلى ناحيتى فالتقت عينانا مرة أخرى ، وغضضت بصرى فى حياء وصدرى بالسعادة يترد ، ثم غمغمت لنفسى وأنا أجد فى السير « برح الخفاء وافتضحت ! » وقد تذكرت سعادتى عصرا وأنا جالس فى حجرتى غير بعيد عن أمى فقلت لنفسى وأنا أختلس منها نظرة غريبة « آه لو تدرى بأفكارى ! » . ألم تعلمنى تجاربى الماضية أن مثل سعادتى هذه مما تعده هى — أمى — كفرا لا يغتفر ؟!.. هذه حقيقة لم تغب عن خاطرى قط ، ومع ذلك بدت لى وقتذاك غريبة مستنكرة كأنما أكتشفها لأول مرة ، وسددت نحو الوجه الوقور الجميل نظرة احتجاج واستياء ، وقلت لنفسى متغيظا : « ربما كان الضرر يقع بى أخف لديها من كشف حبى ! » . ولعلى بالغت كثيرا ، ولكن سيرتها الماضية جعلتنى لا أرنو إلى الجانب البهيج من الحياة إلا فى خوف وحياء شديدين من ناحيتها !. وكأنما ضقت بكتمانى سعادتى فى حضرتها فغادرت البيت مسرورا وهرعت كالمعتاد إلى المحطة القديمة ، وسبقنى بصرى فوقع على الشقيقتين وراء زجاج النافذة فتقدمت فى سعادة غامرة ، أمشى على استحياء .. وأندسست فى زحمة الواقفين وقلبى يتمنى ألا أبرح المحطة حتى يسدل الليل سدوله . وكان الجو شديد البرودة فداخلنى سرور بأنى أتحمل قسوة الجو فى سبيل نظرة من عينيها . ولم أشك فى أن طول قامتى ومعطفى الأسود خليقان بأن يذكراها بى . ورفعت

عينى فى خوف شديد فرأيتها تنظر صوبى وإن لم أتمكن لبعد المسافة من تحديد تحديقة عينيها ، ومع ذلك سرت إلى أطرافى رعدة السرور . وجاء الترام على رغمى ، ودفعنى الخجل دفعا إلى ركوبه .

لم يعد لحياتى من غاية إلا المحطة وصاحبة المحطة . قصاراى أن أسترق النظر بعينين خجولتين ، وأن أخفضهما سريعا إذا رنت إلىَّ العينان اللتان أُحبهما أكثر من الحياة نفسها . ولم تعد فتاتى تجهلنى كما جهلتنى أشهرا أربعة ، فأحست بلا شك أن فتى يتطلع إليها حيثما تحل ، وأنه يتعمد ذلك فى صبر طويل وإن كان لا يبدى حراكا . بل ابتسم الحظ فجعلت أفوز بنظرة كل يوم تقريبا . وإن بدا أن الاتفاق وحده هو باعثها ، نظرة عابرة تلقى على المكان كله فتصادفنى فى جانب منه !، وفيما عدا ذلك فقد حافظت على وقارها واحتشامها . أجل ما عادت تجهلنى مهما تجاهلتنى ، وأنه لظفر رائع — بالقياس إلى عجزى — أن تحس وجودى بعد ذلك النضال الصامت الطويل . وثابرت على النظر والصبر وكأننى أنتظر أن تجيء الخطوة التالية من ناحيتها هى ، أو من رب السماوات والأرض ..

تلك أيام حلوة سعيدة على خلوها من الأمل . أنفقتها فى إحساس عميق بهيج وأحلام لا يحيط بها الخيال ، رفت على قلبى فى طهر وقداسة . وقد أوصدت دونها باب خلوتى الليلية ، ولذتى الشيطانية .

* * *

وتبين لى بعد حين أن سرى المكنون يتسرب من أعماق صدرى على تكتمى وحرصى . لا أدرى كيف حدث ذلك ، ولعل الأمر لم يعد أننى أنسى نفسى فى لحظات الهيام فتقع العين منى على ما أحرص على كتمانه . وما أدرى يوما إلا والرجلان « المتنافسان » يرمقاننى بريبة ، وكأنهما فطنا إلى ظهور منافس جديد . ويوما مرت بى فى موقفى من المحطة خادمة الفتاة فألقت على نظرة ذات معنى ذاب لها قلبى ذوبانا ، وساءلت نفسى فى خوف وسرور : ترى هل بلغ سرى البيت نفسه ؟! ثم غمغمت فى حياء بالغ « افتضحت وما كان قد كان » .

ومرة رأيت الأخت الصغيرة فى النافذة وأنا مقبل نحو المحطة عصرا ، ولما لمحتنى التفتت إلى الوراء كأنها تخاطب شخصا لا أراه ، ثم بدت الأم وراء زجاج النافذة وألقت على نظرة متفحصة . رباه ! لقد داخلنى شعور الجانى إذا ضبط متلبسا بجريمته . ولم يبق ثمة شك فى أن البيت يعرفنى ، وازددت يقينا فيما تلا ذلك من أيام ! فما كان يقع على بصر أحدهم حتى يتفحصنى باهتمام إلا مولاتى طبعا ! وازددت اضطرابا .

ورحت أسائل نفسى الحيرى عما يقولون ، وعما يظنون ، لى منظر حسن خداع ، ولعلهم يظنوننى موظفا مغبوطا ذا مستقبل باهر ! أواه ، ما كنت موظفا كبيرا إلا فى تقدير أمى ، ولعلى ندمت عند ذاك على قطع حياتى الجامعية ، وعزيت نفسى المحزونة بأنى سأرث يوما ثروة لا بأس بها !. مهما يكن من أمر فلا داعى للخوف من البيت . بل إنى لأشعر بأنه سعادتى المرموقة . وإنى لأحبه من مجامع قلبى ، أناسه وأثاثه وحجراته وحتى خادمته . إنى أعيش فيه بروحى ، وأجاذب أهله — فى الخيال — أشهى الأحاديث ، أما حبيبتى فهى ملء القلب والعقل والخيال . وكنت إذا رأيت الغسيل منشورا على الشرفة تهفو به نسائم الأصائل أرنو إليه بعين محب حنون ، وبصرى يتنقل بين ألوانه وأشكاله مشغوفا بأهداب رقاق يطرب لها قلبى طربا قدسيا كأنما يشنف آذانى سجع ألحان إلهية !. ولكم خاطبت حجرة حبيبتى موصيا إياها بها فى اليقظة والمنام ، وعندما تحلق بها الأحلام ، أو حين تتحدث بنبراتها التى لم أسعد بسماعها .

ويوما دفعنى الهوى إلى البقاء فى الترام حتى أوصل حبيبتى إلى مدرستها . واضطربت خوفا وقلقا من جراء المخاطرة التى نشبت فيها ، وبلغ الترام العتبة الخضراء وعيناى لا تفارقان مقصورة السيدات لأرى أين تنزل حبيبتى . ودار الترام بنا مخترقا شوارع كنت أراها لأول مرة حتى عبر جسر أبى العلاء . وفى المحطة التالية له غادرت الفتاة الترام . وهبطت إلى الطوار وأنا أتبعها عينى فرأيتها تتجه إلى الطوار الأيمن بطولها الفارع وقدها الرشيق ، ثم انعطفت إلى طريق

جانبى يمتد بحذاء القصور المقامة على النيل ، وسنحت منها التفاته وهى تنعطف إلى الوراء فوقع بصرها على وأنا واقف أنظر صوبها . ارتجفت أوصالى كأنما مسنى تيار كهربائى ، وتصاعد دم الخجل إلى وجهى . وسرعان ما غابت عن ناظرى فتقدمت خطوات حتى أمكننى رؤية الطريق فرأيتها تبتعد بخطواتها الرشيقة ، ثم مرقت من باب جانبى غير بعيد . ولبثت مترددا ، وفكرت فى العودة إلى الوزارة التى تأخرت عن ميعادها بغير اعتذار ، ولكن أبت نفسى أن تنتهى المخاطرة بلا نتيجة . وتقدمت نحو المدرسة بقلب هياب ، ثم مررت بها متعجلا ، ولكننى قرأت اللافتة « معهد التربية العالى للبنات » ، ورجعت إلى المحطة وركبت الترام العائد وأنا أتساءل عن معنى ما قرأت . وعلمت ما فاتنى علمه فى إدارة المخازن فأخبرنى موظف أنه معهد لتخريج المعلمات لمدارس البنات الابتدائية . وإنهن يدخلنه بعد البكالوريا . وداخلنى زهو لأن حبيبتى ستصير أستاذة ، ولكن لم يغب عنى الفارق الكبير بيننا فى الثقافة ، فلعنت نفسى الخائرة التى حملتنى على الفرار من الجامعة !، وساورنى خوف وكآبة . ثم لجأت إلى المجلة مشيرى القديم فأرسلت إليها هذا السؤال : « هل يمكن أن تحب فتاة مثقفة ثقافة عالية شابا من حملة البكالوريا ؟ » . فذكرت المجلة فى جوابها الأميرة التى أحبت الراعى !..

وحلمت تلك الليلة بحبيبتى ، فكانت أول زورة فى المنام ..

٢٠

تركزت أحلامى فى أمرين ، أن أتمتع بدخل حسن — وهو آت يوما ما — وأن أظفر بعروسى . لم أكن ممن يشقيهم الطموح ، وإذا كان لى منه شىء فيما مضى من أيام الأحلام ، فقد قبر فى إدارة المخازن بوزارة الحربية حيث تعد علاوة نصف جنيه من الآمال البعيدة . أجل لم تثب بى الهمة فى الطموح ، ولكن هفت

نفسى إلى السعادة والطمأنينة ، إلى المعيشة الطيبة والزوجة المحبة الصالحة . ولم يجد جديد فى حياتى إلا مواظبتى على الصلاة بعد أن كنت أنقطع عنها فى فترات متباعدة . ولعل هيمان صدرى بالحب هو الذى هيأ لى ذلك الاتصال الطاهر بالله خمس مرات فى اليوم ، على أن نفسى لم تتخفف من ألمها القديم ، وزادتها الصلاة ألما ، لما يفرط منى فى ساعات اللذة الجنونية التى اختلسها بليل ، فلم يعد يسعنى الكف عنها ، بل زدت استسلاما لها ، دون أن يرحمنى الندم يوما واحدا ، وليس أشقى من أن يقرعك الندم وأنت ذو إيمان . وما من شك فى أن ذلك الصراع المتواصل هو الذى جذبنى إلى إنعام النظر فى نفسى وحياتى فهالنى أول الأمر ما تسير عليه حياتى من منوال رتيب فاليوم فيها بعام والعام بيوم ، ألم ينقض على عام منذ توظفى بالحربية دون أن يجد جديد ؟! عمر يمضى فى ضيق بالعمل المقضى به على ، وفى وحشة لا تتبدد إلا ساعتين . ساعة المحطة ، وساعة الأنس بأمى فى بيتنا . وحتى تلك الأويقات السعيدة لم تخل من تنغيص وألم ، فعند حبيبتى كان يطاردنى طيف أمى ، وعند أمى كان يخيفنى طيف حبيبتى . وتولد من ذلك قلق محير امتزج فى نفسى بما يئن بها من ندم فشملنى بكآبة لا تريم . وإنى إذا رجعت بالذاكرة إلى تلك الأيام أنحيت باللائمة على نفسى ، لا لأنى لم أجد سببا وجيها لتعاستى ، ولكن لسوء صنيعى المعتاد فى تضخيم الأحزان والآلام ، ولأنى لم أواجه أمرا فى حياتى بما يستوجبه من حزم وشجاعة . ولذلك لم تدر أمى علة لسهومى الذى كان يقلقها ، ولطالما قالت لى بحزن وأسف :

ـــ لماذا تبدو أحيانا كالحزين ؟. لعمرى ماذا ينقصك ؟ أردت أن تكون موظفا فكنت ، ومتعك الله بعطف جدك الذى يهيىء لنا عيشا رغيدا ، وفى خدمتك أم لو استوهبتها حياتها لوهبتك إياها عن طيب خاطر ، وبين يديك الشباب والصحة أدامهما الله لك . فماذا ينقصك ؟

وعجبت كيف تتساءل عما ينقصنى !.. أجل إنها عدت لى نعما سابغة ، بيد أننى أجهل فضل تلك النعم ، وكانت لى بمثابة الهواء الذى ننعم به فى كل لحظة من

لحظات حياتنا دون أن يخطر لنا أن نشكر عليه . ولكنني لا أنفك عن التفكير فيما ينقصني فيعميني ما أتطلع إليه عما أنعم به . إنى شخص لم يقدر له أن يعرف شيئا عن حكمة الحياة ، فلم يخرج قط عن دائرة نفسه الضيقة ، وفى ذلك سر دائى ، هو الذى حال بينى وبين مسرات الحياة ، وما فيها من فضائل ومعان وصداقات ، وطوى صدرى على النفور من الناس والخوف منهم ، بل جعلنى أعد الدنيا عدوا يتربص بى . ولعله لم يكن يرضينى إلا أن تخلى الدنيا نفسها من همومها لتكرس حياتها لسعادتى ، ولما لم يسعها ذلك قاطعتها فى عجز وخوف وناصبتها العداء ، وانكمشت فى أعماق ذاتى جاهلا ما يمتلئ صدرها من أناس وآمال وفضائل ، وحتى الحب وهو أول إحساس سام ألهمه وقفت حياله جامدا خائفا ، أنتظر فى يأس أن يبادر هو إلى ..

ثم جاء دور أمى ولو متأخرا ، فأخذت أتمرد عليها وإن لبث تمردى نارا مكنونة لا يتطاير لها شرر . ونشأ ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكرها بزواجى عاجلا أو آجلا . وقد لمست ذلك بنفسى حين حدثتها خالتى — فى إحدى زياراتها الرسمية — عن رغبتها فى زواجى من ابنتها التى صارت شابة ناضجة ، فرأيت كيف تلقت الاقتراح بنرفزة ظاهرة لم تستطع معها أن تحافظ على ما ينبغي المحافظة عليه فيما بين شقيقتين من مودة أو مجاملة فغادرتنا خالتي مغضبة .

ولمسته مرة أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة — كانت تزورنا فى مواسم الكساء — أن تخطب لى عروسا لائقة ،فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتى انعقد لسان المرأة دهشة وارتباكا .

لاحظت ذلك بوجوم وغيظ ، واستنكرته استنكارا شديدا ، ولم أجد له تفسيرا أرتاح إليه . ولم تكن بى رغبة إلى ابنة خالتى ،ولا إلى عروس من عرائس الدلالة ، ولكنى آنست منها كرها لزواجى ، فأشفقت على آمالى ، وثارت ثائرتى وبدا لى أن قلبها توجس خيفة فقالت لى يوما :

— إنهن لا يرمن سعادتك ولكنهن يردنك مطية لسعادة بناتهن ! لم أفهم لقولها معنى ، وقرأت فى عينيها أنها ترجو أن أفصح عن عدم اكتراثى للأمر ، ولكننى تشجعت ولازمت الصمت ، فقالت بلهجة تشى بالقلق .

— الزواج سنة ، ولا يجوز أن يتزوج الشخص قبل أن تكتمل رجولته .

فتساءلت فى امتعاض : إذا لم تكتمل رجولتى فى السادسة والعشرين فمتى تكتمل إذن ؟. ووددت لو أصرح بأفكارى ولكن شجاعتى لم تسعفنى فواصلت الصمت . وتفرست فى وجهى مليا ثم استطردت قائلة بجزع :

— إنى أريد لك عروسا جديرة بك حقا . يبهر حسنها الأعين ، وتطرى أخلاقها الألسن ، من أسرة كريمة ذات مجـد ، فتهيئ لك قصرا شامخا !.

فسألتها وأنا أدارى غيظى :

— وأين توجد مثل هذه العروس ؟!.

فقالت وهى تعض شفتيها :

— ستوجد حين يأذن الله !.

وقلت لنفسى هذا تعجيز بلا ريب . واحتدم الغيظ بصدرى وتراءى لى وجهها فى حالة الغضب والثورة ، فقلت لنفسى ساخطا :

— إن أمى إذا احتدت توارى جمالها ونضبت سماحة وجهها .

٢١

الزواج !. الزواج !. لم يعد لى فكرة سواه ، ولم أجد لحياتى معنى إلا أن تتم به . إذا لم نتزوج فلماذا إذن نحيا ، بل لماذا وجدنا فى الحياة ؟. إنى أحن إليه حنينا موجعا تندى له الضلوع فتسح أشواقا : إنه جنة المبتلى بنار الجحيم . ولست أكف لحظة عن تخيله فى أحلام اليقظة الشاردة التي تغيب بى عن الوجود . إنى أرانى لصق حبيبتى وعلى وجهها الأنيق نقاب الحرير المطرز بالفل ، بالشمع يزهر

من حولنا . وأرانى أمضى بها إلى مسكن فى آخر القاهرة ولا أدرى لماذا أحب أن يكون فى آخر القاهرة . ثم أراها تنتظرنى بالشرفة فأهرع نحوها وقد انطلقت من قفص إدارة المخازن فتجود لى سعادة هفهافة يعجزنى تصورها حتى فى الأحلام. بيد أنى لم أتمل الأحلام صافية فطالما أعقبت نشوة الفرح الوهمى كآبة غامضة لا أدريها ، ولم يخل خاطرى قط من وجه أمى المحبوب فكان ينتابنى حياء شديد يتصبب له جبينى عرقا ، ويخامرنى شعور بالذنب تعافه النفس . فيتلوى بوزى اشمئزازا ..

وفضلا عن هذا كله فإننى لم أتخلص من بعض هوى للعزوبة نفسها ! إن حب الوحدة داء ، إنه أشبه بالمخدر تود منه فرارا ولا تستطيع عنه فكاكا ، وتبغضه لنفسك وأنت تعانى الحنين إليه . أتؤاتينى الجرأة حقا على نبذ ماضى الطويل ؟.. إن نفسى تهفو إلى البيت الزوجى السعيد حينا ، ثم يتملكها الإشفاق على الوحدة الهادئة والطمأنينة المعفاة من المسئوليات حينا آخر . وأن الهرب من المسئوليات داء قديم حتى لأضيق بحلاقة الذقن أو عقد رباط الرقبة ، فكيف أنبرى لحمل تبعات البيت والزوجة والذرية وما يجر ذلك من حياة اجتماعية متعبة بما تفرضه من واجبات وتقاليد ؟!. إنى أتخيل تلك الواجبات فتبرد أطرافى ، ولكنى فى الوقت نفسه لا أكف دقيقة عن الحنين إلى الحياة الزوجية .

بت أشعر بأنى فريسة همين قاتلين : ترددى وأمى . ومن يدرى فلعل أمى هى الهم كله . وتجمعت نفسى الحيرى تروم سلاما تلوذ به ، فأجمعت على أن أقابل الخطر وجها لوجه وليكن ما يكون ..

وإنى لجالس إلى أمى ليلة إذ قلت لها بلا سابق إنذار :

ــ ألاحظ يا أماه أنك لا ترغبين فى زواجى .

فاتسعت عيناها الخضراوان الجميلتان دهشة ، وقلقت فيهما نظرة حائرة ، ثم قالت بصوت متغير :

ــ أنى أرغب فى سعادتك دائما ، وهذا شغلى الشاغل . وإذا كنت لم أوافق

على ما عرض لى من هذا الأمر فى الماضى فلأنى وجدته دون ما أرجوه لك ، ولا شك أنك تدرك هذا تمام الإدراك . ولكن ..

وترددت لحظة ثم استطردت متسائلة :

ـــ ولكن .. لماذا تلقى على هذا السؤال ؟.

وحولت عنها بصرى كأننى خفت أن تقرأ ما فى ضميرى ، وقلت بعدم اكتراث :

ـــ سؤال لا أكثر . أحب دائما أن أعرف ما يجول بخاطرك .

فتهدج صوتها وهى تقول :

ـــ ليس بخاطرى إلا فوق ما تحب لنفسك من السعادة والهناء .. ولكن ليس الزواج لهوا ولعبا ، وإليك مأساة أمك فهى أكبر دليل على ما أقول . واذكر دائما أن اختيار الزوجة مهمة شاقة ، وهى من شأن الأم قبل أى إنسان آخر ، لأن هذا ميدان تجاربها ، وهى تعرف ابنها أكثر مما يعرف نفسه ، وتستهدف سعادته قبل سعادتها هى ، كذلك السن أمر عظيم الخطورة ، وأنت بعد فى حكم الأطفال .. لماذا تلقى على هذا السؤال « وهنا ازداد صوتها تهدجا » .. إليك مأساة أمك فهى لا ينبغى أن تغيب عن وعيك . كم تعذبت ، وكم تألمت ، وكم كابدت الإهانة تلو الإهانة . كم بكيت حنينا إلى أطفالى الذين عاشوا غرباء عنى ونحن فى مدينة واحدة . وحتى أنت كان شبح فراقك يطاردنى ويقض مضجعى ، ولو أخذوك منى لقضيت غما وكمدا . وكم تمنيت الموت صادقة لأرتاح من وساوس حياتى المقلقة « خيل إلى أنها تعنى حياتها الراهنة بقولها الأخير » ولذلك كرست حياتى لرعايتك ، وضحيت بسعادتى فى سبيلك ، و .. « ترددت لحظة ولعلها همت بتذكيرى بالرجل الذى رفضته من أجلى ثم عدلت » . ولا تحسب أنى أمن عليك ، فالأمومة تستنكر المن . ليته كان للبنوة بعض ما للأمومة من عطف . لشد ما تنسى .. رباه لا تؤاخذنى ، أنا لا أدرى ماذا أقول . ولكن لا تظن بأمك الظنون . إننا نعطى كل شىء عن طيب خاطر ، حتى إذا شب المولود عن الطوق

لم يفكر إلا فى أن يولينا ظهره ويجد لنفسه مهربا . أقول مرة أخرى لا تؤاخذنى . لست أحسن ضبط نفسي واأسفاه . ولكن لقد عشنا معا طوال هذا العمر . وليس لى أمل فى هذه الدنيا سواك ، فإذا نبذتنى لم أجد لى مأوى . أنتم حياتنا فى صغرنا وكبرنا على السواء ، أما نحن فتحبوننا صغارا وتكرهوننا كبارا ، أو أنكم تحبوننا حين لا تجدون من تحبونه غيرنا ، ماذا قلت ؟.. أستغفر الله .. سامحنى يا كامل ، إنى مضطربة ، لست أحسن الحديث على الإطلاق ..

وعجبت كيف انحدر بها الحديث ذاك المنحدر الصعب . بدأ الكلام مقبولا ثم تشنج . وحاولت أن أحول دون استرسالها فلم تجد محاولتى ، فاضطررت أن أتجرعه على ما أثار من ألم وحزن ، وتبادلنا نظرة طويلة ، دلت على العتاب من ناحيتى ، وعلى الذهول من ناحيتها . لم تكن فى كامل وعيها واأسفاه . وقلت بأسى :

ـــ أهذا جزاء من يسأل سؤالا بريئا ؟!.

فاغرورقت عيناها ، وقالت وهى خافضة العينين :

ـــ أنا لا أحسن الحديث أحيانا ويحسن بى أن أمسك . لا تخش جانبى ، وإذا راق لك يوما أن أغيب عن وجهك فما عليك إلا أن تومئ إلى ولن تجد لى أثرا ..

ووضعت يدى على فمها وصحت بها :

ـــ سامحك الله . حسبنا كلاما . لقد أخطأت بسؤالى البرىء خطأ كبيرا !.

ثم تظاهرت بعدم الاكتراث ، بل ضحكت طويلا ، وكأن ما كان لم يكن ، وراح قلبى وحده يجتر آلامه . أثر فى كلامها حتى هزنى هزا عنيفا فحزنت حزنا لم أشعر بمثله من قبل . وعجبت كيف يغلبها الانفعال على نفسها فتلقى فى وجهى بتلك الاتهامات الجارحة . ولم أخل من سخط عليها لا لأنها اتهمتنى بالباطل ـــ فذاك نثار وغضب وقتى لا قيمة له ـــ ولكن لأنها قابلت رغباتى الكامنة بثورة تجاوزت حدود الحكمة !. وتماديت فى سخطى فقلت إنها ذكرت نفسها أكثر مما ينبغى ونسيتنى أكثر مما ينبغى .. واستسلمت كالعهد بى لداعى أنانيتى فرميتها

بالأنانية ..

وعقب حديثنا الغريب بيومين أصابتها وعكة مرض ألزمتها الفراش فلم أفارقها أثناء مرضها إلا فى أوقات العمل . ومع أن الحالة كانت خفيفة إلا أن وجهها بدا شديد الذبول والهزال لنحولها الطبيعي فتوجع قلبى توجعا أليما . ولم أطق أن أراها محرومة من جمالها وصحتها . فأحزننى منظرها وساءنى إهمالها نفسها . وكانت تعصب رأسها بمنديل فبرزت تحت طرفه خصلات من شعرها وخطها المشيب وشعثها الإهمال فضقت صدرا وتجهم لى وجه الدنيا . ويوما — وكنت جالسا إلى جانبها — جرت فى تيار شعورى خواطر غريبة لعل باعثها الخوف والإشفاق ، فطرحت على نفسى هذا السؤال الخطير : كيف تكون الحياة لو خلت من هذه الأم الحنون ؟. واقشعر بدنى ، بيد أن خيالى لم يمسك عن هذيانه ، فتتابعت المناظر أمام عينى واستسلمت لمشاهدها فى حزن صامت ثقيل . رأيت بيتا مقفرا ورأيتنى تائها حائرا كمن ضل سبيله فى مفازة ، وهذا جدى متبرما ساخطا يصب جام غضبه على الخادم العجوز والطاهى . ولمست عجزى عن مواصلة هذه الحياة الموحشة فاقترحت على جدى أن أتزوج لنجد من يكلأنا برعايته . ثم رأيت حبيبتى بقامتها الرشيقة ووقارها المحبوب تتعهد البيت وآله بعطف سابغ وحب شامل . ثم رأيتنا جميعا — أنا وزوجى وجدى — واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا . وانتبهت إلى نفسى فى فزع فأحسست بالدمع حائرا بين جفنى . وعض الندم قلبى ، وامتلأت نفسى امتعاضا وثورة ، وغمغمت لنفسى « اللهم غفرانك ، اللهم اكتب لها طول العمر » ، ثم هويت على وجهها فقبلته بحنان ، وقد طاردتنى ذكرى تلك الخيالات كثيرا حتى تركت فى آثارا عميقة من الألم والحنق . ولازمنى هم مقيم حتى بعد أن برأت وعاودها نشاطها وجمالها . وكدت أعود إلى ذلك التفكير السقيم فى الحياة الذى يقف عند طرفيها — الميلاد والموت — ويرى ما عدا ذلك هباء فى هباء ، وهو ذلك التفكير الذى تأدى بى فيما مضى إلى محاولة الانتحار لولا أن الله سلم .

٢٢

جاء الصيف ، ومعناه ـــ بمقياس القلب ـــ أن حبيبتي ستنقطع عن الذهاب إلى المعهد فلا تتاح لى رؤيتها إلا فى الشرفة أو النافذة . إنها تعرفنى الآن حق المعرفة كما يعرفنى البيت جميعا ، ذلك الفتى الذى يتطلع إليها دواما ، ويرنو صوبها بعينين يتجلى فيهما الإعجاب والحب ، ويثابر على ذلك فى صبر عجيب زهاء عام دون أن يبدى حراكا ، والأعجب من هذا كله أننى كنت أضبط عينيها فى لفتات عارضة وهما ترنوان إلى فأجن جنونا . وإنى أكاد أسمعها تتساءل عما أريد ، بل أسمعهم جميعا يتساءلون ، وهذا يسعدنى ويشقينى معا ، والحق أنى أحبك يا حبيبتى أحبك بكل قوة نفسى ، فإذا سألت بعد لماذا لا أبدى حراكا ؟ أجبتك بأننى لم أدر كيف أبدى حراكا فى حياتى ، وورائى أم ، وحظ محدود ، فكيف يمكن تذليل هذه الصعاب ؟.. خبرينى يا حبيبتى أطر إليك بغير جناحين !.

وكان يوم غريب فى حياتى ..

وبدأت الصباح بوقفة الهيام وتطلع العشق . ثم ذهبت إلى الوزارة تتنازعنى أحاسيس السعادة والشقاء شأنى كل صباح ، وراح الموظفون يستقبلون اليوم كعادتهم بالثرثرة ، فقال أحدهم وكان يلينى فى مجلسه :

ـــ سكرت أمس حتى تأرجحت بى الكرة الأرضية !.

وثار اهتمامى فجأة وحضرنى أبى بصورته وذكرياته . ترك فى قوله أثرا لم يدركه أحد ممن يجلسون حولى ، ولا عجب فالخمر كتبت تاريخ أسرتنا وقررت مصائرها ، والتفت نحو الموظف وند عنى هذا السؤال همسا بلا وعى تقريبا :

ـــ لماذا تشرب حضرتك الخمر ؟.

ثم أدركت فى التو تسرعى وخطئى فعلانى الارتباك والحياء . ولم أكن خاطبت أحدا فى الإدارة منذ التحاق بالخدمة فى غير شئون العمل حتى أطلقوا

على « غاندى » لما عرف عن الزعيم من أنه ينذر يوما فى الأسبوع للصمت .

وفرح الرجل بتطفلى عليه وقال بصوت مرتفع وهو يومئ إلى :

ــ أخيرا تكلم .!

وسأله أحدهم وهم يصوبون أنظارهم نحوى :

ــ من ؟.

ــ غاندى .

ــ وماذا قال ؟.

فقال الرجل ضاحكا :

ــ يسألنى لماذا أشرب الخمر !.

فقال آخر :

ــ سكت دهرا ونطق كفرا !!.

وقهقهوا ضاحكين ، بينا ذبت فى مقعدى صامتا ، وراح أكثرهم يحدثنى عن الخمر والنشوة واللذة والنسيان . ندمت على ما بدر منى مما وضعنى موضع سخرية ومزاح . وتفكرت فى الأمر طويلا ، ثم أفقت إلى نفسى فوجدتها ــ لدهشتى ــ تتلهف على تجربة الخمر !!. ولشد ما عجبت فيما أعقب ذلك من أيام لتلك اللهفة الغريبة بعد ستة وعشرين عاما ، قطعتها فيما يشبه النسك إذا استثنيت اللذة السرية التى جرعتنى مرارة الذنب والندم . هل نشبت تلك الرغبة فى نفسى فجأة ؟. إن ظاهر الأمر يدل على أن ذاك الحديث الذى دار بين الموظفين كان الباعث على تلك اللهفة ، ولكن هل يعقل أن يهوى إنسان مستقيم مثلى لعارض تافه كذاك العارض ؟! لقد ركبنى جنون ، فتمنيت أن ينقضى النهار سريعا لأقرع باب اللذات الموصد ، ولأحطم الأغلال التى أذعنت لها طوال عمرى ، وقلت لنفسى وكأن الذى يتحدث شخص غريب : « سأجرب الليلة الخمر والنساء ! » وأراحنى التصميم لأنه خير من القلق والتردد ، ولأنى منيت نفسى بأن أجد وراءه متنفسا للضغط الشديد الذى يؤودنى ، ولم أعرف التردد

— ذلك الرفيق البغيض — طوال يومى ، فعند الأصيل كان الترام يحملنى إلى العتبة ، ووقفت فى الميدان حائرا لا أدرى أين توجد الحانات ! ثم رأيت عربة فناديت الحوذى وركبت ثم قلت له بصوت منخفض فى حياء شديد :

— حانة .. أية حانة من فضلك !.

فحدجنى الرجل بنظرة غريبة ثم قال وهو يلهب ظهر الجوادين بسوطه :

— سأذهب إلى شارع ألفى بك وهناك تختار الحانة التى تعجبك !

وانطلقت العربة فذكرتنى بالحانطور القديم وأيامه الخوالى . وكان بحافظتى عشرون جنيها غير « الفكة » لأن مرتبى وإن كان صغيرا فى ذاته إلا أنه كان يترك لى كله فكفانى وزاد عن كفايتى . ولما شعرت بأن العربة تقترب من الهدف الذى تلهفت عليه كله دق قلبى بعنف واعترانى اضطراب شغلنى عن رؤية الشوارع التى تخترقها العربة . ووقفت العربة عند رأس طريق طويل يتوسطه صف طويل من السيارات والعربات . وقال الحوذى وهو يلوح بسوطه :

— إليك الحانات على الجانبين ..

وغادرت العربة بعد أن نقدته الأجرة فوجدت نفسى حيال حانة صغيرة لا تزيد فى الحجم على حجرة كبيرة وقد وقف الندل ببابها لأنه لم يكن أمها أحد بعد ، وانتابنى التردد لأول مرة ففكرت فى أن أعود من حيث أتيت . ووقفت متحيرا ثم تولانى الشعور الذى ملكنى يوم اندفعت إلى سور جسر الملك الصالح لأرمى بنفسى إلى النيل فانطلقت صوب الحانة ودخلت . وتبين لى أنه يوجد فى نهايتها مدخل إلى حديقة صغيرة فى حجم المكان الخارجى فى وسطها نافورة ، وتظلها عريشة عنب ، وفى جنباتها الموائد ، فوجدتها آمن للمختلس ، وانتقلت إليها وجلست إلى إحدى الموائد بعيدا عن مَدخلها . كنت متوتر الأعصاب ولكن لم أعد أفكر فى الهرب ، وجاءنى نوبى فى سروال أسود وسترة بيضاء فابتسم فى أدب ووقف منتظرا أمرى . فقلت بصوت مهموس والدم يتصاعد إلى وجهى :

ـــ خمرا !..

فلم يبد عليه إنه فهم شيئا ، وتساءل فى نبرات كرنين النحاس :

ـــ ويسكى ؟.. كونياك ؟.. جعة ؟.. نبيذ ؟..

وتولتنى حيرة الجاهل ، فقلت بارتباك :

ـــ أريد خمرا :

فابتسم الرجل ابتسامة آلمتنى وتساءل :

ـــ أى نوع منها تريد ؟.. ويسكى .. كونياك .. جعة .. نبيذ ؟!

فسألته فى ارتباك أشد :

ـــ أيها أفضل ؟.

ـــ هذا يتعلق برغبتك ، ولكن الجو حار فالجعة شراب مفضل .

وخرجت من حيرتى وطلبت جعة ، وغاب دقائق ثم عاد بقدح يفور ووضعه أمامى ، وقبل أن يبتعد سألته :

ـــ كم قدحا من هذه يسكر ؟

فنظر صوبى كما نظر الحوذى من قبل وقال :

ـــ تختلف النسبة تبعا للناس ، ولكن إذا كنت مبتدئا يحسن ألا تجاوز القدح الثالث .

فقبضت على القدح فوجدته باردا لطيفا ، وأدنيت منه أنفى فشممت رائحة حمضية لم أرتح لها ، ولكن فات وقت التردد ، وقربت وجهى وأدليت لسانى ، ولعقت من رغوتها لعقة فى خوف وحذر . واشتد توتر أعصابى فرفعت القدح إلى فمى وأفرغت ما فيه دفعة واحدة فى تقزز كأنما أتجرع شربة . وأنعشتنى برودته ، وشعرت به فى بطنى يتلوى نافثا حرارة غريبة . وانتظرت ذاك الأثر السحرى الذى سمعت عنه الكثير . وفى تلك اللحظة جاءت لمة من الأجانب يرطنون ويتضاحكون وتحلقوا مائدة كبيرة ، فداخلنى شعور بالضيق ، بيد أنهم لم يلتفتوا نحوى على الإطلاق ، فسكن روعى ، وعاد شعورى إلى الحرارة الطيبة

التي تنتشر فى بطنى . وحمل الدم المتصاعد إلى الرأس نفحة من هذه الحرارة إلى المخ فتمطى كما يتمطى المستيقظ لدى تلقيه أول شعاع من الشمس ، ونفض عنه القلق والحذر ، فأحسست ارتياحا عاما لذيذا ، وانبسطت أسارير وجهى . وما لبثت أن طلبت قدحا آخر بشجاعة لم أعهدها فى نفسى من قبل ، وما كاد النوبى يضعه أمامى حتى رفعته إلى فمى وتجرعته على دفعتين . وانتظرت فى ارتياح شامل وإحساس مركز فى باطنى ، وسرى فى جسمى سرور عجيب أغمضت له جفنى استسلاما ، سرور دار مع دمى ، ورقص فى مخى ، باعثا لذة هى الجنون نفسه ، حتى وجدتنى مخلوقا أثيريا طليقا من متاعب عقله وقلبه وحياته . وداخلنى إحساس لا عهد لى به بالثقة والعظمة فرفعت رأسى عاليا فى سلطنة وأنا أعجب للنشوة السحرية التى لم يدر بخلدى قط أنها توجد فى هذه الدنيا . ثم فركت يدى فى سرور ومددت ساق لا أبالى أين تقعان .. وبغتة تخايلت لعينى صورة حبيبتى بقامتها الهيفاء ونظرتها المستقيمة المحتشمة فأترع قلبى حنانا وشوقا وهزتنى نشوة فوق نشوة الخمر . ما ألطفك يا حبيبتى . إنى أدرك الآن سر نشوة الخمر . إنه الحب . الحب ونشوة الخمر من عصير واحد يقطر من صميم الروح ، وهل الحب الموفق إلا سكرة طويلة ؟! فإن فاتنى الحب بين يديك فلن يفوتنى فى الخمر !. لماذا أخاف دائما ؟. ألا إن المخاوف جميعا لأوهام ، وإلا فما لها اختفت من أفقى فى غمضة عين ؟!. لقد تكشف لى وجه الحكمة ولن أتردد بعد اليوم ، سأومئ لحبيبتى إذا وقعت عليها عيناى أو ألوح لها بيدى . ستعقد الدهشة لسانها ويحمر منها الخدان !، ويجىء دورها فى الخجل ، دقة بدقة والبادئ أظلم . وسوف تتساءل فى استغراب هل تحرك أخيرا ، أجل يا حبيبتى ، تحرك ، ولن يوقفه شىء ، ورأيت عند ذاك النادل يحوم حولى فطلبت القدح الثالث ثم ألحقته بصاحبيه . وعدت إلى خيال حبيبتى بجسم كله قلوب ، وما به من عقل . وقلت بصوت مهموس وكأنى أعظ جليسا غير منظور « إذا أحببت فبح بحبك إلى حبيبك وليكن ما يكون » ثم ذكرت أمى . ولكن دون خوف هذه المرة ، لم

أشك فى أنها ستحب حبيبتى إذا رأتها ، وستذهب مخاوفى القديمة إلى غير رجعة ، أما جدى فما أحراه إذا علم بالنبأ السعيد أن يقهقه ضاحكا ، وهنا ضحكت بصوت مسموع لفت إلى الحاضرين . وألقيت نظرة على ما حولى فرأيت الحديقة اكتظت بالوافدين .. وقد تضاحك الأقربون ، ولكنى لم أرتبك ، بل ابتسمت إليهم وقلت بجسارة غريبة « اضحكوا ! » فضحكوا ، وتساءل أحدهم مبتسما :

— هل من أمر آخر ؟.

وكنت من السكر فى غاية فقلت بلسان ملعثم :

— هاتوا لى حبيبتى !

فسألنى الشاب :

— أين هى ؟.. وأنا كفيل بإحضارها ..

فقلت :

— البيت أمام المحطة !

فسألنى مبتسما :

— أية محطة ؟

فتفكرت قليلا حتى عثرت على شاهد للمحطة فقلت :

— المحطة أمام المرحاض العمومى !

فضحكوا جميعا ، وانهالوا على قفشا وتنكيتا ، وشاركتهم ضحكهم بغير مبالاة ، ثم آثرت أن أغادر المكان ، فدعوت النادل ونقدته الثمن وحييت رفقاء السكر ، وذهبت وقفشاتهم تواصل توديعى بلا رحمة ، كنت أترنح ، فقصدت عربة فى الموقف ، وتوسطت مقعدها فى خيلاء ، وقلت للحوذى بصوت مرتفع :

— إلى بؤر الفساد !

وتحركت العربة وسرعان ما ارتحت إلى سيرها الوانى ، وجعلت أنظر إلى

الطريق فى لذة وبهجة ، حتى وددت أن يطول المسير إلى غير نهاية ، وأدركت أنى مقبل على تجربة جديدة لا تقل خطورة عن الأخرى ، فساورنى بعض القلق ، ثم غلبتنى اللهفة . ووقفت العربة فى شارع معربد ، ولوح الحوذى بسوطه وهو يقول ضاحكا :

ـ هنا الفساد الأصلى ..

وسألته بعد تردد :

ـ ألديك فكرة عن الأسعار ؟!

فقال مقهقها :

ـ أغلى مرة بريال !

وآلمنى التعبير على رغم سكرى ، وغادرت العربة فوجدتنى فى دنيا تتوهج بالأنوار كالصواريخ . وتزدحم بالسكارى والعابثين ، وتختلط بها أصوات الضحك بالشتم والصراخ ، وتنبعث من جنباتها دقات الدفوف وأنغام مبتذلة من كمان مسلول أو بيان محشرج . وقد سطع أنفى شذا بخور طيب . ولم أجد من نفسى الجرأة على التخبط وسط الجموع المعربدة ، فعرجت إلى أقرب باب ودخلت ، وجدت نفسى عند مدخل فناء واسع مستدير تفتح عليه أبواب كثيرة ، وعلى محيط دائرته صفت الأرائك والكراسى يحتلها رجال ونساء ، وفرشت أرضه برمل أصفر فاقع ، وراحت ترقص عليه امرأة نصف عارية ، وكأن الجسارة التى خلقتها الخمر قد طارت فتسمرت فى مكانى لا أجاوزه ولم أدر ما أنا فاعل . ثم ثبتت عيناى على الراقصة فى دهشة لأنى كنت أشاهد الرقص أول مرة ، ألقيت على الجسد الملتوى ، الشبه العارى نظرة اشمئزاز وخوف ، وأزعجتنى حالة وجهها إذ أثقله الطلاء الفاضح ، وانفرجت شفتاها عن أسنان ذهبية فكانت بعرائس الحلوى أشبه . وفجأة لاح أمامى رجل ذو جلباب مقلم زاهى الألوان تنطق قسماته بالدمامة والدناءة ودعانى للجلوس ، فتراجعت مبتعدا عنه فاصطدمت بشخص ورائى . فدرت على أعقابى لأتفادى منه فرأيت

امرأة من جنس الراقصة ولا شك حالت بذراعها بيني وبين الذهاب . كانت تبتسم ابتسامة كريهة ، وتمضغ لادنا مفرقعة بأسنانها ، فبردت أطرافى ، وانقبض قلبى جفولا ، وقرأت فى وجهى الخوف والخجل فأطلقت ضحكة كالصفير ، ومدت يدها بسرعة فخطفت طربوشى ، ووضعته على رأسها ومضت صوب باب قريب فى خطوات سريعة . وقال لى الرجل وهو ما يزال بموقفه :

ـــ اتبعها بلا تردد ، هذه زوزو المنبهجة ، لا مثيل لها ولا فى المذبح !

ولم أطق الوقوف أكثر من ذلك فغادرت البيت لا ألوى على شىء ، غير مكترث لفقدان طربوشى ، وركبت أول عربة صادفتنى وقلت للحوذى « إلى المنيل » عدت إلى البيت قبل منتصف الليل مهيض الجناح ، يمضنى الشعور بالهزيمة والإخفاق والخيبة . لم أكن أتصور أن يتمخض الحلم المرموق عن هذه البشاعة الفظيعة . وكانت النشوة الساحرة قد طارت مخلفة وراءها خمارا ثقيلا باخت له روحى ، ولم أدر كيف أيقظت أمى وأنا أخلع ملابسى ، فجلست فى فراشها ونظرت فى « المنبه » وهى تغمغم متثائبة : « تأخرت كثيرا » ولم أجبها بكلمة وواصلت نزع الملابس حتى خذلتنى قدماى فارتميت على المقعد ، واستجمعت قواى ونهضت ، ولكننى ترنحت فى موقفى وكدت أهوى إلى الأرض لولا أن أمسكت بعمود السرير .. وانزلقت أمى من فراشها وأقبلت نحـوى متسعة العينين دهشة وفزعا ، وتفرست فى وجهى قليلا دون أن تنبس بكلمة ، ثم أجلستنى على المقعد وراحت تنزع عنى ملابسى ، ثم أنامتنى على فراشى ، فما مس جانبى الحشية حتى سارع إلى النوم . وخيل إلى ، أو حلمت ، أن أمى تنتحب ..

. .

استيقظت مبكرا على غير ما كان يتوقع . وتذكرت الأمس كله فى ثوان . والتفت رأسى فى خوف نحو الفراش الآخر فعثر بصرى فى طريقه بأمى وهى تصلى . والتهب وجهى حياء ، وغادرت الفراش فى عجلة ومضيت إلى الحمام فى حيرة بالغة . ورجعت إلى الحجرة فوجدتها منتظرة ، تحاول أن تبدو هادئة لولا أن خانتها عيناها الصافيتان اللتان لا تعرفان الكذب ، وتحاميت نظراتها ، وحييتها تحية الصباح بصوت لا يكاد يسمع ، فتنهدت بصوت مسموع ، واقتربت منى ، ووضعت يدها على كتفى وقالت بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء :

ـــ دعوت لك بعد صلاتى طويلا والله سميع مجيب . ليس لدينا متسع من الوقت فأصغ إلى يا كامل بقلبك قبل أذنيك . فات ما فات . ما كنت أتصور ذلك على الإطلاق ، ولكن أوساط الموظفين أوساط غواية وفساد . إنها زلة شيطان فتب إلى الله عنها . هل من حاجة إلى تذكيرك بمأساة أبيك وأنت من شهودها وأمك من ضحاياها ؟!. ولكن قلبى مطمئن رغم ما حصل ، لأنك مؤمن تخاف الله ولأنك ابن أمك لا ابن أبيك ، وخليق بمن يصلى بين يدى الله خمس مرات فى اليوم مثلك أن يحرص على المثول بين يديه نقيا طاهرا . لا تنس أن هفوة الأمس شر كبير ، وأنها ستظل سكينا تقطع قلبى . لم يعد فى وسعى وا أسفاه أن أستبقيك إلى جانبى ، فإذا خرجت إلى الدنيا فلاقها بقلب التقى المؤمن . ستذهب اليوم إلى السيدة أم هاشم لتقدم توبتك على يديها .

لم تلتق عيناى بعينيها ذاك الصباح . ومضيت إلى الوزارة محزونا ، أستعيد قولها كلمة كلمة ، وأنعم فيه الفكر . هالنى افتضاح أمرى ، وقدرت عنف الصدمة التى تلقتها أمى البائسة . وذكرت الخيبة التى منيت بها فى فناء البيت الغريب ، فتلوت شفتاى تقززا . على أنى لم أنس نشوة الخمر . لم أنسها رغم ما

أعقبها من خمار وتعب وفضيحة . ولم ينفذ مقتها إلى قلبى حتى بعد صلاة الصبح التى أديتها فى صدق وإيمان . ولم يكن ضميرى مستريحا ، ومتى كان مستريحا ؟!. ولكن أحلام النشوة الساحرة هجمت على فاجتاحت فى سبيلها ضميرى وآلامى وأمى . هى النشوة التى تظل معانى السعادة والطرب مغلقة حتى تجرى فى الدم فتفتح أبوابها السماوية . إنها مطلبى . رباه كيف أهجرها وأتوب عنها .؟ وما عسى أن يبقى لى بعدها غير اللهفة الكظيمة والحسرة القاتلة والقلق الذى يمزق حياتى إربا ؟!. وحتى لو استسلمت لإغرائها الشيطانى ، فهيهات أن تخلص لى صافية ، بل ستضيف إلى ضميرى نزاعا جديدا ما كان أغناه عنه ، كنت وما أزال فى جذب ودفع متواصلين ، بين اقتحام الدنيا والجفول منها ، بين حبيبتى وأمى ، بين إدمان العادة الجهنمية ورغبة الإقلاع عنها ، فجاءنى نزاع جديد بين الميل إلى الخمر والتوبة عنها زادنى رهقا ، حتى انقلبت أرجوحة تدفعها الشياطين وتجذبها الملائكة ، ولا تكف عن التأرجح لحظة واحدة . وبلغ بى القلق غايته فتأوهت متسائلا فى حيرة بالغة : لماذا لم يخلق الله الحياة نشوة خالصة تدوم جيلا فجيلا ؟. لماذا لا نفوز بالسعادة بلا عناء ولا قنوط ؟. لماذا يختنق الحب فى قلوبنا يأسا ، والحبيب يغدو ويروح على مرمى قبلة منا ؟!.

ليكن ما يكون ، الخمر مفتاح الفرج . هى العزاء هى كلمة السر التى تفتح لى باب حبيبتى الموصد . لا أريد الدنيا ما دامت تأبى أن تغير ما بنفسها . إن مقتى للواقع ليس دون مقتى لتلك الراقصة المخيفة . الدنيا نفسها تتكشف لى عن صورة شبيهة بتلك الراقصة فى تلويها وتعقدها وطلائها الكاذب وشقائها الدفين فلماذا إذن أقاوم إغراء النشوة الساحرة ؟!.

* * *

ودعتنى أمى عصر ذلك اليوم إلى زيارة « أم هاشم » فخرجنا معا بعد أن انقطعت عن الخروج فى صحبتها أعواما ، وركبنا عربة ، فجلسنا ملتصقين

جلسة أعادت لنفسينا ذكريات « الحنطور » القديم ، فخففت رقتها من قلق النفس المستحوذ على . كانت أمى ترتدى معطفا صيفيا رقيقا تقمصه جسمها النحيل فى رشاقة لطيفة . وبدا وجهها المليح هادئا مستسلما وعيناها الخضراوان صافيتين تلوح فيهما نظرة حالمة يشوبها شيء من الحزن . وقد تلفع رأسها بخمار أسود أحاط وجهها بوقار لم يخل من أثر للأربعة والخمسين عاما التى قطعتها فيما قسم لها من حياة . وحن قلبى لها فوددت لو أستطيع تقبيلها ، وتفكرت فى تقدم عمرها نحو الشيخوخة بأسى عميق ، ثم ذكرت الخواطر الخائنة التى دارت برأسى على فراش مرضها ، فعضضت على شفتى بقسوة وحنق . يا لها من خواطر مقيتة ! إنها من صميم الألم الذى ألتمس فى الهرب منه أى سبيل ، وهون من وجدى ما كان يخيل إلى من أنها سترث عمر جدى الذى يهدف إلى التسعين .

كبر على فى تلك اللحظة عصيانها ، بيد أننى شعرت فى أعماق نفسى بأنى ذاهب إلى توبة كاذبة لا يسعنى إلا الإذعان لها . وساءنى ذلك وأحزننى . كيف ألقى أم هاشم بهذا القلب الخائن وهى التى لا تخفى عليها خافية ؟ كيف انقلبت بين عشية وضحاها من ورع طيب إلى شيطان مولع بالمعصية ؟!. وانتهينا إلى الجامع . ودخلنا ونحن نقرأ الفاتحة ، وقصدنا الضريح يتوزع قلبى الحب والإيمان والخوف . ونسمت على قلبى ذكريات الأيام الخوالى حين كنت أنفذ للجامع الطاهر بقلب سعيد لم يعان بعد الشعور بالذنب وعذاب الضمير . وتقدمتنى أمى إلى المقام وهى تهمس بحرارة : « جئتك يا أم هاشم بكامل ، ليتوب عن هفوته بين يديك فباركيه وسددى خطاه ! » . ثم دفعتنى نحو باب المقام فبسطت راحتى عليه ، وشعرت ببرودة تسرى إلى فؤادى ، فوقفت صامتا مليا ، حيال جلال تخشع له القلوب ، وخلت الجدث الطاهر يرمقنى بعينين متألقتين لم يغيرهما الموت فدعوت بقلبى « أم هاشم » أن تلهمنى الصواب وأن تنقذنى من حيرتى وشقائى ، وأن تتوب على . وترددت لحظة ثم سألتها أن ترعى حبى التعيس بعين الرحمة !.

وغادرنا المثوى الطاهر وأمى تجفف عينيها ، ثم سألتنى :

ــ هل تبت إلى الله ؟.

فأجبتها دون أن أحول إليها عينى :

ــ نعم .

فتمتمت برجاء :

ــ توبة صادقة إن شاء الله .

٢٤

لم يسعنى مقاومة النزوة الجديدة . ولم يغن عنى شيئا لا ضميرى ولا توبتى ، ولا ما جبلت عليه من مخافة الله . كنت من حياتى فى قنوط ، فعملى جد بغيض ، وحبى حسرة طويلة ، وإن الأيام لتمر ثقيلة بلا عزاء وبلا أمل ، فتنظر عيناى ويخفق فؤادى ، ويعيى إرادتى العجز والخوف ، فلم أجد من سلوى إلا نشوة الخمر وتهالكت عليها !. على أن ذاك العزاء التعيس لم يخلص لى طويلا ، ولم تمل الأقدار لى فى الاستمتاع به ، ففى مطلع الخريف من ذاك العام ، وفى يوم من أيام الجمع ــ وكنت جالسا مع أمى نتحدث كعادتنا ــ دق جرس الشقة ، وفتح الخادم الباب ثم جاء يدعونى لمقابلة واحد « بك » . وذهبت من فورى فوجدت رجلا مهيبا فى الستين أو السبعين ، فحييته بأدب وألقيت عليه نظرة متسائلة ، فبادرنى متسائلا :

ــ حضرتك كامل أفندى ؟.

فقلت وأنا أتفرس فى وجهه :

ــ كامل رؤبة . هذا بيت الأميرالاى عبد الله بك حسن .

فأخذنى من يدى إلى الخارج ثم مال نحوى قائلا :

ــ لكم طول البقاء ، لقد توفى جدك يا بنى ..

فحملقت فى وجهه بفزع ، وانعقد لسانى ، فربت على كتفى وقال بصوت حزين :

ـــ تشجع يا بنى من أجل والدتك ، وكن رجلا كما نرجو لك ، كان جدك يتوسط مجلسنا كعادته كل صباح بلونابارك ، فشعر بضيق فى التنفس وطلب قدحا من الماء ، ولم تكد تمضى لحظات حتى سقط على المائدة فحسبناه أصيب بإغماء ، ثم تبين أن السر الإلـٰهى قد صعد إلى بارئه ..

هتفت بصوت مبحوح :

ـــ وأين هو يا سيدى ؟.

فتمتم الرجل :

ـــ أحضرناه معنا فى سيارة .

وما كاد الرجل يتم قوله حتى رأيت فى أسفل السلم رجالا أربعة يحملون جدى ويرتقون السلم على مهل وحذر ، فسارعت إليهم ذاهلا ، وشاركتهم فى حمله وأطرافى ترتعد جميعا ، ثم دخلنا الشقة وهو بين أيدينا ، رأيت أمى فى نهاية الصالة ، وقد ندت عنها صرخة فزعة ، وأقبلت نحونا لا تبالى الأغراب ، وسألتنا بجزع :

ـــ ما له ؟!. ماذا به ؟!.

ولكنها لم تسمع جوابا ، أو وجدت فى الصمت جوابا فصرخت صرخة مدوية ، وولولت فى توجع « أبى .. أبى » . وأنمناه على الفراش ، ثم أقبل الرجال عليه يقبلون جبينه واحدا فى إثر آخر ، وعزوا أمى ، وخرجوا من الحجرة صامتين ، وسألنى بعضهم عما إذا كنت فى حاجة إلى شىء فشكرت لهم ، وتطوع البك الذى قابلته أولا فدلنى على الإجراءات المتبعة ، وأخبرنى بأنه سيقوم بإبلاغ وزارة الحربية . وأنه يستحسن أن تشيع الجنازة فى العاشرة من صباح الغد . ورجعت إلى حجرة جدى مهرولا فوجدت أمى تبكى بكاء مرا فلم أتمالك أن أجهشت فى البكاء ، ولكنها لم تسمح لى بالبقاء فى الحجرة ، ولكى

تشغلنى عن الحزن أمرتنى أن أبرق بالخبر إلى خالتى وأخى وأن أذهب إلى أختى لآذنها بموت جدها . وغادرت البيت لأداء هذه الواجبات ، وعدت إليه مرة أخرى ومعى أختى راضية وزوجها . ووجدت فى الشاب خير عون فى القيام بالإجراءات المتبعة ، أو بالأحرى فقد قام بها وحده واكتفيت بأن ألازمه دون وعى . وما كاد يخيم المساء حتى امتلأ البيت بالأهل ، فحضرت خالتى وزوجها وأخى مدحت وزوجه وعمى ، ولم يتخلف إلا أبى ، وقد قال لمدحت وهو ينعى إليه جدى « البقية فى حياتك ، أرجو أن تعزى أمك وأخاك وأختك ، لأنى لا أحضر لا جنازات ولا أعراسا ! » وكانت أمى أشد الأهل فجيعة وحزنا لأنها لم تفارقه طوال عمرها اللهم إلا ثلاثة أشهر قضتها على مضض فى بيت أبى .. هكذا مات جدى . وقد تمتع بحياة طويلة فلم يعجزه الكبر ، ولم يقعده المرض . وفارق الحياة فى مجلسه الأثير بالمقهى بين صحبه المخلصين ، فى يسر قل أن يحظى به المحتضرون .. وكنت لا أزال كلما خطر على فكرى حنيت الرأس إجلالا لذكراه ، واستمطرت الرحمة والعفو روحه الكبير . كان جدى ، وكان أبى ، وكان جناح العطف الذى أظلنى فنعمت فى ظله بالعيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيبة . ولا أنسى أننى اتهمته فى الساعات السود التى كدرت صفو حياتى بأنه أساء تربيتى ، أو أنه تركنى لأمى تفسد حياتى بتدليلها ولكنى إذ تدبرت الأمر لم يسعنى إلا إقامة العذر له ، لأنى رأيت نور الدنيا وهو يتخطى الستين . وإنه لمن أشق الأمور أن يعرف الإنسان حقيقة جده ، لأنه غالبا ما يبدو فى حالة من التبجيل والقداسة ، لأن مؤرخيه من الأهل يكونون عادة ممن يبجلونه ويقدسونه . فإذا ركنت إلى ما لمسته بنفسى من حياته أمكننى الثناء عليه فى غير تحفظ . وطالما كانت صحته وحبه النظام ودقته العسكرية التى لم تبلغ قط الصرامة أو القسوة مثار إعجابى الشديد . وكان حدبه علينا لمما تهون إلى جانبه مصائب الحياة ، وبحسبى أننى لم أعرف مرارة الحياة الحقة حتى ودعناه إلى مثواه الأخير . ومهما يطل بى العمر فلن تمحى من مخيلتى صورته فى أيامه الأخيرة وقد

كللت الشيخوخة هامته بتاج ناصع البياض وأضفت عليه وقارا وجمالا ، وأذكت فى عينيه الخضراوين بريق دعابة وعطف . فلم أدهش لحزن رفاقه عليه ، وأدركت — إن كان فاتنى ذلك — أنه كان من الذين يألفون ويؤلفون ، تلك الهبة الربانية التى حرمتها وذهبت نفسى حسرة عليها مدى عمرى . وقد تقرر تشييع جنازته فى العاشرة صباحا ، ولما حم الوداع امتلأت الشرفة بالباكيات وأطلقت المدافع تحية لجدثه ، وحمل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش . وألقيت على جثمانه نظرة الوداع — وهو يختفى فى القبر — وأنا أنتحب كالأطفال .

٢٥

قالت لى فى حزن بالغ :

— ليس لنا إلا الله .

فقلت وقلبى يستشعر خوفا لا يدريه :

— هو نعم المولى والنصير .

ومضت تتكشف لى الحقائق ، فعلمت أن معاش جدى قد انقطع بوفاته . وأحصيت تركته فوجدت أنه ترك بالمصرف أربعمائة جنيه ، ولما كانت أمى وخالتى وريثتيه الوحيدتين فقد خص الواحدة منهما مائتا جنيه صارت كل ما لنا عدا ماهيتى الصغيرة !. صرت إذن رب أسرة ، وقد لفت عمى نظرى لهذه الحقيقة وهو يودعنى ، فكرر لى العزاء ، ووصانى بأمى قائلا :

— أكرم أمك ما وسعك ، فأنت رب البيت ، وأنت خلف جدك !.

وتلقيت قوله بخوف وتشاؤم ، ونظرت إلى المستقبل المجهول بوجوم وامتعاض ، وآلمنى أن أجد نفسى مسئولا عن غيرى أنا الذى ألفت أن توكل مسئوليتى بغيرى ! ولما خلا البيت من المعزين ورحل كل إلى طيته ، وجلست وأمى

منفردين نتبادل الرأى قالت بلهجة أسيفة :

ـــ اللهم عونك .

ورفعت إليها بصرى الحائر فى خوف وكآبة ، سألتها بإشفاق :

ـــ ماذا ترين يا أماه .

فقالت بأسى :

ـــ لن تمضى الحياة فى يسر كما عهدناها . هذا أمر الله وعلينا أن نذعن ونصبر ونشكر ، وإنه ليسوءنى أن أكون حملا ثقيلا عليك . ولكن ما باليد حيلة .

فقلت بحرارة :

ـــ لا تقولى هذا . أنت كل ما تبقى لى فى الحياة ، ولولاك ما عرفت لنفسى مأوى آوى إليه .

فافتر ثغرها عن ابتسامة حزينة ، ودعت لى طويلا . ثم قالت :

ـــ سيكون ما ورثته من مال قليل رهن إشارتك تستعين به عند الحاجة ، حتى يكبر مرتبك !.

ولذت بالصمت متفكرا ، وعيناها الحزينتان لا تفارقان وجهى ، ثم استدركت بصوت متهدج :

ـــ لم يعد هذا البيت بالمسكن المناسب لنا ، فهو كما ترى كبير ، وأجرته تعادل مرتبك ، ولعلنا نجد شقة صغيرة بما لا يزيد على مائة وخمسين قرشا فى حينا هذا ..

وساد الصمت مرة أخرى ، ورحت أتساءل عما أعمانى عن هذا المصير الذى كان متوقعا من قبل ، حتى عادت أمى تقول بصوت منخفض :

وينبغى أن نستغنى عن الخدم ، ولن نحتاج فى المستقبل إلا لخادم صغير .

ـــ يا له من ضيق لا أدرى كيف يتحمله صدرى !.

لست أعلم شيئا على الإطلاق عن الكفاح الذى يشقى به الناس فى سبيل الحياة ، فلذلك حدجت أمى بنظرة ناطقة بالاستغاثة وسألتها :

ــ بماذا تقدرين تكاليف المعيشة بما فيها من سكن وطعام وخادم وغيرها ؟

وتفكرت أمي طويلا ، ثم قالت بصوت منخفض :

ــ بما لا يقل عن ستة جنيهات !

ثم استدركت كأنما لتخفف من وقع كلامها :

ــ سأرصد مالي لكسائنا وللحوائج الضرورية فيما يخرج عن المصروفات اليومية ..

ولكنى لم ألق بالا إلى قولها ، ومضيت أفكر فيما يتبقى لى من مرتبى بعد تكاليف المعيشة ، فى الجنيه والنصف ، وما ينفق منه على المواصلات ، وما يبقى بعد ذلك للترفيه عن نفسى . فكرت بامتعاض واكتئاب ، فتقبض قلبى جفولا من هذه الحياة السخيفة التى لا معنى لها . ألم أكن أنفق مرتبى كله فى الشراب والطعام والعربات ؟. ألم أكن مع ذلك شاكيا متبرما تعيسا ؟. رباه ، كان الماضى عهدا غير منكور النعيم ، ولكنى لم أفطن إلى نعيمه إلا الآن حيث لم يبق منه إلا ذكريات ، إنى أعمى ما فى ذلك من شك ، تعمينى الأحلام الطائشة عما بين يدى ، ومن كان مثلى قضى عليه بألا يذوق للسعادة طعما فى هذه الحياة . تجهم لى وجه الدنيا ، وخارت عزيمتى ، وامتلأت نفسى تشاؤما حتى توقعت شرا وراء كل خطوة أخطوها . أجل ألا يجوز أن تستغنى عنى الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتى هذا المرتب الضئيل ؟.. ألا يحتمل أن يصادفنى حادث فى الطريق يقضى على بعاهة تقعدنى عن السعى من أجل الحياة ؟!. لماذا وجدنا على الأرض ؟. ولعل هذه الأفكار السود التى جعلتنى أسأل أمى قائلا :

ــ ماذا ينتظر أن أرث عن أبى بعد وفاته ؟.

ولم ترتح أمى لمجرد أفكارى وقالت باستياء ؟.

ــ لا تبن آمالك فى الحياة على موت إنسان . الأعمار بيد الله . وإنى أستحلفك بالله ألا ما طردت عن رأسك هذه الخواطر .

بيد أنني استخففت بمخاوفها وألححت عليها أن تجيبنى على ما سألت ، فقالت

مذعنة لإلحاحى :

— لأبيك أوقاف تدر عليه أربعين جنيها كل شهر ، غير البيت الذى يسكنه ..

وقدرت بعملية حسابية ما يصيبنى من هذا الميراث ، فوجدته ستة عشر جنيها نصيبى من البيت ، إذا أضيفت إلى مرتبى الصغير صار كبيرا بلا شك . واستسلمت للأحلام كالمعتاد ، ولكنها لم تغير من الواقع شيئا . وسألتها مرة أخرى :

— ما عمر أبى ؟.

وأجابتنى على كره :

— لا يقل عن السبعين .

ترى هل يعمر كجدى مثلا ؟. ماذا يكون حالى لو عمر طويلا وحرمنى ميراثى عشرة أعوام أو عشرين ؟!. وتذكرت ما قيل لى من أنه انتظر يوما على مضض موت أبيه ، وكيف ساقه الجزع إلى الشروع فى الجريمة التى قضت عليه بالحرمان من ثروة واسعة ! إنى أعانى نفس المشاعر التى عاناها قبل ثلاثين عاما ، ولعله لو كان لى بعض قوته لسلكت الطريق الذى سلك !.

ثم استدعت أمى الطاهى العجوز وأم زينب وأخبرتهما فى استحياء وألم بأننا سننتقل إلى بيت شقيقى « آثرت الكذب على الاعتراف بالفقر » ، وأنها مضطرة إلى الاستغناء عنهما ، وذكرت عهد خدمتهما الطويل بالأسف ، وأثنت عليهما الثناء الجميل ، ودعت لهما بالتوفيق ، ثم نفحتهما بما يستعينان به حتى يجدا عملا جديدا . وقد انتحبت المرأة باكية ، ودمعت عينا الرجل العجوز ودعا لجدى بالرحمة والعفو ، وقال بصدق وإخلاص :

— وددت يا سيدتى لو مت قبل أن يغلق هذا البيت الكريم أبوابه ..

ولم تتمالك أمى نفسها فبكت ، وانتقلت العدوى إلى فبكيت ، ومرت لى ساعة سوء كابدت فيها ألما وخزيا لم أشعر بمثلهما من قبل . وانتقلنا قبل ختام

الشهر إلى شقة صغيرة فى الدور الأوسط من بيت قديم ذى أدوار ثلاثة بشارع القاسم المتفرع من شارع المنيل . وكان البيت يقع فى وسط الطريق ما بين شارع المنيل والنيل ، أما الشقة فتتكون من ثلاث حجرات صغيرة فرشناها ببعض أثاثنا القديم ، وبعنا بقيته بثمن بخس . وساءلت نفسى فى وجوم : هل تستطيع أمى النهوض بأعباء الخدمة المنزلية بعد ذاك العمر الطويل من الراحة والدعة ؟. إنها تهدف إلى منتصف الحلقة السادسة ولم يعد لها من معين إلا خادم صغير فكيف تتحمل هذه الحياة ؟. وزادت حياتى تنغيصا وداخلنى سخط شامل على الوجود كله . على أن أمى أقبلت على العمل بروح عالية فيها مرح كثير فنجحت فى إيهامى بأنها مسرورة بالحياة الجديدة ، وكأنما كانت تكبت طوال عمرها رغبة حارة فى الخدمة والعمل . وقالت لى بارتياح لمسته فى نبرات صوتها وابتسامة عينيها :

ـــ إن خدمة بيتك هى السعادة التى ليس لى وراءها مأرب .

وتجرعت هذه الحياة الجديدة قطرة قطرة ، وقد أضافت إلى حسراتى القديمة حسرة جديدة ، هى حسرتى على العيش الرغيد والشراب خاصة ، وأجمعت على أن أقتر على نفسى كى تتهيأ لى ولو سكرة واحدة فى الشهر ، ولا عجب فلم تكن الخمر بالنسبة إلى لهوا وعبثا ، ولكن حياة وهمية أفر إلى أحضانها من آلام الواقع البغيض .

ويوما قالت لى أمى وقد آنست منى استنامة إلى حديثها :

ـــ لعلك لمست الحكمة التى أملت على أن أرفض أى زواج لا يليق بك !.

وأدركت ما تعنى لتوى ، فكأنما تقول لى : « ماذا كنت تصنع بحياتك لو كنت رب أسرة ! » . ولم يداخلنى شك فى صدق ملاحظتها ، ولو كنت رب أسرة لشقيت بالعيش أضعاف الشقاء الراهن ، ومع ذلك لم أرتح لقولها ، ووقع من نفسى المهيضة موقع الشماتة المريرة ، فلفنى الحنق والغضب ، وكابدت مشقة فى كظم عواطفى .

٢٦

وهل الخريف . ذلك الفصل الذى أحببته لأنه البشير بافتتاح المدارس ، وستعود حبيبتى إلى الملتقى المعهود على طوار المحطة . حبيبتى هى الزهرة الوحيدة التى تتفتح فى الخريف حين تعرى الأشجار وتذبل الأزهار . ولاحظت أن مواعيد خروجها لم تعد منتظمة كما كانت ، ترى هل بدأت حبيبتى حياتها كأستاذة ؟. ولذنى ذاك الخاطر فاهتز عطفاى سرورا . بيد أننى لا يمكن أن أنسى أن مجرى حياتى قد تغير ، وأننى أرزح تحت وقر الفقر والقنوط ، فحبيبتى ميئوس منها ، ولكن ما كان اليأس إلا ليزيدنى هياما وولعا ، ويشب فى قلبى أشواقا وأحزانا . ما أسرع أن ينقلب الحب اليائس ثورة على الحياة . أليس من الهزء بنا أن نخلق لحياة ثم يحال بيننا وبينها ؟. وزاد من لوعتى أنه كان يخيل إلى فى أحايين كثيرة أن عينيها ترنوان إلى بنظرة فيها حياة . أية حياة ؟. لست أدرى ، ولكنها كافية لبعث الجنون فى خيالى ، فيثمل بنشوة سحرية لا أفيق منها حتى تصدمنى حقيقة مرة من حقائق حياتى . واشتد تطلع أهل البيت نحوى ، وبت وكأننى أسمعهم يتساءلون : ماذا تريد ؟. لماذا تلتهمها بعينيك ؟. أى رجل أنت ؟. ألم يكفك عام ونصف عام ؟! صدقتم والله ، والحق معكم ، ولكن ما حيلتى أنا ؟!. ضعوا أنفسكم فى مكانى وخبرونى ماذا تفعلون ،! هل لديكم علاج للعجز والفقر ؟.

ولم يتركنى الرجلان المعجبان بفتاتى فى راحة ، فلم يزالا يحومان حولها ، حتى بت أخافهما خوفى العجز والفقر ، وأكرههما كرهى للشقاء الذى يضيق على الخناق ، مثل هذه الحياة ألذ ما فيها الهربَ منها !. لذلك تلمست السبيل إلى الحانة مهما كلفنى الأمر من العناء . لم يعد شارع الألفى بك بالمرتاد المناسب لحالى ، فلجأت إلى حوذى ــ مشيرى فى الدنيا بعد أمى ــ وطلبت إليه أن يحملنى إلى حانة متواضعة ، وساقنى الرجل إلى سوق الخضر !. وكان هو نفسه

— كما أخبرنى — يرتادها من آن لآن ، وقال لى مدللا على حسن اختياره :

— الحانات الكبيرة مظاهر كاذبة لابتزاز الأموال ، والخمر هى الخمر ، وخيرها ما أسكر بأبخس الأثمان !.

وأنصت إلى محاضرته فى خجل أليم تجاوب صداه أسى عميقا فى نفسى ، فتهيأ لى حينا أنه يرثى نهايتى ويعزينى عما سلف من زمانى . وغادرته متعجلا ، وسرت صوب حانة صغيرة فى مطلع ممر من الممرات المفضية إلى السوق . وساورنى شعور محزن بأنى أنحدر إلى الهاوية التى ابتلعت أبى من قبل ، ولكن لم يكن هذا ولا غيره بمانعى من المقدور ، وكانت الحانة صغيرة مربعة الشكل بها موائد معدودات ، تبدو رثة باهتة نادلها يونانى عجوز أعمش ، وروادها من الشعب الأدنى أو بعض الموظفين البائسين . ولكن الخمر هى الخمر كما قال الحوذى . ولا أنكر أنى فرحت بمنظر القوارير على الرف الطويل ، وسررت بها سرورا أنسانى آلام الضعة التى شدنى ضيق ذات اليد إليها . ورأيت أوانى للخمر من نوع جديد هى الدوارق ، فدورق الكونياك بعشرة قروش ، وهو ثمن بخس أستطيع معه أن أعاود الحانة مرتين أو أكثر فى الشهر . وشربت واستسلمت لشوارد الأحلام فى لذة وشوق . وأمدتنى المصادفة بزاد جديد للأحلام فأقبل على بائع نصيب ولوح لى ورقة وهو يهتف « ألف جنيه » فمددت يدى وتناولتها منه ونقدته ثمنها ، ثم طويتها ودسستها فى جيبى . زاد جديد للأحلام يضاهى نشوة الخمر . رباه ! ماذا كانت تكون الدنيا بغير الأحلام ! إنى أملك ألف جنيه بلا شريك ! الأرض ثابتة تحت قدمى لا يزعزعها الخوف والفقر ، والدنيا تبتسم ، ولسوف تقهقه ضاحكة إذا انتهى أبى ! لا يجوز أن أتردد بعد اليوم ، سأقابل الرجل الوقور والد حبيبتى وأقول له بصراحة : « إنى أبتغى شرف مصاهرتك ! » وأقدم له بطاقتى ، ومنذا الذى لا يعرف أسرة لاظ ؟!. أجل إن الوظيفة صغيرة ولكنى أملك ثروة لا بأس بها وسأرث ثروة أخرى ، فلا يسع الرجل إلا أن يتقبلنى قبولا حسنا . ورأيتنى أزف وسط الشموع وعروسى

تتهادى كالقمر . ولم أطق البقاء بعد أن أفرغت الدورق فى جوفى فغادرت الحانة ، وهمت فى الطرق على وجهى متفرجا حالما ، مسرورا بنفسى وبالدنيا . ولم أكن لأرجع إلى البيت حتى أفيق ، ولكنى وجدت نفسى أمام بيت الحبيبة وبالرأس بقية من نشوة فلم أنعطف إلى المنيل . كانت الساعة تقترب من الثانية صباحا ، والطريق مقفرا ، والظلمة شديدة شاملة ، والصمت عميقا يكاد لعمقه أن يسمع دبيب الخواطر بالنفس . ووقفت على الطوار متطلعا إلى البيت النائم ، واستقر بصرى على نافذة مخدعها ، وتسللت روحى خلالها فخلتنى أحس ترددد أنفاسها العطرة . إن إيمانى بالروح لا حد له . ألم تجذب رأسها نحوى فيما مضى ؟ فيمكنها الآن أن تندس فى أحلامها فترانى ، بل وأن تسمعنى إذا ناجيتها !. وبادرتها قائلا :

ـــ « إنى أحبك يا حياتى ، أحبك حبا هو من أعاجيب الكون كدوران الأفلاك سواء بسواء ، ولشد ما أتمنى أن أقول لك (أحبك) فى يقظتى ولكنى لا أستطيع ، إن الخجل أبكم يا حياتى ، والفقر سجن شاهق الجدران ، ولا حق لامرىء لا يملك من مرتبه إلا جنيها ونصفا أن يبوح بحبه لملاك كريم مثلك ، ولكنى أحبك بالرغم من هذا كله ، ولا أطيق أن تعرضى عن حبى ، وأكاد أجن حين أرى تطلع الرجلين الثقيلين إليك ، فشجعينى يا حياتى ، أشيرى إلى ، ابتسمى فى وجهى ، ما فى ذلك من بأس ما دمت محبا صادقا كما لا بد تعلمين ، وما دمت عاجزا ميئوسا منه كما لا بد تدركين .. آه .. » ووقفت طويلا دون أن تتحول عيناى عن النافذة الموصدة ، فثقلت جفونى وداخلنى إحساس خفيف بالدوران والتعب من مشقة المشى وخمار الشراب . ثم قرع سمعى وقع أقدام ثقيلة فالتفت صوبها فى توجس فرأيت شبح الشرطى مقبلا ، فتحولت عن موقفى وحثثت خطاى .

ماذا يحول بيني وبينك ؟. الفقر !. هكذا كان الجواب ، ولم أجاوزه إلى غيره من الأسباب ، لأنه كان العائق الوحيد الذى لا أعد عنه مسئولا ، أو هذا ما أعتقدته . كيف أحصل على المال إذن ؟. وتفكرت مغتما ، ثم مال بى الفكر إلى أبى !، ذلك الذى تمنيت موته طويلا ولكن لم يغن عنى التمنى شيئا ، فلماذا لا أزوره ؟.. لماذا لا أستوهبه المال الذى أريد ؟. وبدا الخاطر غريبا لا يصدق ، وخاصة بالقياس إلى أنا الذى أخافه أكثر من الجميع ، ولم أؤمله قط ، بيد أن الجزع كان بلغ منى منتهاه فى تلك الأيام ، وجرى الحب منى مجرى الدم ، واشتد إحساسى بفوات العمر لدرجة تستحق الرثاء ، فداخلنى شعور بأننى إذا بلغت الثلاثين فقد انتهيت . أمضتنى هذه المخاوف ، وكانت النظرات الحلوة التى تجود على بها الحبيبة توسعنى فى أثناء ذلك سعادة وتأنيبا صامتا . فلم أر بدا فى النهاية من أن أفكر جديا فى زيارة أبى .

وذهبت دون أن أعلن ما فى ضميرى لأمى ، واهتديت إلى الحلمية مسترشدا بكمسارى الترام ، ولما بلغت شارع على مبارك ذكرت لتوى الطريق الذى قطعته مع جدى منذ تسعة أعوام ، وتراءى لعينى البيت الكبير ذو السور تلوح وراءه رءوس الأشجار الضخمة . ورأيت البواب العجوز جالسا أمام الباب وقد طعن فى السن حتى صار هيكلا اسود . وخانتنى شجاعتى إذ غدوت منه على بعد خطوتين ، فلم أتوقف عن السير ، وجاوزته ، وقد تملكنى شعور اليأس فحدثتنى نفسى بالعودة من حيث أتيت . وما جدوى بذل محاولة فاشلة حتما !. ولكنى لم أمعن فى الهرب ولعل اليأس نفسه أمدنى بقوة غير منتظرة ، فرجعت إلى البواب مستشعرا عزما جديدا ، مستنكرا الخور الذى يباعد بينى وبين بيت لى فيه حق غير منكور . حييت البواب فرد تحيتى جالسا ، فقلت له بلهجة لم تخل من كبرياء :

ـــ كامل رؤبة لاظ ، خبر البك من فضلك !.

ونهض البواب مبتسما ، ودعانى إلى دخول الحديقة ، ومضى ليخبر البك . هى الحديقة نفسها ، لا تزال تسطع جنباتها بشذا الليمون ، تمتلئ سماؤها برءوس النخيل ، وتتسرب منها إلى النفس كآبة ووحشة . وأرسلت ببصرى إلى الفراندا فى نهاية الحديقة فرأيت البواب يدعونى ، فتقدمت وأنا أطرد عن قلبى شعورا بعدم الارتباك . وارتقيت السلم ، فطالعنى المنظر القديم ، الرجل والخوان المزركش والقارورة والكأس ، مد لى يده وعلى فمه شبه ابتسامة فسلمت عليه ، ثم دعانى للجلوس فجلست على مقعد إلى يمين الخوان . وألقيت عليه نظرة سريعة فرأيت الجسم المكتنز وقد ترهل . واشتد احتقان الدم بالوجه الممتلئ ، وغابت العينان فى نظرة ذاهلة ، وبان للكبر فى صفحة وجهه غضون فى الجبين وحول العينين ، وذبول الخدين . لم أرتح لمنظره ، ولكنى حرصت على ألا يبدو فى وجهى أثر مما فى نفسى .. ولاحت منى نظرة إلى القارورة الممتلئة للنصف فرمقتها بنظرة غريبة ، وذكرت كيف تراءت لعينى فى الزورة الأولى فقلت لنفسى : لشد ما يسارع الفساد للإنسان !. وكان يتلفع بروب حريرى وقاية من رطوبة الخريف فى تلك الساعة من الأصيل . ولم يداخلنى ريب فى أنه مفعم خمرا حتى قمته ، فساورنى القلق ، وتساءلت عما دهانى من جنون حتى قمت بهذه الزيارة التى لا رجاء منها . وجعل ينظر صوبى باهتمام ، أو لعله حب استطلاع ، فعجبت لذاك اللقاء الغريب بين أب وابنه بعد افتراق عمر كامل ، وتساءلت فى نفسى فى دهشة وعدم تصديق عما يقال عن الحب بين الآباء والأبناء . ولم أدر بطبيعة الحال كيف أبدأ الحديث ، ولكنه أخذ يتكلم فأنقذنى من حيرتى . وقال بصوت غليظ :

ـــ كيف حالكم ؟. مات جدك ! كان رجلا لطيفا ، وأحفظ له ذكريات لا بأس بها على رغم ما كان ، ولكنى لم أشهد جنازته وهو ما لا يغفره كثيرون ، على أن الإنسان فى مثل سنى ينبغى أن يعفى من الواجبات ، والشيخ والطفل سيان فى

ذلك ، ولا تنس من ناحية أخرى أن جنازتى لا ينتظر أن يشيعها أحد اللهم إلا عم آدم البواب ، ولا يبعد أن يشغل عنها عم آدم نفسه بتفتيش جيوبى وسرقة ما يظنه بها من نقود . هل تشيع أنت نعشى ؟!.

* * *

دهمنى سؤاله بعد قلق استحوذ على بتأثير لهجته الثملة ، فأيقنت أن مهمتى ستكون شاقة مخيفة ، ولكنى بادرته قائلا :

ـــ أطال الله بقاءك !

فقهقه ضاحكا ، ورأيت أنه فقد ضروسه ، فساءنى منظره وضحكه واستدرك قائلا :

ـــ يا لك من ولد بار ، فجميل جدا أن تحب أباك وتدعو له بطول العمر ! والبر بالأب سجية فاضلة لم يكن لى منها نصيب واأسفاه ، ولو أوتيت قدرا من الرياء أو حظا من الصبر لكنت الآن من أغنياء البلد المعروفين ، مثل عمك قاتله الله ، ألم تر إليه كيف لم يقنع بما ورث من مال لا تفنيه النار حتى استأثر بأخيك مدحت ـــ ذلك الثور ـــ فزوجه ابنته ؟!. ولقد ظننته يوما سيعتنق مذهب الطلاق كأبيه ولكنه يبدو خانعا كالنساء ، وانقلب فلاحا مزارعا يشارك القطعان معيشتها ، ولعله يحلم بثروة عريضة بعد موت عمه ، ولكن خاب فأله ، فلزوجه أخوات ست كلهن مطمع الفحول من عشاق المال والنساء ! لذلك أقول إنه من التعاسة أن تنجب بنات ، هذا عار كبير مهما قالوا إن الزواج نصف الدين !! إلا إذا كان النصف الآخر هو الطلاق !.. « ثم غير لهجته » .. لماذا لا تطلب يد إحدى بنات عمك ؟!. ألا تعلم بأن ميراث الواحدة منهن لا يقل عن مائة جنيه كل شهر ؟ ولكن دعنا من هذا كله واسمح لى أن أنظر فى وجهك قليلا فإنى لا أكاد أعرفك . ما شاء الله ، أنت رجل لا ينقصك إلا الشارب ، لماذا لم ترسل شاربك ؟.. ثم إنك رجل جميل ، ولكنك نحيل مهزول كأنك لا تأخذ كفايتك من الطعام ؟. عار أن يكون شاب فى مثل سنك نحيلا . ومع ذلك فيا لها

من سعادة أن يرى الأب ابنه رجلا ، خصوصا إذا كان يراه لأول أو لثانى مرة !. ألا ترى أنى أب عجيب ؟ لقد أنجبت ثلاثة ولكنى وحيد مهجور . ولست ساخطا على حظى ، لأنه من السعادة أن تبقى وحيدا ، وما من مرة خلوت بإنسان قط إلا وافترقنا خصمين ، وهم يقولون عادة إنى مخطئ ، وأنا أقول إنهم لمخطئون ، فالله يفصل بيننا يوم القيامة . لا تدهش إذا سمعتنى أقتبس من القرآن !، فإنما الفضل فى ذلك إلى الراديو ، ولقد باعدت بينى وبين الدنيا ولكن الدنيا تأبى إلا أن تقتحم على دارى فى الراديو . أهلا أهلا . أنت ولد بار يا كامل ، ولكن ينبغى أن تعتنى بصحتك ، وتأخذ كفايتك من الطعام حتى تسمن . ألم يترك جدك ثروة ؟!

كنت جزعا يائسا لا أدرى كيف أطرق الموضوع الذى جئت من أجله فى ضوضاء تلك الثرثرة التى لا ضابط لها ، واشتد جزعى ويأسى حين رأيته — فى أثناء ثرثرته — يملأ كأسا جديدة ، ولكنى انتهزت فرصة طرحه السؤال الأخير وقلت بلهجة لا يشوبها شك :

— لم يترك جدى شيئا على الإطلاق ..

فهز رأسه الأصلع الأحمر كأنه يقول « هذا ما توقعته » ثم قال :

— مرتب عال ، ذرية قليلة ، معاش ضخم ، ثم لا يترك شيئا ، كان رحمة الله مقامرا ، والمقامر يفضل أن يخسر نقوده على المائدة على أن يكنزها فى المصرف ، وما هو إلا طفل قد تمكن من قلبه حب اللعب ، ولست ألومه لأنى بدورى شريب سكير ، والفرق بين المقامر والسكير ، أن الأول عملى يضارب ويخادع ويكسب ويخسر ، أما الآخر فنظرى يحلم ويحلم ويحلم . إذا طمع المقامر فى الثراء قامر بثروته فى اللعب فيخسرها على الغالب ، ويمنى نفسه بتعويض خسارته فما يزداد إلا خسارا حتى إذا مات لم يترك شيئا ، يترك دينا ثقيلا ، والغريب فى الأمر أن المقامرين جميعا يخسرون ولا أدرى من يربح إذن !. أما الشريب فإذا طمع فى الثراء وجده محضرا بين يديه دون أن يكلفه ذلك أكثر من ثلاثين قرشا ثمن قارورة

كهذه . أتقول إن ذلك محض وهم ؟!. ليكن ، وهل ثمة شيء فى الدنيا إلا وهو وهم وخيال ؟!. أين جدك ؟.. كان جدك حقيقة ملموسة فأين هو الآن ؟. شمر للبحث عنه فلن تجد له أثرا . فتش عنه فى البيت ، وفى المقهى ، وفى النادى ، بل انظر فى القبر نفسه ، وهاك رقبتى إن وجدت له أثرا ، فكيف يكون حقيقة ؟!. رحمه الله !. وماذا فعلتم بعده ؟. أما زلت طالبا ؟!.

فقلت وأنا أدارى حنقى وجزعى بابتسامة باهتة :

ـــ تعينت موظفا بوزارة الحربية !

فرفع كأسه ضاحكا وقال :

ـــ نخب مستقبلك !. ما شاء الله ! أسرتنا مجيدة ولكن ليس بها من موظف واحد ، فأنت الذى تشق طريقها إلى الحكومة !

ولم أتمالك أن قلت بضيق :

ـــ لست إلا موظفا صغيرا ، وليس لى مرتب يذكر !

فرمقنى بنظرة توجس من تحت حاجبيه الأشيبين وقال بغير مبالاة :

ـــ لا تجزع ، الصغير يكبر حتما . قضت حكمة الدنيا بأن الصغير يكبر والكبير يصغر .. والظاهر أن الله خلق ثروة محدودة واحدة ، لا يتغير مقدارها ، ويتغير حظ الناس منها ، وإلا فلماذا لا يثرى الناس جميعا ؟. فاصبر يا بنى ولا تشغل نفسك بالتفكير فى المال . التفكير فى المال مهلكة كادت توردنى فى يوم من الأيام ، إنى أعجب لماذا يحب الناس المال هذا الحب الكبير !. لست فى حاضرى من محبى المال ، أنا لا أحب إلا الخمر ، ولو أحب الناس جميعا الخمر كما أحبها ، واستهانوا بالمال ، لأمكن حل مشكلة الدنيا بكلمة واحدة . تصور معى بلدا سعيدا ، يشطرونه شطرين فيشيدون المساكن على اليمين والحانات على اليسار والحكومة فى الوسط ، ولا يكون للناس من واجب إلا أن يشربوا ، هذا بلد يريح ويستريح ، ألا تشرب يا بنى ؟. كلا !. فماذا تعتنق من الشرور ؟. إن قيمة المرء الحقيقية فيما يعمل من شر ، هبنى مت غدا ولم أكن سكيرا ، فما عسى أن يقول

عنى الناس ؟ لا شىء !. أما وأنا شريب فسيقولون حتما : « كان شريبا سكيرا » . بل ولو كنت أتصدق بمالى هذا على الفقراء لما ذكرنى أحد بكلمة . الناس ينسون الخير بسرعة ولو كانوا من صنائعه ، فالشىء الوحيد الذى يخلد ذكرك هو الشر .. ما رأيك فى كلامى هذا ؟!.

ولم أجد من الإجابة مفرا ، فقلت :

ـــ يجب أن نخاف الله ونطيعه ..

فآمن على قولى بهزة من رأسه المستدير بدت هزلية واستدرك قائلا :

ـــ صدقت !. هذا سر الوجود . أما والله لو كان حقا ما يقولون عن الله فإن مصيرنا لأسود !. بيد أننى عظيم الثقة والاطمئنان ، وما أفقد ثقتى وطمأنينتى إلا إذا ساء هضمى ، هنالك تبدو الدنيا عابسة كالحة !. وذلك لأنى أومن بأن الله لا يعذب عباده . كيف أصدق أن إلـٰها عظيما سبحانه يحرق مخلوقا مثلى لأنه أحب الخمر ؟!. ألا يعجبك كلامى ؟. أنت آنستنا . أرى الملل فى وجهك . ترى ما الذى دعاك إلى تذكر أبيك بعد نسيان العمر كله ؟!

وخفق قلبى ، ولم أعد أطيق السكوت . ولعله لم يكن من الفطنة أن أطرق موضوعى إثر ذاك السؤال ، لكننى قلت فى عدم تبصر :

ـــ أرانى فى ضيق شديد . وإذا كانت الظروف السيئة قد فرقت بيننا فإنك أبى على رغم هذه الظروف السيئة .

وقهقه ضاحكا فكرهت منظره للمرة الثانية . ثم قال بلهجته الهاذية التى تنزع من سامعه أية ثقة فيما يقول :

ـــ معك حق . الوسكى هذا حكمة غالية ، إنه كالدنيا فى مرارته ، ولكن الحكيم من يستطيبه ويألفه كما يستطيب الحكماء الدنيا ويألفونها ، ويل لمن يجزعون لمرارته أو يقيئون ، لن يصبروا إذن مع الحياة . قلت يا بنى إن معك حقا . يعجبنى والله حسن تمهيدك ولباقتك . تقاطعنى مختارا ثلاثين عاما أو ما يقارب هذا ، لا تؤاخذنى على الخطأ لأن الحساب لا وزن له عند الشريب فليس

حتما أن يساوى واحد وواحد اثنين ، وعسى واحد يساوى عشرة ، قلت إنك تقاطعني عمرا ثم تجيئني معتذرا بجملة لطيفة . على أنى أقبل العذر ، ولم لا ؟ الحق لا آسف على مقاطعة الناس لى . أما الضيق الذى تشكو فأمر يهمني جدا . فما يضايق ابنى يضايقنى بالتالى ، فماذا تعنى يا بنى ؟.

حدثتنى نفسى بالذهاب لأنى لم أجد فى ذلك الهذيان فائدة ترجى . بيد أنى نبذت الفكرة فى احتجاج وغضب . وعز على أن أنكص على عقبى بعد أن أقدمت على ما أقدمت عليه . واستجمعت قواى ، وبذلت فوق ما أحتمل عادة فى مقاومة الخجل والارتباك وقلت بصوت منخفض :

ــ أريد أن أتزوج !.

وعاد الرجل السكران إلى قهقهته الكريهة ، ثم قال بدهشة :

ــ ما بال أسرتنا لا تنجو أبدا من هذا الداء الوبيل ؟!. إن أختك لم تطق صبرا حتى أختار لها بعلا كما ينبغى فهربت مع رجل غريب وتزوجته . وهذا أخوك ما كاد يشب عن الطوق حتى كان راقدا فى حضن عروسه . ولا أبرىء نفسى فقد حاولت أن أكون زوجا مرة وأخرى وثالثة ، أعجب بها من أسرة ! ولعلك تحتاج مالا ليتم لك ما تريد من زواج ؟!، لا أستبعد هذا فالزواج وإن كان داء كما قلت إلا أننا ننفق عليه أموالا طائلة ، وفى هذا وحده الدليل الناطق على جنون الإنسان .! ولعلك جئتنى وحملت نفسك ما لا تود من رؤيتى لتسألنى مالا تزف به إلى عروسك .. لا أستبعد هذا ، ولكن من أين لى بالمال الذى تريد ؟. هل « قالوا » لك إنى غنى ميسور ؟. لا أنكر أنى أتمتع بدخل شهرى مقداره أربعون جنيها غير أجرة الطابق العلوى ، ولكن لا تغيبن عنك نفقاتى ، إليك الطباخ مثلا فهو يسلبنى عشرين جنيها كل شهر ، وإذا خطر لى أن أراجعه مرة دوخ دماغى بحساب طويل لا أفقه عنه شيئا . وإليك الخمر أيضا فإنه يلزمنى منها زجاجتان فى اليوم أو ما يزيد على خمسة عشر جنيها فى الشهر ، وما يبقى بعد ذلك لا يكاد يفى بالضرورات الأخرى كالكساء والتدخين ورواتب الطباخ والبواب والخادم

وأجرة العربة التي تجوب بى بعض الشوارع القريبة كلما سئمت طول المكث فى البيت.ليس لى من رصيد فى المصرف ، حتى إنى أعالج سوء الهضم بالوصفات البلدية . لا تسألنى مالا يا بني ، وإنى أقول هذا آسفا علم الله ، ولكن لماذا لا تتزوج كما تزوج أخوك من غير أن يبذل مليما واحدا ؟!. وإن احترمت نصيحتى فلا تتزوج على الإطلاق !.

وحدجنى ببصره الزائغ ، فبدا لى فظيعا كريها . ثم استخرج علبة سجائره ، وأخذ سيجارة وأشعلها وراح يدخنها بتلذذ . وجعل يراقب دخان السيجارة بعينيه الخابيتين ، فخيل إلى أنه نسينى : ثم وقع فى نفسى أنه يعذبنى !. وملأنى الحنق ، ولكنى بقيت على جمودى ، وازددت إحساسا باليأس والخيبة . وساد الصمت مليا ، ثم التفت نحوى ، وألقى على نظرة لا معنى لها ، ثم ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة وسألنى :

— ألا تدخن ؟.

— كلا ..

وعدنا إلى الصمت : ألا يجدر بى أن أذهب ؟. وتوثبت للنهوض لولا أن لاح فى وجهه ما جعلنى أنظر إليه بدهشة وانزعاج . بدا متعبا وتفصد جبينه عرقا ودارت عيناه فى أنحاء المكان وكأنهما لا تريان شيئا . ورأيت خده الأيمن فيما يتصل بفمه يرتعش ارتعاشة عصبية . ثم دمعت عينه اليمنى .. آ .. توقعت شيئا مخيفا لا أدرى كنهه ، ولكن لم تطل به تلك الحال ، انبسط وجهه وعادت إلى عينيه الحياة الطفيفة التي تبدو فيهما : ونظر صوبى مرة أخرى ، زايلنى الخوف الغامض ، وعاودتنى أحاسيس اليأس والخيبة والكراهية . ثم تأملت بعين الاستغراب الحقيقة الماثلة أمامى ، وهى أن هذا الرجل هو أبى الذى أوجدنى فى هذه الدنيا ودعت هذه الحقيقة حقائق أخرى مما يتصل بها ، بدت فى صور محسوسة : فساءنى منظرها ، وآلمنى وأحزننى . ولبثت هنيهة من الألم فى شبه ذهول ، ثم تنهدت على غير وعى منى بصوت مسموع ، وتنبه إلى وسألنى للمرة

الثانية :

— ألا تدخن ؟

فهززت رأسى سلبا ، فقال فى تهكم :

— نعم الفتى أنت .! لا عيب فيك إلا أنك ترغب فى الزواج ! حدثنى ! عن زواجك أهو رغبة عامة ؟ أم هو رغبة خاصة فى بنت من بنات حواء ؟ « هنا خفق قلبى بعنف وكادت الدموع تسارع إلى عينى » ، هذا ما يبدو لى ، ترى كيف الحب هذه الأيام ؟! لا شك أنه لا يزال محتفظا بخطورته وقوته فى خداع البشر ! ومع ذلك أكرر كرجل مجرب . الزواج سخرة . تصور أن امرأة تملكك. عليك النصيحة بألا تتزوج على الإطلاق . هذه نصيحة ودع ما يقال من أنك أنت الذى تملكها فهو كذب سمج ، تنهك قواك وتسلبك مالك وتستبد بحريتك ثم تستدرجك لاستعباد روحك وما تملك لرعاية شخصها وأبنائها ! . فإذا مت سعت إلى رجل غيرك قبل أن تجف دموعها ، الزواج شىء سخيف لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة ! .

ترنح قلبى تحت وقع الطعنة التى نفذت إلى صميمه ، وندت عنى على رغمى آهة من الأعماق ، فنظر إلى فى شبه بلاهة . ورمقته بنظرة نارية حتى حادثتنى نفسى بأن أقذفه بالقارورة فى وجهه ، ولكننى لم أكن الرجل الذى ينفذ مثل ذلك الخاطر ، وشعرت بالقهر لعجزى ، وبرغبة فى البكاء قاومتها ما وسعنى الجهد . وسألنى فى دهشة :

— هل آلمتك يا بنى ؟.

فنهضت قائما فى حنق وصحت به :

— السلام عليكم ..

ثم ندمت على إفلات هذا السلام منى فى اللحظة التالية ، وغادرت المكان لا ألوى على شىء ، ثم خلصت إلى الطريق وأنا أسب وألعن وأتميز غيظا وحنقا : « لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة ! » .

رباه !.. لو أن ألف صفعة ألهبت قفاى فى ميدان عمومى لما آذتنى كما آذتنى تلك العبارة .! وبلغ منى التأثر مداه فازدحمت الدموع بعينى ، واستسلمت للبكاء مستخفيا بالظلمة التي تغشى الكون . ليس ثمة فائدة ترجى منه . موته وحده بيده أن يغير وجه حياتى !. أجل لا أمل ألبتة إلا فى موته : واستقللت الترام وشرودى المعهود ينفس عن كربى بأحلامه التائهة ، فرأيت نفسى جالسا مع مدحت وشقيقتى راضية نتقاسم ميراث أبى بعد وفاته !! واقترحت عليهما أن نبيع البيت الكبير فوافقانى فى الحال وأصبحت فى غمضة عين مالكا لألف جنيه !، ولم يكن فى الحلم أثر لأمى !، فقابلت والد حبيبتى وفاتحته بشجاعة عن رغبتى فى مصاهرته وتم كل شيء دون عراقيل !. وشعرت بارتياح خفف من توتر أعصابى الذى أورثتنيه تلك الزيارة المخيفة الفاشلة ، بيد أنى تذكرت بسرعة كيف أن الحلم لم يجعل لأمى وجودا ، وسرت فى بدنى رعدة خوف وتقزز ، وتقلص قلبى امتعاضا وندما ، كيف سمحت لهذا الخاطر الشيطانى بأن يلوث نفسى مرة ثانية ؟!. ولازمنى الامتعاض والغضب طوال الطريق . وجعلت أردد فى نفسى : « اللهم بارك لى فى عمرها » ، ولم يغن عنى ذلك شيئا فعدت إلى البيت موزع النفس مشتت البال ، ولم يرتح لى جانب حتى طبعت على جبينها قبلة طويلة حارة ..

٢٨

وفى عصر اليوم التالى ذهبت إلى محطة الترام لأفوز بدقائق السعادة التى لا يجود اليوم إلا بها . لم يعد لقاء الصباح بالمتاح إلا فيما ندر ، وذلك منذ غدت حبيبتى جالسة فى الشرفة تحادث شقيقتها ، فوقفت متطلعا ، منتظرا زادى من نظرة عينها الذى يمدنى بماء الحياة ، وانعطف الرأس المحبوب نحوى ، ولكنه ما كاد يرانى حتى تحول عنى فيما يشبه الحدة . ثم نهضت قائمة وغادرت الشرفة . خفضت

بصرى ذاهلا وقد خبا حماسى وفتر . ما الذى أغضبها ؟. هل لم تحتمل جمودى ؟. هل يقضى على بالحرمان من نظراتها الحلوة ؟. هل قررت أن تقابل جمودى بالإعراض والتجاهل ؟. وتولانى الحزن والقنوط والخجل . كان موقفى مخجلا بلا ريب ، ثم خطر لى خاطر بردت له أطرافى ، وتساءلت فى خوف أيكون لأحد الرجلين اللذين ينافسانى فى الإعجاب بها شأن بهذا التحول الجديد ؟. لئن صح هذا ، فماذا يبقى لى فى الحياة ؟!. خبرينى يا حبيبتى بحق شبابك الريان ، أهى جفوة عطف خانه الصبر أم إعراض قلب ظفر بمبتغاه فى ناحية أخرى ؟. لن أنسى بؤس ذلك اليوم ، ولا الأيام التى تلته . اختفت حبيبتى من أفق حياتى ، وتحامت الظهور بالشرفة حين أكون فى المحطة ، وفى مرات التلاقى النادرة فى الصباح حرصت ألا يقع بصرها على . رحت آكل الشرفة والنافذة بعينين جائعتين أضناهما التطلع . وكنت أرى الأم أحيانا وهى ترمقنى بنظراتها المتفحصة ، والأخ وهو يلقى على نظرة غريبة ، والشقيقة الصغرى وهى ترمينى بنظرة اهتمام ، أما حبيبتى فقد توارت ، تاركة وراءها شجرة الحياة عارية ، قشورا صفراء وعروقا ذابلة ، رباه ! ليس هذا بعدم اكتراث ، لو كان عدم اكتراث حقا لما أوجب هذا الحذر كله ، ولوقع على بصرها كما يقع اتفاقا على المخلوقات والأشياء بالطريق . إنها تتجنبنى عامدة قاصدة ، إنها غضبى برمة ، ولا شك أن قصة الفتى الذى يبدو محبا قد ملأت البيت . ولا شك أن جموده الغريب كان موضع تعليق ونقد واستفهام ! كيف فاتنى أن أقدر حرج حبيبتى وحيرتها ؟. وتنهدت من الأعماق ، وتندى جبينى خجلا ، وامتلأت سخطا على حظى التعس ، وامتدت ألسنة سخطى إلى أمى المتوارية وراء كل شىء !، وانطويت على كدر كأنما سفت ريح الخمسين غبارها على نفسى ، فلم أجد إلا ذاتى هدفا لسخطى وكدرى وغضبى ، وهى عادة قديمة لى إذا ضاقت بى الدنيا أن أوسع نفسى نقدا وهجاء وكشفا عن عيوبها ومناقصها ، فعدت إلى التنديد بعجزى المطلق ، وخوفى الشامل من الدنيا والناس وكافة المخلوقات الأخرى ،

وذلك الكبرياء الكاذب الذى يجعلنى أصول وأجول فى البيت بلا داع حتى إذا اصطدم بأحقر موظف فى الدولة انقلب ذلا وخنوعا ، استسلمت لذاك التفكير الحزين طويلا حتى بدت لى نفسى قطعة من البشاعة والهوان ، إنى شخص لا يستحق أن يعيش ، إن أتفه الأعمال يملأنى ذعرا وجفولا ، حتى تمنيت أن يكون لزيادة الماهية طريق غير الترقية كى لا أجد نفسى أبدا مسئولا عن عمل كبير ، ولن أنسى أننى بذلت قصارى جهدى حتى وكلوا بى فى إدارة المخازن الآلة الكاتبة تفاديا لأعمال حقيرة لا تعدو الضرب والجمع والطرح ، لست إلا مخلوقا غريبا شذ على قافلة الحياة الحقة ، ومن آى ذلك أنى لا أحفل بشىء فى الدنيا إلا نفسى وما يتصل بها من قريب ، ومن آى ذلك أيضا أنى لا أقرأ الجرائد على الإطلاق !. ولشد ما كانت دهشة زملائى من الموظفين عظيمة حين تبين لهم اتفاقا إنى أجهل اسم رئيس الوزارة وقتذاك بعد أن مضت أشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلى كثيرا وأنا صامت كظيم ، وكأنى لست من هذا المجتمع ، فلا أدرى شيئا عن آماله وآلامه ، قادته وزعمائه ، أحزابه وهيئاته ، ولكم طرقت أذنى أحاديث الموظفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار القطن وتغيير الدستور فلم أكن أفقه لها معنى أو أجد لها فى نفسى صدى ، لا وطن لى ولا مجتمع ، لا لأنى أسبق الوطنية ولكن لأنى لم أدركها بعد .! ولعلى أشعر أحيانا بأنى أحب الناس جميعا ، الناس كشىء معنوى عام ، ولكن ما كان أحد من هؤلاء الناس — إذا اتصلت أسبابه بأسبابى — إلا ليثير فى نفسى الجفاء والنفور . وحتى إيمانى العميق لم يستطع أن يستنقذنى من هذه الوحشية المخيفة ، فضلا عن أنه أثقل ضميرى بالقلق والتأنيب ، وأوسعنى إحساسا حادا بالخطيئة من جراء العادة المجنونة التى استبدت بى ..

لذلك إذا كان جاء يوم الأحلام انطلقت إلى حانتى الجديدة بسوق الخضر لا ألوى على شىء ، وطلبت الدورق الجهنمى الذى لم يعد لى عزاء سواه ..

كنت واقفا فى المحطة قبيل المغرب ، لم آل أن أتطلع إلى الشرفة والنافذة ، ولكن حبيبتى لم ترق لى منذ جفتنى ، قاطعتنى مقاطعة قاسية ، وأضنت حياتى كمدا ، وكان الشتاء فى إبانه : وفى السماء سحاب جون انعكس ظله الثقيل على الأرض ، وهبت ريح باردة ، وقفت ملتفا فى معطفى الأسود ، أرفع للبيت المحبوب من آن لآخر بصرا مشوقا يائسا ، وعلى حين فجأة سمعت صوتا رقيقا يقول :

ـــ من فضلك يا أستاذ ..

فالتفت ورائى بدهشة ، ولكن ذهشتى تضاعفت ومازجها خوف كثير حين رأيت أمامى أحد الرجلين اللذين اتهمتهما بحب حبيبتى ، ذلك الرجل الوقور الذى يقطن فى عمارتها وغمغمت بارتباك :

ـــ أفندم ؟.

فقال بصوته الهادئ الرقيق ، وبلهجة تنم على الوقار :

ـــ تسمح نمشى قليلا معا ..

فتساءلت بحيرة وإن حدس قلبى الخبر :

ـــ لماذا ؟

فقال مبتسما :

ـــ لدى أمر أود أن أحدثك عنه ..

فلم أجد مناصا من أن أقول :

ـــ بكل سرور .

فقال وهو يرفع بصره إلى السماء :

ـــ الجو باردا جدا ، فهلا وافقت على أن نستقل الترام إلى ميدان إسماعيل ،

وهناك نجلس فى مشرب الشاى فأحدثك دقيقتين ؟. ألديك مانع ؟. وركبنا ونزلنا ، وجلسنا . حدثتني نفسى سلفا بموضوع الحديث ، وداخلنى إحساس بالخوف ، بيد أن شعورى بأن الحديث سيدور حول حبيبتى حملنى على الذهاب معه بلا تردد ، بل وبرغبة لا تقاوم ، ولكنى تساءلت طويلا عما هو قائل ؟ وعما يرمى إليه من وراء حديثه ، وألقيت عليه أول نظرة من قريب ونحن جالسان حول مائدة صغيرة ، كان فى الأربعين ، معروق الوجه ، دقيق القسمات ، صغيرها ، وكان يحلى أصبعه بخاتم ذى فص ماسى ، ويضع على عينيه نظارة سميكة أحدث من نظرة عينيه ،ويعبث بسلسلة ساعته الذهبية المدلاة من عروة صدارته ، سألنى بأدب عما أفضله من المشروبات ، ولما لم أحر جوبا طلب شايا ، ثم قال :

— اعذرنى عن تطفلى هذا ، ولكنك ستقدر موقفى بلا شك إذا علمت بما حدانى إلى دعوتك . واسمح لى قبل كل شيء أن أقدم لك نفسى .. محمد جودت مدير أعمال بوزارة الأشغال .

ووقعت كلمة « مدير » من نفسى موقعا مروعا ، فقلت :

— تشرفنا يا بك .. أنا كامل رؤبة لاظ موظف بوزارة الحربية .

وجاء النادل بأقداح الشاى ، ولكنى كنت أفكر فى الفرق الكبير الذى يفصل بيننا كموظفين . هو مدير أعمال ، وأنا كاتب على الآلة الكاتبة بإدارة المخازن . ولمحت وراءه مرآة مثبتة فى الجدار ، ورأيت صورتى معكوسة على صفحتها ، فنظرت إلى وجهى المستطيل وعينى الخضراوين ، وسرعان ما سرى عنى شعور بالارتياح والإعجاب !. أما صاحبى فقال لى :

— يا أستاذ كامل ، إنى دعوتك لمشاورة أخوية ، وأرجو أن تقدر رغبة رجل مثلى — اعتبره أخاك الأكبر — فى التفاهم الصريح . لست بالمتجنى على أحد ، ولكنى أرجو أن نكون صرحاء !.

واصطنعت الدهشة وقلت :

ـــ أرجو أن تفصح يا سيدى عما تريد وستجدنى رهن إشارتك ..

فضحك ضحكة قصيرة خافتة ، ثم قال بعد تردد قليل :

ـــ أتصفح عنى إذا سألتك سؤالا ليس لى حق فى توجيهه ؟.

رباه إنى أتلهف على سماعه . أجل إنى أوقن بأنه لن يحمل لى نبأ سارا ومع ذلك بدا لى كأشهى المنى . قلت مبتسما فى ارتباك :

ـــ بكل سرور يا بك ..

فارتفق المائدة شابكا أصابع يديه ، وقال :

ـــ لاحظت أنك تبدى اهتماما خاصا بشخص ما ، ولعلك أدركت من أعنى « هنا خفق قلبى خفقة عنيفة » فلا تؤاخذنى إذا سألتك عن حقيقة اهتمامك هذا ، هل هناك رغبة أو نية أو صلة ؟!.

أوشكت أن أتظاهر بالدهشة . وأعلن تجاهلى ، ولكنى عدلت عن ذلك فى اللحظة التالية . طالما التقت عينانا فى المحطة ، وطالما رأيته يراقبنى وأنا أتطلع إلى الشرفة ، كما رآنى أراقبه يسدد عينيه لنفس الهدف ، فهو يعرف كل شىء ، ويعرف أننى أعرف ، فما جدوى التجاهل إلا أن يكشف عن كذبى ؟. فقلت متكلفا إبتسامة كاذبة :

ـــ حضرتك أخطأت الفهم ، فقدرت أنى أبدى اهتماما بشخص ما على حين أنى أنظر إليه كما أنظر إلى سواه . إنها محض عادة سيئة !.

وضحكت متظاهرا بالاستهانة ، فابتسم إلى ، وقرأت فى عينيه عدم التصديق ثم بادرنى قائلا :

ـــ إنك جنتلمان كما قدرت ، فأرجو أن تخبرنى صراحة هل لك بالآنسة علاقة ما ؟. إذا أجبتنى بالإيجاب شددت على يدك مهنئا وانصرفت إلى حال سبيلى .

فقلت وقلبى يتقطع ألما :

ـــ ليس لى بها أية علاقة ..

فتردد لحظات ثم سأل فى حرج غير قليل :

— ألم تفكر فى طلب يدها ؟.

تناوبتنى أحاسيس متباينة . شعرت أول الأمر بعذاب لا يوصف ، ثم داخلنى سرور خفى لأنى أيقنت أن الرجل الذى يخاطبنى رعديد مثلى وإلا لشق طريقه إلى بيت حبيبتى دون أن يعبأ بى ، بل أيقنت أنه يخافنى ، فأرضى ذلك غرورى إرضاء خفف عنى بعض ألمى . ثم وجدتنى مدفوعا إلى الادعاء والكذب بقوة لا تقاوم فقلت بيقين !

— لو فكرت فيما تقول لما منعنى مانع من طلب يدها من زمن طويل !.

وساد صمت . ومضى يتفرس فى وجهى وقد تألقت فى عينيه نظرة ارتياح . أى مانع يمنعنى ؟ يا للسخرية !إن كل شيء يبدو كحلم غريب ، هل حقا نحن نتكلم عن حبيبتى ، وهل حقا أنى لم أفكر فى طلب يدها وليس لى من رغبة فى ذلك . رباه ما أشد عذابى !. وتملكنى شعور باليأس لم أشعر بمثله طول حياتى الحافلة باليأس . وأخيرا خرج « البك » من صمته قائلا :

— أكرر المعذرة عن تطفلى . الحق أن نيتى قد صدقت أخيرا على طلب يد الآنسة بعد أن زالت من طريقى أسباب صدتنى طويلا عن التفكير فى الزواج ، وبدا لى أن أحدثك به حتى لا أضع رجلى فى غير موضعها ، والآن لا يسعنى إلا شكرك .

إنه من فصيلة العجزة — هكذا حدثنى قلبى — إلا أنه صادف من هو أعجز منه ، فهو سعيد الحظ بلا ريب . فلم يعد لبقائى من مسوغ ، فنهضت مستأذنا فى الانصراف وأنا أقول :

— مبارك يا سيدى .

فنهض فى أدب ، وبسط لى راحته ، وشد على يدى بامتنان فخلته يشد على عنقى ، وشعرت نحو السرور الضاحك فى عينيه بحقد نارى ، ثم ودعته وغادرت المشرب . وساقتنى قدماى على غير هدى فاستسلمت لهما ، لأنه لم يكن لى غاية

أقصدها ، وأخذت نفسا عميقا وقلت لنفسي : « الحمد لله » ، وأعدت القول بصوت مسموع كأني أهنىء نفسي !. ولعلي كنت أهنئ نفسي حقا على اليأس ، وأمنيها بالخلاص من القلق والعذاب واللهفة التي لازمتني منذ أشهر طوال ، أو منذ سكن الحب قلبي . وقلت لنفسي أيضا : « إني سعيد ، وليس أحق مني بالسرور أحد ، انتهت آلامي إلى الأبد ! » وخيل إلي أنني لو ألقيت بنفسي من جسر الملك الصالح — كما كان ينبغي أن أفعل في يوم مضى — لحلقت بدل أن أهوى من شدة السرور ! ذقت لذة اليأس في سرور هذياني غريب ، ومرت بي لحظات جنونية : والآن علمت لماذا توارت عن عيني ؟!. فأخذت أفيق من نشوتي الجنونية الكاذبة . ثم نشبت في قلبي أنياب الغيرة السامة ، أيمكن أن يتم هذا حقا !. لم أستطع أن أصدق هذا . لماذا ؟.. ربما كان مرجع هذا إلى ثقتي التي لا تتزعزع في الله الرحيم ورعايته ، ولكن من كان يصدق أن ينتهي بنا الحظ إلى الحال التي نعيش عليها ! وتنهدت من الأعماق في يأس مرير ، ثم سرت في جسمي رعدة من البرد القارص الذي تنبهت إليه لأول مرة بعد مغادرتي المشرب فأحكمت المعطف حول نفسي خوف البرد لكثرة ما يتهددني الزكام في الشتاء . وألمت بي رغبة غريبة ، هي أن أجد نفسي طريح الفراش !.. وتخيلت بارتياح رقادي تحوط به العناية والحنان !. وعلى حين فجأة انهارت أعصابي تحت الضغط الشديد الذي تحملته ، فوجدت ميلا لا يقاوم إلى البكاء ، فاستسلمت له متشجعا بالظلمة التي تلفني وبكيت ، ثم ازددت استسلاما فأجهشت في البكاء حتى انتحبت وشهقت كالأطفال .

٣٠

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنت في طريقي إلى الحلمية ، إلى أبي ، كيف انتهيت إلى هذا ، خاصة وأنه لم يكد يمضي شهر على الزيارة المخيفة !.

إنه اليأس .. قضيت ليلة مسهدة معذبة لم يغمض لى فيها جفن ، وتفكرت فى أمرى طويلا حتى تجسمت لى الأفكار شخوصا تصرخ بى أن اذهب إلى أبيك ، مهما كلفك الأمر ، وليكن ما يكون . ولم يكن التردد بممكن فى مثل حالتى ، لقد فقدت رشادى ، وأذهلنى الألم عن مشاعرى الطبيعية بالتردد والخجل والخوف فكان أبى — على رغم كل شيء — الأمل الوحيد الباقى لى .

واخترت أن أزوره فى الصباح لأنى أملت أن أجده قبل سكره فى حال خير من تلك التى وجدته عليها فى الزيارة السابقة المشئومة ، وفضلا عن هذا كله فلم يكن بى من صبر أستطيع أن أنتظر به حتى الأصيل ، فتلفنت إلى إدارة المخازن معتذرا ومضيت لطيتى . وكان الصداع يدق غلاف رأسى بمطرقته ، بعد ليلة سهاد وهم ، بيد أنى تماسكت ، واستمددت من يأسى قوة لم أعهدها فى نفسى من قبل . وبلغت البيت بعد العاشرة بقليل فوقف لى عم آدم احتراما ، فحييته ودخلت بلا طلب استئذان ، إما لأنى أبيت أن أستأذن فى دخول بيت أعده بيتى ، وإما لأنى تناسيت ذاك فى قلقى وغمى . ومضيت إلى الفراندا وارتقيت السلم متنحنحا ، ولكنى وجدتها خالية ، فوقفت مرتبكا . وأدركنى آدم فدفع بابا يفضى إلى الداخل وسبقنى وهو يقول :

— كامل بك حضر .

وتنحى لى ، فاجتزت العتبة بقدمين ثابتتين . وجدت نفسى فى حجرة كبيرة مستطيلة تنتهى ببابين فى الجدار المقابل علقت بينهما صورة بالحجم الطبيعى لأبى فى عز شبابه . وقد غطيت أرضها ببساط نفيس منمنم ، وصفت على جانبها الكنبات ، وأسدلت الستائر على نوافذها وأبوابها .. ورأيت أبى متربعا على كنبة تتوسط الجناح الأيسر للحجرة ، وأدوات الشراب أمامه على منضدة أنيقة كأنها — لعدم انفصالها عنه — عضو من أعضائه . ولم يكن بمفرده ، كان الحلاق على كثب منه يجمع أدواته فى حقيبته ، ثم حياه بأدب وذهب ، وعلى أثر ذهابه تراجع عم آدم ورد الباب . واتجه بصرى وأنا أقترب منه صوب القارورة فوجدتها لم

تمس ، وداخلني لذلك ارتياح وأمل . ومددت له يدى فتناولها بكفه الغليظة ، وجرت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يقول :

ــ أهلا بك ، أأنت فى إجازة ؟.

لم أرتح إلى استقباله ، ولكنى غضضت عن ذلك ، والحق أن آلام الليلة الماضية ، والصداع الناشب فى رأسي . ويأسى المرير ، تغلبت على ما طبعت عليه من خجل وخوف وتخاذل ، فقلت :

ــ نعم فى إجازة خاصة كى أقابلك فى الحال ..

فرمقنى بنظرة لم يحاول إخفاء ما لاح فيها من قلق مما أثار حنقى وغيظى ، وتساءل باقتضاب :

ــ أمر هام ؟!.

تناسيت كل شيء إلا ألمى المبرح وأملى الباق فقلت بانفعال نمت عنه نبرات صوتى :

ــ هام جدا ، أو بالأحرى هو حياتى ومستقبلى .

فردد قولى دون أن يخرج من جموده . وذهوله الذى استحال طبيعة أخرى له :

ــ حياتك ومستقبلك !.

فقلت برجاء وإشفاق :

ــ زواجى الذى حدثتك عنه !. إن رجلا يوشك أن يطلب يد الفتاة التى أريد أن أتزوجها ، فإذا لم أتقدم فى التو والساعة أفلتت الفرصة من يدى ، وضاعت حياتى ..

أتراه قاذفى بإجابة ساخرة كعادته ؟. وانقبض قلبى فى فزع . ولكنه لم يكن هاذيا ولا معربدا ، ومع ذلك بدا جامدا سقيما ذاهلا ، بل ميتا . كان كل شيء يسوغ لى اليأس ، بيد أنى أبيت أن أيأس ، وثبت ذهنى المكدود على فكرة واحدة عميت عما عداها فى السباق الجنونى الذى أكابده . انتظرت على جزع حتى

قال :

ـــ اطمئن فإن حياة الإنسان لا تضيع لضياع امرأة .

فهتفت بحرارة :

ـــ إنى أعلم الناس بحياتى !.

فقال بعدم اكتراث :

ـــ أنت وشأنك يا بنى . لن أتدخل فيما لا يعنينى !.

فقلت بعناد :

ـــ إنى فى حاجة قصوى إلى المال ، سبق أن أخبرت حضرتك بذلك .

فسألنى بلهجة نمت عن الملل :

ـــ وماذا قلت لك ؟.

فتملكنى الحنق . وبدا لى فى صحوة أفظع منه فى سكره ، وقلت مدافعا عن نفسى بإصرار وقنوط :

ـــ لا بد أن أحصل على المال الذى أريد . أرجو أن تقدر حرجى وشدتى ، فإذا ضاعت منى هذه الفرصة انعدم أملى فى الحياة .

وألقى نظرة على القارورة ، ثم قطب قليلا وقال :

ـــ أنت تطلب مالا وليس عندى مال !

ـــ هذا غير معقول ..

ـــ هو الحق الذى لا شك فيه !.

وأيقنت من لهجته واستهانته وتبرمه أن السماء أقرب إلى إثارة اهتمامه وعطفه ، وتألب على القنوط والصداع والحنق فقلت بصوت مرتفع ملأ الحجرة الكبيرة :

ـــ إنك لم تنفق على مليما واحدا ، فماذا يضيرك لو تنازلت لى عن بضع مئات من الجنيهات ؟!.

ونفخ الرجل عابسا ، واشتد احمرارا وجهه ، ثم قال بصوت غليظ :

ـــ يبدو لى أنك لا تفهم ما يقال ، ولا تعى ما تقول ، قلت لك ليس عندى مال .. ليس عندى مال .. ليس عندى مال !.

وأفلت منى زمام نفسى فكورت قبضتى وضربت فخذى وصحت به :

ـــ أليس ثمة رحمة فى قلبك؟!.

فحدجنى بنظرة كأنما يقول لى : « لقد أعيانى إقناعك » ، وقال باقتضاب وعدم مبالاة :

ـــ كلا ؟.

فرمقته بنظرة جامدة وشت بلا شك بأحاسيس الكراهية والحنق التى تفور بصدرى حتى رأيته يعبس ويتجهم وجهه ، ثم صاح بصوت كالخوار :

ـــ ألا تريحوننى كى أعيش البقية الباقية من حياتى فى هدوء؟!.

فصحت به كمن فقد وعيه :

ـــ متى أزعجنا حياتك ؟. أنت الذى أزعجت حياتنا . إنى فى حاجة لبعض المال الذى تنفقه على الخمر بغير حساب ولا بد أن آخذ ما أحتاج إليه .

فقبض على الكأس الفارغة بأصابع متشنجة وزعق قائلا :

ـــ هذا كلام مجانين !. أتسبنى فى وجهى ؟. أتهددنى ؟ اغرب عن وجهى ولا تعد إلى هذا البيت ما دمت حيا !

فاشتد بى الغضب وصحت بانفعال شديد :

ـــ هذا بيتى ، وما به من مال فهو مالى ، ولن تمنعنى قوة عما أريد ، أفاهم أنت ؟. أفاهم أنت ؟.

فنهض قائما والشرر يتطاير من عينيه ، وصفق بقوة جنونية وصرخ فى قائلا :

ـــ اغرب يا ولد عن وجهى وإياك أن تعود إلى هذا البيت آدم .. آدم ..

وفتح الباب ودخل عم آدم كأنه فى الانتظار ، واقترب منا وهو يقول :

ـــ أفندم يا بك .. خير إن شاء الله .

وبردت فجأت كأن « دشا » انهال على . سكت عنى الغضب ، وخمد

الهياج ، وولى قلبى فرارا . وقبضت يد الخوف الباردة على عنقى فتسمرت فى مكانى مرتبكا ذاهلا زائغ البصر . ذهب كامل الذى اصطنعه الغضب واليأس ، وبقى كامل الآخر كما خلقته الطبيعة . ولم يرحم الرجل الهائج ضعفى فصاح بالبواب قائلا :

— أوصل هذا إلى الباب ولا تسمح له بالدخول مرة أخرى . إنه يتهددنى بالقتل .

وحملقت فى وجهه بذهول وانزعاج لا أكاد أصدق أذنى ، فلاح لى فى هياجه الجنونى كشيطان رجيم . وصرخ فى وجهى :

— اغرب عن وجهى .

ولكنى لم أبد حراكا ، أو بالأحرى لم أستطع أن أبدى حراكا ، تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعنى ، ومت خوفا وكمدا وخجلا : وانتظر الرجل عابسا ، فلما رآنى لا أتحرك ولانى ظهره وغادر الحجرة إلى الداخل على حين تقهقر البواب إلى الفراندا . وجدت نفسى وحيدا فعضضت على شفتى ، واستعدت وعيى فاستطعت أن أنهض قائما فى وجوم ، ثم غادرت الحجرة متحاميا النظر ناحية البواب . وحثثت خطاى فى الحديقة والبواب يتبعنى مغمغما بالاعتذار والتأسف ، منتحلا للبك الأعذار قائلا : « إنه دائما هكذا » .

وابتعدت عن البيت دون أن أنبس بكلمة ..

٣١

قطعت نصف النهار الأول متسكعا فى الطرق مختنق الأنفاس من اليأس والحنق والقهر والخزى والخجل .. وعدت إلى البيت فى الموعد المعتاد حتى لا تتساءل أمى عما جاء بى قبله . وغلبنى النوم بعد الغداء فاستغرقت فيه حتى أول المساء ، ثم غادرت البيت مثقل النفس كأنما أحمل الأرض على رأسى ، وتساءلت أين

أذهب ، فما وجدت إلا جوابا واحدا . نادتنى الحانة نداء مغريا ، واستصرخنى قلبى أن ألبى وأطيع . بيد أننى لم أغفل عن الحقيقة الراهنة وهى أن ميزانيتى — ذلك الشهر — ستختل حتما بعد السكرة المشتهاة فلا أجد ما أنفقه حتى قبض المرتب الجديد .. على أن النداء ظل عنيفا لا يقاوم ، وبدا لى فى تلك اللحظة التعيسة أن نشوة ساعة خير من حياة لا خير فيها .. وتحسست يدى ساعتى الذهبية فقفز إلى خاطرى أن أبيعها إذا أعوزنى المال ، وداخلنى ارتياح فابتسمت لأول مرة فى يومى . على أننى تساءلت فى اللحظة التالية عما أقول لأمى إذا افتقدت ساعتى ، ولا بد أن تفتقدها يوما ؟ ولكننى نفخت ضجرا وهتفت حانقا : « أمى ، أمى ، دائما أمى !. سأفعل ما أشاء » . واستقللت الترام بلا تردد . وفى الطريق هفت على نفسى ذكرى جدى لغير ما سبب واضح ، فذكرت أيام الرغد والهناء التى فقدتها بفقده ثم وجدتنى أتمنى لو كان قبض يده الكريمة عنى ونشأنى على البخل والتقتير ، أما كنت أكون أقدر على تحمل حياتى الراهنة .! وقرأت الفاتحة على روحه المحبوبة . ثم غادرت الترام فى العتبة وقصدت سوق الخضر حيث توجد حانتى المتواضعة وما انتهيت من نزع معطفى والجلوس إلى مائدة خالية حتى جاء النادل اليونانى بالدورق . حانتى شعبية بلا ريب ، ولكنها محترمة لدرجة ما ، فإلى جانب الحوذية والمجلبيين تجد لمة من الموظفين الكهول الذين لا تسمح لهم ظروف المعيشة وأعباء الأسر بارتياد الحانات الغالية . ومن هؤلاء موظف عجوز مغرم بالغناء والطرب . ما يكاد يسكر حتى يسترسل فى ترديد الأدوار القديمة مثل : « فى العشق يا ما كنت أنوح » و« يا ما انت واحشنى » ، ولم يكن صوته يخلو من تطريب وأداء يبش له الجلوس ويتطوع نفر منهم لترديد المذهب فى انسجام لذيذ . أخذت فى الشرب ، وكالعادة تولانى الشعور بالارتياح والمرح ، ذلك الشعور الذى لا أجده إلا بين السكارى فى الحانة ، المكان الأوحد الذى أتخفف فيه من وقار الخجل والعى والحصر والقلق والمخاوف ونعمت بطمأنينة وسرور كأننى أرد إلى أهلى وعشيرتى

بعد اغتراب ثقيل ، وتمنيت لو كان فى الإمكان ألا أبرحهم مدى الحياة . وما لبثت أن غمرتنى النشوة الساحرة ، وأفعم وجدانى طربا . ولم يكن الموظف الفنان قد بدأ الغناء بعد ، وكان يحدث رفاقه بصوت مرتفع يسمعه الجالسون جميعا ، ولا بأس من أن يشتركوا فيه كما يشتركون فى الغناء . قال : — تصوروا يا هوه أن الطبيب ينصحنى بالكف عن الخمر !.

— لماذا كفى الله الشر ؟

— وجد عندى ضغط دم وتصلبا فى الشرايين .

— اشرب حلبة على الريق تضمن صحتك طول العمر .

— وقال لى إذا واصلت الشراب ستهلك لا محالة .

— العمر بيد الله !.

— فقلت : وإذا لم أواصل الشراب فسأهلك يوما لا محالة .

— إجابة تستاهل عليها دورق كونياك على شرط أن تدفع ثمنه .

— هل تصدقون أنى رأيت هذا الطبيب ذات مساء جالسا فى سانت جيمس يشرب ويسكى ؟!.

— وهكذا الأطباء جميعا ! ينتش أحدهم جنيهك ويقول لك « إياك والخمر » ويمضى به إلى سانت جيمس ويشرب قاورتين ..

واعتدل الموظف العجوز فى جلسته قليلا ، وراح ينقر على المائدة ويهز رأسه ، ثم غنى قائلا : « انصف محبك يا جميل » ، واتجهت نحوه الأبصار ، وأخذت الجوقة أهبتها للترديد . وكنت أشرب ، وأجاذب من يجاذبنى الحديث ، وأضحك ملء قلبى ودار رأسى كالعادة بسرعة ، ورقصت النشوة فى قلبى ، وطرت إلى سماء السرور واللامبالاة . ومكثت على ذلك زمنا طويلا أو قصيرا لا أدرى لأن السكران يفقد حاسة الزمن ، ثم ودعت الصحاب وغادرت الحانة ورنين الطرب يلاحقنى . وضربت على وجهى زمنا آخر ، ثم ناديت عربة وركبت دون مبالاة بالميزانية المنتحرة ، وأمرته أن يذهب إلى المنيل . وسويت

المقعد الخلفى ومددت ساقى عليه فى جلسة سلطنة وأبهة غير شاعر ببرودة الجو وداخلنى ارتياح لحركة العربة الحالمة ، وسرعان ما خامرنى ميل إلى العبث فقلت للحوذى فى حذر كاذب :

ـــ إن امرأة تنتظرنى فى الطريق وسآخذها معى ..

فقال الرجل :

ـــ رهن أمرك يا بك ..

فقلت لنفسى فى سخرية إن كل شىء على ما يرام ، عربة مريحة وحوذى طيع وليل ستار فلا ينقصنا إلا المرأة . ثم قلت مستسلما لداعى الكذب :

ـــ هى سيدة من الطبقة الراقية فهلا وجدت لنا طريقا آمنا ؟

فقال ضاحكا :

ـــ أظن جاردن ستى آمن طريق قريب !.

فهتفت به :

ـــ خاب فألك ، إن قصرها بجاردن ستى ؟.

فقال باهتمام :

ـــ أمامنا جزيرة الروضة وإن كان الجو باردا وأنا رجل عجوز لا أحتمل البرد !.

فقلت مشجعا :

ـــ سأعطيك جنيها كاملا !.

وشكر الرجل لى بحماسة وقد تهيأ له أنه عثر على كنز ، وجعلت أضحك فى سرى وأتحسس بأصابعى الريال الذى لم يبق لى غيره حتى نهاية الشهر . ومر زمن ثم رأيت العمارة المحبوبة ـــ عمارة حبيبتى ـــ تقترب ، ودبت فى قلبى يقظة غريبة وعلقت بها عيناى . لم أعد أملك حرية النظر إليها ـــ وكان كل عزائى ـــ بعد ما كان بينى وبين خطيبها المرتقب !. لم يعد بوسعى أن أتطلع إلى الشرفة أو النافذة . ترى هل خاطب سعادة مدير الأعمال أباها ؟. هل صارت حبيبتى مخطوبة

حقا ، ألم تذكر المحب القديم — الصامت العاجز — وهى تنتقل إلى دنياها الجديدة ؟ ألم تجد نحوه شيئا من الأسف ؟ وشعرت برغبة فى الانتقام من الدنيا جميعا ، وتولانى إحساس بالذهول والانقباض فلبثت جامدا حتى بلغت العربة شارعنا ، فأمرت الحوذى بالوقوف وغادرت العربة ، ونقدته ثمانية قروش فتناولها فى دهشة وتمتم متسائلا :

— والمشوار الآخر ؟.

وانطلقت منى ضحكة خافتة على رغمى ومضيت إلى حال سبيلى . وارتقيت السلم فى تثاقل وتعب ، وفتحت الباب بمفتاح فى جيبى ورددته بلا حذر ، ثم سرت إلى حجرة النوم وأنرت الكهرباء فوقع بصرى على أمى وهى مستسلمة لنوم عميق ينم عمقه على الجهد الذى تبذله فى يومها الشاق الطويل ، فوقفت لحظة أتفرس فى وجهها ، ثم هتفت بها قائلا :

— نينة !.

وفتحت عينيها وهى تغمغم :

— من !.. كامل !.

فقلت بهدوء واستهانة :

— إنى سكران ..

فحملقت فى وجهى بانزعاج ، ثم جلست فى الفراش باضطراب وقالت :

— إنك ترعبنى بدعابتك .

فقلت بغير مبالاة :

— ليس فى الأمر دعابة على الإطلاق ، لقد شربت دورقين كونياك أوتار .

وانزلقت من الفراش ، واقتربت منى بارتياع وعيناها لا تتحولان عن عينى حتى شعرت بأنفاسها تترد على وجهى ، ثم امتقع لونها وقالت بصوت متهدج :

— لم فعلت هذا بنفسك ؟.. كيف تطيع الشيطان بعد أن تبت إلى الله ؟.

فلم أنبس بكلمة ، واشتد بى الذهول ، واستدركت هى تقول :

ــ اخلع ملابسك .. دعنى أساعدك ..

وراحت تنزع عنى ملابسى وأنا صامت ذاهل . لماذا فضحت نفسى على ذاك النحو الغريب ؟.. لم أكن فى حالة سكر يتعذر معها ضبط نفسى ، بل من المؤكد أننى رجعت فى ليالى سابقة فى حالة أشد سكرا فما أحدثت منكرا ، وما تهاونت فى حذرى كى لا تستيقظ من نومها ، فما الذى دهانى تلك الليلة ؟ والأعجب من هذا وذاك أننى كنت خالى الذهن حتى بعد أن دخلت الشقة ، ولم يثب إلى خاطرى أن أوقظها إلا عندما وقع بصرى عليها ، فلما أن لبت ندائى قلت ما قلت بلا تردد وربما بلا إدراك ولكننى كنت مدفوعا بقوة لا تقاوم !.. ولم أستشعر ندما وقتذاك ، وجعلت أتفرس فى وجهها المتألم وهى تنزع ملابسى جامد الإحساس متحجر الشعور . ثم ابتعدت عنها صوب المشجب فتناولت البيجاما وارتديتها صامتا ، وصعدت إلى فراشى واندسست تحت الغطاء .. واقتربت منى ، ووضعت راحتها على جبينى ، وسألتنى بصوت مرتجف النبرات :

ــ أتشكو شيئا . هل أصنع لك قهوة تسند رأسك ؟.

فقلت لها :

ــ شكرا . لا أريد شيئا على الإطلاق .

٣٢

مضى على تلك الليلة وما خلفت من شجن أسبوع ، أو أكثر لا أذكر وكنت قد انتهيت من عملى اليومى وجلست أنتظر موعد الانصراف فى ملل وتعب ، وقبيل الساعة الثانية بقليل استدعيت إلى التليفون فانتقلت إليه فى دهشة لأنه لم يحدث قبل هذه المرة أن طلبنى أحد بالتليفون ولأننى لم أكن أنتظر أية مكالمة تليفونية إطلاقا . ووجدت المتحدث شقيقى مدحت وقد قال لى باقتضاب :

ــ والدنا توفى ، احضر إلى الحلمية ..

وعقدت الدهشة لسانى فلم أزد أن قلت :

ـــ سأحضر فى الحال :

وأعدت السماعة إلى موضعها ولبثت واقفا فى مكانى . واتجهت نحوى الأبصار وسألنى الزملاء عما هناك ؟ فقلت فى ذهول :

ـــ مات أبى ..

وتلقيت التعازى كالمعتاد ، وما لبثت دهشتى أن استحالت خوفا ، لأن الموت يخيفنى دائما ، وغادرت الوزارة وانطلقت صوب المحطة . مات أبى إذن !. هذه حقيقة لا شك فيها . وأخذت أفيق من وقع الدهشة ، وأستشعر نسائم ارتياح عميق تهفو على نفسى !. بيد أن صورته تمثلت لعينى فى وضوح بصلعته المستديرة ونظرته الغائبة ، وخيل إلى لحظة أنى أستمع إلى صوته الأجش وضحكته الساخرة . ترى متى مات ؟ وكيف مات ؟ ألا ما أغرب الموت !. إن الموت لا يتخلى عما له من خواص المأساة حتى فى حال رجل كأبى عاش جل عمره عيشة الأموات بعيدا عن الدنيا والناس ، فعيشة الأموات شىء والموت نفسه شىء آخر . وطرحت على نفسى هذا السؤال : من عسى أن يحزن لموت أبى ؟.. مدحت ؟. راضية ؟. بدا لى أنه سيغادر الدنيا غير مودع بحزن أو أسى ، وبدا لى ذاك مأساة أفظع من مأساة الموت نفسها . أليس مستنكرا أن يحيا إنسان فى هذه الدنيا أكثر من سبعين عاما ثم لا يترك وراءه راثيا ؟!. وجدت عند ذاك عطفا وحزنا ! وإنها لعاطفة غريبة لم تختلج له فى صدرى من قبل ، ولعلها كانت وليدة الارتياح لا الأسى ، لأنه فى مثل حالتى قد تجود النفس بالحزن لتدارى سرورها ، أو لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتو ، ولعلها عاطفة صادقة أفصحت عن نفسها بعد أن ذهبت ـــ بموته ـــ العوائق التى كانت تعتاقها . مضيت إلى الحلمية ، ولما أقبلت على البيت القديم رأيت نفرا من الأسرة يجلسون صفا على الكراسى الخيزران ، يتوسطهم رجل وقعت عليه عيناى أول مرة وعلمت أنه عمى بعد ذلك ، وكان مدحت يجلس إلى يمينه ويليه زوج أختى . وسلمت

واجما مرتبكا حتى نهض شقيقى ومضى بى إلى الحديقة وقال لى :

— كان يوما شاقا مريرا ، ولكن انتهى كل شىء ..

فسألته :

— لماذا لم تستدعنى قبل ذلك ؟

فتنهد مدحت وقال :

— كنا فى شغل شاغل ، ولولا أن راضية ذهبت بنفسها إلى أمنا فجاءتا معا لما علمت حتى الآن بالخبر . ألا تدرى ماذا حصل ؟. لقد تلقيت برقية فى الصباح الباكر من عم آدم يطلب إلى الحضور توا لأن والدى لم يعد إلى البيت منذ ليلة أمس ، فحضرنا جميعا ، وأخبرنا عم آدم بأن والدنا غادر البيت قبيل غروب الأمس وأنه لم يعد على خلاف عادته ، وانتظره الرجل قلقا حتى قبيل الفجر ثم أرسل لنا البرقية فى الصباح الباكر ، وأنا أعلم أن والدنا كان يحلو له الخروج من آ لآن عند الأصائل ، وهو ثمل كما تعلم — فيسير قليلا على قدميه ثم يستقل عربة تنطلق به حيثما اتفق ثم يعود إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين ، ولكنه لم يحدث أبدا أن قضى الليل خارج بيته ، ولذلك أثار غيابه قلق الرجل وأوقعنا فى حيرة شديدة . ولم نكن نعلم له من صديق أو جهة ، ولكن وقع فى ظننا أنه ربما يكون ذهب إلى راضية فمضينا إليها ولكنها لم تكن رأته منذ مفارقتها البيت ، ولم نشأ أن نضيع الوقت سدى فاتفقنا أن تذهب هى إلى أمنا من باب التقصى ، وأن نستفسر — أنا وعمك — عنه فى قسم الخليفة ، وهناك أخبرنا الباشجويش أن حوذيا جاء إلى القسم أمس يحمل رجلا له أوصاف أبينا وقد فارق الحياة ، وقال الحوذى إنه استقل عربته فى ميدان باب الخلق وسار به كرغبته فى اتجاه الإمام ، ولما أراد أن يستفسر منه عن وجهته بالتحديد فى أثناء الطريق وجده كالنائم ، وناداه ليوقظه فلم يغن عنه النداء ، فأوقف العربة وانتقل إليه وهزه برفق ، ثم تبين له أنه فارق الحياة . فلم ير بدا من أن يحمله إلى القسم ، وقد قبضوا على الحوذى على سبيل الاحتياط ، وحمل أبى إلى القصر العينى حيث اتضح موته ميتة طبيعية بالسكتة

القلبية ، وانتقلنا إلى القصر العينى فأدخلونا إلى بهو الجثث المشرحة ..

وسكت مدحت وقد لاحت فى عينيه آى الألم والتفجع ، ثم استدرك فى شبه ثورة مكتومة :

ـــ يا له من منظر !.. لا أدرى كيف عرفنا أبى !.. كان شيئا آخر !

واغرورقت عيناه بالدموع ، ولم أكن رأيته إلا ضاحكا فاشتد بى التأثر وطفرت الدموع إلى عينى .

ولزم الصمت حتى استعاد رباطة جأشه ، ثم أخبرنى بما تم الاتفاق عليه من تشييع الجنازة فى الساعة الرابعة ، ثم قال لى :

ـــ إنه راقد الآن فى مخدعه فاذهب لتلقى عليه النظرة الأخيرة ..

وخفق قلبى خفقة عنيفة ، وتملكنى خوف شديد ، ولكنى لم أستطع رفع بصرى إليه ، ولم أجد مناصا من التظاهر بالترحيب بفكرته ، فاتجهت صوب الفراندا متعثرا فى خوفى وارتباكى ، وارتقيت السلم مزدردا ريقى فلمحت شقيقتى ولمحتنى فى وقت واحد ، والظاهر أنها أخبرت أمى بحضورى فجاءت على عجل وقابلتنى فى الفراندا وسألتنى فى قلق عن وجهتى ؟ فقلت :

ـــ أريد أن أرى أبى ..

فقالت برجاء وإشفاق :

ـــ هلا عدلت عن هذا يا كامل ؟.. إن قلبك أضعف من أن يحتمل مشهد المنتقلين إلى رحمة الله ..

وتنهدت فى ارتياح ، وارتفع عن عاتقى حمل ثقيل . لم يكن ما بى شىء غير الخوف . وهل يستطيع أن يواجه الموت فى أبشع حالاته وأفظعها قلب تتولاه الرجفة حيال فأر أو خنفساء ؟!. ورجعت إلى الخارج وجلست بين عمى وأخى صامتا ، وقبل الموعد المحدد لسير الجنازة بنصف ساعة أخذ المشيعون يتوافدون علينا ، فجاء بعض الجيران وموظفو إدارة المخازن بالحربية ، ولما لم يكن لأبى معارف ، ولم يكن لعمى أصدقاء فى القاهرة ، فلم يزد عدد المشيعين على

عشرين . وقال عمى متأثرا إنه سيحيى ليلة المأتم فى بيته بالفيوم . ثم أزفت اللحظة الأخيرة ، وارتفع صوات أختى راضية يمزق الصمت الثقيل فاهتز قلبى تأثرا ودمعت عيناى . ولم نلبث أن انتظمتنا الجنازة . وغشيتنى بادئ الأمر كآبة ثقيلة استثارها فى نفسى منظر النعش ، وظل الموت ، وما عاودنى من ذكريات جدى ووفاته . ثم جعلت الغشاوة تنقشع والسكينة تعاودنى ، واسترقت النظر إلى من يحيطون بى فرأيت وجوها هادئة ، وأخرى باسمة لسبب أو لآخر ، فسرى عنى وثابت إلى نفسى . وذكرت بغتة كيف كنت أسير فى الصباح صوب الوزارة خالى الذهن مما يترصدنى من أحداث اليوم ، وكيف أسير الآن وراء النعش فعجبت لحياتنا الغريبة ، وخيل إلى فى تلك اللحظة أن الحياة تبرز لسانها فى شطارة وتهكم مغرقة فى الضحك !. ثم ساءلت نفسى عن أى الحالين أفضل ، حال الصباح أم حال المساء ؟!. ولم أستطع مقاومة موجة رقيقة من الارتياح والسرور ! على أن شعورى الدينى العميق احتج احتجاجا صارخا وبث فى حناياى الخوف والقلق فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم . ورحت أتهرب من إحساس السرور والارتياح الذى يلاحقنى ، فقطبت متجهما وأنا لا أدرى ، ولكن دون جدوى ، فسرعان ما هزأ عقلى بهذه المحاولات الصبيانية وانطلق يفكر فى الثروة المنتظرة . وذكرت ما سبق أن حلمت به من بيع البيت ، فتساءلت : ترى هل يتحقق الحلم .؟ هل أصبح مالكا لألف من الجنيهات ونيف ؟. ولكن هل تلكأ منافسى فى اتخاذ الخطوة الحاسمة أم قضى الأمر وليس ثمة أمل !. أتكون الثروة المنتظرة وسيلتى للسعادة المرموقة ، أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التى يستعملها فى السخرية من المخلوقات الضعيفة !. لقد سخر من فقرى وعجزى ، وإنه لقادر على أن يسخر من ثرائى وقوتى ، ليرينى أنى على الحالتين مقضى على بالحسرة والتعاسة !. وفتر حماسى وخمد ، وعرانى وجوم وقلق ، ودعوت الله فى رجاء وإشفاق أن يجعل فتاتى من قسمتى ونصيبى ..

وانتبهت من أفكارى على توقف سير الجنازة أمام الجامع . وأدخل النعش

للصلاة عليه ، على حين انفصل عنا المعزون مشكورين . ثم أودع النعش سيارة الموتى ، وانطلقت بنا وبه إلى الإمام ، وانتهى المطاف ..

واجتمعت الأسرة ليلا فى الحجرة الكبيرة التى قابلت فيها أبى لآخر مرة ، فجلست وعمى وشقيقى وزوج أختى فى جانب منها وجلست أمى وأختى وزوجتا عمى وأخى فى الجانب الآخر . وكان عمى رجلا عمليا — وقد ذكرنى مظهره بأبى — فتحدث عن الإجراءات الواجبة لإثبات الوراثة واقترح أن يقدمنا إلى صديق له فى وزارة الأوقاف لييسر لنا قبض مرتباتنا الشهرية . وتحدث أخى مدحت فقال إنه يرى أن نبيع البيت ما دام أحدنا لا يرغب فى سكناه ، ووقع رأيه من نفسى موقعا حسنا لم أحلم به ، فوافقت عليه بحماس نسيت أن أداريه ، ولم تمانع راضية ، وقال عمى :

— إنه بيت قديم ضخم لا يغرى إلا شاريا مثريا ، يهده ويشيد مكانه عمارة كبيرة على طراز حديث ، على أنه لا يمكن أن يباع بأقل من أربعة آلاف جنيه .

أربعة آلاف ، آه لو يكون منافسى تأخر !. وكبر على أن أتصور أن يخيب الله رجائى بعد أن حقق أحلامى على هذه الصورة الباهرة ، إن ثقتى بالله لا حد لها وهو الخبير المطلع . ولاحت منى التفاتة نحو أمى فوجدتها صامتة غارقة فى أفكارها وقد ارتفع حاجباها الخفيفان وانفرجت شفتاها عن أسنانها الصغيرة اللامعة ، ترى فيم تحلم !. وما حقيقة مشاعرها حيال المتوفى ؟.. هل أعادها هذا البيت القديم إلى عهود حياتها المنطوية !. وشعرت نحوها بعطف وحب ، ثم ذكرت الأفكار التى تتملكنى فداخلنى إحساس بالقلق والخوف ..

ولما اقترب الليل من منتصفه اقترح أخى أن نبيت ليلتنا بالبيت ، لكن أمى آثرت أن نعود إلى بيتنا على أن نرجع مع الصباح ، وبذلك غادرنا البيت القديم وسرنا جنبا إلى جنب صوب المحطة ، وحدثتنى فى الطريق قائلة :

— أما كان الأفضل أن تبقوا على البيت .

فقلت بدهشة :

ــ وماذا نصنع به .. إننى فى أشد الحاجة إلى نصيبى من ثمنه ..

فقالت :

ــ حسبك راتبك الشهرى ، أما هذا القدر الكبير فما أدرى والله ما حاجتك إليه !.

ترى هل استشعر قلبها خوفا !. وساورنى القلق والاستياء ، واختلست منها نظرة ولكنى لم أتبين فى الظلمة ما يبدو على وجهها ، وواصلت حديثها قائلة فى لهجة تنم عن الإشفاق :

ــ إياك وأن تفرح لموت أحد !. لا تذكر أباك من الآن فصاعدا إلا دعوت له بالرحمة ، فما أحب لك أن تسر لموت إنسان مهما كان هذا الإنسان !.

عجبت لهذا الكلام يلقى على من الفم الذى بث فى المقت لأبى ، لكن لم يخطر لى على بال أن أذكرها بهذه الحقيقة العجيبة . ثم عدنا إلى بيتنا دون أن ينبس أحدنا بكلمة ..

٣٢

لم أعد الفقير المعوز الذى كنت ، رفع عن كاهلى عبء الحاجة والحرمان ، غدوت ذا دخل لا بأس به غير الثروة التى ستوافينى فى خلال شهر أو شهرين ، ولكن مسنى جنون لم يكن لى به عهد ، جنون محب لا يقعده الفقر !. كان لى من الفقر رادع يحد من طموحى ، ويجعل من حبى حسرة طويلة منطوية فى ذات نفسى ، ولذلك سلمت بالهزيمة حيال منافسى محمد جودت دون مكابرة ، وانطلقت فى الطريق أنشج كالأطفال ، فلما قتل الفقر غدا الحب مطمعا غير محال . فتناسيت العوائق الأخرى ، وركبنى جنون جديد ، جنون من تبدو له السعادة ممكنة ، ولا يحول بينه وبينها إلا أن يتغلب على خجله فيقتحم سبيله ويجرب حظه ، لزمت المحطة طويلا فى عصر اليوم التالى للوفاة ، وجعلت أتطلع

إلى النافذة المحبوبة برغبة جنونية ، ما عدت أرى حبيبتى ، وما أدرى إن كان الذى أخشى قد وقع ، ولئن كان فلن أجنى من ثروتى إلا السم الزعاف ، ولكن هبها لاحت وراء النافذة فما عسى أن أصنع ! هل تواتينى الشجاعة على أن أومىء لها بطرف خفى .. لشد ما ينقبض قلبى خوفا وجفولا !.. لست من ذلك فى شىء .. لو كان لى ذرة من شجاعة لاقتحمت باب العمارة دون تردد ولاستأذنت فى مقابلة البك وعرضت عليه ما يجول بخاطرى . هل يعد هذا من الخطورة بحيث يستدعى كل هذا الخوف .؟ وهبه على أسوأ فرض قد أعتذر من عدم القبول ، فلماذا أعد هذا الرفض أشد من الموت وأقتل من القتل !.. لماذا لا يكاد يجول بخاطرى حتى أتصبب عرقا ويتنزى قلبى فى صدرى ! يا لله !... أما يتزوج الناس كل يوم بالعشرات والمئات !.. كيف يتلمس الأزواج الوسائل ويقتحمون السبل ! ليس بينى وبين مبتغاى إلا أن أطرق هذا الباب . فإما سعادة الأمل أو راحة اليأس ، فإلام أتردد وأحجم .. إنه بيت وليس بحصن ، وإنى طالب زواج ولست بعدو ، فلماذا أخاف كل هذا الخوف !. ليست غايتى أن أغزو قارة ولا حتى أن أخوض معركة ، ليس المطلوب أن أكون نابليون أو هانيبال ، لا يعدو الأمر أن أقدم نفسى ، وأن أعرض سؤالى ، وأنا محوط بالرعاية التى يتلقاها ضيف من مضيف كريم ، ثم ليكن الجواب ما يكون فما يجاوز على أسوأ حال الاعتذار الرقيق .. قلت هذا لنفسى فى يسر وتأنيب : ولكن ما إن تجسم لى الخيال حتى التهب منى الجبين واشتدت ضربات قلبى وأحسست رعدة تسرى فى أطرافى ، وحضرتنى بغتة ذكرى ساعة الخطابة المشئومة بكلية الحقوق التى طوحت بى بعيدا عن الجامعة ، فتنهدت من الأعماق فى قنوط قاتل . إن الأقدام فوق طاقتى ، وربما كان بوسعى أن أقضى العمر على هذا « الطوار » باكيا ، أما عبور الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع ، وبلغ منى الهلع أن انقلب القلق الذى يساورنى حمى تحرق القلب والرأس ، ثم انقضت أيام قلائل عشتها فيما يشبه الهذيان ، نسيت الثروة التى وقعت على ، خمد حماسى للحياة والأمل ،

وتركز تفكيرى فى شىء واحد لا يتحول عنه ، جعلت أدور حوله دون أن أجرؤ على الدنو منه ، أو أستطيع الابتعاد عنه ، ووجدت على أمى وجدا لم أحاول إخفاءه ، فقلت لنفسى فى حنق بالغ : لو لم أخشها لبعثتها تخطب لى وتكفينى شر الحمى التى تسعر فى كيانى .

متى تنقشع هذه الغمة ؟. لم أكن أدرى لها من نهاية لولا حادث عارض ! كنت عائدا من الحلمية ، فنزلت فى العتبة حين الغروب ، وصعدت إلى ترام الجيزة الذاهب عن طريق الروضة كالعادة . وكانت القاطرة مكتظة بالجالسين والوقوف ، فرحت أتزحزح حتى أسندت ظهرى إلى باب مقصورة الدرجة الأولى . ولما غادر الترام الميدان بقليل سمعت نقرا على الباب فأدركت أن أحد الراكبين يستأذن لفتحه فابتعدت عنه قليلا دائرا على عقبى لأفسح للقادم طريقا ، وفتح الباب عن وجه أعرفه ، رأيت أمامى حبيبتى دون غيرها !. وثب قلبى وثبة عنيفة زلزل لها صدرى ، وغبت عن كل شىء فى الوجود إلا هذا المنظر البهيج الذى ارتعدت له جوارحى فرحا وخوفا ، ورفعت إلى وجهى عينيها عرضا فالتقت عينانا لحظة قصيرة ، وبدا لى أنها ترددت قليلا على عتبة المقصورة ، ولكن لم يكن وراءها موضع لقدم فغادرت المقصورة على رغمها ، والتمس بصرها فيما ورائى مكانا تقف فيه ولكن كان تكتل الواقفين متماسكا ، فاضطرت أن تحتل الموضع الذى كنت شاغله وأسندت ظهرها إلى الباب ، ووقفت أمامها ممسكا بمقبض الباب ، على مرمى الأنفاس منها ، هى دون غيرها ، جادت بها السماء لتبل جوانحى . من الحقائق ما هو أعجب من الأحلام ، وهذه أعجب الحقائق . ماذا بى ؟.. ترى أهذا سرور أم خوف أم وقدة نار ؟. لولا دقة الموقف وشدة حيائى لطاب لى أن أبكى !. غبت عن كل شىء ، فلم أعد أحس للناس وجودا على تكتلهم : وحتى حبيبتى نفسها لا أذكر لون فستانها ولا ماذا كان بيدها ، يبدو لى أن للقلب بصرا إذا اشتد تفرسه غطى على بصر الأعين فينقلب الإنسان أعمى وهو بصير — ولا أدرى كيف واتتنى

الشجاعة فاسترقت إليها النظر ، ورأيتها فخفق قلبى بغير رحمة وهيأ لى أن وجودى هو الباعث على هذا التودد الفاتن وذاك الارتباك المليح ، وتنهدت على رغمى فتموجت خصلة من شعرها لوقع أنفاسى ، ورفعت إلى عينيها ثم خفضتهما بسرعة فرارا من عينى ، آه .. عثرت أخيرا على من يفر منى !.. وشاعت فى رأسى نشوة ألذ من نشوة الخمر وأحمى ، وركبنى جنون لا عهد لى به فثبت على وجهها عينى فى جسارة خارقة ، بل هى بالنسبة إلى جنونية ، ثم وثبت إلى شعورى رغبة غريبة أن أنطلق وأن أبوح بما يضغط أنفاسى ، وازدردت ريقى فى توتر عصبى عنيف ، وجعلت أتحفز وأتوثب فى قلق وهياج نفسى مروع ، وأيدنى الجنون الذى يضطرب فى روحى ، ودفعنى ما عانيت فى الأيام الماضية من لهفة قلق وقنوط ثم تملكنى إحساس يشبه إحساس المنتحر إذا تجمع للوثبة الأخيرة ، وتحركت شفتاى بصوت خرج همسا قائلا :

ـــ أريد أن أقول لك كلمة ..

رباه ..! ترى هل بلغ سمعها ؟.. أجل ،.. رمقتنى بعين دهشة وقد تورد وجهها ورمشت عيناها !.

ومر وقت قاس غليظ . جف حلقى وتوالت ضربات قلبى فى سرعة عنف ، أية هاوية أوردنى جنونى ؟. لقد هوى المنتحر وجاء دور الاستغاثة . مع ذلك داخلنى ارتياح عميق لأنى زحزحت أضخم سد اعترض حياتى . تكلمت ، نطق الحجر ولو بعد حين ، لن أموت على أية حال وسرى دفين صدرى . ولكن الترام لا يمهلنى طويلا ، وإنه وشيك الوصول إلى محطة حبيبتى ، وها هى ترمى بنظرها خلل النافذة ، وها هى يدها تتلمس مقبض الباب لتفتحه ، سينتهى كل شىء !. وركبنى الجنون تارة أخرى فشددت على مقبض الباب أمنع فتحه !. من أين لى بهذه الجراءة ؟!، وبدا فى الوجه الجميل الاستياء ، ورمقتنى غاضبة ، فهمست برجاء كأنه البكاء :

ـــ كلمة واحدة ..

وتوقعت لحظات قاسية أن تنقض الصاعقة على رأسى .! أن تزجرنى أو تنهرنى فتستثير غضب الحاضرين ،.. ثم على السلام ! ما بى قوة لاحتمال مثل هذا الموقف ، ولئن وقع لأموتن حيث أنا !. ووقف الترام ويدى قابضة على الباب ، ثم تحرك ثانية وهى بمكانها مقطبة مستاءة ولكن دون أن تبدى اعتراضا جديا أو ثورة علنية !. وسرت فى جسدى رعدة السرور والظفر والجنون وخيل إلى أنى أتحول إلى عملاق جبار يخر له الموت نفسه صريعا بضربة واحدة . وانتظرت حتى ابتعد الترام محطتين ثم فتحت الباب وأنا أهمس « تفضلى » فدارت على عقبيها بحركة عصبية وسارت تشق لها طريقا وسط الزحام وأنا أتبعها ، واعترض نشوتى خاطر ، ألا يكون استسلامها حياء وارتباكا وتفاديا من الفضيحة ؟! ألا يحتمل أن تكون قد كظمت غضبها حتى تصبه على فى الطريق بعيدا عن أعين النظارة ؟ وأوشكت قواى أن تخذلنى ، وغادرت الترام وراءها وأنا قلق مضطرب ، كانت الظلمة غاشية والطريق كالمقفر إلا من سيارات تذهب وتجىء ، وابتعدت عنى بسرعة وهمت بعبور الطريق إلى الطوار ، فحزنى الإشفاق من إفلات الفرصة إلى الدنو منها ، متشجعا بالظلام ، ثم قلت بصوت متهدج :

ـــ معذرة .. لا تؤاخذينى على تهجمى ..

ـــ ماذا تريد ؟.. وما هذا الذى فعلته أمام الناس ؟

واشتد بى الارتباك ، وكنت أسمع صوتها لأول مرة فهزتنى به غنة لطيفة على حدته وغضبه ، وقلت :

ـــ أسألك المغفرة . إنى أود أن أقول لك كلمة من زمن طويل ولم تتهيأ لى الفرصة إلا اليوم !

وشعرت بصعوبة شديدة فى التعبير والكلام ، وبأن إحساساتى الحارة يخونها الإفصاح ، ووجدت قهرا وضيقا . وزاد من ضيقى أنها ولتنى ظهرها بغير اكتراث وعبرت الطريق إلى الطوار عجلة ، فتبعتها بسرعة مندفعا ، وقلت :

ـــ أرجوك .. لحظة واحدة ، أصغى إلى ، كلمة واحدة ثم يذهب كلانا إلى حال سبيله ..

فقالت دون أن تنظر إلى أو تكف عن السير :

ـــ بأى حق تكلمنى يا هذا ؟

فهتفت بدون وعى منى :

ـــ إنى أعرفك منذ أكثر من عامين ..!

فقالت بلهجة تنم على الانزعاج :

ـــ ما هذا الافتراء ؟!

أيمكن ألا تكون عرفتنى ؟!. يا لى من غبى !.. ألم تذعن لإرادتى حتى نزلنا فى هذه المحطة ؟! يدل هذا على أنها ترغب فى سماع كلمتى !.. إن الفرصة سانحة ولكنى أفسدها بالعى والحصر والارتباك . واستجمعت قواى وقلت بصوتى المتهدج المضطرب النبرات :

ـــ إنى أتلهف على قول كلمة منذ أشهر وأشهر .. ماذا يضيرك لو أصغيت إلى ؟!.

لماذا لم أتكلم بدل أن أسوق هذه المقدمات ؟ اللهم إنى أستعينك على حل عقدة لسانى ! وبدا لى أن حبيبتى فطنت لخجلى المميت . لم أدرك البواعث التى حملتها على التوقف ، ولكنى رأيتها تتحول نحوى وترمقنى بعينيها الجميلتين اللتين أحبهما أكثر من نور البصر ، ثم تسألنى بحدة :

ـــ ماذا تريد ؟ .

ماذا أريد ؟!. لم يتيسر لى القول بعد ؟!. ها هى تنتظر الكلمة التى أتعبتها فى استئذان قولها ، ألم أكن أعددتها ؟. وجدت رأسى فراغا وكأننى فقدت النطق . ماذا ينبغى أن يقال ؟. وازدردت ريقى الجاف فى شبه قنوط ، ثم بدا منها ما يدل على نفاد الصبر ، والتحفز للسير ، فخرجت عن صمتى هاتفا :

ـــ صبرا ، أرجوك ،.. أنا أريد أن أقول .. إنى راغب فى .. (وقفت عبارة

« طلب يدك » فى زورى) .. إنك تفهمين بلا شك ، أليس كذلك ؟!. فهل يمكن هذا ؟!

فتأففت وقالت :

ــ لا بد أن أعود إلى البيت فلا تتبعنى من فضلك ..

وتولانى الهلع فقلت مندفعا بلا تردد هذه المرة :

ــ إنى أفكر .. أعنى أنى أرغب فى طلب يدك إذا سمحت لى ..!

وتنهدت بصوت مسموع . وغمرنى ارتياح واستسلام ، تكلمت أخيرا ونفست عن صدرى وليكن ما يكون ..

ومضت ثانية من الصمت العميق مثل الهدوء الذى يعقب عاصفة هوجاء ، ثم أخذت تسير فى خطوات قصيرة دون أن تنبس فعاودنى الجزع وتبعتها وأنا أقول كمن يستجدى الجواب :

ــ هذه كلمتى ..

فقالت بصوت منخفض خيل إلى أنه بلغ أذنى هادئا لا أثر فيه لحدة أو غضب :

ــ لا يليق بك أن تتبعنى هكذا .

فقلت بعجلة ولهوجة :

ــ إنى استأذنتك فلا تتركينى بغير جواب ..

فقالت بضيق :

ــ لست أنا الذى أخاطب فى هذا الشأن !

فخفق قلبى بعنف وفاض به سرور لا يوصف وقلت :

ــ إنى أدرك هذا ، بيد أننى خفت أن يكون أحد قد سبقنى ..

فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

ــ هب هذا حصل ..

فهتف فى إشفاق وحسرة :

ـــ أأفلتت الفرصة من يدى ؟!

فنفخت قائلة :

ـــ لا تتبعنى إلى أكثر من هذا لأنى أقترب من البيت ..

فسألتها وقلبى يفزع بكل قواه إلى التملص من قبضة اليأس :

ـــ أليس ثمة رجاء ؟

فقالت وهى تحث خطاها :

ـــ لست أنا الذى أخاطب فى هذا الشأن ..

وتوقفت عن السير ، ولبثت هنيهة جامدا ذاهلا . ثم صحت وأنا أفرقع بأصابعي : يا لى من غبى !. لو أنها أرادت الرفض لما أعوزها الجواب القاطع !، ألم تذعن لى فى الترام ؟. ألم تصغ إلى منذ دقائق ؟ ألم تقل لى إنها ليست هى التى تخاطب فى هذا الشأن ؟ ففيم أطمع وراء ذلك ؟. إنها دعوة متوارية لطيفة . وشاع فى نفسى سرور كالخمر ، وخيل إلى أننى أترنح كالثمل ..

٣٤

وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجع فى قلبى أعذب الألحان . تملكنى شعور بالقوة لا حد له ، وازدهانى الغرور والزهو ، وحييت فى الدقيقة الواحدة دهرا طويلا من السلم « سأفاتح أمى بالأمر كله » . قلتها بلا خوف ولا تردد ، ربما بلا رحمة أيضا ، وطرقت الباب ، ففتحت لى بنفسها وهى تتمتم مبتسمة كعادتها :

ـــ أهلا بنور العين ..

وجدتها على الأناقة التى أحب أن تلقانى بها ، وتفرست فى وجهها الوديع الوقور المشرق بابتسامة الترحيب ، فبدت لى خطورة ما أنا مقدم عليه ، واعترانى وجوم وخوف ، وقلت لها فى تردد غابت عنها أسبابه وبواعثه .

ـــ لننتقل عما قريب إلى مسكن لائق ، لأعيدن إليك خدمك وحشمك !
فابتسمت وقالت :

ـــ هذه أسعد أيام حياتى لأنى أقوم فيها على خدمتك .

وخلعت ملابسى ، وعدت إلى الصالة فجلسنا على كنبة متجاورين وأنا أقول بقلبى : « اللهم عونك ورحمتك » . واستحوذ على القلق والحياء ، إنها مهمة شاقة ، محزنة ، ولكن ما منها بد . واسترقت إليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة ، غافلة عما أضمره لها ، فوخزنى الندم ، وكادت تتخلى عنى قوة التصميم . بيد أننى أشفقت من عواقب التردد والاستسلام لدواعى الخور ، فرميت بنفسى فى الهاوية قائلا :

ـــ أماه أريد أن أحدثك بأمر هام ..

ورمقتنى بنظرة غريبة ، خلتها مريبة متوجسة ، حتى حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كله بقوة إلهام خارقة .. أنمت نبرات صوتى على ما يدور بنفسى ؟!.. أم فضحتنى نظرة عينى ؟!. أم لم يكن هناك شيء مما حسبت وشبه لى الوهم ما لا حقيقة له ؟!. أما هى فقالت بهدوء وتساؤل :

ـــ خير إن شاء الله ..

وصممت أن أجوز منطقة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعرا خوفا لا مراء فيه :

ـــ سأتوكل على الله وأتزوج ..

رنت كلمة « أتزوج » فى أذنى رنينا غريبا ، أنكرته ، وأخجلنى كأنما تفوهت بلفظة جارحة معيبة ! رفعت هى عينيها إلى فى دهشة ، واتسعت حدقتاها ، ولاح فيهما ذهول وغباء كأنها لم تفهم شيئا ، ثم تساءلت :

ـــ تتزوج ؟!

وكنت قد تخطيت أكبر عقبة فأمكننى أن أقول :

ـــ أجل .. هذا ما انتويته .

وندت عنها ضحكة متقطعة بالاضطراب والارتباك أشبه ، وقالت بصوت متهدج :

ــ ما أسعدنى بذلك ! هذه هى السعادة حقا . ترى هل جاءتك هذه النية اليوم ؟. الآن ؟ لماذا لم تخبرنى قبل اليوم ؟!. مبارك ، يا بنى .

وأزعجنى تهدج صوتها ، واضطراب نبراتها ، وانفعالها الظاهر ، فقلت :

ــ إنى أستأذنك لأنى أحب دائما أن تكونى راضية عنى .

فهتفت فى لهوجة :

ــ وهل تتصور أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاى؟ يا لله ، أبعد هذا الحب كله أجزى عنه بالتشكك فى إخلاصى ؟.. ستجدنى راضية عنك ولو قتلتنى ، أتنسى أن حياتى كلها لك ؟.

فازدردت ريقى وقلت وأنا أختلس منها نظرة قلق :

ــ إنى أعلم هذا وأكثر يا أماه .

فلاح فى وجهها وجوم شديد وبدا عليها إنها تحاول عبثا أن تضبط عواطفها :

ــ هذا ما يعلمه القاصى والدانى . وأية أم لا تفرح لزواج ابنها ولو كانت وحيدة ليس لها سواه !. هذه حكمة الحياة ، أن أحتضنك العمر كله ثم أسلمك شابا رائعا لعروسك ، إنى أبكى من الفرح .

اغرورقت عيناها وهى تتكلم ، ونظرت إلى خلال دموعها وكأنها ارتاعت لوجومى ، فقالت معتذرة :

ــ معذرة يا كامل ، ليست هذه بدموع .. إنها دموع الفرح ، بيد أنك فاجأتنى مفاجأة ، ولم تتلطف فى إخبارى ؟ ولكن لا داعى للتلطف ، ألا ترى أنى أعتذر بما هو أقبح من الذنب ؟. ليغفر لى ذنبى حبى الكبير وحسن نيتى وقلبى الذى وهبتك إياه وإن لم تعد بك حاجة إليه .. وإنك لتعلم بأنى إذا انفعلت أفلت زمام لسانى من يدى . إنى أهنئك بما اخترت لنفسك ، ولكن هل نبتت هذه الرغبة الآن فحسب.إنى لا أطيق أن أتصور أنك رغبت فى الزواج من قبل ولم

تسعفك الوسيلة . أكنت ترغب فى الزواج من زمن طويل ؟.

فقلت وأنا أدارى بابتسامة ميتة :

ـــ كلا يا أماه ما فكرت فى ذلك إلا من زمن قصير حين بدا لى أنى كبرت ..

فندت عنها ضحكة هستيرية ، وصاحت :

ـــ اسمعوا يا هوه ، كامل يبدو أنه كبر !. وأنا ؟!. لا بد أنى عشت أكثر مما ينبغى !.

فتأوهت قائلا :

ـــ أماه ، إنك تحزنيننى .

ـــ لا عاش من يحزنك . الأم التى تحزن وليدها لا تستأهل نعمة الحياة .. ولكنك تقول على نفسك بالباطل وتزعم أنك كبرت . يا لك من طفل مكابر !.. لكأنى أراك تحبو ، وأنت تركب منكبى ، ثم وأنت تختال فى بزة الضابط وضفيرتك تتهدل على كتفك ، فكيف تدعى الكبر ؟!.

فقلت مغتما :

ـــ ألست على عتبة الثامنة والعشرين !.

ـــ أصغر أبنائى على عتبة الثامنة والعشرين !. يا لى من امرأة عجوز !. لتكن مشيئتك . ومهما يكن من عمرك فستكون أصغر الأزواج . وسأفرح بك فرحا ليس وراءه مذهب لفرحان . ولكن ما بالك واجما .. أساءك كلامى ؟. يعلم الله أنى لا أحسن الكلام ، ولكن الموت أحب إلى من الإساءة إليك ..

فقلت بقلب ثقيل :

ـــ سامحك الله يا أماه ..

فابتسمت : إى والله ابتسمت وقالت مصطنعة المرح :

ـــ لندع هذا جانبا ، ولنقدم الأهم على المهم . أصغ إلى يا كامل ، تزوج بالهناء والسرور ، وسأخطب لك إذا أمرتنى .

فترددت لحظة ثم تملكنى الضيق فقلت :

— ليس ثمة اختيار ، فقد وقع إختيارى .

فرنت إلى بدهشة ، ولاذت بالصمت مليا ، ثم تساءلت :

— متى تم ذلك ؟.

— منذ زمن يسير ..

فلاحت فى عينيها نظرة لوم وعتاب كأنما عز عليها أن أكتمها هذا الأمر الخطير ، ثم خفضت عينيها فى استسلام ، وسألت بصوت هادئ ، بل هادئ جدا :

— من ؟.

— لا أدرى بالضبط ، الراجح أنها مدرسة ، وهى تقطن العمارة البرتقالى أمام القصر العينى .

فعاودتها الدهشة ، وتساءلت :

— ألم تحدث بأمرها أحدا ؟.

— مطلقا !.

فتفكرت مليا ثم واصلت حديثها :

— أليس من المحتمل أن تكون مخطوبة ، « وهنا خفق قلبى بعنف » .. ثم ألا تدرى عن أهلها شيئا !.. من أبوها ؟:

— لا أدرى ..

— ألم أقل لك إنك طفل .. الزواج أخطر مما تظن . لعل وجهها أعجبك ، وهذا شيء لا وزن له . المهم أن تعلم أية فتاة هى وأى قوم أهلها ، وما مكانتها . وما أخلاقهم . الشاب فى الواقع يتزوج من أسرة لا من فرد ، وينبغى أن يطمئن قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة إلى من ستغدو أما لأبنائه ومن يكونون أخوالا لهم .

وتولانى الارتباك ، وأحسست بحنق لأول مرة فقلت بيقين :

— أسرتها كريمة .. لا يداخلنى فى هذا شك .

— ومن أدراك ؟.

فقلت بلهجة من لا يحتمل فى ذلك جدلا :

ـــ إنى واثق .

فبدا فى وجهها الاستياء وقالت :

ـــ مدرسة ،!. إن بنات الأسر الطيبة لا يشتغلن مدرسات !. والمدرسة إما أن تكون عادة دميمة أو مستهترة مسترجلة .

فوخزنى ألم فى صميم الفؤاد وهتفت بحدة :

ـــ يا لها من آراء فاسدة !.. أنت لا تدرين شيئا عن الدنيا التى نعيش فيها ، لقد تغير كل شىء ، ولا شك أنها فتاة كاملة ومن أسرة عالية !.

وغلبها الانفعال على هدوئها المصطنع فقالت بنرفزة :

ـــ لا داعى لإهانتى من أجل فتاة مدرسة لا تعرف عنها شيئا ! وما قصدى إلا إرشادك لما فيه خيرك ..

اشتد بى الحنق ، ولو أننى استسلمت له لتفوهت بما أندم عليه ، ولكننى ضبطت نفسى وقلت برجاء :

ـــ معاذ الله أن أقصد إهانتك ، فأرجو أن تمسكى عن كلام يسوؤنى ..

فدارت انفعالها بابتسامة ، واستعادت هدوءها مرة أخرى ، وقالت بتسليم :

ـــ إن ما يسوؤك يسوؤنى ، وما يسعدك يسعدنى ، ونصيحتى إليك إذا شئت أن تتقبلها أن تعرف لرجلك قبل الخطو موضعها ، وفقك الله لما فيه الخير والسعادة .

فضغطت على يدها برقة ، وقلت بصوت ملؤه التودد :

ـــ إن رضاك عنى بالدنيا وما فيها ..

فابتسمت قائلة :

ـــ سيدعو لك قلبى آناء الليل وأطراف النهار ..

وساد الصمت مليا حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد ، ولكنها بدت مهتمة متفكرة كأن خاطرا يلح عليها أن تفصح عنه ، وخالستنى نظرة قلقة أكثر

من مرة ، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت فى حذر وإشفاق :

ـــ ألا يحسن بك أن تؤجل الشروع فى الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك ؟. إن أخوف ما أخافه أن يقال عنك إنك خطبت ولما ينته الحداد على أبيك كأنك كنت ترصد موته على لهفة ؟!.

ولم أكد أصدق أذنى !.. وبدا لى قولها نوعا من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه ، وعاودنى الحنق والغيظ ، وكدت أنفجر غاضبا ، ولكنى استمسكت بالصمت حتى ولت العاصفة ، ثم قلت :

ـــ لن يتم الزواج على أية حال قبل مضى عام ..

وانتهى الحديث عند ذاك كما تمنيت ، وشعرت بأنى تخطيت أكبر عقبة فى سبيلى . وكان ينبغى أن أكون سعيدا ، وقد كنت سعيدا بلا شك ، ولكن شاب سعادتى إحساس بالقلق طالما عذبني فى حياتى . إنه لا يفتأ يطاردنى حتى فى أحفل ساعاتى بالسرور ، وما من مرة أجمع الرأى فيها على قرار حتى أجد همسه يفت فى عضدى وينغص صفوى .. بيد أن سعادتى هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر .

٣٥

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى المحطة وبى أمل جديد مسكر . وكأنها كانت تنتظرنى ، رأيتها وراء زجاج النافذة معصوبة الرأس بمنديل أبيض . واستخفنى الفرح فابتسم منى الفم والعينان والقلب ، وتسامت إليها عيناى فى شجاعة غير معهودة . وما كان أشد سرورى وسعادتى حين رأيت الوجه الصبيح يجود بابتسامة . انتهى عهد التعاسة والحرمان ، وانقشعت ظلمة النفس ، ولاحت طلعة حبيبتى بعد إختفاء طويل معذب ، وصرنا أصدقاء نتبادل الابتسام ! يا لها من حقيقة لا تصدق !. حتى هذا الصباح كنت أخاف أن يكون

لكلام الأمس معنى غير الذى فهمته . أما بعد هذا الانتظار المثير وهذه الابتسامة المشرقة فأستطيع أن أستسلم لنداء السعادة فى صفاء لا يشوبه شك . ذهبت إلى الوزارة كالثمل . ما أغربك يا دنيا . إن من يتعسه الحظ برؤية تجهمك لا يتصور أنك تجودين بمثل هذه الابتسامة . وتمليت الحقيقة التى لا تصدق ، ابتسامة حبيبتى ، فقلت لنفسى إن معنى هذا أن أبواب السماء مفتحة تسح على قلبى هناء ، ولكن لا يجوز أن أجمد أو أن أصمت بعد اليوم ، وفزت بابتسامة أخرى عند الأصيل ، وثالثة فى صباح اليوم التالى ، وشعرت بأنه ينبغى أن أقطع الجمود بالعمل الحاسم . وجاء صباح الجمعة بعد ذلك اليوم ، فغادرت البيت فى معطفى الأسود بادى الأناقة ، ممتلئا تصميما وعزما . ووجدت حبيبتى فى الشرفة تتشمس . فتبادلنا تحية الابتسام ثم ألقيت على ما حولى نظرة حذرة . وأومأت إليها أن تنزل لمقابلتى ، يا لها من جراءة ؟. من كان يصدق هذا ؟، وثبت نظرى عليها فى إشفاق وخوف ، ورنت إلى بهدوء ، ثم جرت على شفتيها إبتسامة لطيفة وتراجعت إلى الداخل ، هل تجىء لمقابلتى ؟.. رباه لقد قضيت ليلة الأمس كلها فى عمل « البروفات » لهذه المقابلة المأمولة . ولاحت الشقيقة الصغرى فى الشرفة ، ثم تبعتها الأم بعد قليل ، وجعلتا تنظران نحوى ، هل تعلمان ؟ هذا ما أتمناه حتى آمن خطر محمد جودت . وبدت حبيبتى وراء النافذة وهى ترتدى معطفها ، فخفق فؤادى خفقة عنيفة ، وانتظرت كمن فى حلم . ومن عجب أن إحساسى بالسعادة تغير فجأة ، فتر ، كأنه صوت جميل اعترضته سعلة ، وساورنى قلق لم أدر سببه ، وحيرة مؤلمة كأننى أحاول أن أتذكر أمرا هاما يضن به النسيان ، ثم شعرت بخطورة الخطوة التي أرفع رجلى لأخطوها ، فاستحوذ على التردد والخوف ، ونازعتنى نفسى إلى الهروب !. بيد أنها كانت لحظة عابرة ، ولت عنى بسرعة ، فاستعدت الثقة والسرور ، وتنهدت فى ارتياح عميق ، ورحت أقطع الطوار مجبورا سعيدا فى انتظار حبيبة القلب المشوق .. ثم رأيتها تبرز من باب العمارة فى معطف سنجابى فارعة أنيقة مليحة ، وجاءت

المحطة تخطر فى خطواتها الوقور ووقفت بعيدا عنى . وكانت الأم فى الشرفة كأنها تبارك اللقاء وتضفى عليه شرفا ، فشعرت — إلى سعادتى — بالمسئولية . وجاء الترام الذى سيقلنا ، فنظرت إليه بامتنان ودعوت له بالسلامة ولسائقه بالسعادة وزيادة الأجور !. وصعدنا معا ، ورأيتها تتجه على غير عادتها إلى مقصورة الدرجة الأولى فتبعتها على الأثر ، ولم يكن بالمقصورة إلا رجل وامرأة ، فجلست فتاتى موردة الوجه من الحياء ، ولعلها انتظرت أن أجلس إلى جانبها ، وأن أسلم عليها ، ولكن خانتنى الشجاعة فجلست على المقعد المقابل فى إرتباك وحياء وسخط على نفسى . وسار الترام يطوى الطريق ، وأنا أخالسها النظر فى صمت وصبر ، حتى عبر الترام جسر عباس . فنهضت قائمة وغادرت المقصورة وأنا فى إثرها ، ونزلنا فى المحطة التالية . وسارت صوب شارع يمتد وشاطئ النيل ، فتبعتها ، وتدانيت منها بقلب خافق ، متعثرا فى خجل قهار وقلت بصوت لا يكاد يسمع :

— صباح الخير ..

فابتسمت دون أن تلتفت إلى وغمغمت فى مثل حيائى :

— صباح الخير ..

وغمرنى رد التحية بسرور ، فسرنا جنبا إلى جنب وأنا أقول فى نفسى بحرارة : « يا سيدة يا أم هاشم نظرة ! » كنت خائفا حقا شديد الارتباك والخجل . وحاولت أن أتذكر « بروفات » أمس ، ولكن الاضطراب غلبنى على أمرى فوجدت رأسى خاويا ولسانى منعقدا ، وقطعنا مسافة غير يسيرة دون أن أنبس بكلمة . كيف أبدأ الحديث ؟. ما عسى أن أقول ؟. وتولانى ضيق شديد لأنى أدركت بطبيعة الحال أنه ينبغى أن أتكلم ، وإنه لا يليق بى أن أصمت هكذا ، ومع ذلك فلم يفتح الله على بكلمة واحدة ، وبدا كأن الكلام وظيفة لم أمارسها قط . وكأنها أدركت سر ارتباكى ، فنظرت إلى وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ، فابتسمت فى حياء شديد ، ولم أجد ما أقوله إلا أن أعيد التحية قائلا :

ــ صباح الخير .

فازدادت ابتسامتها اتساعا وقالت :

ــ صباح الخير . .

رباه ! أأفلس معجمى ، وعدت إلى العذاب مرة أخرى ؟ إنى أشعر كأن يدين حديديتين تشدان على عنقى . ولن أتحمل هذا الموقف المزرى أكثر من هذا . وتملكنى اليأس فغلب فى نفسى الخجل واستغثت بها قائلا :

ــ اعذرينى !.. لا أدرى ماذا أقول .. هذه أول مرة أخاطب فتاة ..

ولم تتمالك نفسها فندت عنها ضحكة قصيرة ، ولعلها تشجعت بحيائى نفسه ، فتغلبت على حيائها ، وقالت فى دعابة :

ــ بل هذه ثانى مرة إن صدقت ..

آه ! إنها تشير إلى مطاردتى لها منذ ثلاثة أيام !. وذكرتها بدهشة ، كأننى لم أكن بطلها الجرىء . مهما يكن من أمر فقد شجعتنى دعابتها وخففت عنى الارتباك والحياء ، وأمكننى أن أقول :

ــ لا تسيئى بى الظن . فوالله لو أسعفنى لسانى لما وسعتنى الدنيا كلاما ..

وضحكت وهى تصعد فى نظرها وتصوب ثم قالت :

ــ ألا ترى أننا لم نتعارف بعد ؟.

أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال . ليت الحديث يكون أسئلة من ناحيتها وأجوبة من ناحيتى ! وقلت بارتياح :

ــ كامل رؤبة لاظ بوزارة الحربية .

وتمنيت لو كان فى الإمكان أن أخبرها بإيرادى الشهرى وثروتى المنتظرة ، أما هى فقالت :

ــ رباب جبر مدرسة بروضة الأطفال بالعباسية .

وأعجبنى الاسم ، فأحببته كما أحب صاحبته ، وغمغمت كأنما لأستعيد وقعه فى أذنى :

ــ رباب !..

ووجدت أنسا وشجاعة فقلت ببساطة :

ــ تصورى !.. إنى أداوم على اختلاس النظرات من وجهك من عامين وحتى اسمك لا أعرفه !.

فلاحت الدهشة فى وجهها الجميل وقالت :

ــ عامين !

فسرتنى دهشتها وقلت بحماسة :

ــ أجل من قرابة عامين ، ألم تفطنى إلى هذا ؟!.

فقالت ضاحكة وأنا أجمع انتباهى فى أذنى لأتملى الصوت الذى شاقنى استماعه طويلا :

ــ منذ أشهر فقط !. ما أجمل صبرك !

هذه وخزة بلا ريب !. كأنها تقول لى : وما الذى أسكتك حتى أوشكت الفرصة أن تفلت من بين يديك !. وانتهزت الفرصة لأصرح بما وددت لو كنت صرحت به ، فقلت وقد أصبح الكلام ممكنا عما قبل :

ــ منعتنى ظروف قاسية ، لم يكن بوسعى أن أتقدم وأنا غير كفء لك ، ثم تغيرت الظروف وتحسنت الحالة فلم أتردد عن اعتراض سبيلك فى الترام فى جنون أخرجنى عن وعيى ، فالحق أنى لم أنتظر وأنا قادر إلا أياما معدودات وإن كنت .. (كدت أقول : « وإن كنت أحببتك منذ عامين » ولكنى عجزت) .. وإن كان ما تعلمين منذ عامين .

ونظرت فيما أمامها مبتسمة ابتسامة خفيفة وقالت :

ــ ماذا أعلم يا ترى !.

فلذت بالصمت لحظات أستجمع قواى ، وقلت :

ــ ما تعلمين من أنى ..

ورسمت شفتاى « أحبك » دون أن تنطقا بها ، ولكنها رأت وفهمت بلا أدنى

شك . وخفضت بصرى حياء ، ودق قلبى بعنف . وانتزعتنى من الوجود غيبوبة عابرة غيبتنى عما حولى . واسترقت إليها النظر فألفيتها صامتة رزينة موردة الوجه . هذه لحظة مقدسة . أجل إن الزمن لينوء بما يحمل من جلائل اللحظات التى مرت بالإنسانية فى تاريخها ، ولكن هذه اللحظة من أجل ما عرف الزمن رغم هذا كله . ولن ينقص منها أنها معادة وأنها تحدث كل يوم آلاف المرات فى بقاع الأرض الواسعة ، فهى الشىء الوحيد المعاد الذى لا يمل ، وما ينبغى أن يمل وهو يتضمن سر الوجود الأعظم ، ألا وهو الحب . لم يكن بوسعى أن أضمها إلى صدرى — لا لمرور قافلة جمال تحمل برتقالا — ولكن لأنه لم يكن بوسعى أن ألمسها على الإطلاق ، وقطعنا شوطا صامتين ، وحال حيائى دون مواصلة الحديث فى هذه النقطة بالذات ، وعاودت التفكير فى المسألة من وجوهها الأخرى فقلت مبتسما :

— وماذا تم من أمر محمد جودت ؟.

وحدجتنى بدهشة عظيمة ، وسألتنى :

— من أدراك بها ؟.

فقصصت عليها نبأ المقابلة التى تمت بين محمد جودت وبينى وهى تصغى إلى باهتمام شديد ، ثم قالت :

— إنه رجل فاضل محترم ، وموظف كبير ، وقد رحب به أبى ، أما أمى فقابلت عرضه بفتور لأنه يكبرنى كثيرا ، ولأنه سبق أن تزوج وله بنت فى الخامسة عشرة . وقد حادثت أمى عن لقائنا فى الطريق منذ ثلاثة أيام .. فاشترطت أن يعرفوا عنك كل شىء قبل أن تعلن عن رأيها .

وخفق قلبى فى مزيج من سرور وقلق ، وسألتها وإن لم أكن فى حاجة إلى السؤال :

— وهل تعلم بمقابلتنا هذه ؟.

فابتسمت ولم تحر جوابا ، وذكرت « وظيفتى » بعدم ارتياح وخجل ،

ولكن لم يخطر لى على بال أن أكذب أو أبدل من الواقع فقلت :

ـــ إنى كما قلت لك موظف بالحربية ، ولكن لى دخلا ستة عشر جنيها من أوقاف ، وأملك إلى ذلك قدرا من المال يجاوز الألف الجنيه ، وليس فى سيرتى ما يشين ، وسترين إذا ما تحروا عنى أنى التزمت الصدق حقا ..

فابتسمت قائلة فى إخلاص :

ـــ لا شك فى هذا مطلقا .

ورنوت إليها بامتنان عميق ، وذكرت فى تلك اللحظة آلامى وما عانيت من تشوق إليها وحسرة عليها فهزنى سرور يجل عن الوصف . بيد أننى تساءلت فى خوف : ترى هل أروق فى عينى الأم ؟.. ألا تستصغر وظيفتى ، أو لا تجدنى أهلا لهذه الأستاذة المحبوبة ؟.. وانقبض قلبى ذعرا ، وحدثتنى نفسى بأن أفاتحها فيما يكدر صفوى ، ولكن عقلنى الحياء . ثم خطر لى خاطر جديد فسألتها على الفور :

ـــ هل تواصلين العمل فى وظيفتك إذا تم الأمر كما أرجو ؟.

ـــ ولم لا ؟ إنى أحب عملى حبا جما ، وكثيرات من زميلاتى ..

وأدركت ما كانت على وشك قوله فخفق قلبى بغبطة ونظرت إليها نظرة حيية ملؤها الحب والأمل ، ثم قلت برضا :

ـــ هذا حسن ..

ساد الصمت قليلا فعلا وقع أقدامنا على أرض الطريق المفروشة بأشعة الشمس ، ولاحت منى التفاتة إلى النيل فرأيت صفحته السمراء تترقرق تحت لؤلؤ النور المنثور ، وأخذت أتصفح وجوه المارة القلائل الذين يمرون بنا فى حياء وارتباك . وقد لطفت الشمس من برودة الجو وبثت فى حنايانا نشاطا وحبورا فشعرت بطيب الحياة كما لم أشعر به من قبل ، وامتلأت امتنانا حتى وددت لو ألثم الثرى شكرا . بيد أننى لم أنس ما يشغلنى من خطير الأمور ، أو ما يبدو لى من خطيرها ، فلذلك سألتها :

ــ أرشديني الآن إلى ما ينبغى فعله .

فسألتنى فى دهشة قائلة :

ــ ماذا تعنى ؟.

فقلت بحيرة :

ــ ينبغى أن أتقدم لطلب يدك .

فنظرت فيما أمامها بحيرة ولم تنبس . وكنت فى حيرة من أمرى فسألتها :

ــ كيف .. كيف يخطب الناس عادة ؟!.

فندت عنها ضحكة رقيقة ، وقالت برقة :

ــ بوساطة السيدات أو بالاتصال الشخصى ، ألم تدر شيئا عن هذا ؟.

وذكرنى قولها « وساطة السيدات » بأمى فانقبض قلبى فيما يشبه الذعر . ثم تساءلت ترى هل أستطيع أن أقوم بما يتطلبه الاتصال الشخصى من لباقة وشجاعة ؟.، وذكرت عند ذاك أنى لا أعرف شيئا عن أبيها فسألتها :

ــ هلا تكرمت وأخبرتنى عن والدك .!

فحدجتنى بنظرة ملؤها الشك وغمغمت :

ــ ألا تعرف عنه شيئا ؟ .

فقلت ببساطة وصدق :

ــ كلا واأسفاه ..

وأدركت أنها كانت تظننى نشطت لمعرفة ما ينبغى معرفته عن الأسرة التى أطمح للاندماج فيها ، وعجبت كيف أننى لم أحرك ساكنا طوال عهد حبى قانعا بالنظر واللهفة واليأس . وقالت رباب بلهجة لا تخلو من زهو :

ــ جبر بك السيد مفتش رى بالأشغال ..

فقلت بإجلال :

ــ تشرفت .

واستشعرت ثقل التبعة الملقاة على عاتقى ، ولكننى لم أجد بدا من أن أقول :

ــ سأقابله بنفسى ، متى يحسن أن أقابله ؟

ــ فى بحر الأسبوع القادم لأنه سيسافر بعد ذلك فى رحلة تفتيشية كعادته ، وهو لا يكاد يغادر البيت عقب عودته من الوزارة ..

وكنا قد توغلنا فى الطريق طويلا فاقترحت أن نعود ، ودرنا على عقبينا عائدين . ولم نتبادل فى عودتنا إلا كلمات قلائل ، وكنت من السعادة فى حلم ، ولكننى لم أغفل لحظة عما أنا مقبل عليه من جلائل الأمور ..

٣٦

واستحوذ على الخوف والقلق ، وعاودنى ذلك الإحساس الخانق الذى قهرنى يوم دعانى أستاذى بكلية الحقوق إلى منصة الخطابة . هل تستطيع قدماى أن تحملانى إلى بيت جبر بك ؟. هل أستطيع مكاشفة الرجل بما فى صدرى ؟. اللهم أدركنى برحمتك فإن الحب يركبنى مركبا صعبا لا قبل لى به ، ولما ضقت بالواقع المخيف روحت عن نفسى بالأحلام ، فرأيتنى فى جزيرة مهجورة ، وليس بها حى إلاى وحبيبتى ، حيث الحب لا يسيم المحب خطبة ولا كلاما ولا اتصالا بأحد ، وهفت نفسى فى محنتى إلى تلك الجزيرة المهجورة .

ومضى السبت والأحد فى عذاب نفسى عنيف ، فصممت على أن أستجير من عذاب الفكر بلقاء الخطر وجها لوجه . وغادرت البيت عصرا بعد أن أخذت زينتى ، وقطعت الطريق واجف القلب وأنا أتلو آية الكرسى . ولما عبرت الجسر ولاح لى عن بعد جانب من العمارة ثقلت قدماى وكدت أرجع من حيث أتيت ، ولكن كان تصميمى رائعا ، وكان إشفاقى من أن تستبطئ حبيبتى قدومى لا يدع لى فرصة للتردد . وجعلت أشجع نفسى قائلا أنه لو لم يكن ثمة أمل لما رضيت حبيبتى بأن تلقانى يوم الجمعة ، ولما مهدت السبيل لمقابلة أبيها ، ودفعت قدمى الثقيلتين فأخذت أقترب رويدا من العمارة . ولم يكن

بالنافذة ولا الشرفة أحد فارتحت لذلك لأنى أضطرب فى سيرى تحت وقع الأعين ، ثم وجدتنى مقبلا نحو البواب ، فوقف الرجل متسائلا فقلت :

ـــ جبر بك السيد .

فقال :

ـــ الدور الثانى .

وارتقيت السلم فى رهبة وخوف ، متوقفا عند كل بسطة لأتمالك أنفاسى . حتى طالعنى باب الشقة المغلق فخارت قواى ، ووسوست لى نفسى أن أعود ، أن أفر بنفسى ، أن أؤجل الزيارة الخطيرة ليوم آخر . ولكننى نفيت عنى فكرة التأجيل بغضب ، وبدا لى أن أنزل وأن أخفف عن توتر أعصابى بالمشى ومعاودة ترتيب أفكارى . وهممت بالتراجع ، ولكننى تساءلت فى اللحظة التالية ألا يرتاب البواب فى أمرى إذا رآنى نازلا بعد دقيقة من مخاطبته ثم رآنى بعد دقائق عائدا إلى العمارة ؟.. وعدلت عن فكرة النزول ، ووقفت مع ذلك ساكنا لا أبدى حراكا . وجمد بصرى على الباب حتى خلت ثقبه عينا تحدق فى وجهى بسخرية . وانتقلت عيناى إلى زر الجرس وثبتتا عليه بخوف وهلع . ما عسى أن يحدث لى لو فتح الباب فجأة عن وجه من الوجوه التى أعرفها وتعرفنى !. وتمنيت فى تلك اللحظة لو كانت حياتى واصلت مسيرها الوئيد دون أن تصطدم بهذا الحب الذى قلبها رأسها على عقب !. وجاءنى بغتة صوت رفيع من الداخل يصيح : « افتحى الراديو يا صباح » فارتعدت أوصالى وأرهفت السمع فى خوف متزايد . ويلى منك يا أماه ، أما كان الأفضل أن تكونى فى مكانى هـذا ؟. ثم قرع أذنى وقع قدمين صاعدتين فتضاعف اضطرابى ولم أجد من التقـدم مناصا ، وتدانيت من الباب ، ورفعت يدى إلى زر الجرس ، وتريثت لحظة فى اضطراب ، ثم ضغطت عليه فرن رنينا مزعجا ، وتنحيت جانبا ، منتظرا فى حالة يرثى لها . وفتح الباب وبرز وجه أسود كالفحم لجارية فى الخمسين ، فحدجتنى بعينين براقتين وقالت :

— أفندم ؟

وقلت وأنا أتمنى أن يكون البك خارج البيت لسبب أو لآخر :

— جبر بك موجود ؟

ولكنها أجابت قائلة :

— نعم يا سيدى .. مين حضرتك ؟

فاستخرجت من محفظتى بطاقة وقدمتها لها قائلا :

— أرجو أن يأذن لى البك بمقابلة قصيرة ..

ومضت الجارية بالبطاقة وانتظرت خافق الفؤاد مضطرب النفس . وتخيلت البك وهو يقرأ البطاقة بصوت مرتفع فيتبادل الجميع النظرات والابتسامات ، ويهرعون إلى مكان آمن يرونني منه حين دخولى ، فالتهب وجهى حياء وازددت اضطربا ، وبرز رأس الجارية مرة أخرى وهى تقول :

— تفضل .

ودخلت خافض الرأس ، فأرشدتنى إلى باب على يمين الداخل مباشرة ، فدخلت حجرة الاستقبال ، وهى حجرة أنيقة ذات أثاث كحلى ، فاتجهت إلى مقعد يفصل بين كنبتين وجلست ، بعيدا عن سمت الباب . لم أكد أصدق أنى بلغت حقا مجلسى هذا من البيت . وجعلت أرهف السمع فى خوف وقلق وهلع . وتمنيت لو يتأخر البك ريثما أسترد أنفاسى ، ثم دفعنى العذاب إلى تمنى حضوره سريعا لوضع حد لآلامى . ولا أدرى كم انتظرت حتى سمعت وقع أقدام تقترب . دخل البك فنهضت قائما ، ثم سلم على فى أدب وترحيب وأومأ إلى المقعد وهو يقول :

— تفضل بالجلوس ..

وجلس على الكنبة غير بعيد . كان طويلا نحيلا ، فى الخمسين من عمره ، له قامة حبيبتى وعيناها ، فسرعان ما أحببته ، وكان يتلفع بعباءة فضفاضة ضاربة للحمرة ، ويسطع من راحتيه عطر زكى ، ونظر إلى مبتسما وقال مرحبا :

ـــ شرفتنا يا أستاذ كامل .. أهلا وسهلا ..

فقلت بامتنان :

ـــ شكرا لك يا بك ..

ترى هل علم بالغرض من الزيارة ؟.. هل سمع قبل الآن بهذا الاسم الذى قرأه فى البطاقة ؟

على أنه مهما يكن أمره فلا مناص من مفاتحته فى الموضوع كما لو كان يجهله . وكنت قد كتبت صورة مما ينبغى قوله كما تصورته وقرأتها مرارا حتى حفظتها قبل مغادرة البيت ، فقلت بصوت منخفض :

ـــ إنى آسف على إزعاجى سعادتك بهذه الزيارة على غير سابق معرفة ..

فقال والابتسامة اللطيفة لا تفارق شفتيه الرقيقتين :

ـــ إنى تشرفت بمعرفتك يا أستاذ كامل !.. ترى أحضرتك من حينا هذا ؟

فقلت وقد سررت بما هيأ لى من سبب للحديث :

ـــ نعم يا بك ، إنى من سكان منيل الروضة !

ـــ حى هادئ لطيف .

فقلت وقد آنست إليه :

ـــ وإنى من مواليده أيضا ، وقد أقام به جدى الأمير الاى عبد الله بك حسن منذ أكثر من سبعين عاما !

فقال متفكرا :

ـــ عبد الله بك حسن !.. أظننى سمعت بهذا الاسم !. أهو جدك لوالدك ؟

فقلت مضطربا :

ـــ كلا ، إنه جدى لأمى ، أما أبى فمن أسرة لاظ ..

ـــ وهل كان ضابطا أيضا ؟

فقلت وقد تزايد قلقى :

ـــ كلا .. كان أبى رحمه الله من الأعيان ..

فابتسم قائلا :

ــ حسبته كذلك لأن أهل المهنة الواحدة كثيرا ما يرتبطون بالزواج فيما بينهم ..

وأمنت على قوله ، وسكت الرجل فلم أجد ما أقوله ، وعدت إلى تذكر محفوظاتى فحضرتنى الجملة الخطيرة التى يتوقف عليها حظى فى الحياة ، ولكن خاننى لسانى ، فلذت بالصمت ، وما لبث أن عاودنى الاضطراب والهلع ، والتهب رأسى حياء وارتباكا ، وفى تلك اللحظة جاءت الخادم الصغيرة ــ التى تعرفنى حق المعرفة ــ تحمل صينية الشاى ، فوضعتها على منضدة مكفت سطحها بمرآة مصقولة ، وتراجعت وهى تدارى ابتسامة خفيفة !. ورحبت بدخولها وبالشاى الذى حملته لأنهما استنقذانى من حرج الصمت الذى ثقلت وطأته على . وملأ البك قدحين ودعانى للشراب ، فتناولت قدحى شاكرا ورحت أرتشفه متمهلا وعقلى لاينى عن التفكير . وفرغت منه على رغمى ، ووجدتنى مرة أخرى حيال جبر بك وابتسامته اللطيفة الغامضة التى تستحثنى فى صمت على الكلام ، لا بد مما ليس منه بد ، وإلا انقلبت الجلسة إلى مهزلة تستثير السخرية . لأصطنعن شيئا من الرجولة أمام الرجل الذى أروم مصاهرته أن أصغر فى عينيه . ولممت أطراف شجاعتى وقلت وإن تهدج صوتى وتخلخلت نبراته :

ــ سيدى ، أردت . أعنى . الحق أنى أرجو التشرف بمصاهرتك ..

ولم تكن الجملة التى كتبتها وحفظتها لتفترق عما قلت كثيرا ، وقد اعترانى الاضطراب بعد أن فتحت فى بالكلام ولكن الله سلم وأفصحت عن رأيى بعبارة لا بأس بها ونظرت إلى الرجل فوجدته ما يزال مبتسما ، وتريث لحظات استغلظ وقعها فى نفسى المروعة ، ثم قال بأدب جم :

ــ أشكر لك حسن ظنك بنا ..

وصمت لحظات أخرى متفكرا ثم واصل حديثه قائلا :

ـــ ولكنى أرجو أن تمهلنى أسبوعين لمشاورة أصحاب الشأن الآخرين .

فبادرته قائلا :

ـــ طبعا .. طبعا .. ولا يسعنى إلا شكرك على كرم أخلاقك وحسن ضيافتك ؟

ونهضت قائما مستأذنا فى الانصراف ، ولكنه دعانى للبقاء فترة أخرى ، فاعتذرت شاكرا له جميل أدبه ، وسلمت وذهبت . وتنهدت فى الخارج من الأعماق وشعرت كأن حملا ثقيلا رفع عن عاتقى . وبدا لى الأمر هينا لا يستدعى بعض ما عانيت من خوف وقلق وهلع ، فابتسمت فى ارتياح ، ثم استرسلت ضاحكا ..

٣٧

تمليت نشوة الارتياح والظفر حتى المساء ، ثم عاودنى القلق ذلك الرفيق القديم الذى لا يمل عشرتى .. أيرضى جبر بك بموظف صغير مثلى زوجا لابنته ؟.. ألا ترجح كفة محمد جودت رغم دخلى من الأوقاف ؟.. إنه مهندس كجبر بك ، وجار وصديق ، ولست من ذلك كله فى شىء ، ولكن رباب لا توده ، ولو كان بها من رغبة فيه لما قابلتنى وشجعتنى على مقابلة أبيها ، ورطب هذا الخاطر قلبى المحترق وردنى إلى نشوتى ، ولكنه لم يستطع أن يستأصل الشك والقلق من قرارة نفسى . وتتابعت أيام الانتظار وما أزداد إلا كآبة وتشاؤما ، ولذلك أخفيت سرى عن أمى حتى لا تعلم بإخفاقى إذا كان مقدورا ، وكابدت الانتظار ومرارة الشك فى وحدة مخيفة ، ومن عجب أننا لم نعد إلى موضوع الزواج منذ ذاك المساء العنيف . وقد اعتور سلوكها شىء من التحفظ والتغير لم يخفيا عن إحساسى الدقيق . وبدت فى أحايين كثيرة كالطفل الغاضب وانطوت على نفسها . وكنت إذا أقبلت عليها محدثا تلقتنى بريبة لا تزايلها حتى تطمئن إلى

نوع الحديث . وأحنقنى تغيرها ولكنى لزمت معها الأدب والتودد . وفى أثناء ذلك أسر إلى زميل من الموظفين بأن « بعضهم » يتحرى عنى كما أخبره موظف بإدارة المستخدمين ، وسرعان ما ذاع بين موظفى إدارة المخازن إنى شارع فى الزواج ، وجعلوا يعرضون لى بما فى أنفسهم مداعبين فأزداد امتعاضا وحنقا ، ولما انقضت فترة الانتظار مضيت إلى مقابلة جبر بك السيد ، ولكننى لم أذهب إلى بيته — حال دون ذلك خوفى من الخذلان — فقابلته فى وزارة الأشغال ، ورحب بى الرجل ترحيبا جميلا وأعلن لى موافقته ! هكذا انتهى عذابى وردت إلى الروح . وفى تلك المقابلة اتفقنا على يوم الخطبة . وإذا كانت حياة الإنسان خليطا من الشقاء والسعادة فقد بدا لى أن أيام شقائى قد ولت ، وإنى سأجزى عن صبرى وتعاستى ومخاوفى سعادة صافية فيما بقى لى من عمر . ورجعت إلى البيت ودعوت أمى وأخبرتها بما تم ، وقد استمعت إلى فى استسلام ودهشة وقالت لى متسائلة :

— ولماذا أخفيت عنى الأمر كله ؟

فقلت متضاحكا فى ارتباك :

— لم أكن أقدر أن ينتهى مسعاى إلى ما انتهى إليه ..

فقالت بحدة :

— يا لله !. أكنت تتصور أن يرفضوا يدك ؟! يا لك من طفل غرير !. ألا تعلم أن الفتيات لا حصر لهن ، وخيرا من فتاتك ألف مرة ، يرضين بك عن طيب خاطر !.

فقلت بلهجة نمت عن عدم رغبتى الاسترسال فى النقاش :

— إنى أنتظر تهنئتك يا أماه ..

فمالت نحوى حتى لثمت خدى وتمتمت :

— إنى أحق منك بالتهانى ..

ودعت لى طويلا ، وكان وجهها كالصفحة المصقولة لا تخفى بها خافية ، ولم

تكن تحسن مداراة ما يعتمل فى نفسها ، فلمست فى نظرة عينيها خيبة عميقة نغصت على صفوى ، بيد أننى تجاهلتها وتظاهرت بتصديق كلماتها ، وسرعان ما شغلت عنها بسعادتى ، وكتبت فى نفس اليوم لأخى خطابا أخبرته بما كان ودعوته لشهود الخطبة ، وزرت أختى راضية ودعوتها كذلك ، وذهبنا جميعا فى اليوم الموعود . ولست أدرى كيف واتتنى شجاعتى ذلك اليوم . لقد شبكت ذراعى بذراع شقيقى مدحت ورجوته أن يكون مرشدى ، ولشد ما أتعبته بجمودى وارتباكى وخجلى .

لم أنبس بكلمة طوال السهرة ، ولم أرفع عينى عن الأرض ، ولبثت محاصرا بأعين المستطلعين رجالا ونساء ، ولم تزايلنى الرهبة حتى بعد انصراف الأقارب واقتصار الموجودين على الأهل . وقد ضحكت حرم جبر بك وقالت لى :

ـــ أنت خجول يا سى كامل .. وقد أدركت الآن السر فى أنك كنت تحوم حول عروسك أشهرا طوالا كالخائف ..!

وخفق قلبى لقولها ، واختلست من أمى نظرة لأرى وقعه فى نفسها فوجدتها مشتبكة مع جبر بك فى حديث . وجلست طوال الوقت بجانب رباب دون أن أستطيع إرواء قلبى الظامئ لرؤيتها . وما ألقيت عليها إلا نظرة سريعة حيية حين دخولها الحجرة فى هالة من نور وبهاء ثم غبت فى حيائى وارتباكى ، ولما انفض الحفل العائلى وغادرنا البيت ضحك أخى مدحت فى الطريق مقهقها وقال لى بدهشة :

ـــ ينبغى أن نجد علاجا لخجلك ، فوالله ما رأيت مثلك رجلا .

ولم آبه لانتقاده وسخريته . كنت سعيدا ..

.. ثم هان على عناء الزيارات ، اعتدتها وآنست إليها . أمكنني أن أضغط على زر الجرس دون أن ينخلع قلبي ، وأن أمضي إلى حجرة الاستقبال دون أن أعثر بطرف سجادة أو قطعة أثاث ، وأن ألقى آلى الجدد غير خافض الرأس ولا ملهوج الحديث ، بل أمكنني أن أتحدث أيضا وأن أضحك إذا دعى الداعي للضحك ، فى حدود طاقتي . وأسرتي الجديدة أسرة لطيفة حقيقة بالمودة ، حبيبتي عنوانها ، وحسبها هذا شهادة وثناء ، وقد توثقت الأسباب بيني وبين جبر بك السيد فصرنا صديقين ، وقربت الألفة بيني وبين نازلى هانم فكأننا ابن وأم . وأسرني الصغيران محمد وروحية بظرفهما ، حتى الخادم الصغيرة والجارية السوداء حظيتا بنصيب من ودى ، فأحببتهم جميعا حبا دل على ما بقلبي من هيام بحبيبتي وشوق مكبوت للمعاشرة والتودد .

وكان جبر بك السيد من أولئك الرجال الذين لا يبرحون بيوتهم إلا للضرورة القصوى ، فإن لم يكن فى الوزارة أو فى رحلة تفتيشية بالأقاليم فهو فى بيته وبين زوجه وأبنائه ، بدا لى من أول يوم لتعارفنا مهذبا رقيق الحاشية ، ولم يخف عن عيني — على ضعف ملاحظتي — أنه من الأزواج المطيعين وأن زوجه هى الآمرة الناهية فى البيت ، ولكن ذلك لم يضعف من منزلته ، ولعله حظى من حب أبنائه بما لم تحظ به الأم نفسها ، ولم يخل من ميل للفخر والمباهاة على تجاوزه الخمسين ، وما أسهل أن تلاحظ ذلك إذا سمعته محدثا عن عمله ومركزه وصلاته بأقرانه ومرءوسيه ، أو منوها برحلاته التفتيشية وملاحظاته ، وما أكثر ما ينتقد المهندسين الشبان ممن تلقوا علومهم فى إنجلترا وألمانيا ، فيقول إن علم الهندسة فى مصر هو علم الهندسة فى أوربا ، وأن القدم لا ترسخ فى العلم لا بالتجربة والممارسة الأمر الذى يتجاهله الشبان . وكان فى تلك الأيام قلقا على مركزه

بالوزارة ، ولا يفتأ شاكيا ما يلقى من اضطهاد سياسى مرده فى رأيه إلى صلته بالوزير الوفدى السابق ، حتى إنه صرح مرة بأنه يفكر فى طلب تحويله إلى المعاش والاشتراك فى النشاط السياسى ، ولكنه لم يستطع الاسترسال فى شرح رأيه لتصدى زوجه له بالمعارضة الحاسمة التى لا تحتمل مناقشة . وكنت أجد حياله شعورين متضادين : شعورا بالضآلة لتفاهة مركزى فى الحكومة وقلة حظى من الثقافة ، وشعورا بالزهو لانتسابى لرجل مثله عظيم فى قدره ومركزه وعمله ، أما نازلى هانم فعلى نقيضه ميالة للقصر مفرطة فى السمنة ، وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها تدل بلا ريب على ما كانت تتمتع به من جمال فى صباها . وكانت على سمنتها المفرطة بالغة فى نشاطها ويقظتها وسهرها على رعاية بيتها وأبنائها وزوجها ، وقد شكا زوجها مرة إلى حرصها الزائد عن الحد على تنسيق البيت وتنظيفه ومراقبة الخادم والطاهية ، وإفراطها فى ذلك إفراطا هو أدنى إلى الوسوسة والإرهاق ، ولكنه لم يخل فى شكواه مما يشى بإعجابه ورضاه .

وبدت لى ظريفة فى غير ما تكلف ، ولشد ما ضحكت من ذكريات تطلعى الصامت إلى الشرفة والنافذة ، وقارنت بين حيائى وبين وقاحة الشبان ، وعلقت على ذلك قائلة :

— فمن حسن الحظ أن تكون لرباب ، ومن حسن الحظ أن تكون رباب لك ، فهى ليست كفتيات اليوم أيضا .

هذا حق ، حبيبتى ليس كمثلها شىء ، هى الحياة والذكاء والجمال : وإن الأيام لتزيدنى بها تعلقا وهياما وإعجابا ، ما أرخم صوتها ، وما أرشق إيماءتها ، وما أجمل رزانتها ، وكانت إلى هذا كله أنوثة ناضجة كاملة ، وإن عينيها لتطالعانى بالإخلاص والمودة والصدق من غير ما حاجة إلى خفة مصطنعة أو تكلف غير برىء . ولم أكن أفوز بها فى خلوة أبدا ، ولم تتهيأ لى فرصة للانفراد بها منذ إعلان خطبتنا . وشاقنى كثيرا أن أخلو إليها ، وأن أتملى بإدامة النظر إلى وجهها الصبيح فى أمن من الرقباء ، على أننى لم أخل من خوف من مثل هذه الخلوة المأمولة وما أنا

حرى بأن أعانيه فيها من عى وحصر وحرج واضطراب ، فقنعت بالمبذول لى فى حظيرة الأسرة ، راضيا آمنا ، مكتفيا إلى حين بالنظرة الخاطفة والمحاورة المقتضبة ، سعيدا بالنشوة التى يبثها وجودها فى قلبى وروحى ، ووجدت حديثها لطيفا طبيعيا . لا أثر فيها لشهادتها العالية — وهو ما كنت أحاذره وأشفق منه — فلا تفلسف ولا ادعاء ولا حذلقة .

وتم الاتفاق فيما بيننا على أن يكون الزواج فى العطلة الصيفية ، ولم يألوا جهدا فى إعداد الجهاز ، واقترحت نازلى هانم أن ينتقلوا إلى شقة كبيرة على أن أنضم إليهم ، ولكن الاقتراح أزعجنى وذكرنى بأمى ، فاعتذرت من عدم استطاعتى قبوله قائلا إنى لا يمكننى التخلى عن أمى ، وعند ذاك قالت نازلى هانم :

— والدتك سيدة محترمة ولطيفة ولكن يبدو لى أنها لا تميل إلى المعاشرة !

وفهمت ما تعنيه ، والحق أن أمى لم تزر بيت خطيبتى منذ إعلان الخطبة إلا مرة واحدة تحت ضغط وإلحاح ، فقلت فى ارتباك غير قليل :

— لقد اعتادت أمى الوحدة .. ولم تألف الزيارات قط ..

وقصصت عليهم جانبا من حياتى متحاميا الفجوات التى لا تطيب ذكراها . ولا أنكر أن ملاحظة نازلى هانم أزعجتنى ، وذكرتنى بأمور أخافها ، فدعوت الله مخلصا أن يقينى مغبة الشقاق فى حاضرى ومستقبلى .

وفى مرة ، وكنت جالسا ، إلى فتاتى رأمها فقط ، واتتنى الشجاعة فذكرت عهد تطلعى الصامت إلى « رباب » ، وعجبت كيف انتهت إلى هذا الختام السعيد وهو ما لم أكن لأحلم به !. وضحكت حبيبتى وقالت :

— ومع ذلك فلم تكد تخطو خطوة واحدة حتى تم كل شىء فى غمضة عين !

وقالت نازلى هانم :

— طالما تساءلنا ماذا يريد هذا الشاب ؟!. ولشد ما حذرت « رباب » أن تكون من الشبان الذين يطاردون الفتيات فى الطريق !. وقدرنا فى وقت ما أنك مشغول بالتحرى عنا كما يفعل طلاب الزواج . فلما طال ترددك بعد ذلك

داخلنى استياء وتساءلت عما لم يعجبك فينا ؟!.

فقلت مرتبكا متألما :

ـــ ما فعلت شيئا من هذا ، وحتى الأسماء ظللت على جهلى بها حتى اللحظة الأخيرة ..

وكان لدى من المال ما يعد بالقياس إلى ثروة ، فأغدقت على حبيبتى الهدايا ، وجعلت من شقيقتى راضية مشيرتى فى هذه الأمور التى أخفيتها عن أمى فمحضتنى المشورة وأرشدتنى إلى « الواجب » وخاصة فى المواسم كعيد الفطر وعيد الأضحى ، فأصبحت بفضل رأيها خطيبا مشرفا ؟.

وظلت العلاقة بينى وبين أمى على ما يرام ، على الأقل فى الظاهر ، وحرصت على أن أشركها فى مهمة الإعداد للحياة الجديدة لتبدو وكأنها تباركها ، فكلفتها بأن تبحث لنا عن شقة جديدة ، ووقع اختيارها على عمارة فى شارع قصر العينى على بعد محطات ثلاث من عمارة حبيبتى ، ولم يبدر منها ما يعكر صفوى ، ولكنها بدت كشخص مغلوب على أمره ، تزحزح على رغمه إلى هامش الحياة ، فانطوت على نفسها انطواء لم أجد فى معالجته حيلة ، وقطع قلبى . ولكن لم يكن فى وسع شىء فى الوجود أن يعتاق تيار السعادة المتدفق الذى يسكرنى ليل نهار . والواقع أن تلك الفترة من حياتى هى أسعد ما لقيت فى الدنيا من أيام ..

٣٩

وقالت لى « نازلى هانم » يوما ، وكانت الأسرة قد أعدت عدتها للزواج .

ـــ إن رباب أول عهدنا بالأفراح فينبغى أن تكون ليلتها بالغة المسرة .

وولى قلبى فرارا ، ولم يعد بد من مواجهة الأمر الخطير الذى طالما تحاميته إشفاقا وجبنا . وتساءلت فى قلق :

ـــ أترين ضرورة فى إحياء ليلة الزفاف ؟!

فرمقتنى بنظرة استنكار كأن تساؤلى أدهشها وقالت :

ـــ طبعا !.

فغمغمت فى ذهول :

ـــ قيان وزفاف ورقص وغناء !.

ـــ ينبغى أن تكون ليلة فريدة غناء ..

وتملكني الخوف ، ورفعت إليها عينين ملؤهما الرجاء والاستعطاف ، ثم قلت بيأس .

ـــ لا يمكننى أن أزف بين المدعوين !. هذا فوق ما أستطيع .

فلاحت فى وجهها الدهشة والانزعاج وقالت بغرابة :

ـــ لست أفهم شيئا !.. هل يعجزك الحياء لهذا الحد ؟

فقلت بضراعة ، وبحرارة من يدافع عن نفسه حيال الموت :

ـــ لا أستطيع .. لا أستطيع ..، صدقينى يا سيدتى إن الموت أهون على من الزفاف بين المدعوين والقيان ..

ـــ هذا شيء عجيب ، إنك تكون أول رجل يهرب من الزفاف !

فقلت بأسى وقد شعرت بألسنة الخجل تلهب جبينى وخدى :

ـــ ربما ، ولكن ما باليد حيلة ، إنى أستحلفك بالله أن ترحمينى ..

فتساءلت فى إنكار :

ـــ وما عسى أن نفعل ؟

فقلت بلهفة وقد عاودنى الرجاء :

ـــ نكتب العقد فى جمع من الأهل فحسب ، ثم أمضى بالعروس إلى بيتنا !

ـــ وكيف يكون هذا فرحا !

ولو كان الأمر غير ما يتصل بالخجل لسلمت دون عناء ، والحق أنى سريع للمطاوعة مهما كلفنى الأمر من تضحية إلا إذا كنت بموقف الذائد عن حيائى ، هناك أنقلب إلى الاستماتة والتشبث . وقد استمددت من يأسى وخوفى قوة

فتوسلت وضرعت وألحفت حتى كفت السيدة عن المناقشة وهى تهز رأسها عجبا ، ولم يكن بى خوف أن يظنوا بى تهربا من تكاليف الزفاف لما أبديت من سخاء كخطيب كان حديث الجميع ، على أن جبر بك السيد أخبرنى بعد ذلك بأنه مصمم على دعوة نفر من خاصة أصدقائه ، وأنه سيولم للجميع وليمة عشاء فاخرة ، ثم أخبرنى بعد حين بأن أحد أصدقائه من هواة الغناء والموسيقى تطوع بإحياء الليلة فى حدودها الضيقة ، وقال مخففا عنى وقع الخبر :

— وهكذا يحيى ليلتك موظف كبير ..

فقلت محزونا :

— يؤسفنى والله ألا أحقق رغبتكم فى إحياء ليلة زفاف باهرة ولكنى لا أحتمل أن أزف !

فهز كتفيه فى عدم اكتراث وقال مبتسما :

— لا أحب أن أضايقك فلك ما تشاء ..

وحمل الجهاز إلى الشقة الجديدة ، وفرشت حجرة خاصة لأمى ، وانتقلنا من المنيل إلى الشقة الجديدة قبل الليلة الموعودة بأسبوع . وأشرفت شقيقتى على فرش شقة العروس بنفسها . وبهرت شقة العروس عينى فجعلت أتنقل بين الحجرات فى غبطة وفرح سماوى . ولما جاء دور المخدع اجتزت بابه بعد تردد ، وفى حياء شديد ورهبة . يا له من منظر خليق بأن يهز الفؤاد هزا !. جعلت أقلب ناظرى فيما حولى وأنا بين مستيقظ وحالم . فراش كالذهب . وأغطية حريرية فى لون الورد الزاهر ، ومرآة مصقولة رقراقة . دبت الحياة فى قطع الأثاث فلم تعد جامدة ولا صلبة ، وحاكت ألوانها الجذابة تورد الخدود والتماع الأعين ، وندت عن حواشيها المسدولة همسات خافتة منغومة خفق لها الفؤاد خفقانا متتابعا .

* * *

وفى صباح اليوم الرهيب ساءلت نفسى متى أعود بعروسى وقد خلفت ورائى الناس والضوضاء ؟ ليت التقاليد كانت تقضى بأن ينتظر الرجل عروسه فى بيته

من غير هذا العناء كله !. بدا لى يوما عسيرا لم يخلق لأمثالى ، فلم يفارق قلبى الشعور بالرهبة والخوف . وتقضى نصفه الأول فى تهيئتى ، فمضى بى شقيقى مدحت إلى حلاق مشهور عدت من لدنه على أحسن حال ، حتى قالت لى أختى فى دعابة :

ـــ أنت أجمل من عروسك !.. أليس كذلك يا أماه ؟.

وهمت أمى بالكلام ، ولكنها أطبقت شفتيها دون أن تنبس ، وجعلت أتساءل عما أرادت قوله . وارتديت بدلة العرس السوداء على حرارة الجو ، ثم ذهبنا إلى بيت العروس قبيل العصر بقليل ومعى أمى وأخى وأختى وزوجها وعمى وبعض بناته وخالتى وأسرتها . ولما اقتربنا من مدخل العمارة رأيت الأرض قد فرشت رملا فاقع اللون ، وتدلت مصابيح كهربائية كبيرة من عمد ملونة ، فداخلنى اضطراب وقلت لنفسى : « هذا خروج عن الاتفاق ! » وارتقينا السلم وقد أبيت إلا أن أسير فى المؤخرة شابكا ذراعى بذراع مدحت .. وما كاد أولنا يدخل الشقة حتى استقبلتنا عاصفة من الزغاريد المجلجلة ، فشددت على ذراع أخى وشعرت برغبة فى التوارى ، ولكن أين ؟ وخفضت عينى ، وسرت ، بل جرنى أخى ، إلى حجرة الاستقبال ، دون أن أرى شيئا مما يحيط بى وإن أحسست بأذنى وأنفى أن البيت مكتظ برواد السرور !.. وأجلست وأنا متشبث بذراع مدحت وقد همست فى أذنه :

ـــ أرجو ألا تفارقنى ..

فرد على هامسا :

ـــ تشجع وإلا بدت عروسك دونك خجلا !

ولم أكد أتنفس الصعداء لمرور لحظة الاستقبال المفزعة حتى جاءنى جبر بك السيد ليقدمنى لصفوة المدعوين ، فوقفت مرتبكا كالعادة ، وراحت يدى تسلم ، ولسانى يردد كالآلة « تشرفنا .. تشرفنا » ثم جلست مرة أخرى دون أن أحفظ اسما واحدا . ودار حديث طويل ، لم يفزع عقلى لفهمه فضلا عن

الاشتراك فيه ، ولم يغب عنى حرجى ، فتضاعف ارتباكى ، وخيل إلى أن الجميع يتغامزون بى ، أو يهزءون بى فى سرائرهم . ومر الوقت قاسيا حتى دعيت إلى كتابة العقد ، وخفف عنى أن تم ذلك فى حجرة تكاد تكون خالية ، ولكن انفجرت الزغاريد فى تسابق عنيف ، وعاودتنى مرة أخرى رغبتى فى التوارى ، وعدت إلى مجلسى الصامت ، ومر الوقت ، ولم يكن بالنسبة إلى إلا صمتا وفكرا محترقا ولهفة على الفرار . ثم دعينا إلى سماط أعد على سطح العمارة فى الهواء الطلق . والعشاء عناء جديد لمثلى ، ولكنه محتمل بخلاف الحديث ، لأن المدعوين يشتغلون بالطعام عما عداه فيجد من كان مثلى فسحة للطمأنينة والسكينة .. وعدنا إلى مجالسنا ، شابكا ذراعى بذراع أخى ، ثم بدأ الغناء . وكان المغنى الهاوى وفرقته — من الهواة كذلك — يتصدرون حجرة الاستقبال وقد غنى « ياما انت وحشنى » بصوت لا بأس به ، فاق فى نظرى صوت فنان حانة سوق الخضر . وجاء جبر بك للجوقة بقنينتين من الويسكى ، وقدمت كئوس مترعة لآخرين ، وقد همس مدحت فى أذنى :

— ألا تشرب كأسا أو كأسين ؟.

فنظرت إليه نظرة لم يفهم معناها وقلت بإنكار :

— محال ..

قلتها بلهجة تنم عن الاستفظاع ، ثم خلوت إلى ذكرياتى فى صمت . لشد ما همت بنشوة الخمر ! أفليس عجبا أننى لم أذقها منذ الساعة التى اجترأت فيها على مخاطبة حبيبتى ؟.. هجرتها فى غير ما عناء كأنها لم تكن ، ولم تنازعنى النفس إليها ولا مرة واحدة !. وتتابع الغناء والحديث وعلا الضحك . وكنت حريا بأن آنس الجو ، وأن يذهب عنى الضيق وتوتر الأعصاب ، لولا شعورى بخطورة الساعة التى تتربص بى !.. متى أتلقى عروسى ؟ وأين .. وهل يحدث هذا فى خفية عن الأبصار ؟!. ومر الوقت . ثم انتبهت بغتة على جبر بك السيد وهو يقف حيالى ويضع يده على كتفى قائلا بصوت منخفض :

ـــ هلم يا سى كامل أزف الوقت .

ورفعت إليه بصرى فى ارتياع وغمغمت :

ـــ آن وقت الذهاب .!

فقال ضاحكا !

ـــ ليس فى الحال ولكن بعد زفة بسيطة ؟.

فمرت فى جسدى رعدة وهتفت فى هلع :

ـــ كلا .. كلا .. اتفقنا على ألا تكون زفة !.

ـــ ليس الأمر كما تتصور ، فقد أقمنا فى الصالة الكبيرة منصة للعروسين ، فتجىء بعروسك وتجلسان عليها ، الجميع يريدون أن يروا العروسين فما ذنبى أنا ؟!.

كان كلامه ينقلب فى مخيلتى صورا ، فرأيتنى أمشى وسط الجميع إلى حجرة العروس وأعود بها والمدعوون يحيطون بنا مهللين ، ثم نجلس فريسة للأعين !.. رباه .. سأقع مغمى على .

وقلت بحرارة :

ـــ ولكن هذه الزفة !.. ليس فى مقدورى !.. أرجو يا بك أن تعفينى .. لا أستطيع ..

ـــ الأمر أسهل مما تتصور ، ولا بد مما ليس منه بد ، وإلا ماذا يقول المدعوون ؟!.

فهتفت فى فزع :

ـــ دعهم يقولوا ما يقولون . لا أستطيع .. سأنتظر العروس على بسطة السلم ثم نذهب إلى بيتنا ..

ولم يتمالك الرجل نفسه فضحك وصاح بى حتى علا صوته على صوت المغنى :

ـــ بسطة السلم .. يا لك من عروس عجيب !.

وكان مدحت يصغى إلينا صامتا ، فضغط على ذراعى وقال لى بحزم :

ـــ ما هذه الأفكار الصبيانية ؟!.. ألا تريد أن تجىء بعروسك ؟!. ألا تستطيع أن تشق طريقك بين نخبة من السيدات الفضليات ؟. أتريد البك على أن يعتذر عن عدم ظهورك بأنك خجول لا تستطيع الظهور أمام المدعوات ؟! وافضيحتاه !.

وتشجع جبر بك بكلام شقيقى ، أما أنا فحدجت أخى بعينين غير مصدقتين ، لم أكن أتصور أن تجيئنى الطعنة القاتلة من اليد التى أعتمد عليها ، وضحك أخى لفزعى وذهولى ، وأراد أن يتكلم ، ولكننى قاطعته محزونا يائسا :

ـــ كيف تدفعنى إلى ما لا قبل لى به ؟.. أتريد أن تجعلنى أضحوكة المدعوات ؟.

وتأثر جبر بك للهجتى الحزينة البائسة ، فقال برقة :

ـــ المدعوات جميعا من الأهل . وقد تعرفت إليهن يوم الخطبة ، وسترى صدق قولى ..

لم يزل الفزع يتملكنى ، وتناهى بى الضيق فقلت بتوسل :

ـــ نشدتكما الله أن ترحمانى !.

وكأن أخى أدرك أن الكلام لا يجدى ، فوجه خطابه لجبر بك قائلا :

ـــ يمكن أن نتفق على حل وسط فتجىء العروس إلى المنصة بين صويحباتها ، وأذهب مع أخى إليها ، فيجلسان معا بين الأهل ردحا من الزمن قبل الذهاب ..

وأومأ إلى البك ألا يعارض ، فذهب الرجل ، والتفت إلى أخى مغيظا محنقا وقلت له :

ـــ يا لك من أخ خائن !.. كيف تسمى هذا حلا وسطا وما هو إلا التنكيل بى ..

فندت عنه ضحكة مجلجلة ذكرتنى بأبينا وقال لى :

ـــ إنك تعر بلدا ، فدع النضال ، وسنذهب معا .. ليتنى أجد كل يوم زفة

فاشق سبيلا طريا بين النساء !.

وصمت لحظة قصيرة ، ثم لكزنى فى كتفى وعاد يقول :

ـــ إذا حدثتك نفسك بالنكوص فاهرب واستغن عن العروس !

واستسلمت إلى الواقع فى يأس وضيق وهلع . وعزفت الفرقة نشيد الزفة فخفق قلبى بارتياع وشعرت بدنو الخطر . وقرعت أذنى الزغاريد الآتية من الصالة فانهارت قواى ، والتفت إلى مدحت قائلا :

ـــ أما من حيلة ؟ أما من طريق ؟.

فشد على ذراعى ونهض وهو يقول :

ـــ طريق واحد يفضى إلى المنصة كأنك طفل يساق إلى الختان !.

وسار ، فتحركت قدماى وقلبى يغوص فى صدرى ..

وقال لى همسا ونحن نجتاز الباب :

ـــ ارفع رأسك ، حملق فى وجوه الحسان حتى يغضين حياء !

ولكنى تقدمت على مهل خافض الرأس . لم أشك فى أن منظرى استثار الضحك المكتوم . وبلغ مسمعى صوت نسائى يتساءل : « أيهما العروس ؟ » فأجابت أخرى : « الطويل ! » . كان المكان مكتظا ، وقد رأيت عديدا من السيقان والأحذية البيض على جانبى الطريق الذى أفسح لنا . ثم سمعت صوت أخى يهمس فى أذنى :

ـــ بلغنا المنصة ، اصعد إليها ، وحى عروسك واجلس :

ارتقيت درجتين ، ورفعت عينى فى حذر وإشفاق فرأيت حبيبتى جالسة تحت ظل من الأزهار ، فى ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها هالة من الفل والياسمين تنسدل منها على الظهر ذيول من الحرير . كانت بهاء ونورا وفلا وياسمينا ، وقد غضت بصرها ولاحت على ثغرها ابتسامة خفيفة . وصرت منها على قيد خطوة ، وتذكرت قول أخى : « حى عروسك واجلس » .. كيف أحييها ؟. أأسلم باليد ؟.. أم أوجه إليها تحية المساء ؟. وترددت مرتبكا ، ورأيت

فى ابتسامتها الخفيفة الخجلة ما ينم عن انتظار تحيتى ، ثم شعرت بما غاب عنى لحظات قصار ، أو عاودنى الشعور بالأعين المحدقة بى تكاد تحرق ظهرى ، ففقدت جنانى ، وجلست على المقعد الخالى دون أن أنبس بكلمة أو أحرك يدى .

أخطأت بلا شك ؟.! ماذا تقول النسوة ؟.. ماذا تظن حبيبتى ؟.. آه يا له من موقف ؟!.. لو عرفت هذا من قبل ما فكرت فى الزواج أبدا !.. الموسيقى تعزف ، والزغاريد تجلجل ، وأريج الروائح الزكية يتطاير فى الجو . الموت أهون من الزواج !. هل أظل الدهر ضحية للمنصات ؟. بالأمس قضت منصة الخطابة بكلية الحقوق على مستقبلى ، والليلة تكاد تقضى منصة العروس على حياتى ! ترى ماذا يقلن عن عينى اللتين لم تزايلا الأرض ؟!. وذكرت بغتة أمى ، ترى أين تجلس ؟ إنها ترانى فى هذه اللحظة بلا ريب ، وتضاعف حيائى ، وتولانى شعور من يضبط وهو يقترف عيبا . ووجدت إحساسا لا قبل لى بمقاومته يدفعني إلى البحث عن موضعها ، وارتفعت عيناى فى رفق وحذر ، ولكنها كانت أقرب مما أتصور ، كانت تجلس فى الصف الأول الذى يحدق بالمنصة ، فالتقت عينانا ، وتبادلنا ابتسامة رقيقة . وطار خيالى إلى صورة من الماضى البعيد ، فرأيتنى أقف وراء سور المدرسة الأولية وهى بموقفها على الطوار المقابل للسور ، ترنو إلى بعين التشجيع والتوديع ، فشعرت بغمز على قلبى .

وتنفست الصعداء حين أقبلت نازلى هانم نحونا وقالت مبتسمة :

ــ الآن إلى بيتكما مصحوبين بالسلامة .

ثم خاطبتنى هامسة :

ــ ستذهب الجارية صباح مع سيدتها الصغيرة لأنها لا تحتمل مفارقتها !.. وإنى أوصيك بها خيرا ، وستجد فيها خير طاهية .

وتنحت المرأة جانبا مغرورقة العينين ، ونهضنا من مجلسنا ، وأخذت بيد عروسى وغادرنا المكان فى سير وئيد والزغاريد والأنغام تودعنا حتى باب العمارة .

وكان أحد أصدقاء جبر بك قد وضع سيارته تحت تصرفنا حتى نبلغ دارنا . واحتوتنا السيارة معا ، ثم انطلقت بنا . والتفت نحوها متنهدا فكأنى أراها لأول مرة . وقلت بارتياح :

— يا له من موقف قاس !.

— يا لك من خجول !.. ألهذا الحد ؟!.

فندت عنى ضحكة أدارى بها إرتباكى ، وجعلت أملى غبطة تملأ القلب والعين والروح .

٤٠

أغلقت باب المخدع بيد مضطربة . كان هذا الجناح من الشقة خاليا صامتا ، تفصله صالتان صغيرتان متداخلتان عن الجناح الآخر حيث توجد حجرتا أمى والاستقبال .. وكان مخدعنا مربعا يتوسطه الفراش ، وعلى يمين الداخل مباشرة مقعد طويل ذو لون وردى ، وفى الجدار المقابل التواليت والمشجب . مضت رباب إلى آخر الحجرة وجلست على مقعد التواليت بين صورها المعكوسة على مراياه التى ترسم حولها نصف دائرة ، وراحت تنزع إكليل الفل والياسمين ، بينا وقفت فى وسط الحجرة مرتفقا حافة الفراش الخشبية ، مرددا بصرى بين ظهرها الرشيق وصورها المتنافسة فى الحسن . هذه الحجرة هى دنياى ، وحسبى بها من دنيا ، وهذه الفتاة هى نصيبى من الكون وحسبى بها من نصيب ، هى حبى وسعادتى وأملى ، ولن أسأل الدنيا مطمعا بعد اليوم .

انتهت حبيبتى من نزع إكليلها ، وأخذت تسوى ما بعثر من خصلات شعرها الكستنائى فى تمهل من يرغب فى اكتساب أقصى ما يسعه من وقت . ولكن ستنتهى حتما فترة الانتظار فما العمل ؟

رباه إن قلبى يقظ متوثب ، وإنى لأجد رعدة ترعش ركبتى ، وإنى لأتساءل فى حيرة عن الخطوة التالية بنفس هيابة وحياء شديد يدور مع دمى . وأدركت رغم اضطرابى أنه ينبغى أن نبدل ملابسنا ، ولكننى لم أدر كيف يتم هذا وكلانا فى حجرة واحدة مغلقة ! وبدت لى وكأنها تنتظر منى شيئا ، فقد انتهت من تسوية خصلاتها وإن تظاهرت بالعكس ، ولاح فى وجهها الارتباك والحرج . وإنى أعلم أمورا ولكن فاتتنى التفاصيل ، وأعوزتنى الحيلة والعزيمة . ليتنى استخبرت أخى مدحت ، أو ليته كان لى أصدقاء أرجع إليهم فى أمثال هذه الأسرار ، ولكن قاتل الله الحياء الذى يقيم بينى وبين أخى والناس سدا ، تبا له .!. لماذا لا يزايلنى وقد صرنا وحدنا !!.

وبلغ ضيقى بصمتى وجمودى منتهاه ، وثار بى الغضب على نفسى ، فصممت لأتكلمن — وهو أضعف الإيمان — وقلت بصوت غريب أنكرته أذناى :

— ما أجملك ..

هذه أول كلمة غزل أتفوه بها فى حياتى !.. وقد سددت بصرها نحو صورتى الماثلة فى المرآة وابتسمت ، ثم غضت بصرها ، وشبكت ذراعيها على صدرها . لم يعد يجدى التظاهر بتسوية الشعر فشبكت ذراعيها فى استسلام المنتظر . وازددت حرجا ، وعضضت على شفتى قهرا وغيظا . وبدا لى تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة فى الوجود ، فهل نبقى على هذه الحال الأليم حتى مطلع الصبح ؟.. لماذا لا أمضى نحوها فأضمها إلى صدرى حتى تحل المسألة نفسها بنفسها ؟.. ولكن كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة ؟!. إنى أستطيع أن أتخيل ، وأن أحادث نفسى ، أما الإقدام على عمل فهو المحال . وامتلأ قلبى غيظا وألما ، وازددت إحساسا بالعجز والخزى ، فصممت أن أخرج من صمتى على الأقل ، فقلت :

— هلا بدلت ملابسك يا عزيزتى ؟

وحسبتنى قد ظفرت بالحل السعيد . وانتهزت الفرصة فمضيت أخلع ملابسى فى هدوء محاذرا أن يبدو منى شىء ، ووضعت البدلة على الفراش ، وتناولت البيجاما وكانت ملقاة على المقعد الطويل ، وحشرت فيها نفسى وأنا لا أزال ملازما موضعى على الأرض . وانتظرت مليا ثم سألتها برقة :

— هل انتهيت يا عزيزتى ؟

فأجابتنى بصوت مهموس :

— أجل ..

فنهضت قائما وهنا وقع بصرى على صورتى فى المرآة فرأيت الطربوش ما يزال على رأسى فنزعته مبتسما !. ونظرت صوبها فى حياء فوجدتها بمجلسها السابق وقد التفت فى روب من الحرير الأبيض ، وأدارت المقعد مستقبلة به الحجرة . وعدت إلى موقفى مرتفقا حافة الفراش ، رانيا إليها فى غبطة وهيام ، وكلما رفعت إلى عينيها غضضت بصرى فى حياء . انتهينا من تغيير ملابسنا ، لكن ليس هذا كل شىء !.. بدت الليلة وكأن لا نهاية لمشاكلها .. بيد أن قلبى يرغب أن يضمها إليه ، فماذا يغلنى ؟!.

إن هى إلا خطوة أقطعها ، فهل تكلف خطوة واحدة كل هذا العناء ؟. كان قلبى متلهفا متعطشا ، وكان خجلى حارا محيرا ، أما جسمى فكان ميتا لا حراك به !. أأظل هكذا أبدا ؟.. لماذا لا أدارى موتى بالحديث ؟.. ولكن ما عسى أن أقول !.. لقد عقد الاضطراب لسانى ، وكل دقيقة تمر تتركنى أشد ضعفا واضطرابا . وعلى حين بغتة انحرف ذهنى إلى حجرة أمى دون داع ، وتساءلت ترى هل نامت ؟. هل تتخيل ماذا أفعل الآن ؟. وتضاعف اضطرام الخجل بنفسى ، وشعرت بما يشبه الاختناق . سلمت من جانبى باليأس والعجز ، وتساءلت هل نبقى على هذا الوضع المضحك حتى الصباح ؟ ووجدت فى أعماق نزوعا إلى الهرب ، ولهفا عليه ، وكدت أتمنى لو لم يكن ما كان !.. وأفقت من أشجانى على صوت حبيبتى وهى تقول :

ـــ الجو حار ..

وتحولت صوب النافذة لتفتحها ، ووجدت فرصة مواتية فدفعت نفسى وراءها وأكملت عنها فتح المصراعين وهمت حبيبتى بالعودة فقلت كالمستغيث :

ـــ هلا وقفنا فى النافذة قليلا ..

ولبت حبيبتى نداء الاستغاثة . فوقفنا جنبا لجنب لا يفصل بيننا إلا قيراط . وكانت النافذة تطل على الناحية الخلفية للعمارة : وتقع تحتها مباشرة حديقة كنيسة تقوم بجنباتها أشجار عالية تتصاعد همسات حفيفها فى صمت الليل . ودفت على وجهينا نسمة رطيبة أتطلع إليها كما يتطلع الطفل إلى القمر ؟. ها هى ذى لا يفصلنا إلا قيراط . وملت بجسمى فى تؤدة وحذر ، فتماست ملابسنا . ثم شعرت رويدا بملمس طرى ، والتصق الجنبان . وندت عنى تنهدة مسموعة أيقظت حيائى فتريثت قليلا . وخفت أن تصدنى أو تبتعد عنى حياء فأغلب على أمرى ولا يعود ثمة أمل ، ولكنها لبثت بمكانها وارتفقت حافة النافذة .

ودفعت بيسراى إلى الوراء قليلا ، ووجهتها وراءها حتى رسمت خلف خاصرتها نصف دائرة ، وجعلت أضيقها على مهل وحذر وخوف حتى مست ثنيات الروب الحريرى ، فسرت من مسها لقلبى رجفة وندت عنى للمرة الثانية تنهدة مسموعة . ثم توثبت بمجامع قلبى وأحطت خاصرتها بذراعى .. ولم تبد حبيبتى لا معارضة ولا حراكا . ونفضت عنى أفكار التردد والهزيمة ، وشددتها نحوى مستعينا بذراعى اليمنى ، وتلقيتها فى حضنى وأسندت جبينها إلى صدرى ، فهويت بشفتى على مفرق شعرها ، وغمغمت وأنا لا أدرى :

ـــ أحبك .

ولبثنا فى عناقنا ، والله أعلم بما لبثنا ثم تراجعنا متماسكين إلى الفراش ،

وصعدنا إليه وذراعاى لا تتخليان عنها . وأسندنا منكبينا إلى نمرقتين عاليتين ، وحبيبتى وما عليها من روب على صدرى وبين ذراعى ، ومن عجب أن بصرى لم يتطفل عليها فاتجه إلى السماء خلال النافذة . وامتلأت نفسى حياة لا عهد لى بها . أما جسمى فظل جامدا باردا لا ينبض ولا تدب به حياة ، كأن نفسى استأثرت بكل قطرة من حياتى . أسكرتنى نشوة روحية باهرة غناء طروب سامية ، وظللت على حالى حتى مطلع الفجر ، ولم أدر كيف استرق النوم خطاه إلى جفنى ..

٤١

استيقظت ونور الشمس يملأ نصف الحجرة تحت النافذة المفتوحة ، فوقع بصرى على المرآة ، وعاودتنى ذكريات الليلة الماضية فى لمح البصر . ودارت عيناى فى الحجرة فوجدتها خالية ، وأدركت أن حبيبتى غادرتها وأنا أغط فى نومى ، فتندى قلبى حنانا وبعثت لها بتحية ودعاء : وقلت لنفسى إن متاعب الخطبة والزواج والزفاف قد انتهت ، ولن يضمر لى المستقبل إلا صفاء لا يكدره مكدر . وراجعت ذكريات الأمس فساحت نفسى فى متاهة النشوة والسعادة . بيد أنه لم يغب عنى أننى لم أبدأ بعد ، وأننى لم أكتب حرفا واحدا فى كتاب الزواج الضخم . وغادرت الفراش ونظرت فى الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة ، فهالنى تأخيرى ، وذكرت فى التو أمى ، وتساءلت عما تظن بهذا الاستيقاظ المتأخر ، وشعرت بحياء أليم ، زاد من ألمه أنه لم يحدث ما يستدعى التأخير قط ، وأحسست بضيق نغص على سعادتى ، وكأننى أدرك لأول مرة أن الليلة الماضية لم تخل من فشل وإخفاق . على أننى قاومت هذا الإحساس الخائن ، ورغبت عن الانفراد به فغادرت الحجرة . وقابلتنى فى الصالة الجارية صباح — التى انضمت إلى

أسرتنا — فهنأتني « بالصباحية « وأخبرتني بأن العروس تنتظرني في حجرة السفــرة فمضيت إليها ، ووجــدتها جالسة كالــوردة اليانعــة فانشرح صدري بمنظرها وأقبلت نحوها متهللا وقبلت خدها . وتناولنا إفطارنا معا المكون من اللبن والشاي والبيض والجاتـوه . وتبادلنـا على المائـدة حديثـا عاديـا ، فسألتها متـى استيقـظت ، وأجابتنـي بأنها استيقـظت في الثامنـة ، وبأنها تستيقظ في العادة مبكرة مهما تأخر بها وقت المنام . ثم جاءت أمي فهنأتنا معا ، وجالستنا بعض الوقت . وانتقلنا إلى حجرتنا ، وقضينا النهار في حديث عذب لا يمل . وذهبت عني الـوحشة فآنست بها وقصصت عليها قصة حبـي من البدايـة إلى النهايـة ، وكنـا نفصل حديثنـا بالقبـل السعيـدة المتبادلة . وسألتها متـى أحست بوجـودي في دنياهـا ، فقـالت أنها فطـنت لحوماني حولها وتطلعي إلى الشرفة منذ عام أو أكثر قليلا ، وأن أمها لاحظت ذلك في نفس الوقت تقريبا ، ثم صرت بعد ذلك حديث البيت فكانت الخادمة الصغيرة إذا لمحتني من النافذة آتيا من طريق المنيل قالت لهم ضاحكة « عريس ست رباب » ، وكانوا يزجرونها بشدة ، ولما طال بي المطال دون أن اتقدم خطوة ظنوا بي الظنون ، ونهتها أمها عن الظهور بالنافذة أو الشرفة في الأوقات التي أكون فيها بالمحطة . وسألتها بلهفة :

— ألم تشعري نحوي بعاطفة ما ؟.

فابتسمت ابتسامة رقيقة ، فتحت فاها لتتكلم ، ولكنها أطبقت شفـتيها دون أن تنبس . وكان بي نهم شديد لسماع ما يبل جوانحي فألححت عليها أن تتكلم ، فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

— لا أدري .. لا أدري متى أحببتك .

وشعرت بتخدير عميق وددت لو أنام به دهرا . وجعلت وجههـا بين راحتي متمليا شفتيها اللـتين برزتـا تحت ضغـط يدي ، ثم وضعت عليهمـا شفتي ، وذبت في قبلة طويلة ، وجدت حبيبتـي فتنـة ، حديثهـا عذب ،

وبديهتها حاضرة ، وذكاؤها باهر حتى بدا حديثى على ضوء حديثها فاترا باهتا . وبدت لى لطيفة خفيفة الروح فلم يكن وقارها إلا تأدبا واحتشاما . ولا أدرى لماذا كنت أتخيلها مثالا لضبط النفس ، بل وللبرود أيضا ، ولكننى لمست فى قبلاتها حرارة تذيب القلب ، وفى نظرة عينيها عاطفة عميقة وإحساسا مرهفا . وانطلقت على سجيتها بأسرع مما توقعت ، وربما شجعها على ذلك ما رأت من شدة حيائى .

ولما جاء الليل وأغلقت الباب وراءنا قلت لنفسى وبى رهبة زحفت على مع الظلام « الليلة يتم الأمر بإذن الله » . لم تكن لى تجارب على الإطلاق ، ولم أعرف من الحياة الجنسية إلا العادة الجهنمية التى لم أكد أنجو منها ، ولكنى عرفت أمورا بالسماع عفوا — فى الوزارة — لا أدرى إن كانت تغنى عنى شيئا . ورأيت حبيبتى واقفة حيال المرآة تمشط شعرها فراقنى منظر قامتها الرشيقة الفارعة ، وتدانيت منها ، ولففت ذراعى حولها ، فاستدارت حتى شعرت بمس صدرها على قلبى . وضممتها إلى صدرى فى حنان وهيام . إنه الحب ، ولكننى أدركت بغريزتى أنه ينبغى أن أستنزله من السماء كثيرا كى أقوم بواجبى !.. ولكن كيف ؟!. إنها تسكن إلى صدرى كأنها طيف من نسج السحاب الطاهر . وإنى أبدو كروح خالصة لا يحيط بها جسد فكيف أجد جسدى !؟. وسرعان ما انسربت إلى نفسى مشاعر قلق وخوف وتوتر أذكتها جميعا تجربة الأمس الفاشلة . ولم تكن تراءت لى كتجربة فاشلة إلا فى هذا الصباح ، وكذبت رأيى أو كدت فى أثناء النهار ، ولكننى عدت إليه فى تلك اللحظة بتسليم ويقين ويأس ، ثم استحوذ على الحياء القاتل فأثلج دمى وأوهن عزمتى . وركبنى خوف شديد من الفراش الذى لا أجد لنفسى عذرا عليه بينا أجد شبه عذر بعيدا عنه .

ومرت هذه الخواطر برأسى وحبيبتى ما تزال بين يدى . فانقلبت تمثالا جامدا من شر الفكر ، وضاعت سعادة السعادة هباء . وتنهدت ، ولعلها

ضاقت بالوقفة ، فوخزتني تنهدتها ولم أعد أطيق جمودى . ورفعتها بين يدى ، وسرت بحملى المحبوب إلى الفراش ، وأنمتها فى رفق ثم اضطجعت إلى جانبها . ودفعنى الشوق إلى تقبيل شفتيها وخديها وعنقها بسرعة وغزارة ، فداخلتها رقة وأحاطت عنقى بذراعيها البضة والتصقنا طويلا وتناهى بها العطف والحنان ، واصطرعت بقلبى أحاسيس الحب واليأس واللذة والخوف فكأنى فى متاهة حمى يذهب بى هذيانها ويجيء بين أخيلة السرور وأشباح المخاوف . إنى فى حلم سعيد ولكن الخوف لا يزايلنى واليأس لا يثير فى وجهى غبارا ، وكيف لى بالنجاة وجسمى ميت لا حياة فيه ؟!. وأحرق جفاف الخوف حلقى ، ووقفت حيال عجزى ويأسى حائرا أتساءل ، ولكنى لم أفكر لحظة واحدة فى التقهقر ، وأين المفر ؟.. بل دفعنى اليأس إلى أن أنزع الروب عنها ، فجرت يدى إلى عقدة زناره وحللتها ، وشعرت بصدرها يرتجف تحت صدرى ، فأزحت جانبه عن صدرها فبدا جسمها الرشيق فى قميص من الحرير الأبيض لا يكاد يستر شيئا ، وبادرت ترجع طرف الروب تستتر فأزحته مرة أخرى فانحسر عن القميص الشفاف ، ورنوت إلى هيئة الجسم الفاتنة بعينين لم يترك لهما الاضطراب إلا قليلا من الإبصار . كان حالى مما يرثى له . ولم يكن عذاب محتضر يجاهد يائسا للاستمساك بحياة جسده بأسوأ من عذابى . ورغم هذا كله ثابرت على عنادى ، واستمددت من يأسى وعذابى قوة وإن لم تكن تجدى : إن الخجول لا يفر إبان المعركة لأن الفرار مخجل حيال الغريم . أجل إنه يتحامى المعركة ، ويفر منها بعيدا عن الأعين ، فإذا ولج ميدانها وغدا محطا للأنظار بات الفرار — كالعراك سواء بسواء — فوق احتماله . لذلك أجلست حبيبتى ونزعت الروب من ذراعيها وتركتها قميصا شفافا وجسدا باديا . وأدارت عنى رأسها ، وأخفته فى الوسادة . ولم تكن تعلم بأن نفسى تحترق يأسا ، وبأن هذا المشهد ما هو إلا مهزلة ، فتضاعف ألمى وخجلى . ومع ذلك مددت يدى مرة أخرى كأننى

ما زلت أطمع فى أمل لا أدريه . مددتها وهى ترتجف من اليأس والبرودة فند عن حبيبتى صوت يهمس :

— إنى خائفة ..

وأخجلتاه !.. مم تخاف ؟!.. لقد ألهبتنى همستها كسوط حملت أطرافه بالرصاص ، ومع ذلك لم أتوقف .. لم تثننى لا المقاومة ولا الصدود .. حتى بلغ النظر غايته !. ماذا دهانى ؟.. ليس الموتِ فحسب ما بى . إنه شىء جديد مفزع مزعج ، ماذا دهانى ؟!. رباه حبيبتى جميلة لطيفة ولكنه الجهل والخيال الأعمى ! كنت غرا أعمى لم تر عيناى نور الحياة ، فتخيلت عنه خيالات صبيانية فلما رأت النور الحقيقى أنكرته !. إنها مأساة . ولعله لولا موتى لما كانت مأساة على الإطلاق . وقد علمتنى تلك التجربة القاسية أن الحب يخلق الجمال كما يخلق الجمال الحب .. ومهما يكن من أمر فقد ركبنى الفزع فوق ما بى من يأس وخجل ولم يعد ثمة أمل . ولبثت جامدا وحبيبتى دافنة وجهها فى الوسادة ، مستسلمة تحت رحمة جلادها .. لبثت جامدا لا أدرى ماذا أفعل ولا كيف أتراجع ووجدت فى لحظة رهيبة قوة عصبية متوترة تدفعنى إلى الضحك لولا أن تماسكت وشعرت فى اللحظة الثانية برغبة فى البكاء ، ولولا أن البكاء مخجل لروحت بالدمع عن نفسى الملتاعة .. ثم استثقلت الجمود كما خفته فضممتها إلى صدرى وقبلتها ومشاعر العطف والحزن — علينا معا — تسيل من شفتى ، كان رثاء بالقبل . ومر الوقت كأن دقائقه وثوانيه أسنان منشار يحز عنقى ، ومرت دقائق وربما ساعات . ثم إنقلب الحال مملا مضنيا ، وفى حركة لطيفة تخلصت من ذراعى .. وتغطت بثيابها وبدا لى النوم نهاية مضحكة ولكن ما حيلتى ؟! رقدت حبيبتى دون أن تلتقى عينانا فلم أدر متى رنق الكرى بجفنيها . ولبثت مسهدا متعبا لا أدرى بأى وجه ألقاها فى الصباح . أى شيطان أغرانى بالزواج ؟.. ألم يكن عذاب الحسرة القديم خيرا من هذا العذاب ؟.. كيف خاننى جسمى ؟. أليس هو الجسم الذى يلتهم نارا فى العادة الجهنمية !! وإلام يدوم هذا اليأس !..

ظل رأسى كقطعة محماة من الحديد يتطاير عنها شرر الأفكار .

٤٢

حبيبتى عطف ورحمة . وقد طالعتنى فى الصباح بالابتسامة المشرقة . ووثبت هنا وهناك ببشر وسرور ومرح ، فلم يداخلنى شك فى أنها عروس سعيدة . ولو بدا لى أنها تتظاهر بالبهجة لتخفف عنى الحرج لما وسعتنى الدنيا شقاء ، ولكنها كانت تصدر فى مرحها عن وحى فطرة بسيطة سليمة لا تعرف التصنع ولا التمثيل . وشعرت بصدق وحق بأن فتاتى تحبنى ، وبأنها قلب كبير ملىء بالحنان والعطف والأنس ، فعاودنى الأمل . وقلت لنفسى إننا ما زلنا فى البداية وإن مسرات لا حصر لها تنتظرنا إذا عبرنا الخطوة الأولى الشاقة ، وقضينا النهار معا ، بعضه فى الحديث وبعضه الآخر فى مشاهدة الرسوم والألعاب التى مهرت فى إبداعها لأطفال الروضة . وحين المساء زارتنا أسرتها ، وجلسنا جميعا فى حجرة الاستقبال ومعنا أمى أيضا . وتحدثنا طويلا ، والتهمنا بلذة الشيكولاطة والملبس : وحاولوا أن يجروا أمى إلى الحديث ، ولكنها — مثلى — لم تكن محدثة ماهرة ، فبدت متحفظة ، وخيل إلى أن محضرها لم يترك أثرا حسنا فى نفوسهم ، وأن رباب شاركتهم نفس الشعور ، وما لبثت أن سرت العدوى إلى ، وكنت أجد نحوها إحساسين متناقضين : إحساسا بالرغبة فى وجودها معى وهو ما ألفته وطبعت عليه ، وآخر بالخجل الأليم لوجودها فى بيت الزوجية . والحق أنى ما كنت أذكرها حتى يتندى جبينى خجلا . ولما انفض السامر وأقبل الليل استقبلته بكآبة وخوف ، وما كاد باب حجرتنا يغلق وراءنا حتى نضب معين السرور والبشر من قلبى ، وغاض منه الأمل الذى ابتعثه مرح النهار ، وبدا لى أن فتاتى تعانى بعض ما أعانى ، وأنها تدارى قلقا لم تنفع لباقتها فى

مداراته . تولت عنى الثقة فى أقل من ثانية ، وتخايلت لعينى ذكريات الليلة الماضية ، وتمنيت لو كان فى الإمكان أن ننام دون أن نجرب محاولة جديدة ، وأيقنت بالإخفاق قبل البدء . على أننى لم أجد بدا مما ليس منه بد . وأعدت التجربة بحذافيرها من قبل وعناق وإخفاق !. أجل إخفاق وإخفاق وإخفاق . مسكينة حبيبتى ، لقد استسلمت بادئ الأمر فيما يشبه الخوف . ثم انتهت بأن لمت نفسها فى حياء وارتباك . انتهينا فى ساعة متأخرة كما انتهينا أمس ، فنامت هى ، وبقيت مسهدا متفكرا . ماذا بى !.. إنى أحبها بكل قوة نفسى ، بل إنى أعبدها عبادة ولئن يخلو بيتى منها بعد اليوم لأهلكن لا محالة ، أتكمن المأساة فيما دهانى به النظر من انزعاج لم أتوقعه !. ولكن هذا محض افتراء لأن موقى سابق للنظر فليس فيما رأيت دخل فيه ، بل إنى آلف الحقيقة التى غابت عنى سريعا وتكاد تنهزم خيالات الوهم الصبيانية حيال الواقع الحقيقى ، ولم يتغير منى شيء .. وقد أثر فى حياؤها وإرتباكها — وهى ترتدى ثيابها — تأثيرا عميقا فأقسمت لا أقربن ثيابها حتى يغير الله ما بى !

ومضت بنا الأيام فى حب طاهر ، فامتزج روحانا ، حتى صارا روحا واحدا فى جسمين غير متصلين . ولولا حبها العميق ، ومرحها الطليق ، وبساطة قلبها الكبير . لمت غما وكمدا ..

وإنها لأيام عجيبة ، وإنه شهر عسل غريب ! وكانت حبيبتى مثالا للشعور الحى والرقة البالغة والحب الصادق . وكثيرا ما كنت أسترق إليها نظرات متفحصة مسترية فلم أجد منها إلا الصفاء والوداعة والرضا ، فكاد يقع فى روعى إنه لا يعوزنا شيء . وأستطيع أن أقول إننى لم أنعم بالراحة إلا فى تلك اللحظات . وفيما عدا ذلك كانت حياتى جحيما مستعرا لا يدرى به أحد ، لم تعد سعادتى إلا أويقات طارئة كأنها إفاقات من يعانى سكرات الموت . وشعرت بشدة حاجتى إلى المشير . ولكن حيائى وقف فى طريقى سدا

ميعا كالجبل الراسخ فاستحالت على المشورة حتى مجرد تخيلها كان يشب فى ..را ويبعث فى نفسى إحساسا قاهرا للفرار والاختفاء . وفضلا عن هذا وذاك لم يكن لى صديق ، وكانت أمى — وهى صديقى الوحيد فى دنياى — أبعد من أن أذكرها فى هذا الأمر خاصة ، فكابدت عذابى وحيدا صامتا يائسا . وكان نهارا محتملا ، بل بهيجا بفضل حبيبتى التى تذيب روحها راكد الهم ، حتى إذا جاء الليل غشيتنا كآبة لم تنفع حيلة فى تبديدها : كان كلانا يشعر بالحرج والضيق والخوف . ولم تواتنى الشجاعة على معاودة التجربة بعد إخفاق الليلتين المتعاقبتين ، فكنت أقنع بأن نضطجع جنبا إلى جنب ، وأضمها إلى صدرى ، منتظرا الرحمة فى خوف وقلق وهلع ، حتى ينتشلنى النوم من عذابى ، ولذلك لم يزل الحياء حجابا بينى وبينها ، ولو أتيح لنا الامتزاج لرفع الحجاب رويدا رويدا ، فلم أستطع أن أشكو إليها بثى وهمى ، وطالما نازعتنى نفسى إلى الترويح عنها بالكلام ، فما أكاد أفتح شفتى حتى أطبقهما فى ارتباك وخجل . وفى إحدى هذه المرات قالت لى بصوت مهموس :

— هل ترغب أن تقول شيئا ؟..

ووجدت وراء تساؤلها دعوة إلى الكلام ، فخفق قلبى بعنف وقلت فى اضطراب أخفيته بجهد شديد :

— أرغب دائما أن أقول إنى أحبك .!

هذا حق فى ذاته ، ولكنى كنت أرغب بلا ريب أن أقول شيئا آخر ، وأحسست بأنها تقرأ صفحة أفكارى الخفية ، فجثم الكذب على صدرى كالكابوس ، وغمغمت بعد أن جاهدت حيائى جهادا مريرا :

— إن ما مضى من حياتنا المشتركة لا يقاس إلى ما ينتظرنا من عمر طويل .

وخيل إلى أن وجهها تضرج بالاحمرار وإن كنت أراه على ضوء المصباح الساهر الخافت ، وداعبت شعرى بأناملها ، ثم قبلتنى قبلة عذبة على شفتى ، وسألتنى فى أذنى :

ـــ أيضايقك شيء ؟.

فالتهب جسمي خجلا وألما . وقلت بإخلاص :

ـــ معاذ الله ..

وصمت على رغمي مليا ، وقلبي يخفق بشدة وعنف ، ثم قلت وبودى لو أتوارى عن ناظريها :

ـــ إنها مسألة وقت ..

هكذا تعاقبت الأيام ، ومرة أخرى أقول إنه لولا حبها العميق ومرحها الطليق وبساطة قلبها الكبير لمت غما وكمدا .

* * *

وذات مساء ـــ وكان مضى على زواجنا ثلاثة أسابيع ـــ لاحظت أنها تخالسنى نظرات تنم عن الحيرة ، وأن لديها ما تقوله ، فقلت لها مدفوعا برغبة قوية فى استدراجها إلى الكلام :

ـــ فى عينيك كلام ..

فقالت مبتسمة فى ارتباك :

ـــ أجل ..

فمضيت إليها وكانت جالسة على المقعد الطويل وجلست لصقها ، وقلت مستسلما للشعور الطارئ نفسه :

ـــ هاتى ما عندك ..

ـــ أمى ..

وانفجر الاسم فى أذنى كالقنبلة ، إنه لفظ واحد ولكنه يتضمن كتابا ، وإنى على رغم غبائى أفهم ما يعنيه . ولعل الأم تواجهها بهذا السؤال الطبيعى المعروف فتسمع ردا على سؤالها جوابا واحدا لا يتغير « كلا بعد .. » ! ولما طال السكوت قالت حبيبتي برقة :

ـــ إنها لا تفتأ تسألنى : ولا أدرى ماذا أنفد صبرها ..

وقتلنى الخجل ، وتميزت غيظا ، ثم قلت بهدوء :

ـــ هذه شؤوننا الخاصة . أليس كذلك ؟

فقالت كمن تعتذر :

ـــ طبعا .. إن هى إلا تريد أن تطمئن علينا . هذا كل ما هنالك ..

فسألتها محزونا مغتما :

ـــ وماذا قلت لها ؟

فقالت باهتمام وعجلة :

ـــ لم أقل « شيئا » مطلقا .. فقط صارحتها بأن لا داعى للعجلة .

ـــ وماذا قالت ؟!

فتفكرت مليا كأنما لتزن كلماتها ، ثم قالت :

ـــ قالت لى إن للموقف رهبته ، وخاصة بالنسبة لشاب طاهر خجول ، وإنه إذا دعا الحال فلدينا صباح الجارية ..

فاتسعت عيناى دهشة وقلت بذهول :

ـــ صباح !

فأومأت برأسها بالإيجاب فى ارتباك ، فتساءلت بدهشة :

ـــ وماذا تستطيع صباح ؟

وترددت لحظة ، ثم أنشأت تشرح لى ما غمض على أول وهلة ، وأنصت إليها باهتمام حتى أدركت كل شىء ، وأخذت أفيق من ذهولى رويدا رويدا . ولست أخفى أنى شعرت بارتياح إلى اقتراح الأم ، فهو يزيل عقبة من سبيلى ، ويخلينى من بعض المسئولية ، ويعفينى من مراقبة الأم ، ولا أظنها تسأل بعد ذلك عن شىء .. وسألت زوجى بحياء :

ـــ وكيف نخبر صباح ؟

فقالت ببساطة :

ـــ لقد حضرت صباح جانبا من حديث أمى ..

فهتفت بحياء وانزعاج :

ـــ كيف ؟.. كيف بالله !

فقالت مبتسمة :

ـــ لا عليك من هذا ، إنها أمي أيضا ولا نخفى عنها شيئا :

وتبادلنا نظرا طويلا صامتا .. ثم سألت فى إشفاق :

ـــ وهل علم أحد من الآخرين ؟.

قالت بلهجة لا تدع مجالا للشك :

ـــ مطلقا ..

فداخلنى ارتياح ، ولكن شعرت بحاجة إلى مزيد من الاطمئنان ، فقلت بلهجة ذات معنى :

ـــ أرجو ألا تخرج « أسرارنا » من هذا الباب !

فحدجتنى بنظرة عتاب وتساءلت :

ـــ أيداخلك فى هذا الشك ؟!

٤٣

ولكن ليس هذا كل شيء فى الزواج . وكيف يكون كل شيء وهو « واجب » قامت به صباح ؟!. وتساءلت فى سذاجة مضحكة عما ينقص حياتى الزوجية ، وهل هو ضرورى لهذه الحياة ،!. ومن عجب أننى ترددت عن الجزم ! وتساءلت ألسنا سعداء ،!. نحن نعيش فى هناء وغبطة ، ويحب كلانا صاحبه حبا لا حد له ولا يداخل أحدا شك فى سعادتنا ، فلماذا تزعجنى الأوهام ؟! ولكن الإنسان موكل دائما بالتفكير فيما ينقصه ، حتى لينسى ما بين يديه بما هو بعيد عن يديه ، فلم تزايلنى الوساوس ، ولم استنم لحياتى . وفى ليلة من الليالى ، وكنت مضطجعا على ظهرى أراود النوم وقد رنق الكرى بجفنى

حبيبتي ، طاف بي الفكر مسارح بعيدة حتى نسيت ما حولى أو كدت ، فساورنى شعور بالوحدة ، قواه فى نفسى ما يحيط بى من ظلمة ، ورويدا وجدت حياة تدب فى جسدى ، كتلك الحياة التى كان يستثيرها الظلام والوحدة .

وسرعان ما استخفنى الفرح فكدت أصيح من فرط سرورى . ثم أقبلت على حبيبتى النائمة أوقظها بالقبل حتى فتحت عينيها فى انزعاج استحال دهشة ، ومرت ثوان قبل أن تستفيق من دهشتها ، ثم مدت ذراعيها إلى عنقى فضممتها إلى صدرى بلهفة وشوق ، ولكنى ما كدت أفعل حتى عاد كل شيء إلى أصله ، وزحف الموت البارد على جسدى حتى شمله فى أقل من ثانية ، وانقلبت إلى حيرة خرساء وخجل مخز !. وتبادلنا نظرة غريبة على ضوء المصباح الخافت ، وبدا فى وجهها أنها لا تفهم شيئا فسألتنى :

— أكنت تحلم ؟.

ما أصدقها من كلمه وإن قيلت اعتباطا ، ولشد ما زلزلتنى تلك الحادثة زلزلة عنيفة قضت قضاء مبرما على ما كان يتراءى لى أحيانا من أمل واه ، وعرضت لى خلوات أخرى فى ظلام الليل وحبيبتى غارقة فى نومها ، وعاودنى دبيب الحياة الغريب ، ولكن لم تواتنى الشجاعة مرة أخرى على إيقاظها ، ووجدتنى أتردى من جديد فى الهاوية التى انتشلنى الزواج منها قرابة شهر ، وعدت وأنا لا أدرى إلى أسر العادة الجهنمية التى لم يعرفها زوج قبلى . الا ما أشد حيرتى وقهرى !. كيف يقع لى هذا وقلبى يعبدها عباده !.. بل كيف ونظرة إلى وجهها أنفس عندى من الدنيا وأنعمها !. إنها حياتى وسعادتى ودنياى جميعا .

* * *

وجدتها يوما وكأنها تعانى رغبة الإفصاح عن شيء يعتلج بنفسها ، فخفق قلبي قلقا وخوفا ، ولكن لم يسعنى أن أتجاهل ما رأيت مفضلا أن ألقى الخطر وجها لوجه على أن أضيف جديدا إلى ما أكتمه فى نفسى من القلق والوساوس ، فسألتها :

— ماذا وراءك يا عزيزتى ؟

فلاح فى وجهها التردد والضيق ولاذت بالصمت ، فتضاعف قلقى وقلت بفؤاد منقبض :

— هاتى ما عندك لا تخفى عنى شيئا ..

فنفخت قائلة :

— أمى ..

ووقع قولها من نفسى موقع الفزع والهلع ، ما بال هذه المرأة لا تريح ولا تستريح ؟!. ولشد ما أبغضتها فى تلك اللحظة ، على أننى تساءلت متظاهرا بقلة المبالاة :

— ما لها يا رباب ؟

فقالت بصوت منخفض وهى تنظر فيما بين قدميها :

— لا تفتأ تسألنى هل جد جديد فى الطريق !

ومن عجب أنى فهمت المراد من هذا المجاز ! فهمته بغريزتى ، أو بالخوف الكامن فى نفسى وبلا أدنى تردد ، ولكننى تساءلت متجاهلا :

— ماذا تعنين يا رباب ؟

فأومأت إلى بطنها وهمست قائلة :

— تعنى هل جد جديد هنا ؟!

وتولانى فزع شديد ، فأطرقت مرتبكا محزونا ، عم تسأل المرأة ؟. لعلها تريد أن تعرف شئونا أخرى ضمنا ، وحنقت عليها حنقا فظيعا ، واختلست من رباب نظرة فوجدتها ساهمة الطرف . صامتة .. أحقا يضايقها تساؤل أمها أم هى تبلغنيه وفى نفسها غرض ؟. أباتت بدورها تشارك أمها قلقها وجزعها ؟.. ولماذا تتوارى خلف أمها ؟ ان المكر لا يجمل بمن كانت فى مثل جمالها وطهارتها ! وما كان أغناها عن اللف والدوران . هكذا حملنى الفزع على عدم تقدير موقف فتاتى المظلومة . واشتد بى الحرج حتى أرهقنى وأعيانى ، ثم تركز اهتمامى فى شىء

واحد ، وهو أن أسبر مدى ما تعرف نازلى هانم من أسرارنا ، فسألتها قائلا :

ـــ وماذا قلت لها ؟.

فقالت ببساطة :

ـــ قلت لها الحقيقة !.

فتشنج قلبى تشنجة حادة وصحت بفزع :

ـــ الحقيقة !.

فحدجتنى بدهشة وتساءلت :

ـــ مالك ؟!

ـــ فهتفت فى انزعاج :

ـــ أحقا قلت لها الحقيقة ؟!.

فقالت بعجلة ولهوجة :

ـــ أجل قلت لها إنه لم يجد شيء بعد !.

وتنفست الصعداء !. إنها تعنى حقيقة غير التى تشغل بالى . على أنه بقى فى النفس شيء . فقلت بحرارة :

ـــ « رباب » أهذا كل ما قالت ؟. لا تخفى عنى شيئا وأنت قلبى وحياتى .

فقالت بارتباك وقد قرأت البراءة فى عينيها :

ـــ عم تتساءل يا كامل ؟، إننى لم أقل لها كلمة واحدة زيادة عما قلت لك . لقد سألتنى عن هذا الأمر فلم يسعنى إلا أن أجيب بالحق والصدق ، وهو أمر كما تعلم لا ينفع فيه الكذب ، فهل ترانى أخطأت ؟ أم كنت تريدنى على أن أتظاهر بالحبل ؟..

فقلت فى ارتياح نسبى :

ـــ كلا يا عزيزتى .. لقد أحسنت بصراحتك ..

لن أذوق طعم الأمان ما دامت هذه المرأة على مقربة منا .. رباه ، إنى أحتضن همى وحدى لا صديق ولا مشير . ولقد ضقت ذرعا بأمها وبأمى وبنفسى !.

وعاودنى السؤال القديم : هل ما ينقصنا ضرورى للحياة الزوجية ؟. هل تجد حبيبتى مثل هذا الإحساس الحيوانى الذى دفعنى إلى اعتناق العادة الآثمة ؟!. أيمكن أن تعترى حبيبتى الطاهرة المحتشمة هذه الشهوة الوحشية ؟. إن هذا لأبغض مما أتصور !.

* * *

وانتهت إجازتى فعدت إلى إدارة المخازن بالوزارة ، واستقبلنى الموظفون استقبالا حافلا ، لم يكن لى بينهم صديق ، ولكن المناسبة ــ عودة عروس من شهر العسل ــ أنستهم تحفظهم فأقبلوا على بين مهنئ ومداعب وتلقيتهم فى صمت وارتباك وخجل ، وتكلموا كثيرا . وتطوع أحدهم بتحذيرى من الإفراط ، واستفاض الحديث حتى ألهاهم عنى ، وخاضوا فى طبيعة الرجل وطبيعة المرأة ، واستشهدوا بالأمثال والحوادث والحكايات ، أنصت إليهم خفية وأنا أتظاهر بفحص الآلة الكاتبة ، بقلب مكلوم ونفس معذبة ، وكم تمنيت أن يستشهد أحدهم بحالة « كحالتى » ، ولكن حالتى لم تقع لأحدهم فى حسبان ، وامتلأت نفسى بما سمعت حتى دارت بى الأرض ، إن رباب امرأة فهل يصدق عليها ما يصدق على النساء إن صح ما يقوله هؤلاء الموظفون ؟ أيمكن أن تضيق بحياتها أو تمل عشرتى ؟.! ولكنها سعيدة ؟. ما رأيت وجهها إلا متألقا بنور السعادة ، وما رنت عيناها إلى إلا بالحب والإخلاص ، إن وجهها لا يعرف الرياء ، وإنه لصفحة نقية ومرتاد طاهر لا يكتم كذبا ولا يدارى إثما . كذب هؤلاء الموظفون ! إنهم حيوانات فلا يرون الناس إلا حيوانات مثلهم . بيد أننى غير مطمئن ، ولن أذوق الطمأنينة مهما أقنعت نفسى بها ، لقد نبت دمل الشك .

ولما خلوت إلى حبيبتى ذلك اليوم جعلت أنظر إليها طويلا متفكرا دون أن أنبس ، حتى ضحكت وقالت لى :

ــ هل عاودك الحنين إلى النظر الصامت القديم .

وهفت على فؤادى نسمة لطيفة من قديم الذكريات حين فؤادى مضطرم

وأملى مشرق وهذه البلوى لا تدور لى فى خلد . وتمليت الذكرى مليا ، ثم سألتها فى إشفاق :

— رباب .. أأنت سعيدة ؟.

فنظرت إلى باستغراب وقالت بصوت ينم عن الصدق :

— سعيدة جدا ..

فتساءلت وعيناى تطرقان من فرط الحياء :

— أتحبيننى ؟.

وكانت على بعد شبر منى فتزحزحت حتى التصقت بى ورفعت إلى وجها موردا وغمغمت :

— أجل أحبك ..

فأحطت خاصرتها بذراعى وقبلت شفتيها وخدها ، وتناولت يدها الصغيرة الجميلة وجعلت أقبل أناملها أنملة أنملة فى حنان وهيام ، وكنت فى الواقع أمهد بما قلت لما أرغب فى الإفصاح عنه مما ضقت بكتمانه ، ولما هممت بالكلام خانتنى شجاعتى وانعقد لسانى . أردت أن أبثها همى ، وأن أعترف لها بأن ما يعترينى حيالها طارئ غريب لا أدرى كنهه ، وأننى لم أكن كذلك بل أننى لست كذلك إذا خلوت إلى نفسى ، وأن أسألها المشورة والمعونة ، هذا ما كنت أريد البوح به ، ولكن خانتنى العزيمة فنكصت مغلوبا على أمرى . ثم سلمت بالهزيمة كعادتى ، وجعلت أسوغها لنفسى قائلا : إن البوح بهذه الأسرار حرى بأن يسيء إليها ويغضبها ، وربما قضى على سعادتها قضاء مبرما .

وعندما آوينا إلى الفراش حدثتنى نفسى بأن أعاود التجربة ، ولكننى ترددت ، وترددت طويلا حتى تملكنى الخوف فولى قلبى فرارا ، لقد بت أخاف جسمها بقدر ما أحبها ، وتأملت حياتى فى صمت الليل وظلمته ، فبدت لى غريبة متنافرة ، وضاق صدرى فلم أجد من متنفس له غير البكاء فبكيت طويلا ..

وخطر لى أن أستشير طبيبا ، وجاء الخاطر فجأة ، بل لعله كان محض مصادفة ، ولم أكن فكرت فى استشارة طبيب لخجلى الشديد من ناحية ، ولاعتقادى بأن حالتى لا شأن لها بالطبيب من ناحية أخرى ، ولكن بصرى قد وقع يوما وأنا فى طريقى إلى الوزارة على لافتة كبيرة مثبتة على شرفة بشارع قصر العينى قد كتب عليها بالخط الكبير : « الدكتور أمين رضا ، أخصائى فى الأمراض التناسلية من جامعة دبلن » ولم أكن رأيتها من قبل ، فحدثتنى نفسى فجأة باللجوء إلى الطبيب . ومع ذلك لم أستسلم للفكرة بغير تردد . ثار خجلى وخوفى ، وكادا يثنيانى عما خطر لى ولكن تلهفى على النجاة كان أقوى من خجلى هذه المرة ، فصممت على الذهاب ذات مساء ، وذهبت ..

كان الطبيب مشغولا بفحص مريض . فجلست فى حجرة الانتظار ، وكانت الحجرة خالية فداخلنى ارتياح عميق ، وإن شعرت بالاستهانة بالطبيب . ولم يطل بى الانتظار ، فدعيت بعد دقائق إلى حجرة الكشف ووجدتها آية فى فخامتها وأناقتها ، كاملة العدد ، وبها من أدوات الرهبة ما رد إلى الهارب من ثقتى . وإلى يمين الداخل مباشرة جلس الطبيب إلى مكتب كبير مزدحم بالكتب والكراسات . كان شابا فى الثلاثين على أكثر تقدير ، نحيف القوام ، طويل القامة ، مجعد الشعر ، ذا بشرة سمراء وقسمات دقيقة واضحة ، وعينين حادتين تلتمعان وراء نظارة أنيقة . وكان مما يلفت النظر إليه شارب كثيف فاحم غطى فمه وأكسبه وقارا ليس من سنه ، حييته فرد تحيتى باقتضاب ، وحدجنى بنظرة مستفهمة قرأت فيها الترفع والكبرياء ، وثقة بالنفس تبلغ حد الغرور ، فلم أرتح إليه . وكان منظره عامة مخيبا لأملى ، لأنى توقعت أن أرى شيخا مهيبا بساما كطبيب ذهبت بى أمى إليه مرة منذ أعوام

طوال ، فاستأت ووددت لو لم أكن قدت نفسى إلى هذا الشرك . وقال لى بهدوء :

ـــ تفضل بالجلوس ..

فأذعنت وأنا أرمقه بقلق . وجعل ينظر إلى منتظرا أن أبدأ بالكلام . ولكن فكرى تشتت وجف حلقى ولبثت ملازما الصمت حتى قال متسائلا :

ـــ أفندم ؟.

فاستجمعت قواى ، ولكنى لم أزد على أن قلت :

ـــ جئت للكشف ..

فسألنى بدهشة :

ـــ ماذا تشكو على وجه التحديد ؟.

وعانيت عذابا شديدا قبل أن أقول :

ـــ إنى رجل متزوج ..

ثم سكت ، أو بالأحرى انعقد لسانى ، ولكنى استثقلت السكوت ، على حين استحثتنى عينا الطبيب الحادتان فاعترفت بكل شيء !. تكلمت بادئ الأمر باضطراب وتعثر ، ثم تشجعت بما لاح فى وجهه من أمارات الجد والرزانة فتدفقت بلا توقف ، وشعرت كأنما ألقيت عن عاتقى حملا ثقيلا ، وكأنما بات هو المسئول من الآن فصاعدا عن الشفاء الذى نغص على صفوى . وسألنى الطبيب :

ـــ متى تزوجت ؟.

فقلت :

ـــ منذ قرابة شهر ونصف .

ـــ متى وجدت هذه الحال ؟.

قلت بامتعاض :

ـــ من أول ليلة .

— هل انتابتك قبل الزواج ؟

— لم يكن لى تجارب مطلقا ..

وسألنى عن الأخرى فترددت لحظة ثم أجبت بالصدق . وسألنى عن بعض التفصيلات فأجبته صراحة ، ولم أخف عنه إفراطى المخيف . وعاد يسألنى :

— ألم تمارس عادتك بعد الزواج ؟.

وأعجبت به لسؤاله الذى بدا لى فراسة ثاقبة فقلت :

— بلى ..

فقال متفكرا :

— كأن طبيعتك لا تتغير إلا حيال زوجك .

فقلت بحيرة وأسى :

— أجل ..

فسكت مليا ثم قال :

— سأطرح عليك أسئلة صريحة وأرجو أن تجيبنى بالصدق . هل تحب زوجك ؟

— جدا ..

— أبها شذوذ من أى نوع كان ، أو برودة فى الطبيعة ؟

— أبدا ..

— هل نشأتما نشأة واحدة منذ الصغر ؟

— إنها ليست من ذوات قرباى ..

وألقى على بعد ذلك أسئلة استفظعتها ، ولكن لم يكن بى شىء منها ، فأجبته بصدق وصراحة . ونهض قائما ، ثم أجرى على فحصه فى أناة وعناية ، فاحتملته بقلب واجف ونفس يصطرع بها الأمل واليأس . وعدنا إلى جلستنا السابقة ، فراح يقيد فى كراسة ما يعن له ثم اعتدل فى جلسته وقال لى :

— جسمك سليم . أجل إنك أسأت إلى نفسك بعادتك المرذولة فتركت

بك أثرا يحتاج لغسيل خاص ، ولكن لا علاقة لحالتك الأخرى بهذا فيما أعتقد ، فليس عجزك بناشيء عن سبب فيزيقي ، ولعلك تعانى أزمة نفسية ، أليس فى بلادكم عيادات نفسية ؟.

فلم أفقه معنى للشطر الأخير من كلامه ، وعجبت لقوله « بلادكم » كأنه أجنبي عن هذه البلاد . وقلت له بدهشة :

ــ أنت أعلم منى بما تسأل عنه يا دكتور !.

فقال مبتسما :

ــ الحق أنى حديث عهد بالوطن ، ولم أفتح عيادتى هذه إلا منذ أيام ..

فأدركت لماذا وجدت عيادته مقفرة ، ولماذا لم أر لافتته من قبل . بيد أننى بت أدرك كذلك أن هذه المرمطة التى ابتليت بها قد انتهت إلى لا شيء ، فعاودنى القنوط والكمد . واستطرد هو قائلا :

ــ ليس بك من نقص مطلقا ، وإنك تستطيع أن تقوم بالواجبات الزوجية ، وستقوم بها يوما ما فلا تدع لليأس سبيلا إلى نفسك . كثيرا ما يحدث هذا لبعض الشبان ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية بعد فترات متفاوتة ، فانتظر يومك بثقة لا شك فيها . وأنصحك أن تمر على للغسيل حتى تزول حالة الاحتقان الخفيفة .

أصغيت إليه باهتمام وبكل جوارحى ، وتنازعنى اليأس والأمل بعنف وقسوة . متى يأتى هذا اليوم ! وهل يأتى حقا ! انتهى الطبيب من عمله وقوله ، ولكننى لم أبد حراكا وظللت متشبثا بمكانى ، وثبتت عيناى عليه فى استغاثة وضراعة . ثم سألت :

ــ ماذا عنيت بالعيادة النفسية ؟.

ــ أوه .. إنها عيادات من نوع حديث ولا أحسبها توجد فى بلادنا . ولكن لا تلق بالا لما قلت ، ولا أظنك فى حاجة إليها .

ــ قلت إننى ربما كنت أعانى أزمة نفسية . فما معنى هذا ؟!

— قلت لك لا تلق بالا لما قلت . قد غاليت فى تقديرى ، ولست على أية حال طبيبا نفسيا فلا أخوض بك أمورا عسى أن تضر أكثر مما تنفع . إن علاجك بيدك فلا تيأس ولا تفقد ثقتك بنفسك واقهر الخوف والقلق ، وانتظر الشفاء بثقة لا شك فيها ..

وسألته سؤالا أخيرا :

— أرأيك هذا حاسم لا شك فيه ؟

فأجابنى بثقة :

— أجل ...

وغادرت العيادة خيرا مما دخلتها . عدت وبى أمل ورجاء . وقلت لنفسى : إن الطبيب لا يكذب ولا يخطئ فاستخفنى السرور ، وقطعت الطريق إلى البيت مشيا على الأقدام . ومررت فى طريقى بالعمارة التى تقطنها أسرة زوجى ، عمارة الذكريات ، فحلق بى الخيال بعيدا ، وعلى حين فجأة فتر حماسى واستحوذ على القلق ، ولم ألبث أن انقلبت إلى التجهم ، بيد أننى رحت أردد على مسمعى ما أكده لى الطبيب متلمسا الثقة بأى سبيل .

٤٥

وبالرغم من قلقى الدائم كنت أعلل النفس بالشفاء . وواصلنا حياتنا البريئة يحدونى هذا الأمل . وكنت أسترق إليها النظر إذا اشتد بى القلق وأسأل نفسى ترى أهى سعيدة حقا كما تبدو لى ؟. أما تزال تحبنى ؟ أما هى فكانت تبدو سعيدة راضية ، محبة مخلصة ، ولم تعد إلى ذكر أمها ، فلم أدر إن كانت المرأة انقطعت عن تساؤلها أم كانت حبيبتى تخفى عنى ما يدور بينهما من حديث . لشد ما أحبها يا ربى ، إن امتزاجنا فى حياة واحدة لم يذهب عنى سحرها ، بل أسكنها أعمق مكان فى قلبى . وإنى لأهيم بها وهى لصقى على المقعد أو الفراش كما كنت أهيم بها

وهى تلوح فى الشرفة أو وراء زجاج النافذة . وإنه لمن التعاسة حقا أن ينغص على سوء الحظ تلك الأيام الحافلة بأشهى فرص السعادة والهناء .

وكأن سوء الحظ لم يقنع بما رمانى به فى نفسى ، فرمانى بأمى أيضا ..

وأمى على تأدبها لم تكن لتفلح أبدا فى مداراة عواطفها ، فإن لم يخنها لسانها خانتها عيناها ، وإن لم تخنها عيناها نمت عليها ما التزمت من حال غريبة سلبية . انطوت على نفسها ، وجعلت من حجرتها سجنا لا تكاد تغادره ، وكأنما فرغت للعبادة والصلاة ، ولم تخف على رباب هذه الجفوة الطويلة ، وكانت على دماثتها ورقتها تنقلب حيال أمى كأية امرأة من النساء انفعالا وغضبا ، فكانت لا تفتأ تقول لى : « لشد ما تكرهنى أمك » . ولم تقبل أمى أن تغير من سلوكها ، معتلة بأنها لم تعد صالحة للمجاملة والاختلاط . وكنت إذا ذهبت للجلوس معها تلقتنى برقة وابتسام ، وحدثتنى بخضوع واستسلام ، فسرعان ما أشعر بغرابة الجو ، وبأن حجابا ثقيلا يقوم بين نفسينا ، وبأنى حيال شخص آخر غير الأم التى عرفتها طوال تلك الأعوام . وما أكاد أفاتحها بأن زوجى تضيق بتحفظها حتى تقول لى بحدة : « إن زوجك تكرهنى ، هذا كل ما هنالك » . كنت أتجلد وأتصبر والألم يمض نفسى والكآبة تغشى روحى ..

وذهبت مرة إلى أختى راضية لقضاء يومين ، وكأن المكان أعجبها فمكثت اليوم الثالث وأوشكت أن يلحق بها اليوم الرابع . كانت أول أيام نفترقها فى حياتنا المشتركة ، فثقل على قلبى فراقها ، ووجدت وحشة لا تطاق فى خلو البيت منها ، وذهبت إلى شقيقتى لأعود بها فلم تخيب رجائى وعدنا معا .

وقلت لها فى الطريق متوددا :

— لم أحتمل البيت بغير وجودك ..

فافتر ثغرها عن ابتسامة صافية ، وكانت تتأثر بالكلمة الطيبة تأثر الأطفال ولكنها قالت لى :

— يخيل إلى أن وجودى فى بيتك لا معنى له ، وإنه يضايقكم .

فأحنقني قولها ، وقلت باستياء :

ــ سامحك الله على ما ترميننا من تهمة باطلة . لقد تغيرت يا نينة بلا موجب فتغيرت الحقائق فى نظرك ، ولا يسعنى إلا أن أقول مرة أخرى سامحك الله .

فنظرت نحوى بغرابة وقالت بهدوء ويقين :

ــ إن زوجك تكرهنى ، وبالتالى فهى لا تود بقائى فى البيت ، وقد ظننت أن ما توده زوجك ينبغى أن توده أنت .

وشعرت بأنها لا تترفق بى متعمدة فكاد ينفجر غضبى لولا رغبتى الصادقة فى المسالمة والمصالحة فكظمت نفسى وقلت واجما :

ــ إن زوجى لا تكرهك ، وهى على العكس من هذا تظن أنها موضع كرهك لما تبدين نحوها من تحفظ وجفاء ومقاطعة . حرام عليك أن تقولى قولا ينغص على حياتى ..

فبدا على وجهها الارتباك ولم تنبس بكلمة . رباه . لشد ما تغيرت !.. ألا يمكن أن تمنحنى ابتسامتها المشرقة بدلا من هذه الابتسامة الباهتة ؟.. ألا تعود إلى فتح صدرها لى فى ثقة وطمأنينة ؟. ترى هل ينبغى أن أكاشفها بآلامى لتعلم بأننى لم أتزوج فى الواقع وأننى أشقى إنسان فى الوجود فتصفح عنى وتعود إلى سابق عهدها ؟..

ورجعت من الوزارة يوما فوجدت زوجى باكية ، فهالنى الأمر ، وأقبلت نحوها فى جزع وألم وانزعاج . وكانت صباح حاضرة فأخبرتنى أنها ــ صباح ــ كانت تباشر عملها فى المطبخ حين دخلت عليها أمى وجرحتها بانتقاد مر ، فتدخلت زوجى لتصلح الأمر فما كان من أمى إلا أن رمتها بكلام قارص غادرت المكان على أثره باكية ..

وذهبت من فورى إلى حجرة أمى ثائر الأعصاب ، فما روعنى إلا أن أجدها محمرة العينين من البكاء . ولمحت عبوس وجهى فهتفت فى توجع :

ــ هل أرسلتك لتؤدبنى !.

فرفعت رأسي إلى السماء وقلت من الأعماق : « يا رب السماء خذني وأرحني من الدنيا ومن عليها » .

ولكنها صاحت بي :

ــ بل يأخذني أنا ، أني عجوز لا خير فيها . أما كان يجمل بزوجك أن تؤجل شكواها حتى تخلع ثيابك وتأكل لقمتك ؟.. ولكن هيهات أن تذعن لغير عنادها وتجبرها ..

فقلت في استياء وغيظ :

ــ أنها تبكي بكاء مرا ..

فصاحت بي وكأنها فقدت أعصابها :

ــ لقد سبتني وشتمتني حتى شبعت ، وها هي تستقبلك بدموعها الكاذبة لتوغر صدرك وقد أفلحت ..

ما أضيع الحق بين النساء ! لقد أعياني الكلام والنضال ولم أنته إلى شيء . وأعجزني أن أصلح بينهما فنكد عيشنا طويلا وساد البيت جو خصام . وكففت يدي يائسا تاركا للأيام أن توفق بأناتها فيما أخفقت فيه .

* * *

وبدأت أشعر في حياتي الزوجية بفراغ ! ولم يداخلني شك في أن زوجتي تشاركني هذا الشعور . ولم يعد الليل وحده الذي يثقل أعصابنا ، فما كان انفرادنا الطويل نهارا مما يمكن أن نطيقه على وتيرة واحدة إلى الأبد . لذلك اقترحت عليها أن نقتل الوقت بأسباب التسلية حتى يحين موعد افتتاح الدراسة وتجد ما يشغلها . وتقبلت اقتراحي بسرور ودعتني لزيارة آلها الكثيرين ، فتنقلنا من بيت لبيت وزارونا بدورهم ، ثم اقترحت على أن نذهب إلى السينما يومين في الأسبوع فقبلت ، ولا أدري ان كنت أروح التسلية حقا أم أهرب من حياتي الضائعة !. ووجدت في السينما راحة وإن كنت بطبعي أوثر الوحدة والعزلة ، ولكني ضقت على عجل بالزيارات التي أفقد فيها نفسي وأقع فريسة للحياء

والارتباك والعى والحصر ، وما لبثت أن تخلفت عنها تاركا زوجى وحدها تقوم بها .

وكان بوسعى أن أحملها على العدول عنها أسوة بى ، ولكننى لم أرد أن أحرمها سببا من أسباب التسلية وتزجية الفراغ ، ولعلنى بت أخاف فى أعماق أن تضيق بالوقت كما أضيق به . كنت أود بكل قلبى أن أهيئ لها جميع أسباب الراحة والسرور ، وما كنت أتردد لحظة عن بذل جميع ما أملك فى سبيل مرضاتها ، لقد صارت رباب كل شىء ، ولم أعد شيئا مذكورا .

ولكن بدا لى أن أمى لا ترتاح لحياتنا هذه . وقد قالت لى يوما :

ـــ لا يجمل بك أن تسمح لزوجك بقضاء كل هذا الوقت خارج البيت ..

وضاق صدرى بملاحظاتها فقلت باقتضاب :

ـــ أنسيت أن زوجى موظفة ؟

فقالت بلهجتها الانتقادية :

ـــ وإن كانت ..

وأشفقت من أن يتأدى بنا الجدل إلى ما لا تحمد عقباه فقلت برجاء :

ـــ انسيها يا أماه تستريحى وتريحى !.

فغلبها الانفعال وقالت :

ـــ لو كنت لسان دفاع لى كما أنت لها لما احتقرتنى وسبتنى ..

ولذت بالصمت لعلها تمسك ، ولكنها استطردت تقول :

ـــ أنها تتيه بلا موجب ، فكيف لو كانت أما !!.

فقاطعتها صائحا كالوحش وقد هوى كلامها على رأسى كالمطرقة :

ـــ اسكتى .. لا تنبسى بكلمة أخرى .

وحدجتنى بارتياع دون أن تنبس ، ثم أطرقت . ولكننى لم أرث لها ولم أرحمها إذ أفقدنى الغضب والألم وعيى .

وحدث عقب ذلك بأيام أن شعرت بتعب ألزمها الفراش ، وقال لنا الطبيب الذى استدعيناه أنه القلب ، ونصحها باتباع إرشاداته دواما لتتفادى من النوبات فى المستقبل .

وطال رقادها بالرغم من أن الطبيب أكد لنا عدم خطورة الحال ، ولكن بدا لى أنها تعين المرض على نفسها ، وأن روحها توشك أن تنهار . ووقع فى نفسى أنى المسئول عن مرضها فعانيت مرارة التأنيب والندم فى حزن وصمت ، وكأنما أردت أن أكفر عن ذنبى فسهرت بنفسى على رعايتها وتعاهدتها بالخدمة والدواء ، ولم تأل رباب فى القيام بواجبها . لقد آلمتنى حقا ولكن عن حسن نية ، أما أنا فقد آلمتها عامدا تحت تأثير غضب مخيف . ومرت بى أيام قاسية مظلمة ، كنت أرنو إلى وجهها الذابل الشاحب بفؤاد كسير ، وراحتها بين يدى ، ولسانى يلهج بالدعاء . وكانت متعبة خابية ، ولكن قرأت فى عينيها نظرة راضية سعيدة ، كأنما نسيت بعطفى وحبى جميع آلامها .

٤٦

وهل الخريف بجوه اللطيف وسحابه الرقيق ، واستقبلت المدارس عاما جديدا ، وكنت وزوجى نخرج معا فى الصباح ، ونستقل تراما واحدا . وكانت الذكريات تنثال على قلبى فى وجد وحزن ، حتى قلت مرة :

— فى مثل هذه الأيام كنت أهرع إلى المحطة أكاد أموت شوقا إلى اجتلاء محياك ..

فابتسمت رقيقة وقالت :

— وكنت أنتظر بمثل هذا الشوق ..

لله محبوبتى !.. ما وجدت مثلها محبة راضية مسرورة .

كانت حبيبتى سعيدة مخلصة غير ما تكلف أو رياء . أكانت تجد آلاما ثم

تتغلب عليها بما طبعت عليه من مودة وطهر ؟. ومن أدرانى بما كان يعتلج فى أعماق صدرها ؟ وما كان يدور فى خاطرها عنى وعن حياتها ؟ ولكنها كانت سعيدة صادقة محبة وهل من داع يدعوها إلى ذاك التظاهر المتواصل بالسعادة إذا كانت تعيسة أو كارهة ؟! بيد أنه لم يداخلنى شك كذلك فى نضج أنوثتها وعمق عواطفها . كانت أبعد ما تكون عن النزق والطيش ، ولكنها كانت عامرة القلب بالحيوية والحرارة والعطف . لعلها كانت تحيا حياة يحدوها الأمل نفسه الذى أتطلع إليه صابرا متصبرا . على أن الحق الذى لا مرية فيه أننى كنت مشغولا بهمومى على حال لم تدع لى إلا قليلا للانشغال بهموم غيرى . ربما رجع ذلك قبل كل شيء إلى أنانيتى الفطرية ، وكان لجهلى كذلك نصيبه . ولعلى كنت أحسب أننى الضحية الأولى — إن لم تكن الوحيدة — فى تلك المأساة .

وفى أوائل ذلك الخريف دعانا جبر بك ونازلى هانم إلى وليمة غداء أقامها للأهل والأقارب لمناسبة شفاء محمد — شقيق زوجى — من مرض ألم به .

وذهبت زوجى على حين تخلفت أمى معتذرة بالنظام الجديد الذى تتبعه فى غذائها منذ أشار عليها الطبيب بذلك . مضيت مرتبكا كالعادة ، لأن وليمة غداء أشد على نفسى من المرض ، ولأنها — هى وأمثالها من المجتمعات — تعيد إلى ذهنى ذكرى منصة الخطابة بكلية الحقوق . وقد تعمدت أن نذهب مبكرين لنسبق المدعوين جميعا فلا أتعرض لنظرات أعينهم حين دخولى حجرة الاستقبال . ونجحت خطتى فوجدنا البيت قاصرا على أهله . هم أهلى أيضا ، وإنى لأحبهم جميعا وإن بت أخاف نازلى هانم خوفا شديدا يثير فى نفسى أشد الألم . وأخذ المدعوون يتوافدون . فجاء أعمام رباب الثلاثة وأخوالها الأربعة مصحوبين بزوجاتهم وأبنائهم وحضرت كذلك خالتاها ، واحدة مصطحبة زوجها ، والأخرى — وهى أرملة — برفقة كبرى بناتها . ومضت نازلى هانم لتستقبل قادما جديدا فسمعتها تقول له : « لماذا تأخرت يا سى أمين » فرد القادم عليها معتذرا بصوت خيل إلى أنى سمعته قبل ذلك ، فتطلعت إلى الباب باهتمام .. ودخل المدعو

الجديد فعرفته من أول نظرة . رأيت أمامي ذلك الدكتور الذى زرته منذ شهرين وبحت له بسر شقائى كله ، ثبتت عيناى عليه فى إرتياع بادئ الأمر ، ثم تمالكت نفسى بسرعة وقوة ، وإنى على إخفاء ما يعتلج بصدرى لقادر ، ولكننى لم أجد حيلة مع قلبى الذى راح يدق بعنف تباعا . تملكنى الهلع وخجل قاتل ، وثقل على صدرى ضيق غليظ كأنما هويت إلى أعماق بئر سحيقة . وإذا بنازلى هانم تقدمنى له ، ثم تقدمه لى قائلة :

ـــ هذا قريب لم تسعدنا الظروف بتقديمه إليك ، لأنه عاد من أوروبا حديثا ، ولأنه يندر أن يتفضل علينا بزيارة : الدكتور أمين رضا ابن عمتى .

وتصافحنا كالمألوف . التقت عينانا لحظة قصيرة ، فلم أقرأ فى عينيه إلا نظرة ترحيب باسمة ، لم تش عيناه بأنه تذكرنى ، وظل ملازما سمته المترفع المتحصن ضد الانفعالات . ولما انتهى من مصافحة الجالسين ، جلس إلى جوار جبر بك وراحا يتحدثان ، وتهت أنا فى أفكارى الفزعة الشاردة ، ترى هل تذكرنى !.. لعله نسينى شأن الأطباء الذين يلقون وجوها بعدد الدقائق !.. ولكنه طبيب جديد قليل الرواد !.. ومع ذلك فلم يبد فى عينيه أنه عرفنى على الإطلاق .. أم يكون عرفنى وتجاهلنى رأفة بى !..

ليتنى أجد وسيلة للتحقق من هذه النقطة !. وهبه عرفنى فهل يمكن أن يبوح بسرى لقريبته نازلى هانم .. ما أبعد هذا عن التصور ، ولكن ما أبعدنى عن الطمأنينة كذلك ! وجدتنى غريقا فى بحر لجى من الوساوس والمخاوف فهل كنت فى حاجة إلى مزيد !..

ودعينا إلى الطعام فخرجت من أفكارى وإن علقت بى آثارها ، كالخارج من نار . وجلسنا حول المائدة ، وعند ذلك التفتت نازلى هانم وقالت مبتسمة :

ـــ أنت خجول يا سى كامل ولكن حذار فالولائم لا ترحم الخجولين .

وعلق بعضهم على قولها فسخطت عليها واشتد بى الضيق ، على أنهم لم يلبثوا

أن شغلوا عنى بما بين أيديهم من لذيذ المآكل . ولم أكد أشعر بالارتباك الذى يركبنى فى أمثال هذه المجتمعات لشرود ذهنى فيما هو أجل وأخطر ، فلا يفل الارتباك إلا الارتباك !. ثم عدنا إلى حجرة الاستقبال ودارت علينا القهوة . وتناولت الفنجان ، وقربته إلى فمى ، وعلى حين بغتة طار خيالى إلى الحانة القديمة بشارع الألفى وتراءى لعينى قدح الخمر !.. كيف جاءتنى هذه الذكرى ، ما الباعث عليها ؟.. لقد وجدت دهشة صادقة ، ولكننى شعرت كذلك بارتياح عجيب ، كسرور الحبيب بالحبيب ، الخمر .. النشوة .. السرور .. ألا ما أشد حاجتى إلى مهرب . كان خاطرا مفاجئا غريبا ولكنه كان قويا لا يقاوم .. وعدت بانتباهى إلى ما حولى فى حذر وخوف . واتجهت عيناى إلى الطبيب فوجدته منهمكا فى الحديث ، يلقى أقواله بثقة وفصاحة وترفع ، وكثيرا من الحاضرين يتوثبون للنقاش فى اهتمام وسرور . وجر الحديث إلى الحياة فى بلاد الإنجليز فقال الدكتور : إن دراسته شغلت جل وقته فلم يتمتع بحياته هناك كسائح إلا فيما ندر ، على أنه استطاع رغم ذلك أن يخبر عن كثب متانة الأسس التى ينهض عليها بنيان الحياة السياسية ، وما يتمتع به الشعب من مستوى عال للمعيشة ، وحرية شاملة تتناول كل شىء ، قال له جبر بك :

— كأنك واظبت فى إنجلترا على الاهتمام بما كنت تهتم به فى مصر قبل بعثتك .

وقال أحد المدعوين ضاحكا :

— أجل يا جبر بك ، ذكره بعهد كلية الطب والثورة الوطنية .

وقال آخر :

— من كان يظن أنه سينتهى بك المطاف إلى بلاد العدو وأنك ستعود منها حاملا له هذا الإعجاب كله ؟.

فقال الدكتور مبتسما :

— العداوة لا تناقض الإعجاب ..

فعاد جبر بك يسأله :

ـــ ألم تزل كما كنت ، وفديا متطرفا ؟.. لقد سجنت يوما بسبب الوفد !.

فقال الشاب وقد مط بوزه برما :

ـــ أرى الآن المصريين جميعا يعيشون فى سجن كبير ، والحق يا سيدى أن الأخبار الوحيدة التى كانت تسوؤنا ونحن فى إنجلترا هى أخبار مصر ..

وقالت نازلى هانم مبتسمة :

ـــ إنك مغرم بتحميل نفسك الهموم على اختلافها كأنك المسئول عن الدنيا ومن عليها . ركز اهتمامك فى عيادتك وحياتك ومسألة زواجك على وجه الخصوص ، ألا ترى أنك فى الثلاثين وهى سن فاصلة ؟!.

وهنا قالت إحدى خالتى رباب :

ـــ اطمئنى يا أختى فلعلك أن تسمعى أخبارا سارة قبل استدارة هذا العام .

ودار الحديث حول كريمة أحد كبار الأطباء .. وقالت لى رباب همسا ـــ وكانت تجلس إلى جانبى ـــ إن هذه الفتاة التى يتحدثون عنها حسناء مفرطة فى الحسن والوريثة المنتظرة لثروة طائلة ، وإنها زاملتها عهدا فى الدراسة . والظاهر أن أحد أخوال رباب كان ممن تجذبهم أحاديث السياسة ، فما كاد حديث الزواج ينتهى حتى قال مخاطبا الدكتور :

ـــ لا داعى للتشاؤم فكل شىء مصيره إلى الصلاح وإن طال الزمن . وها نحن على أبواب انتخابات جديدة ، ولعل الرياح أن تهب هونا ورخاء .

فاشتدت عينا الدكتور وقال بحدة :

ـــ من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة ، ذلك أن الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئا ذا بال فى حدود الأوضاع القائمة ، فالخير أن تستبد الحكومة الفاسدة حتى تعجل بالنهاية .. النهاية المحتومة !.

فضحك جبر بك وقال :

ـــ ما زلت ساخطا متبرما . ألا تجد فى مصر ما يستحق إعجابك وتقديرك ؟.

فأدار الدكتور عينيه البراقتين فى الحاضرين وقال مبتسما :

— بلى .. أم كلثوم ..

وضجوا جميعا بالضحك . وجعلت أصغى إليه باهتمام واستغراب ، ولكنى لم أكد أفقه معنى لما يقول . وعجبت لمن يشغلون أنفسهم بهذه الأمور وأمثالها ، أليس فى حياتهم هموم تشغلهم عنها ؟ وتمثل لى فى حديثه رجل علم ورأى وثورة ، بادى الغرور والعجرفة . وكم كانت دهشتى كبيرة حين ذكر أم كلثوم كالشىء الوحيد الذى يستحق إعجابه فى البلد ، وتساءلت فى حيرة : أيعشق الغناء حقا من كان ذا جد وصرامة وحدة كهذا الدكتور المجنون ؟!. ولما كنت أحب الغناء فقد ارتحت لهذه المشاركة الوجدانية ، بعد أن أعيانى أن أجد صلة شبه بينى وبينه ! وكان الدكتور أول المنصرفين ، فقام الحاضرون جميعا لمصافحته ، وصافحته بدورى وأنا أتفحص عينيه بخوف واهتمام فلم أجد فيما وراء نظراتهما المترفعة ما يريبنى . ثم غادرنا نحن البيت فى نحو الخامسة . عدنا مشيا على الأقدام ولم تكف حبيبتى عن التعليق على المأدبة والمدعوين طوال الطريق ولكنى لم أستطع أن ألقى إليها انتباهى ، واستسلمت لتيار أفكارى الزاخر المضطرب ، كيف ألقى الحظ العاثر فى طريقى بهذا الدكتور المجنون ؟ وكيف قادنى القدر إلى الاعتراف له بسرى الذى أخاف عليه آذان الحيطان !.

٤٧

أوصلت رباب إلى باب العمارة ثم عدت أدراجى إلى المحطة معتذرا ببعض أعمال خيالية !. استقللت الترام إلى العتبة ، ثم مضيت إلى شارع الألفى بك . كان قلبى يخفق فى خوف ورهبة كما خفق أول مرة حملتنى قدماى إلى هذا الشارع ، وتراءى لعينى خيال الكأس مفترة الثغر عن إغراء عنيف . كنت نسيتها فلم تخطر لى على بال منذ بلغ قلبى مناه حتى رأيتها اليوم فى فنجان القهوة

فحرك أعماق الفؤاد أمى + زوجى + الدكتور أمين رضا = الخمر ، هذه هى المعادلة التى استقرت فى نفسى . على أننى ترددت حين أصبحت من حانتى القديمة على قيد خطوة ، وتساءلت فى حزن وقلق ألا يعد أقدامى هذا خيانة لزوجى ؟. ولكننى أنكرت على نفسى هذا المنطق الغريب وشققت طريقى إلى الداخل . وتراءى لى فجأة خيال أبى ، وانثالت على ذهنى صور من ذكرياته ، فاستعرضتها فى هدوء ، وفى غير ما شماته أو كراهية ، ثم جلست إلى المائدة وأنا أغمغم ، « رحمه الله وغفر له » .

وجاء النادل مسرعا فحيانى وهو يقول لى :

— أين كنت من زمان ؟ فأجبته مبتسما وقد سررت لتحيته :

— الدنيا ..

ثم أريته خاتم الزواج فقال :

— مبارك .. مبارك .. وهل أنجبت طفلا ؟

وشعرت بامتعاض وألم ، وهززت رأسى سلبا ، ثم طلبت كأسا من الكونياك وشربت فى اعتدال ، حتى شعرت بدبيب النشوة فى القلب والرأس ، وارتسمت على فمى ابتسامة سخرت من جميع آلامى فقلت لنفسى : « أهلا وسهلا ومرحبا » ، وحرصت على ألا أجاوز الحد ، ثم غادرت الحانة زهاء السابعة ، ولم أكد أنتهى إلى شارع عماد الدين حتى تذكرت حانة سوق الخضر !. وكان رأسى بحالة تستهين بالعقبات فتساءلت فى شبه تأنيب : أأنسى فى رغدى الحانة التى آوتنى فى فقرى ؟ وأوقفت تاكسى وركبته وانطلق بى إلى حانة الموظفين المفلسين والحوذية . ووجدتها فى حالة غناء وعربدة كما توقعت . وكان الموظف العجوز يغنى « يا ما بكره نعرف » فيردد الجميع « وبعده نشوف » ، ولما لمحنى قادما توقف عن الغناء وصاح :

— هس يا أولاد الحلال .

وعرفنى الرفاق القدماء فتصافحنا فى حرارة ، وما كدت أطمئن إلى مقعدى

حتى سألنى العجوز متغنيا :

ـــ كنت فين يا حلو غايب ؟

فقهقهت ضاحكا وقلت :

ـــ الدنيا ..

فقال أحد الصحاب :

ـــ فلنلعن الدنيا التى ترغم الحبيب على نسيان أحبابه .. فلعنتها معهم عن طيب خاطر . وحدث أن رأى أحدهم خاتم الزواج فى أصبعي فهتف :

ـــ دخلت دنيا يا بط ..

وكان لإعلان الخبر أثر شامل فسألنى الموظف الفنان :

ـــ كيف وجدت هذه الدنيا ؟..

وأفزعنى تحول الحديث إلى هذا الموضوع الخطير ، ولكننى لم أجد بدا من أن أقول :

ـــ حلوة !.. ألست متزوجا يا سيدى ؟.

فضحك الرجل حتى بانت أسنانه المثرمة وقال :

ـــ المرأة إذا جاوزت الشباب لم تعد امرأة ..

فقال آخر مؤمنا على قوله :

ـــ صدقت . المرأة أقصر المخلوقات عمرا وإن هرمت .

وقال غيره :

ـــ إن زوجى تدبر لى شجارا نظير كل سهرة فى الحانة ، وقد قلت لها : إنى على أهبة الاستعداد لأن أهجر الحانة تحت شرط واحد وهو أن تهجر هى الدنيا !

وبدوا جميعا ساخطين على حياتهم فداخلنى عزاء لم أجده من قبل ، وعجبت لهذه الأسباب الغريبة التى تؤاخى بين السكيرين . ثم لاحظت تغيب « فران » شريب اشتهر بيننا بإدمانه وصمته . فسألت عنه ؟ فأجابنى العجوز الفنان :

ـــ لم تعد الخمر لتؤثر فيه ، فهو يمضى مساء كل يوم إلى البدال ويشرب

كحولا صرفا ..

وواصلوا ما انقطع من الغناء ، ورحت أشرب كالأيام الماضية . ما أعجب قدرتى على الشرب !. إنى ضعيف رعديد حيال كل أمر ، ولا ثقة لى فى عقلى ولا فى قلبى . أما معدتى فقادرة على ابتلاع حانة !. وغادرت الحانة فى العاشرة مودعا بأطيب التحيات ، وتنقلت من طريق لطريق لا تسعنى الأرض من فرط النشوة والسلطنة ، ثم هفا على طيف حبيبتى فتخيلتها بعين السكران : وقد طال بها انتظارى فاستسلمت للرقاد ، فانتشت نشوتى : وخفق فؤادى خفقان الوله ، وهتفت بنفسى الأشواق ، وبحثت عيناى الزائغتان عن تاكسى ثم مضيت إليه لا ألوى على شيء وطلبت إلى السائق أن يسرع بأقصى ما لديه من سرعة ، فطار بى يطوى الأرض طيا ، وغادرته عند العمارة ، وارتقيت السلم فى عجلة ، ثم دخلت الشقة وسرت إلى حجرتى بلا تردد ، وأدرت مفتاح الكهرباء فوقع بصرى على حبيبتى وقد استغرقت فى نوم هادئ . وقد تحرك رأسها لدى سطوع النور وغمغمت « من ؟ » ثم واصلت نومها دون أن تستيقظ وخلعت ملابسى فى عجلة واضطراب ويداى ترتعشان ، وأنفاسى تتردد فى دهشة وسرور وجزع ، وهرعت إلى الفراش ، واندسست تحت الغطاء ، ضممتها إلى صدرى ووضعت شفتى على شفتيها حتى فتحت عينيها ، وأمطرتها قبلا بنهم ورغبة وسرور حتى أفاقت وبادلتنى القبل ، وبدا ما بيننا كأنه حلم سعيد يضن به المنام ، حلم لا يصدق بيد أنه كان حلما قصيرا لم يستغرق ثانيتين من الدقيقة . وأفقت من سحره فى طمأنينة وسلام . ولى من السعادة نشوة أضعاف ما بى من الخمر ، واضطجعت فى حبور ، وأغمضت جفنى مستسلما لأمتع الخواطر والأحلام . على أن أحلامى لم تنسج وشيها هذه المرة من مادة الخيال ، ولكنها استمدته من الواقع ، من صميم حياتى ، وألذ العيش ما كان حلمه السعيد صدى للواقع الراهن !. لقد تلقيت السعادة بامتنان العابد ، وأيقنت أن همومى قد انجلت إلى الأبد ، وفى صباح اليوم التالى جعلت أرنو إلى حبيبتى بثقة وسرور ،

وشعرت حقا بأنى زوج ، وبأنى رجل .. ولم تزايلنى أحاسيس السعادة والفخار طوال اليوم ، وعندما أتى المساء ذهبت إلى شارع الألفى بك ، ثم عدت إلى حبيبتى طائرا على جناحى نشوتى ، وعللت من الكأس المترعة ، بالسرور نفسه والسرعة نفسها ، ثم اضطجعت ضجعة المطمئن ، ما كان لمثلى أن ينسى ما تجرع من غصص العذاب ، ولكن السعادة الحقة تستثير عطفنا حتى على ذكريات العذاب .

٤٨

وتقضت أسابيع — لعلها لم تجاوز الشهرين — فى سعادة وطمأنينة . وإنى إذ أعود إلى ذكرى تلك الأيام يمضنى شعور بالألم والأسى ، لا حسرة على سعادة ذهبت ، ولكن أسفا على أكبر خدعة ابتليت بها فى حياتى . لم يكن هنالك ما يستوجب سعادة على الإطلاق . وإذا كنت قد تمتعت بالسعادة زمنا رغدا ، فما ذلك إلا لأنى كنت غرا جاهلا أعمى . وما من بأس أن يتمتع الأعمى بسعادة وهمية على شرط أن يواصل عماه ، أما إذا رد إليه البصر ورأى سعادته سرابا فهل يجنى من ذكريات سعادته إلا حسرة مضاعفة وهما مقيما ؟!. وهذه هى حالى بلا زيادة ولا نقصان ، وما فطنت إليها إلا فى بطء شديد يوافق جهلى وبلادتى .

لاحظت أن « رباب » تمضى النهار كله وشطرا من الليل خارج البيت ، بين مدرستها وبيوت أهلها وأقاربها ، وقد رافقتها بادئ الأمر رغم طبعى النفور ، ثم شق على الأمر فنكصت على عقبى ، ولم أعد أصحبها إلا فيما ندر من الزيارات . وعادت أمى تعلن عن ملاحظاتها فى مرارة وأسى وأنا أدافع عن زوجى بلا فتور وإن تجاوب لانتقادها فى نفسى صدق عميق ، وكنت فيما مضى أشجع زوجى على هذه الزيارات لتتسلى بها عما أشعر به من نقص حياتنا المشتركة ، أما الآن فلم يعد من موجب فى نظرى للإفراط فيها . ولممت أطراف شجاعتى يوما وقلت لها :

— كأنك تقاطعين بيتنا يا عزيزتى ، فهلا أقللت من هذه الزيارات المتواصلة ؟

وحدجتنى بنظرة مريبة وسألتنى بحدة لم أعهدها من قبل :

— أما زالت تشغل نفسها بانتقادى ؟.

وفهمت أنها تعنى أمى ، وساءنى أن تضمر لها هذا النفور ، فأجبتها متلطفا :

— إن أمى لا تتدخل فيما لا يعنيها . وهذا رجائى أنا دون غيرى ، والحق أنى لا أطيق بيتنا إذا كنت خارجه ..

فقالت وقد استردت هدوءها : هلم نخرج معا . لماذا تضيق بالناس ؟..

فقلت برقة : هكذا أنا ..

ولا أدرى ماذا غيرها إثر كلمتى تلك فقالت بحدة :

— إن الحياة لا تحتمل على غير هذا الوجه .

آه يا حبيبتى ، لم تكن رقتك لتسمح بمثل هذا الضيق ، فما الذى حدث ؟. وليس هذا كل ما فى الأمر ، فإن قلبى أحيانا يرى ما لا تراه عيناى . ينبغى أن أشق ستار العمى وأن ألقى الحقيقة على مرارتها وجها لوجه . يخيل إلى أن « رباب » لم تسعد بشفائى كما سعدت به !. أعجب بها من حقيقة تحيرنى ، ولكن إلام أكذب نفسى !. إنها تبدو كأنها تخاف الليل وتتحاماه ، ولا نكاد نخلو إلى نفسينا حتى يعتورها قلق تفصحه عيناها الصافيتان ، ثم تفتأ — فى هذه الأيام الأخيرة خاصة — تعتذر بشتى الأعذار ، فمن تعب إلى توعك إلى رغبة ملحة فى النوم . وإذا أذعنت لى فإنما تذعن فى تسليم لا سرور فيه ، ثم تنتتر جسمها من جسمى فى شبه استياء وغضب !. وأقر إلى هذا كله بأنها لم تعد فتاتى الضاحكة المستبشرة الصافية . شاب ضحكها التكلف ، ودب فى سعادتها الفتور ، وانقلب ودها توددا . حاشاى أن أقول إنها أعلنت سخطا أو أساءت أدبا ، حبيبتى فوق هذا كله ، ولكننى أحس قلقها بقلبى ، وأدرك حيرتها بغريزتى . رباه إن الدنيا جميعا لا تساوى خردلة إذا تألمت حبيبتى ؟ فماذا بها ؟.. إنى أفتقد حبيبتى فلا أجدها ،

ولا بد أن أجدها ، أو أموت كمدا ..

وبلغ شقائى غايته إذ ترك نفورها فى نفسى أثرا عميقا ، تغلغل فى حناياها ، فحرك الداء القديم ، وولى الشفاء الساحر ، ولم تنفع فيه الخمر . وتناهى بى الحزن حتى أشفيت على الجنون . أيعاودنى العجز ؟. وهل أرد إلى ذلك اليأس المميت ؟. وقلت لها مرة فى قنوط :

ــ رباب .. ماذا بك ؟.. لست الحبيبة التى عهدتها .

فلاذت بالصمت ، وغضت بصرها حيرة وارتباكا ، فقلت بتضرع متسائلا :

ــ إن قلبى لا يكذبنى فخبرينى ماذا غيرك ؟.

فهمست قائلة وقد لاحت فى عينيها نظرة ساهمة .

ــ لا شىء ..

فهتفت من الأعماق :

ــ بل شىء وأشياء ، إنى زوجك يا رباب وحياتى كلها لك ، فلا تخفى عنى شيئا ، آه يا رباب إنى أبكى أيامنا الماضية .

فتنهدت ولاح فى وجهها الارتباك والألم ، ثم غمغمت فى حذر وإشفاق :

ــ وإنى أبكى أيامنا أيضا ..

فتولانى الذهول والانزعاج وسألتها فى حيرة شديدة :

ــ كيف يا رباب ؟.. إنى لا أفهم شيئا . أما كان ينبغى لحياتنا أن تكون أوفر سعادة !.

نم وجهها على أنها تعانى من ضروب الحيرة مثلما أعانى ، فازددت ذهولا وانزعاجا وانتظرت أن تميط اللثام عما يحيرها فتجلو لى ما يحيرنى بالتالى . وانتظرت فى قلق وإن بات قلبى يحدس أمورا يفرق لها رعبا ويأسا وخزيا . ولما طال بى الانتظار قلت :

ــ لماذا لا تكاشفينى بذات نفسك !.

أنها ترغب فى البوح بما ينوء به صدرها الرقيق ولكنها لا تجد سبيلا إلى الإفصاح أو لا تواتيها الشجاعة عليه ، وإنى أزداد خوفا وقنوطا حتى تناهى بى الجزع فقلت :

ـــ رباب .. إنك لا ترتاحين لما جد فى حياتنا !.

فحدجتنى بنظرة غريبة ، ثم خفضت بصرها وراحت تقضم ظفرها فى حيرة وارتباك . برح الخفاء . بيد أن صمتها أخذ يضايقنى فتساءلت فيما يشبه الضجر :

ـــ أليس الأمر كذلك ؟.

ورنت إلى بنظرة توسل واستعطاف وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـــ لنعد كما كنا ؟.. كانت حياة طيبة !.

وكأن لطمة هوت على وجهى فغضضت عينى حياء وقنوطا . ومع أن رغبتها هذه حقيقة بأن تهيىء لى عذرا أدارى به ما عاودنى من عجز إلا أننى تلقيتها بخزى مميت . ولعلها قرأت ما لاح فى وجهى من أمارات الألم فقالت برقة :

ـــ لست أعنى شيئا يمكن أن يكدرك ، ولكنى أهفو لحياتنا الماضية . كانت حياة طاهرة سعيدة !.

فقلت كأننى أكمل حديثها :

ـــ ولم يكن بها ما ينغص صفوك ؟.

فطرفت عيناها ، وتجلت فيهما نظرة عطف وقالت برقة :

ـــ كنا سعداء أليس كذلك ؟.. ولم يكن ينقصنا شىء على الإطلاق ..

لا أدرى لماذا آلمتنى رقتها . ثم تذكرت بعض ما سمعت فى إدارة المخازن فقلت :

ـــ ولكن لا يمكن أن تتم سعادة المرأة إلا بهذا ..

فتورد وجهها وقالت بسرعة ويقين :

ـــ كلا .. كلا .. أنت مخطىء فى هذا .

ورنوت إليها فى حيرة ! ترى أحقا تصدقنى القول ؟ ولكن ما عسى أن يحملها على الكذب ؟! لم أكن إلا غرا جاهلا ، ولن تجد كالغر الجاهل صيدا سهلا للهجة التأكيد ، فأثر فى قولها تأثيرا عميقا ..

هل أكذب حبيبتى وأصدق سخفاء الموظفين ؟!. ألم يعبر قولها هذا عن رأى قديم اعتنقته قبل أن يحولنى عنه مجون الزملاء بإدارة المخازن ؟.. وفضلا عن هذا وذاك فليس بوسعى وصالها بعد أن باحت ، وبعد أن عاودنى من العجز ما عاودنى ، لذلك كله تظاهرت بالارتياح ، واصطنعت ابتسامة . ثم قلت بتسليم :

ــ ليس لى وراء سعادتك مطلب يا رباب !.

وسرى عنها ، ولاح فى عينيها نظرة ارتياح ، وتدانت منى حتى التصقت بى وقبلتنى !.

عدنا كما كنا . عدت زوجا عذريا ذا عادة ذميمة ، ورحت أقول لنفسى : إنه لا ذنب لى فيما انتهينا إليه . إنى رجل كامل ولولا طبعها هى ما انتابتنى هذه النكسة ! بل إنى أتحمل هذه الحياة الغريبة إكراما لها !. يا له من عزاء كنت فى مسيس الحاجة إليه ! ولكن هل حقا صدقت نفسى ؟!. ومهما يكن من أمر فإن ذكرى عهد السعادة لم تغب عن ذهنى لحظة واحدة ، كيف انقضى ذاك العهد بتلك السرعة التى لم أتوقعها ؟. وكيف آذى حبيبتى حتى خرجت عن صمتها بهذه الشكوى السافرة ؟. أليس معنى هذا أنى شقى ولا حيلة لى فى شقائى ؟ آه .. لشد ما نازعتنى النفس إلى الحرية والفرار ! وعاودتنى ذكريات تشردى فى الطرق بحنان ولهفة ..

هل عاد كل شىء إلى أصله ؟!

وما زال الحب يجمعنا فى عناق وعطف ، وعادت حبيبتى إلى مرحها وحبورها وهى تقضى يومها ما بين مدرستها وبيوت الأهل والأقارب ، وبحسبى أن أراها سعيدة مسرورة . ولعل طبعها اعتراه تغير طفيف يبدو فى سهومها الحين

بعد الحين كما يبدو فى سرعة غضبها لأقل همسة تصدر من أمى .

هل كنت سعيدا ؟.

كانت حبيبتى سعيدة فيما يبدو لى ، فكان طبيعيا أن أعد نفسى سعيدا . حقا لم تنقطع بى الوساوس ولكننى متى عرفت الحياة بلا وساوس ؟.. واطرد تيار الحياة تتقاذفنى أمواجه ، يسعدنى سرور حبيبتى ، ويشقينى حزم أمى ، أقضى وقتا ثقيلا فى الوزارة ، وأنفق ساعات حالمة فى الحانة على فترات متباعدة . وحتى ضميرى الذى عانيت طويلا من شعوره بالخطيئة لم آل أن أغضى على أناته وتأوهاته بضحكات السرور والعربدة ، وكنت كلما ألح على وخزه أقول لنفسى بصوت مرتفع أنى سعيد ، وكل شىء حسن !.

ومضى الشتاء فالربيع ثم الصيف . وعدنا نستقبل الخريف والعام الدراسى الجديد بما تبتدرنا من عزيز الذكريات .

٤٩

وعرض لى أمر بدا تافها ولكنه كادَ يقلب حياتى رأسا على عقب ، ومن عجب أنه تكشف لى عقب مصادفة ، فحق لى أن أتساءل : أكانت حياتى تستهدف وجهة أخرى لو لم تعرض لى تلك المصادفة ؟ ولكل ما هى المصادفة ؟ ألا تبدو الحياة أحيانا سلسلة متصلة من المصادفات ؟ ماذا ألقى برباب فى طريقى غير المصادفة ؟ وهل كان يتاح لى الزواج منها لو تأخر موت أبى شهرا واحدا ؟ بل ماذا كان يحدث لى لو أصر أبى على استردادى كما فعل براضية ومدحت ؟ على هذا المنوال أتساءل : ألم يكن من الممكن أن تطرد حياتى على وتيرة واحدة حتى الموت لو لم يطل اللقاء بينى وبين أمى دقائق معدودات ذلك اليوم الذى لا ينسى ؟!.

كنا فى أواخر الخريف ، وكان الوقت عصرا ، وقد ودعت رباب وغادرت

الحجرة لقضاء سهرتى المسائية . والتقيت بأمى فى الصالة وكانت متوعكة فمضيت معها إلى حجرتها ولبثت معها نتحدث فطال بنا الحديث ، ثم نهضت مستأذنا وغادرت الحجرة . ولاحت منى التفاتة إلى حجرتنا ـــ وكان بابها مفتوحا كما تركته ـــ فرأيت رباب جالسة على حافة الفراش تقرأ خطابا . وأدركت لتوى أن ساعى البريد جاء به حين كنت منفردا بأمى وإلا لعلمت به وقت وصوله ، وظننته مرسلا إلى من أخى لأن رباب لم تكن تتلقى خطابات ، فعدت إلى حجرتى مستطلعا ، وشارفت بابها ورباب مغرقة فى القراءة فلم تنتبه لى حتى قلت لها :

ـــ أهذا الخطاب لى ؟.

ورفعت رأسها نحوى فى دهشة ، وطوت يدها الخطاب بحركة آلية سريعة ، وسألتنى فى اضطراب ظاهر :

ـــ هل نسيت شيئا ؟.

فقلت وقد تولانى قلق لا أدريه :

ـــ كنت فى حجرة أمى ، ورأيتك عند مغادرتى لها تقرئين هذا الخطاب فظننته لى .

فنهضت من مجلسها وتراجعت صوب التواليت ، وكانت بلا ريب تحاول أن تضبط عواطفها ، ولكن عينيها وشتا بما تركه حضورى المفاجئ فى نفسها من وقع عميق لم تتوقعه ، وقالت وقد ندت عنها ضحكة مقتضبة جافة لم تجد فى مداراة اضطرابها :

ـــ ليس خطابا كما تظن إن هى إلا وريقة سجلت بها بعض ملاحظات تتعلق بعملى المدرسى ..

وداخلنى خوف تمشى فى مفاصلى . لعلها لم تجاوز الصدق ولكن عدوى اضطرابها انتقلت إلى نفسى فشعرت بذاك الخوف الغريب ، كأنه نذير شر مجهول يتجمع فى أفقى المكفهر . ما الذى يدعوها إلى الكذب ؟. ولكنى رأيت

فى يدها خطابا بلا ريب !. وقد خفت أن أتمادى فى إظهار الشك أن يكون الحق معها فأقع فى حرج ما أغنانى عنه . على إننى لم أتمالك أن قلت :

ــ ولكنى رأيت خطابا بيدك ..

ووقع قولى من أذنى موقعا سيئا ، فخيل إلى أننى لم أحسن اختياره ، وأنه يفصح عن شك واضح ، ورمقتها فى إشفاق . وانتظرت أن تبسط لى الوريقة فى حركة عصبية وأن ترمينى بطرف ساخر مؤنب ، ولكنها كانت تعانى أحاسيس أخرى . وكأنما قهرتها عاطفة مجهولة فقالت وهى تولينى ظهرها :

ــ قلت لك إنها وريقة خاصة بملاحظات مدرسية .

ثم رأيتها تمزقها بحركة مباغتة ، وتحولت صوب النافذة ورمت بها ! كانت حركة مباغتة أبعد من أن أتوقعها فتسمرت فى مكانى كأنما حل بى شلل . واستقبلتنى بوجهها متظاهرة بعدم المبالاة فتملكنى حنق وغضب ويأس ، وشعرت بأن جدارا هائلا قد انقض على حياتى فدفنها تحت ركامة ، إن عينى تتفتحان ــ بعد أوهام العمى ــ على حقائق بشعة . وهل غير الحقائق البشعة ما يستثير هذا الاضطراب وذلك الخداع الماكر ؟. وصحت بلا وعى :

ــ كاذبة .. لم تكن وريقة ملاحظات كما قلت كذبا وخداعا . ولكنه خطاب كما رأيت ، وقد مزقته لتوارى عنى سوأة ..

وغاض الدم فى وجهها فترك صفحته شاحبة كوجوه الموتى ، ولكن بدا أنها لا تريد أن تسلم بغير دفاع المستيئس فغمغمت :

ــ أنت مخطئ .. وظالم .. لم يكن خطابا !.

فهتفت بها مغيظا محنقا والألم واليأس يطرقان رأسى بعنف :

ــ لماذا مزقته ؟.. لماذا تولاك الذعر ؟.. تكلمى .. لا بد أن أعرف الحقيقة .. سأنزل إلى الطريق وألتقط القصاصات .

واتجهت نحو النافذة فى عجلة واضطراب وأطللت على الطريق فرأيت العطفة الضيقة التى تفصل مؤخرة العمارة عن حديقة الكنيسة ، فداخلنى يأس وأيقنت

أن الهواء قد حمل القصاصات إلى حديقة الكنيسة . واسودت الدنيا فى عينى ، وخيل إلى أنها تتمخض عن عالم من الشياطين الراقصة فى تيار من لهيب . كيف أنتزع الحقيقة من بين شفتيها ؟ ودرت على عقبى فوجدتها بموقفها ، يحاكى وجهها وجوه الموتى ، وتلوح فى عينيها نظرة ذعر وارتباك ، فاشتدت قسوة قلبى ، ورميتها بنظرة طويلة رهيبة ، وقلت بإصرار وحنق :

ــ إنه خطاب ، ولن أرجع حتى تعترفى لى بكل شىء ..

تراجعت متأوهة حتى استندت إلى مرآة الصوان وقالت بصوت تمزقه الشكوى :

ــ بالله لا تسىء بى الظن . لا شىء ألبتة يستوجب غضبك أو ارتيابك ، أواه لا تنظر إلى هكذا ..

ولكنى لبثت أرمقها بنظرة صارمة قاسية ونفسى تتلهف على الحقيقة ، فإما النجاة وإما الهلاك . رباه إنى لفى كابوس طاغ . وهل كان يقع فى ظنى أن أقف منها هذا الموقف إلا فى كابوس ؟!. واستدركت تقول بصوت متقطع الأنفاس :

ــ لا تنظر إلى هكذا !. لقد أخطأت حقا ولكنك أنت المسئول عن خطئى !. لقد فاجأتنى فركبنى الاضطراب ، فتورطت فى كذب لا داعى له ..

رباه ما أحوجنى إلى النجاة ، ما أشد تلهفى على قطرة غيث تبل جوانحى .. وقلت فى حيرة :

ــ كان خطابا ..

فبادرتنى قائلة :

ــ أجل !. وكان يبدو لى أمره تافها حتى وقع فى نفسك الارتياب . وتجهم وجهك فتخيلت الأمر التافه جللا خطيرا فالتمست مخرجا فى الكذب ، وكان ما كان .

فسألتها وما أزداد إلا حيرة :

ــ إذا كان خطابا ، فمن أرسله ؟.

فقالت وبها مثلما بى من الحيرة :

ـــ لا أدرى ..

فنفخت قائلا :

ـــ ما هذه المعميات ؟!.

تولى عنها الذعر رويدا ، وتشجعت بانفثاء غضبى فقالت بصوت ملؤه الأمل :

ـــ دعنى أقص عليه قصة هذا الخطاب المشئوم بالحرف الواحد : لقد تلقيته صباح اليوم بالمدرسة ، ففضضته بدهشة لأنى لم أعتد تلقى الخطابات ، ووجدته غفلا من الإمضاء ، ولم يكن به سوى سخف وقح ، خطه قلم شخص سمج !. وملكنى الحنق بادئ الأمر . ثم لم أعد أباله . وصممت على الاحتفاظ به لأطلعك عليه وفى ظنى أنى أعد لك مفاجأة تضحك منها طويلا . ولكنى غيرت رأيى عقب عودتك وخفت أن يثير بنفسك ما لا داعى له من الاستياء . وأخفيت عنك أمره حتى ظننتك غادرت البيت فاستخرجته من حقيبتى وأعدت تلاوته وفى نيتى أن أمزقه ولكنك فاجأتنى وقت تلاوته ، ولم يغب عنى حرج مركزى ، ولم يعد بوسعى الاعتراف بالحقيقة ، فتورطت كما قلت لك فى الكذب ، وجنيت من كذبى ما جنيت مما لا أستحق .

أصغيت إليها وكلى آذان . ولما انتهت من قصتها لبثت بموقفى جامدا متحيرا . خفت وطأة الجنون الذى ركبنى ولكنى وقفت بباب التصديق والطمأنينة مترددا . وجدت نفسى فى حيرة قاتلة دعوت الله أن يكشفها عنى ، وأن يهبنى بصيرة نيرة أنفذ بها إلى أعماق هذا الصدر الجميل الذى كأنما خلق لتعذيبى . وأرهقنى التفكير والتردد فقلت وكأننى أسائل نفسى :

ـــ من مرسله ؟!.

وكأن السؤال آلمها ، فغضت بصرها مقطبة وقالت :

ـــ قلت كان غفلا من الإمضاء .

فانفلت لسانى يقول :

ـــ هذا غير معقول .

فضربت الأرض بقدمها وقالت وقد لاح فى وجهها الألم والتعاسة :

ـــ أتكذبنى يا كامل بعد أن صارحتك الحقيقة ؟. إنى لا أحتمل هذا ..

فاستطردت قائلا وقد نال منى تألمها :

ـــ أعنى ماذا يفيده الخطاب إذا لم يترك به إشارة تدل عليه ؟. ألم يرسل لك خطابا قبله ؟.

ـــ .. هذا أول خطاب أتلقاه ..

ـــ وماذا كان به ؟.

فغضت بصرها وهى تقول بضيق :

ـــ كلام سخيف عن الإعجاب والجمال ..

ووثب إلى خيالى منظر يديها وهما تمزقان الخطاب فلسعنى الشك وانتفض جسمى فى هلع فصحت بها وكأننى فقدت وعيى :

ـــ لماذا مزقته .. لماذا مزقته ؟.

فنفخت فيما يشبه اليأس ، ولزمت الصمت مليا ، ثم قالت بهدوء واستسلام .

ـــ لقد تسلمت هذا الخطاب المشئوم فى المدرسة ، ولا أظنك تشك فى هذا لأنه من الجنون أن يرسله إلى البيت . والآن اطرح على نفسك هذا السؤال : ما الذى يدعونى إلى الاحتفاظ بالخطاب وحمله إلى البيت إذا كان به ما يريب ؟. لماذا لم أمزقه فى المدرسة بعد قراءته !.

وعقد الصمت لسانى حيال وجاهة الحجة ولعلى أسفت على ما بدر منى من صياح كاسر . أما « رباب » فعادت تقول :

ـــ لو كنت مذنبة لما وجدتنى بهذا الموقف السيئ ، ولما علمت بشىء وهيهات أن أغفر لك سوء ظنك بى ..

فآلمني قولها ، وداخلني شعور أليم بالخجل فخفضت بصرى أن ترى به آى الهزيمة . على أن ألمى لم ينسني ما أحب أن أجلوه من غامض الأمور فقلت بصوت منخفض :

ـــ إن قولك مصدق .. ولكن لعل صاحب الخطاب لم يوقع بإمضائه لظنه أنه من السهل الاستدلال عليه ، كأن يكون ممن يعترضون سبيلك مثلا ..

ولم يخفف لين نبراتى من ألمها ، بل لعله جعلها تتمادى فيه ، وقالت بامتعاض :

ـــ من عادتى أن أسير فلا ألوى على شيء ولا ألقى بالا لإنسان .

لم أكن فى حاجة إلى قولها وقد خبرته بنفسي ، ولكن لاح لعينى شبحا الرجلين اللذين قاسمانى الإعجاب بها فيما مضى . فقلت متسائلا :

ـــ ألا يحتمل أن يكون جارك الذى شرع فى طلب يدك .. أعنى محمد جودت ؟:

فقالت بلا تردد :

ـــ هذا رجل وقور لا ينزل لهذه الأساليب الوقحة ، وفضلا عن ذلك فهو وشيك الزواج كما علمت منذ قرابة شهر فى بيت أبى ..

فتفكرت قليلا ثم قلت متحيرا :

ـــ كان يوجد رجل سمين يواظب على التهامك بعينيه فى ذلك العهد الذى كنت أحوم فيه حولك ، أفلا يجوز أن يكون هو ؟. فزوت ما بين حاجبيها مستذكرة ، ثم قالت وهى تهز رأسها :

ـــ لا أعلم عنه شيئا ..

وحاولت أن أذكرها به ولكنها بدت وكأنها لم تحس له وجودا ، فقلت بيأس وغيظ :

ـــ أريد أن أعرفه كى أؤدبه .

فقالت بصوت دلت نبراته على التعب :

ـــ ليكن من يكون ! لو لم يدفعنى الارتباك إلى تمزيقه لكنا نقرأه الآن

ضاحكين ، فهلا نسيته وحسبنا ما نالنا من كدر .!

فعضضت على شفتى ، وجنحت إلى الصمت مغيظا مقهورا ، فاستطردت قائلة :

ـــ إنه أمر تافه ، بل أتفه من أن يستحق كل هذا الاهتمام ..

فتنهدت قائلا وأنا لا أدرى :

ـــ ليتك لم تمزقيه !.

والتمعت فى عينيها نظرة غاضبة وتساءلت بحدة :

ـــ الا زال يساورك الشك ؟.

فقلت بعجلة :

ـــ كلا .. ولكنى لن أهدأ حتى أؤدبه !.

فقالت بضجر :

ـــ ولكنا لا نعرفه فما العمل ؟.

وأحنقنى قولها ، ولكنى تحاميت الإفصاح عن حنقى أن أستثير غضبها . وكأن الوقوف أرهقها فمضت إلى كرسى التواليت وجلست عليه ، وشعرت عند ذاك بألم فى ظهرى ، فدلفت من الفراش واقتعدت حافته . إنها صادقة بريئة ، والأمر جد تافه ، فليتنى أستطيع أن أمحو من مخيلتى صورة يديها وهما تمزقان الخطاب !. لعل المجرم أحد أولئك الفضوليين الذين يراقبونها فى ذهابها وإيابها !. فليتنى لم أخلق فريسة سهلة لأنياب الغيرة . أنى أعرف نفسى جيدا ، وإنى لأغار من الوهم ومن لا شىء !. فأين منى جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل !.

وطار الخيال بغتة إلى حجرة أمى فسرت فِى جسدى قشعريرة وخلتها تقول لى « ألم أقل لك ؟ » فنفخت كمن يزيح عن صدره كابوسا ، ولاحت منى التفاتة نحو « رباب » فوجدتها تحملق فى وجهى بدهشة ، فخطر لى خاطر جديد لم أتوان عن الإفصاح عنه فقلت برقة :

ـــ رباب ، لماذا تواصلين خدمتك فى الحكومة ! لماذا تتجشمين هذه المشقة

بلا ضرورة ؟. لماذا لا تقنعين ببيتك كغيرك من الأزواج ؟

فتفرست فى وجهى بإمعان وأناة ، ثم قالت بهدوء :

ــ ألا تثق بى ؟.

فابتدرتها قائلا : معاذ الله ولكنى ..

وقاطعتنى قائلة :

ــ إذا كنت لا تثق بى فالأولى لى أن أغادر بيتك !.

ــ رباب !.

فلم تبال جزعى وقالت :

ــ إذا كنت ما تزال تثق بى فسأبقى فى وظيفتى .

فقلت بتسليم :

ــ لك ما تشائين !.

فقالت باللهجة نفسها :

ــ لا أحب أن أسمع كلمة أخرى عن هذا الموضوع .

وقد كان . وغادرت البيت ، وأخذت أضرب فى الأرض على غير هدى حتى تناهى بى الإعياء ، فرجعت إلى البيت ، وتلاقينا وكأن لم يكن بيننا شىء وتناولنا العشاء معا ، ثم آوينا إلى حجرتنا والتقت أعيننا فى نظرات ذات معنى .

ولم نتمالك أن انفجرنا ضاحكين ، ومضينا إلى الفراش فاضطجعنا وقبلتها قبلة النوم . ولا أدرى لماذا نازعتنى نفسى إلى معاودة ما تعاهدنا على اجتنابه . والأعجب من هذا أنه لم تكن بى ذرة من ثقة ، ومع ذلك كدت أهم .. لولا أن ردنى الخوف إلى وعيى !. ثم خطر لى أن أسألها عما يجعلها تقضى على نفسها بالحرمان ؟. وانفجرت شفتاى ولفظ صدرى القول ، ولكنه جمد على طرف لسانى !. إنه الخوف أيضا .

٥٠

وعندما فتحت عيني فى الصباح الباكر عاودتني ذكريات الأمس . فتأملتها فى دهشة ، وقد خيل إلى أنه لم يكن هنالك ما يستحق كل ذلك العناء والألم . وقلت لنفسي : لو أنها مزقت الخطاب فى الروضة لما علمت به أبدا ، وفى هذا آية صدقها ، ثم تمثلت لعيني وهى تمزق الخطاب وترمي به من النافذة ، فكأنما هى تمزق قلبي وتنثر شظاياه فى الهواء ، وسرت فى جسدى رعدة عنيفة . وهززت رأسي غاضبا كأنى أنفض الأوهام وغادرت الفراش . ولما فرغنا من فطورنا وجلسنا على المقعد الطويل نحتسى الشاى ! استرقت إليها نظرة فرأيت وجهها المحبوب هادئا باسما ينم عن جمال وسلام ، فعضني الندم على ما فرط مني فى حقها وقلت لنفسى : « حقا إن الشيطان غوى رجيم » . وفى اللحظة التالية لاح لى خاطر كالبرق ، أليس من الجائز أن تكون قد تسلمت الخطاب فى البيت وأنه لم يكن بوسعها أن تمزقه فى مكان آخر ؟. ولكنى سرعان ما نبذته ، إذ أنه غير معقول كما قالت بحق — أن تبلغ الحماقة من شخص أن يرسل خطابا غراميا إلى بيت الزوج ! ألا سحقا للأوهام ، إن حبيبتى أهل لكل ثقة ، والثقة هى كل شيء ، ولولاها ما حال دون الشر حائل .

وخرجنا معا . وركبنا الترام . لعل كثيرين يرمقوننا بعين الحسد ، فهل يتصورون كيف نحيا معا ؟! ألا ما أعجب العوالم التى تنطوى عليها النفوس . وأعجب من هذا أمر رباب ، فكيف ترغب عن المعاشرة الزوجية بهذا الإصرار الغريب ؟ لشد ما يشوقنى أن أغوص فى أعماقها . عند ذاك شعرت بحاجتى إلى مرشد أقص عليه وأصغى إليه . لم أشعر من قبل بمثل ما شعرت به وقتها من الوحدة والعزلة وقلة الحيلة . وكان طبيعيا أن أذكر مرشدى الوحيد فى الحياة ، أمى ، ولكن سرعان ما تملكني إحساس قوى بالخجل والغيظ ، حتى لكأن نشر

همومى على الملأ أهون على من أن أسار أمى بها .

هل أستطيع أن أجلو السر بنفسى ؟ أيكون الله قد خلقها خلقا طاهرا لا تطيب له الحياة إلا بالعفة ؟! هذا فرض محتمل يؤيده الواقع . ولست آسى عليه ، فلولاه لكنت فى مأزق حرج . والحق أن اتصالى بها — حتى فى أسعد أوقاته — لم يخل من قلق وخوف غامضين . وقد عاودنى العجز فى إبان جنوحها إلى النفور ، ولكنى كنت آبى إلا أن أصور نفسى فى صورة الضحية لشذوذ حبيبتى ، والفداء لسعادتها .. ولما بلغت هذا الحد من التفكير — وكنت أشارف الوزارة ، اضطرب ذهنى وشعرت بقلق طاغ لم أدركه . بدا لى الأمر وكأنه يستدعى الطمأنينة التامة ، ومع ذلك لفتنى حيرة معذبة فدخلت الوزارة ذاهلا .. من عسى أن يكون الوغد الذى كتب الخطاب ؟. معقول جدا ألا يكون الرجل الوقور محمد جودت ، فمن يكون ؟. لماذا لا يكون الفتى الآخر ذا الجسم البدين والنظرة المتغطرسة ؟. وليس هذا ببعيد . إنه فى متناول يدى ، وإنى لأعرف موقفه الذى ينتظر به كل صباح .. ترى هل حقا جهلته أم كانت تتجاهله ؟ على أننى تمنيت بقلبى ألا يكونه ، إذ لم يخف عنى لحظة أنه قادر على أن يبطش بى بضربة واحدة ؟. وقلت لنفسى ساخطا : لو أنها أبقت على الخطاب لأمكننى كل شىء . أى شىء أعنى ؟ لا أدرى على وجه التحقيق ، لكنى وجدت عليها مرة أخرى بعد أن عد الأمر منتهيا . والله ما مزقته إلا خوفا من اطلاعى عليه . رباه هل أتردى ثانية فى الجحيم ؟ حذار أن تتمادى !. إن من يسمح لنفسه بالشك فى رباب لا يستحق أن يكون إنسانا . ألا يحسن بى أن أسألها فى التليفون عما إذا كانت تلقت خطابا جديدا ؟. نازعتنى إلى ذلك رغبة جامحة ولكن حال دون تنفيذها الخوف .. ودعانى صوت من الأعماق إلى الهرب ! ولكن ممن أهرب ؟ وإلى أين ؟. إما أن أكون مجنونا أو سخيفا . إننا زوجان سعيدان فى الواقع ، ولكن عقلى شقى ، فآه لو أستطيع حذف الأمس من الأيام . آه لو تمحى ذكرى تمزيق الخطاب من خيالى . وإليك خاطرا جديدا ، إذا كانت قرأت الخطاب فى

المدرسة فلماذا أعادت قراءته فى حجرتنا ؟.. ألذها أن تعيد تلاوته أم كانت تستوثق من الميعاد ؟. أوشك جبينى أن يتفجر من حمى الفكر ..

ولما غادرت الوزارة أسعفنى هواء الطريق اللطيف بروح من عنده فتنفست تنفسا عميقا ، وأحسست انتعاشا ردنى إلى السكينة . وجعلت أردد : ما أحمقنى !. وفى البيت لاقتنى رباب بابتسامة وضاءة فانبسطت أساريرى ، وسألتها ضاحكا :

— هل من جديد ؟

— أتعنى خطابا جديدا ؟

فقلت وما أزال ضاحكا :

— نعم :

فقالت مبتسمة :

— كلا انقطع البريد ..

وغادرت البيت عصرا وليس لى غاية ، وما كدت أستقر بمكانى فى الترام حتى نشأت فى صدرى رغبة جميلة ، هى أن أزور « السيدة » طالما كانت ملجئى وملاذى ، ولم أتردد عن تنفيذ هذه الرغبة التى ملكت نفسى . وعندما عبرت عتبة المسجد سرت إلى صدرى نسمة ارتياح سعيدة ؛ وطافت برأسى ذكريات محببة إلى قلبى . رأيتنى بعين الخيال أسير ممسكا بيدى أمى إلى الضريح الطاهر . وذكرت يوم جاءت بى لأتوب عن الذنب الذى أكاد آلفه وأعتاده . يا لها من ذكرى أعقبت ندما وخجلا حتى شعرت برغبة فى التوارى والفرار ، ولكننى واصلت السير ، فطفت بالضريح قارئا الفاتحة ، وتشجعت إدلالا بمنزلتى منذ الصغر عند صاحبته الطاهرة ، فوضعت راحتى على الباب وغمغمت فى ضراعة : « يا أم هاشم ، أنت أعلم بقلبى وطيبته ، وبأنى لم أضمر فى حياتى أذى لإنسان فاجعلى جزائى من جنس عملى . هذا دعائى يا ست » . وانتبذت ركنا وتربعت على الأرض . سطعت أنفى رائحة ذكية لعلها كانت رذاذا يرشه أحد

المجذوبين ، وتجاوبت فى الأركان أصوات الدعاء يرددها الطائفون ، على حين مضى شيخ غير بعيد يرتل بصوت مهموس آيات من الذكر الحكيم ، وذكرت كيف انقطعت عن فرائض الدين حتى لم أعد أواظب إلا على الصوم فى حينه ، ألست حقيقا إذا عدت إلى هدى الصلاة أن يطمئن قلبى ويخف عن ظهرى وقر القلق والمخاوف . وكان قلبى على ألمه يتفيأ ظل النبوة الظليل ، ويعب من نمير صاف مثلوج ، ويغمره سكون عميق يدعونى إلى الاستزاده من صفاء الساعة الهنيء . وفى نشوة من نشوات السلام تراءت لى آلامى كخيط رقيق من نسيج القضاء المهيمن على كل شيء فنزعت إلى الرضى والتسليم . ودوم بنفسى صفاء روحى سما بى إلى ذروة من البهجة فوق المنى فكأن القلب يعلو غصنا من أغصان الجنة تهدل عليه حمامة السلام . ولبثت فى نشوتى زمنا لا أدرى كم لبثت حتى اندس إلى خيالى على حين غرة صورة رباب وهى تمزق الخطاب وقد تملكها الهلع فأفقت بقسوة وعنف كمن يفيق من نوم على زلزال عنيف ، وتنهدت من قلب مكلوم ثم نهضت قائما ، وتلوت الفاتحة مرة أخرى وغادرت الجامع ، وقد وقع بصرى لدى خروجى من الباب على رمّال ممن يستطلعون الغيب ، إنى أومن بهؤلاء الناس إيمان أمى بهم . وقد انتظرت حتى انفض من حوله جماعة من السائلين واقتربت منه على حياء ، وسألته أن يقرأ لى الطالع . وراح الرجل ينكت بإبهامه فى نقرات الرمل وينقل فيما بينهما قواقعه . كان نحيلا كالمومياء . شاحب اللون ، متلفعا بكساء أبيض ، فقال من فم لم تبق فيه إلا ثنيتاه العليان :

— كثير الهم والفكر .

فقلت لنفسى : لقد صدق ، وأرهفت السمع بانتباه ، فاستطرد قائلا :

— ولك عدو ماكر .

فخفق قلبى !. أليس هو صاحب الخطاب ؟! وواصل الرجل حديثه قائلا :

— أنه يمكر مكره وسيرد الله كيده إلى نحره ..

ألا يعنى هذا أن « رباب » بريئة ؟.

— وستجيئك ورقة تسر بها طويلا ..

— أتعنى خطابا ؟.

— ربما ، إنى أرى أمامى ورقة ..

ما معنى هذا ؟! كان الأمر يزداد غموضا ، وسألته :

— هل تأتى من قبل العدو ؟.

— كلا .. كلا !.. ناحية أخرى فتنجلى بها همومك .

— أية ناحية ؟.

— يأتيك الخير من حيث لا تدرى .

فتولتنى الحيرة وتمنيت لو يزيد بيانا ، ولكنه عاد يقول :

— إذا جدت صعاب فسيذللها هذا الحجاب بإذن الله .

وأعطانى لفافة صغيرة جدا من الورق مربوطة بخيط رقيق ثم قال :

— ضعه على القلب ، وتوكل على الله ..

* * *

ذكرت فى طريق العودة ما عانيت من ألم منذ عصر الأمس فأيقنت أن سعادة عام لا تزن شقاء يوم واحد ، لم أهتد إلى مرسى وما أزداد إلا حيرة وتبلبلا . إن ما يظلنى أحيانا من طمأنينة ما هو إلا سحابة صيف ، ولن يهدأ لى جانب حتى ألقى الحقيقة وجها لوجه ، ما كنت أحب أن تلوث نفسى بالشك فى الوجه الصبيح الطاهر ، ولكن بذرة الشك قد ألقيت فى أعماقها ولن تزال تنمو وتثمر شوكها الجهنمى . لقد شددت بقوة اليأس على أهداب الطمأنينة فتهتكت وتخرقت ، وما أطيق أن أحتمل الحياة مترددا بين ساعة سلام خادعة وساعات عذاب طويل ، فما من محيد عن أن أرى وراء الحجب ، قد يكون فى ذلك هلاكى ولكن الحياة تقضى علينا فى أحايين كثيرة بأن نجرى وراء هلاكنا كأنه ألذ المنى . إنى أحبك يا حبيبتى ولعل القدر قد رمانى بهذا الحب ليقضى به على ، ولكن هل أملك رد قضائه ؟ لعلى أدرك الآن لماذا لم يكن يزايلنى القلق حتى فى أصفى

ساعات سعادتى ، أكان قلبى يشهد لمحات من المقدور وراء ستار الغيب ؟.. على أننى لا أحب أن أتمادى فى التشاؤم ، فقد يكون المخبوء على غير ما توقع قلبى ، وقد أجد به ما أتلهف عليه من طمأنية وسلام .

فما العمل إذن ؟. الصواب أن التمس إجازة من الوزارة ، ثم أفرغ للمراقبة فى خفاء لا يدرى به أحد . أيهون على أن أتجسس على « رباب » ؟! ألا ما أشق هذا على نفسى ، ولكن كل شىء يهون إلا عذاب الشك ..

٥١

توثبت للعمل وبى من الألم ما لا يعلمه إلا الله ، فخرجنا معا كعادتنا كل صباح وركبنا الترام معا ، ثم نزلت فى محطة الوزارة وناديت « تاكسى » وأمرت السائق بالذهاب إلى العباسية . سبقتها إلى مكان عملها لأهيئ لنفسى موضعا يصلح للمراقبة . وكانت الروضة تقع بشارع كمال — المتفرع من الطريق العام إلى اليسار — على يمين الداخل بعد فوت بيتين من مدخله ، وقفت فى المحطة أتفحص ما حولى فرأيت شارعا فرعيا يقابل شارع كمال على الناحية اليمنى من الطريق تقوم على ناصيته قهوة صغيرة ، بدا لى أن أجلس فى هذه القهوة حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد ، ومراقبة زوجى حين دخولها وحين خروجها . واتجهت إليها — وكان بابها يفتح على الشارع الجانبى — واخترت مجلسا على عتبة المدخل يمكننى أن أرى منه ما أريد رؤيته ، وأن أتوارى إذا دعا الحال بزحزحة الكرسى قليلا إلى الوراء . وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة ، فكانت موائدها قديمة وكراسيها باهتة رثة وروادها من النوبيين ، ولكن لم أبال هذا ، بل وجدت به مدعاة للطمأنينة . جلست وعيناى لا تتحولان عن شارع كمال ، وكلما جاء ترام من المدينة اشتد انتباهى ويقظتى . ولم يطل بى الانتظار فما لبثت أن رأيت زوجى وهى تعبر الطريق متلفتة يمنة ويسرة لتتفادى من

المركبات حتى بلغت « الطوار » الأيمن لشارع كمال ، ثم سارت بمعطفها الرصاصى المنمنم ، بطولها الفارع الرشيق ومشيتها اللطيفة المهذبة ، فى احتشامها المعهود ووقارها المحبوب ثم انعطفت إلى مدخل المدرسة وقد وقف لها البواب احتراما ، غلبنى الخجل والألم لموقفى ذاك ، وترطب قلبى المحترق بالعطف والحب وأنا أذكر كيف بهرنى هذا الجمال الوقور أول مرة ، اللهم إذا كانت حبيبتى ملاكا فلتحرقنى بنقمتك وإذا كانت شيطانا فلتحرقنا جميعا ، ولتحرق الدنيا معنا فما يكون بها شىء يستحق الرحمة ، وارتفعت عيناى إلى السماء وغمغمت : « ربى ! إذا شاءت حكمتك أن تذر سموم الغدر فى حنايا هذا الجمال فلتغفر لى الجنون والثورة ! » .

وتفحصت الطريق أمامى متسائلا فى رهبة : ترى هل أرى بعد ساعات من يقف منتظرا بموضع من هذا الطريق ؟. هل أراهما وهما يتبادلان إيماءة أو ابتسامة أو يلحق أحدهما بالآخر ؟. ما عسى أن أصنع لو انقضت هذه الصاعقة على رأسى !! وانتفض جسمى غضبا ورعبا !، وتخيلت الكارثة كما لو كانت قد وقعت ، تخيلتها حتى تجسمت لناظرى ، ثم تساءلت مرة أخرى عما عسى أن أفعل !. ليس أسهل من البطولة والنصر والبطش فى أحلام اليقظة ، ومع ذلك فلم يسعفنى الخيال بنفحة منها ، ولعله تحرج لأن الخطر الذى تهددنى لم يكن بعيدا بحيث يسمح له بالاستمتاع بأحلامه ، كان على العكس قريبا محتملا ، فشكم الأحلام ، وتمثل لى الموقف البشع فى حدود الواقع ، فتصورته بقلب هياب ونفس مخلخلة القوائم ، تمثل لى العدو شخصا حقيقيا فى طريق مزحوم بالمارة فما أسعفنى الخيال على التصدى له جهارا ونشر فضيحتى على الملأ ، أو خوض معركة لا أشك أنى سأكون فيها من الخاسرين !. تصور زوجا مخدوعا صريعا بلكمة من خادعة !. تبا لى ! لكم حنقت فى تلك اللحظة على ضعفى !. غضبت غضب من يروم دك الجبال ، وتنهدت تنهد من يعجز عن رفع حصاة ، ولكن ما من الإقدام بد !.. أأرى « رباب » مع صاحب الخطاب ثم أقف مكتوف

اليدين ؟!. محال .. لأهجم إذن على غريمى وليكن ما يكون ، أو أقنع بمشاهدة الجريمة الساعية فى الأرض ، ثم أنتظرها فى البيت حتى تعود وأقول لها بهدوء ، واستهانة ، « لقد رأيت كل شىء بعينى ، عودى إلى بيتك بسلام ! » . لماذا أقدمت على هذه الخطوة الجنونية ؟. لماذا تزوجت ؟. ما كان ينبغى لمثلى أن يتزوج . وارتفعت فى القهوة ضجة ضحك فانتشلتنى من الأحلام ، فعدت إلى وعيى متعبا كالمريض ، وألقيت نظرة على الوجوه السود الدائبة على ثرثرة لا تنقطع بأصوات غريبة مكهربة ، ونظرت بين يدى فإذا بفنجان القهوة لم يمس ، فرفعته إلى فمى ورشفت منه رشفات باردة ، وعدت ببصرى إلى الطريق حتى استقر على باب الروضة . إن « رباب » تباشر الآن عملها فى طمأنينة ، ومن يدرى فلعل هذا الرعب كله أن يتمخض عن لا شىء ، ولعلى أن أذكر موقفى هذا يوما فلا أدارى خجلى . أتكذب هاتان العينان الصافيتان ؟. أيغدر هذا القلب الطاهر ؟. وتتابعت الدقائق فى تفكير متواصل ، حتى انتبهت على طقطقة نافذة وهى تفتح ، فاتجه بصرى بحركة عكسية إلى الجانب الآخر من الطريق ، فرأيت النافذة فى الطابق الثانى من عمارة كبيرة وقد أطلت منها امرأة ، ولعلها عجبت لجلوس أفندى مثلى فى قهوة النوبيين. ، فنظرت صوبى باهتمام ، كان فى عينيها جراءة ، فارتد بصرى فى حياء . ومع أن عينى لم تثبتا عليها إلا لحظات إلا أنهما عادتا منها بصورة واضحة لوجهها الغليظ وصدرها المكتنز ، وداخلنى إحساس بالقلق ، لأن النافذة تطل على مجلسى مباشرة ، وقد رفعت عينى فى حذر شديد فرأيتها تدخن سيجارة وتنظر إلى شىء بين يديها على حافة النافذة ، فتشجعت بتحول عينيها عنى وأدمت إليها النظر . كانت فوق الأربعين إن صدق نظرى — وقل أن يصدق فى تقدير الأعمار — وكانت على رغم تأنقها وتزينها أقرب للدمامة منها للحسن ، ذات وجه مستدير غليظ ، وعينين بارزتين ثقيلتى الجفنين ، وأنف قصير أفطس ، وشفتين ممتلئتين ، ووجنتين متكورتين منتفختين ، وشعر جعد لامع . وما لبثت أن غابت من النافذة فكاد يذهب عنى

القلق ، ولكن باب شرفة تجاور النافذة فتح على مصراعيه وبرزت المرأة منه تجر كرسيا ، ثم وقفت قليلا مرتفقة حافة الشرفة ، فرأيت جسمها المكتنز المائل إلى القصر ، ثم جلست على الكرسي واضعة رجلا على رجل . كانت الشرفة أقرب إلى الطريق العام من النافذة ، فأمكنني أن ألحظ من فيها دون حاجة إلى عطف رأسي ، فاختلست نظرات من ساقيها المرتويتين السمراوين ، وشبشبها الأحمر الفاقع ، وأنقذني وجودها من تيار أفكارى الجهنمي وإن استحوذ على ذلك القلق الطارئ ، وراحت تنفخ الدخان من شفتيها الغليظتين وتقلب عينيها فيما حولها ، وكلما التقتا بي تفحصتاني بجراءة منقطعة النظير حتى شعرت بحرارة الخجل تلهب وجهي ، وتساءلت في ارتباك : متى تختفي ؟. فلقد أربكني تفرسها في وجهي ، ولعله ترك في نفسي أثرا آخر غريبا لا يخلو من ارتياح حذر وانفعال جنسي لم أعرف له سببا . وكنت كلما رفعت إليها عيني حولت رأسها نحوى وحدجتني بنظرة وقحة ثاقبة كأنها ترى بأذنيها ، أو أنها تتمتع بحساسية خارقة تنقل إليها النظرات التي تصوب نحوها من أي مكان كان ، فركبني الخوف والحذر ، وحرصت على ألا أرفع بصرى القلق إليها . ترى هل يطول بي هذا الحذر والتوتر ؟. وعلى حين فجأة رن صوتها — صوت ممتلئ رنان — وهي تقول وكأنها تخاطب أحدا في الطريق : « إني قادمة يا ماما » ثم نهضت قائمة ومضت إلى الداخل !. ولم أتمالك أن ابتسمت في استغراب واستنكار ، فقد هالني أن تقول « ماما » وهي المرأة التي جاوزت سن الشباب ، كما أدهشني أن تستجيب لنداء أمها بهذا الصوت الذي رن في الطريق بلا داع ، وكان بوسعها أن تذهب إليها دون أن تنبس بكلمة ، أو أن تخاطبها عقب دخولها إلى الحجرة ، فبدت لي — إلى جراءتها — غريبة الأطوار ، محبة للظهور ولفت الأنظار ، متجاهلة لسنن العقل الذي تعتلي ذروته . على أنني سررت لذهابها ، ولتخلصي من سطوة نظراتها ، وعدت إلى نفسي ، وإلى الطريق الذي على أن أراقبه حتى ينطوى النهار . وتتابع الوقت فأتعبني تثاقله ، واستحوذ على الضجر . ألا يحسن بي أن

أمضى هنا وهناك حتى يقترب موعد انصراف الروضة ؟. ولكن من يضمن لى ألا تحدث أمور فى أثناء تجوالى ؟. فلأظل رهين مجلسى هذا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا !. ولبثت بمكانى متجرعا الصبر دقيقة فدقيقة ، وجاءنى صوت من الشرفة ، فرفعت عينى ، فرأيت المرأة وهى تنقل الكرسى إلى موضع من الشرفة تملأه أشعة الشمس ثم تستقر عليه .. ولاحت منها نظرة إلى القهوة ، فلما وقعت على لاح بعينيها الاهتمام والدهشة وكأنهما تتساءلان عما دعانى إلى ملازمة مكانى بهذه القهوة الحقيرة طوال هذا الوقت ، وتعمدت أن تظهر لى دهشتها بغير ما حياء فلم يبق إلا أن تسألنى عما يبقينى فى مجلسى ذاك ؟. وأشعلت سيجارة ، وراحت تدخن بتلذذ ، وتتسلى بالنظر إلى من وقت لآخر . وصممت على أن أركز انتباهى فى هدفى ، فأرسلت بناظرى إلى الطريق ، ولكن ظل شعورى فى شغل شاغل !. وتبددت قوة إرادتى فى مقاومة ما يجذبنى إلى رفع بصرى ، وغلبنى الحياء والارتباك إذ تهيأ لى — لضيق الشارع — أننى والمرأة فى حجرة واحدة . ولم أخل من إحساس بالارتياح منشؤه أننى أجد نفسى محط نظرة امرأة لأول مرة فى حياتى ، ولم يعد يخفى على ذلك الانفعال الجنسى الذى بعثه فى أعصابى وجهها الغليظ وساقاها المرتويتان ، ولئن كانت جرأتها قد أزعجتنى فلم تعدم فى نفسى إثارة من ارتياح غامض ، لعله نوع من الإعجاب الذى لا يريد أن يفصح عن نفسه ، وتساءلت فى دهشة : ترى لو كان لجميع النساء ما لهذه المرأة من جرأة أكنت أقطع ما خلا من زمانى موحوحا بغير رفيق ؟!. وانسقت وأنا لا أدرى إلى مقارنة هذه الجرأة الجذابة بذاك الاحتشام الجميل الذى تتحلى به زوجى المحبوبة ، ولكنى سرعان ما أنكرت المقارنة الوقحة ، فامتلأت سخطا وتقززا ، ولبثت المرأة بمجلسها ساعة ثم عادت إلى الداخل وأغلقت باب الشرفة ، فتنهدت فى ارتياح عميق وغمغمت : « لا أرجعها الله » ، وانفرد بى الانتظار ، ومر الوقت فى إعياء وسأم ، فجعلت أتسلى بمراقبة ستة أو سبعة من النوبيين هم كل من بقى بالقهوة من الزبائن ، وقد واصل ثلاثة منهم الثرثرة على حين جمد الآخرون

على مقاعدهم كتماثيل من البرونز . وحينما أرمى بنظرى إلى الطريق العام أحصى المارة نساء ورجالا ، وأشاهد مركبات الترام الذاهبة الآتية ، أو أتساءل كلما قرع أذنى أزير ترام آت من بعيد أن يكون رقم ٣ أم رقم ٢٢ ، وهل يجر مركبة مكشوفة أو مغلقة ثم أحصى مرات الصواب والخطأ . ولما آن وقت انصراف الروضة عاودتنى اليقظة ، ثم اشتد بى القلق والجزع ، وجالت عيناى فى جنبات الطريق ثم استقرتا على باب المدرسة ، ولشد ما خفق قلبى حين رأيت جماعة من المدرسات يغادرن الروضة ، وعلى أثرهن خرجت « رباب » بصحبة فتاة من زميلاتها ، واتجهت نحو شارع العباسية وهما تتحادثان وتضحكان . وافترقتا فى الطريق العام فاتجهت الفتاة إلى اليسار ، وسارت زوجى إلى المحطة ، ولما كانت وقفتها بحيث يتجه وجهها صوب شارع القهوة الجانبى فقد تراجعت بالكرسى إلى الوراء متنحيا عن مرمى بصرها ، وتفحصت الطوار بعناية وقلبى يكاد يثب من موضعه من شدة الخفقان فقد حدثتنى نفسى بأننى سأتلقى الضربة القاصمة بعد لحظات . وكان على « طوار » المحطة شتيت من الرجال والنساء ، ولكن زوجى انتبذت طرف الطوار البعيد ووقفت وقفتها المحتشمة لا تميل برأسها نحو أحد ، وتنظر من آن لآخر من وراء كتفها صوب الجهة التى يأتى منها الترام ، لم أر ما يريبنى ، ولم تتحول عنها عيناى لحظة واحدة حتى جاء الترام وصعدت إليه ، وبارحت مكانى متعجلا وناديت تاكسى وركبته وطلبت من السائق أن يتبع الترام عن بعد وجلست لصق النافذة اليسرى وعيناى إلى مقصورة السيدات ، حتى بلغنا العتبة ، ونزلت زوجى من الترام واخترقت الميدان إلى محطة الترام رقم ١٥ الذاهب عن طريق الروضة ، فدرت بالتاكسى حتى وقف بى على كثب من قسم الموسكى ، رأيتها تقف فى زحمة من الخلق فجعل بصرى يدور فى الحلقة التى تحيط بها ويثبت عليها فى سرعة وجنون ، وجاء الترام فصعدت إليه ، ومضى بها ، فتبعته محطة بعد محطة حتى طوى الطريق إلى محطة عمارتنا ورأيتها تغادره وتعبر الطريق صوب البيت !. وانطلق بى التاكسى محطة أخرى ،

ثم غادرته وعدت إلى البيت مشيا على الأقدام ، وشعرت فى طريق عودتى براحة مشوبة بخجل ، وتساءلت فى حيرة : ترى هل فتاتى بريئة أم ينطوى الغد على ما لم أعثر به فى يومى ؟. ولما انتهيت إلى الشقة وجدت أمى قلقة لتأخرى ، وكذلك « رباب » فأخبرتهما بأن العمل يستدعى بقائى فى الوزارة لهذه الساعة مدة أسبوع على الأقل ، وحين الأصيل أخذت « رباب » فى ارتداء ثيابها وقالت لى إنها ستزور أمها ، ودعتنى — كعادتها كلما خرجت — إلى مرافقتها ، وتساءلت كيف يمكننى مراقبتها فى المساء ؟. ليس الأمر سهلا كما فى الصباح ، فالبيوت التى تتردد عليها فى أحياء متقاربة ، وهى تقصدها مشيا على الأقدام ، فيما ندر . فلا أستطيع أن آمن على نفسى — إذا تبعتها — من الافتضاح ، ولكنى إذا لزمتها فى تجوالها أمنت المساء ، ولم أدع لها فرصة لأمر ، مما يضطرها إلى مقارفة الاثم — إن كان ثمة إثم — فى نصف النهار الأول فتقع فى شباكى من حيث لا تدرى .. لذلك تقبلت دعوتها بسرور وقلت لها ضاحكا :

— سأذهب معك تفاديا من الملل الذى يقتلنى فى غيابك .

فسرت لقبولى دعوتها وقالت برجاء :

— ليتك تخرج معى دائما فليس أحب إلى من أن نذهب ونجىء معا ..

٥٢

وفى صباح اليوم الثانى خرجنا معا كعادتنا ، وأعدت ما صنعت بالأمس ، فاستقللت التاكسى إلى قهوة النوبيين واتخذت مجلسى بمدخلها ، وجاءت رباب فى موعد الأمس ومضت إلى الروضة ، وخطر لى وأنا أتبعها عينى أنه لو كان لها حساسية المرأة الغريبة — لم أذكرها منذ غادرت العباسية بالتاكسى أمس حتى وثب لذهنى هذا الخاطر — فالتفتت صوبى ووقع بصرها على فدارت على عقبيها وجاءت إلى فى دهشة تسألنى عما أتى بى إلى هذه القهوة ؟! تصورت هذا المنظر

فى فزع ، فانكمشت فى مجلسى هلعا ، وعضنى الندم والألم ، ولكن زوجى مالت إلى المدرسة آمنة مطمئنة ، غافلة عن العينين اللتين تراقبانها فى حذر وارتياب ، حتى غيبها الباب عن ناظرى ، فذهب عنى التوتر والخوف ، وشعرت برهبة حيال الانتظار الذى كان على أن أعانيه فى تصبر وتجلد نهارا آخر ، وألقيت نظرة دائرية ضجرة على شارع القهوة الجانبى وما يبدو لى من شارع العباسية والقهوة بزبائنها السود ، تلك الأماكن التى قضى على بأن أمكث بينها كالسجين المجنون أتخبط فى دياجير الأفكار وشوارد الأخيلة الجهنمية .. ولكننى كنت ذكرت المرأة الغريبة وأنا أراقب زوجى فى ذهابها إلى المدرسة ، فرفعت عينى إلى العمارة على الجانب المواجه للقهوة ، فرأيت النافذة والشرفة مغلقتين ، وتساءلت كيف لى بتحمل الانتظار نهارا كاملا بلا تسلية أقتل بها الوقت ؟. وكان تساؤلا مريبا أدارى به رغبة فى رؤيتها كرهت الاعتراف بها ، ولكن ماذا يدعونى إلى إنكار هذه الرغبة ؟. وهل هى رغبة فى التسلية وقتل الفراغ ؟. أجل إن المرأة قد أهاجت فى صدرى انفعالا جنسيا ، ولكن ليس فى هذا جديد ، فقد كنت ولازلت أتلقى هذه الانفعالات الجنسية من أقبح الآدميات ، وأقذرهن . ولم يغير الزواج من حالى ، ولم يشفنى من دائى ، فرددت إلى عاداتى القديمة جميعا ، وعاودت النظر إلى النافذة مرة أخرى ، وكأنى أعانى انتظارين !. فلأحاول فهم نفسى أكثر من هذا ، لست طالب تسلية فحسب ، إنى أرغب فى رؤيتها مرة أخرى ، لتلتهمنى بنظراتها كما فعلت بالأمس فيعاودنى ذاك الشعور العميق بالارتياح والزهو ، وأسترد بعض الثقة المسلوبة ، ولم أكد أستغرق فى أفكارى حتى قرع أذنى طقطقة النافذة ، فرفعت عينى ، فرأيتها وهى تنفتح على مصراعيها ، ولاحت وراءها المرأة ، والتقت عينانا ، ولم تكن تتوقع رؤيتى بطبيعة الحال . فتجلت فى عينيها دهشة واضحة ، ولبثت دقيقة أو نحوها وهى ترنو إلى ثم تحولت عنها واختفت ، وداخلنى سرور لا يتناسب مع شقاء المهمة التى جئت من أجلها إلى هذا المكان ، واتجه بصرى

صوب الشرفة المغلقة منتظرا أن تفتح . وقد كان فدفعت يد مصراعيها حتى اصطدما بعنف بالحائط على الجانبين ، ثم دخلت المرأة تجر الكرسى بجسمها القصير المكتنز ، وقد بدت لى فى الروب الوردى كبرميل إلا أنه مفصل تفصيلا بهيميا ، ووضعت الكرسى فى ركن الشرفة البعيد . وجلست عليه مستقبلة القهوة بوجهها ومدت ذراعيها على حافة الشرفة الخشبى ، وجها لوجه ، وليس بالشارع الجانبى دكان ، ولا يكاد يمر به أحد إلا فيما ندر ، وأما زبائن القهوة فعاكفون على ثرثرتهم فى الداخل لا يرون شيئا ، ومائدتى بموضعها من المدخل وحيدة ، فخلتنا منفردين على نحو ما . وشعرت فى اللحظة التالية بالارتباك والحرج ، ولم أدر كيف يمكننى البقاء هكذا تحت رحمة عينيها الوقحتين ، فتمنيت لو لم تحقق رغبتى الخفية ، وجعلت أنظر إلى الطريق البعيد تارة ، أو أعطف بصرى من فوق كتفى إلى داخل القهوة تارة أخرى ، شاعرا فى أثناء هذا وذاك بوقوع عينيها الثقيلتين على وجهى . إنى راغب فى وجودها ما فى هذا من شك ، ولكنى لم أحتمله ، وما من مرة أسترق إليها نظرة إلا وأجدها متفرسة فى وجهى فى هدوء وإمعان وبلا حياء أو تردد ، وإن هذا ليملأنى سرورا وخفة ولكنه يسومنى ما لا طاقة لى به من خجل وارتباك : إن عينيها تنظران طويلا ولكنهما لا تنظران فحسب ، إنهما تتحدثان بأجلى لسان ، كلما التقت عينانا خلتها تخاطبنى فأغض الطرف وكأنى أفر فرارا . ونظرت نحوها مرة فوجدتها تشعل سيجارة ، وأطفأت عود الثقاب بهزتين ثم رمت به نحوى لولا أن أرجعه الهواء ، وأخذت نفسا عميقا وقد ابتسمت عيناها ، فخفق قلبى بعنف وازدردت ريقى بصعوبة .. ماذا تريد هذه المرأة ؟.. كيف تواتيها الجرأة على هذا النظر العارم الوقح ؟. بل كيف تطاردنى هذه المطاردة الصامتة وهى لم تسبق لها بى معرفة ، ولم ترنى إلا مرة بالأمس ومرة أخرى اليوم . واستحوذ على الاضطراب ، وشغلت بالشرفة انشغالا تاما فلم أعد ألقى على باب الروضة إلا نظرات سريعة لا تكاد ترى شيئا . ورأتنى أنظر نحوها فوضعت رجلا على رجل جاذبة عينى قهرا

إلى جانب عريض من فخذتيها أحدث التقاؤهما واشتباكهما طيات سمراء مثيرة فشعرت بمثل سورة الخمر وجف حلقى وطغت عواطفى على حيائى فذاب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس النارية فحملقت فيها بلا خجل ولا تردد ، وما لبثت أن نهضت قائمة وغادرت الشرفة !. تركتنى فى ثورة جامحة . وقلت لنفسى ساخطا : أية هاوية تنفغر تحت قدمى !. ثم ثبت إلى الهدوء رويدا فأمضنى الأسف والخجل وألقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغمت كما غمغمت بالأمس : « لا أرجعها الله ! » . قد يكون الانتظار مؤلما ولكنه خير من هذا الشر الذى يتهددنى . ولم يكن يساورنى شك فى أنها ستعود ، وكان بوسعى أن أغادر القهوة إلى غير عودة ، وأن أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار ، ولكنى أقنعت نفسى بأن هذه القهوة المتوارية هى أصلح الأماكن قاطبة لمهمتى ، ولم تطل غيبة المرأة فعادت إلى مجلسها وفى عينيها نظرة باسمة ، وتملكنى الغضب لا لعودتها ولكن للسرور الذى استخفنى . وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا أقبح منها ، ولكنى عدت أخالسها النظر وأتمنى لو تأخذ راحتها وتضع رجلا على رجل . وعدت أتملى إيثارها لى بالنظر والاهتمام فازدهانى عطفها وشعرت بنهم الجائع إلى الاستزادة منه ، وهل كان هذا الاهتمام إلا لجمال وجهى ورشاقة قوامى ! وقلت لنفسى فى غرور صبيانى لعلها معجبة بالأعين الخضر والبشرة البيضاء والقامة الفارعة . وعلى حين بغتة انسل إلى خاطرى صوت هامس يتساءل فى سخرية : « وهل أغنى عنك جمالك شيئا ؟! » . وتمثلت لعينى تعاستى الزوجية فكأن قطعة كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسى فأخمدتها وخنقت أنفاسى . فترت نشوتى وحل محلها شعور بالغ بالشقاء والخيبة ، وتناسيت الشرفة ، وهرعت أفكارى إلى الروضة فتمنيت لو تنكشف لى الحقيقة مهما كانت بشعة قاسية لأنتهى من الأمر كله . تمنيت — إذا لم يكن من الأمر بد — أن أرى صاحب الخطاب يلاقى رباب ويحادثها . اليوم لا غدا ولا بعد غد ، بل كان فى ذهنى شىء آخر — فى تلك اللحظة — لا أدرى كيف أعبر عنه .

كأننى تمنيت أن يصدق سوء ظنى !. لست مخطئا ، كان هذا هو الواقع ، ولكن كيف أفسره ؟!. هل ثقل على الشك فرغبت أن أنجو منه ولو بهذا الثمن الفادح ؟. أو ضقت بهذا العجز الغريب الذى جعل من حياتى الزوجية مهزلة فتمنيت أن أجد فى جريمة زوجى مهربا من حياتى ؟! أو كان ضميرى الرازح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتمس عقابا وتكفيرا.؟!. على أنه لم يكن إلا إحساسا عابرا . ولم يبق منه أثر فى اللحظة التالية . وغشيتنى بعد ذلك كآبة وامتعاض ، ولم تلبث المرأة أن غادرت الشرفة تلبية لنداء من الداخل كما دلت عليه استجابتها فلم تعد للظهور . وانتظرت طويلا تتناوبنى الأفكار والأخيلة المفزعة حتى انطوى يوم الانتظار ورأيت رباب — كالأمس — قادمة نحو المحطة . ولم يجد جديد فرجعنا ، هى فى الترام وأنا فى التاكسى . وعند المساء اقترحت على أن نذهب معا إلى سينما رويال فقبلت بلا تردد ، وذهبنا معا .

٥٣

وفى صباح اليوم الثالث حملنى التاكسى إلى نفس الهدف ، وذكرت فى الطريق المرأة الغريبة فتمثلت لعينى بوجهها الغليظ وجسمها القصير المكتنز . ولم أكن أذكرها لأول مرة ذاك الصباح ، فقد لاحت لخاطرى فى البيت وأنا آخذ زينتى أمام المرآة فكانت داعيا لمضاعفة العناية بتمشيط شعرى وعقد رباط رقبتى ، وتولانى إحساس بالخجل والذنب والقلق ، وألقيت تبعة هذه الورطة على رباب وسوء تصرفها الذى ساقنى إلى هذه المراقبة الحمقاء ! ولكن هل أستطيع أن أتمنى عدم ظهورها فى الشرفة صادقا ؟ هل يمكننى احتمال يوم الانتظار الطويل بغير وجودها ، وبغير وقاحتها الممتعة ؟، واتخذت مجلسى من القهوة فجاءنى النادل ذو الجلباب الباهت ، والطاقية المائلة إلى قذاله كاشفة عن ذؤابة متصلبة ، والنعل المنجرد ، وحيانى تحية لعله لا يلقيها إلا للزبائن القدماء ،

فطلبت القهوة التى أحسوها بتقزز واستكراه، وتساءلت ممتعضا ماذا وراء هذا التجسس المقيت؟!. ألا يجمل بى أن أقلع عما أخذت نفسى به ظلما وسوء ظن؟. لقد عاشت زوجى يومين كاملين فى متناول بصرى فهل وقفت منها على ما يريب؟.! هل لاحظت عليها ضيقا أو تبرما؟ أليس كالعهد بها صفاء ومودة وسعادة؟! وطاب لى الفكر فداخلنى شعور بالطمأنينة والارتياح، ومر وقت فسارع إلى الملل، ونظرت فى الساعة، ترى هل أستخبرها عما فات من زمن أم أسألها متى تفتح النافذة؟ ومهما يكن من أمر فقد فتحت النافذة ولاحت وراءها المرأة بغلاظتها وتبرجها. اتسعت عيناها البارزتان دهشة ورفعت حاجبيها المزججتين كأنها تقول: «أما زلت ملازما مكانك!» ثم خفضت رأسها لتوارى عن عينى ابتسامتها وخفق قلبى خفقانا سريعا فى سرور، وعاودنى الخجل من نفسى فجعلت أقول لضميرى بأننى لا أتطلع لاثم، وإن مثلى حقيق بأن يسر إذا ما وجد من امرأة اهتماما، أجل إنى برئ، وما جئت هذه القهوة إلا لغرض لا شأن له بهذه المرأة، وسأنقطع بعد يومين عن هذا الحى كله فلا أعود أذكرها بخير أو بشر. أما المرأة فقد اختفت من النافذة، ثم فتحت الشرفة ودخلت بكرسيها، وجلست فى الركن المواجه لى، وفى عينيها ابتسامة من لم يعد بحاجة إلى تعارف. بت اليوم أقدر على احتمال هذا الموقف، ولكننى مازلت أتظاهر بالنظر إلى الطريق العام مختلسا من آن لآن نظرة إلى الساقين المدملجتين خلال قضبان الشرفة الحديدية، ولم يفارقنى الارتباك بل لعله تضاعف بهذه الابتسامة التى تلوح فى عينيها كلما التقت عينانا، يا لها من امرأة جسور، بوسعها أن تفعل ما تشاء بلا خوف، أما أنا فليس لدى إلا غض البصر!. أيدور لها بخلد أننى متزوج؟ وأننى ما جئت إلى هذه القهوة إلا كى أضبط زوجى متلبسة بجريمة الخيانة؟! ترى هل تبقى على اهتمامها بى إذا عرفت هذا كله؟ شعرت عند ذاك بخزى أليم. ثم ساءلت نفسى عنها من تكون. أهى زوجة أم أرملة؟! وماذا تريد؟!. وحدث أن ارتفقت المنضدة بيسارى وافترشت ظاهر يدى بذقنى، فما كان منها إلا أن ارتفقت حافة الشرفة بيسراها

وافترشت يدها بذقنها وهى ترنو إلى فى دعابة !. وتلقيت الدعابة بخجل جعلنى لا أرى شيئا ، وأرسل قلبى ضربات عنيفة طنت فى أذنى . إنها تغازلنى صراحة ، وأشعر بأن « الرجولة » تقضى بأن أخرج من هذا الجمود ولكنى لا أبدى حراكا ، واشتد بى الارتباك فبت فى حال يرثى لها . وسحبت يسراى ، وشبكتها بيمناى على صدرى فما أسرع أن سحبت يدها وشبكتها بالأخرى على صدرها وقد ازدادت ابتسامتها إتساعا . وغلبتنى ابتسامة فابتسمت وأنا أطرق فى خجل لا يوصف . وأطلقت هذه الابتسامة شحنة حبيسة من ارتباكى فسرى عنى قليلا ، واستطعت أن أحس بما يستخفنى من سرور . وشعرت شعورا قويا بالفارق بين عمرينا فلذنى هذا الشعور ، وتمنيت لو يتقهقر بى العمر إلى العشرين أو ما دونها . رباه .. إنى أهوى بلا وازع . ولكنى لم أعد أبالى شيئا . ولاحت منى التفاتة إلى شارع كال فصادفت عند ناصيته شبح فتاة تنعطف إلى اليسار فحال بيني وبينها جدار القهوة . خلتنى رأيت معطفا رصاصيا كمعطف رباب فخفق قلبى خفقة عنيفة كاد ينخلع لها . ما الذى دعاها إلى مغادرة المدرسة فى هذه اللحظة ؟ وما الذى جعلها تتجه إلى اليسار على حين أن طريق المحطة إلى اليمين فيما لو فرض أن عذرا دعاها للعودة ؟.. وانتفضت قائما وهرولت مسرعا إلى الطريق العام بلا تبصر ولا احتراس ، ثم نظرت صوب المنعطف الذى سارت إليه ذات المعطف الرصاصي ، فرأيتها كانت امرأة فى الخمسين تحث الخطى على الطوار ! وتنهدت من الأعماق وغمغمت كعادتى كلما نجوت من مأزق « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، وعدت إلى مقعدى وبى ما يشبه الإعياء والخور . لن أنسى هذه الخفقة التى كاد يتصدع لها صدرى ، فماذا يكون أمرى لو وقع المحذور !. ورفعت رأسى صوب الشرفة فرأيت المرأة تحملق فى وجهى دهشة وعيناها تتساءلان عما حل بى ؟! وارتسمت على شفتى ابتسامة ! أجل أنسانى الانزعاج خجلى فابتسمت . لم يعد يخفى ما بيننا من ابتسام ، وحديث صامت يعبر تارة بالعين وتارة بالحاجب !. ولم يعد يخفى على ما يعتلج فى صدرى من

عاطفة جهنمية . ولو كان ما بى حب لركبنى الخوف وقدرت العواقب ، ولكن بدا لى الأمر واضحا لا لبس فيه فلم تزايلنى الثقة . ولبثت ساعة أو أكثر أتلقى هذا الغزل فى صمت وحياء وسرور جنسى عجيب ، ثم نهضت المرأة قائمة وهى تتمطى فانفرج الروب عن صدر ريان منتفخ يكاد يتهتك من ضغطه القميص الوردى الشفاف ، ثم ألقت على نظرة وداع باسمة ، وغمزت بعينها قبل أن تغيب وراء الباب ، تركتنى فى سعير التهمت ناره ساعات الانتظار الباقية ، وفى ميعاد الانصراف غادرت رباب المدرسة واتجهت كالعادة إلى المحطة . وعدنا إلى البيت كل على طريقته . ولم نخرج مساء إذ زارتنا أختى راضية وزوجها فقضينا سهرة عائلية ممتعة .

٥٤

اليوم الرابع : قالت لى رباب ونحن ننتظر الترام على طوار المحطة :

ـــ سأتأخر اليوم عن ميعاد عودتى لأنى سأعود زميلة مريضة تغيبت عن المدرسة من يومين .

وألقيت عليها نظرة مريبة لو رأتها لساءت العاقبة . ثم خفضت بصرى بسرعة ، كاظما عواطفى ، وسألتها بصوت ينم عن عدم الاكتراث :

ـــ أين بيتها ؟.

ـــ فى مصر الجديدة .

ـــ ومتى تعودين ؟.

ـــ وقت الزيارة ومسافة الطريق .. لن أتأخر عن السابعة .

بدأت تتملص من ظلى الثقيل .!. واختلست منها نظرة فبدت لى جميلة رائعة ، ثم ركبتنى نزوة طارئة فتمنيت لو أهوى عليها بفأس فأشقها نصفين . وجاء الترام فصعدنا إليه وأنا فى أسوأ حال ، وغادرته عند محطة الوزارة وناديت التاكسى ،

فطار بى إلى القهوة النوبيين . واستقبلت النافذة المغلقة بنظرة طويلة ، ثم عدت إلى أفكارى . تلك الزيارة فى مصر الجديدة ! لن أدعها تذهب وحدها . كان تصميما لا رجعة فيه ولكن هل ينجح مسعاى ؟ هبنى تأثرتها إلى مصر الجديدة ثم رأيتها وهى تدخل بيتا أو عمارة فمن يدرينى بما يقع وراء الجدران ؟ قد تكون فى عيادة زميلة حقا ، وقد تكون فى أحضان عشيق !. وانتفضت انتفاضة قاسية ، وعضضت على أسنانى حتى سمعت صريرها كالطقطقة . ولكنى أبيت أن أثبط عزيمتى . لأتبعنها فلعلى أراهما معا فى الطريق ، ولعلى أجد ضبط الجريمة أيسر مما أتصور . ما أفظع هذا ، ولكن ما أروحه لى كذلك ، فإذا لم يكن من الكارثة بد فمن الرحمة أن تقع سريعا ، واستحوذ على القلق والجزع ، وأيقنت أننى لن أستطيع مع اليوم صبرا . ولاحت منى التفاتة إلى النافذة المغلقة فتعلق بها بصرى فيما يشبه الاستغاثة ، وتملكنى إحساس عنيف بالضغط الذى يهتصرنى وتلهفت نفسى على منفذ تتسرب منه بعض الأبخرة المزمجرة فى أعماقها . أى تنفيس ولو جر وراءه الإثم والخزى . وعند العاشرة فتحت النافذة وطالعنى الوجه الغليظ بابتسامة مشرقة . وتحول انتباهى إليها فأنقذنى من نفسى ، وثبتت عيناى عليها فى جرأة لا عهد لى بها ، وانبسطت أساريرى وأنا لا أدرى فردت التحية بمثلها . واختفت من النافذة فسبقتها عيناى إلى الشرفة ولكن طال الانتظار عن المعتاد ، ثم بدت مرة أخرى فى النافذة ، فإذا بها قد ارتدت معطفا وأخذت أهبتها للخروج . وخطر لى خاطر كالبرق ، هل تدعونى إلى مرافقتها إلى مكان ما ؟ وغمرتنى موجة من السرور والحيرة والخوف . ما أحوجنى إلى هذه الدعوة ، ولكن هل أترك رباب فى هذا اليوم الحاسم ؟! إنه بالعمر كله ، وإن مصيرى معلق بمصر الجديدة فكيف أقاوم دعوة المرأة إذا دعتنى ؟!. وفرغت المرأة من زينتها ، ثم وقفت تنظر إلى فى هدوء وابتسام . ونظرت إلى شىء بين يديها فتتبعها بصرى فإذا بأناملها تطوى ورقة صغيرة ، ثم تثنيها من الطرفين ، وتفحصت الطريق بنظرة شاملة ثم رمت بها فسقطت على كثب من قدمى .. وتناولتها بعجلة وبسطتها وقد

سطع منها شذا طيب مخدر فوجدت بها هذين السطرين : « انتظرنى اليوم فى تمام السابعة مساء عند الجسر فى نهاية خط الترام » . وداخلنى ارتياح إذ أنها منحتنى مهلة عن غير قصد ، ولكن ترى هل يسعنى إنجاز الوعد إذا ارتبطت به ؟ ألا يقع فى مصر الجديدة ما يعوقنى عنه ؟. ولم أجد فسحة للتفكير والاختيار فقد حدجتنى بنظرة متسائلة وهزت رأسها مستفسرة ، فلم أملك أن حنيت رأسى بالإيجاب . وابتسمت إلى ابتسامة حلوة وحيتنى بإيماءة من رأسها ثم أغلقت النافذة ، فأدركت أنها ذاهبة إلى زيارة أو نحوها . هكذا ارتبطت بالموعد مدفوعا بضعفى الذى يجهل المقاومة وإن كنت لا أدرى أين أكون وقت أزوفه ، وهكذا سقطت فى نفس الخطيئة التى أتهم بها زوجى !. أيخلق بى أن أسر بهذه الخطوة الجسور أم أندم عليها ؟ وهل ينتهى اليوم بحب أو بمأساة ؟ لشد ما كرهت الحياة فى تلك اللحظة . واندمجت فى تيار شعورى ألوان من المشاعر المتناقضة من سرور إلى خوف ، ومن أمل إلى يأس ، ومن حماس إلى فتور ، ثم علته موجه طاغية من التلهف على المغامرة لواذا من الهم الذى ينيخ على فيكاد يخرم بى الأرض . وطويت الورقة بعد أن تلوتها عشرات المرات ثم دسستها فى جيبى . وانفرد بى الانتظار حتى فتحت الروضة أبوابها ولاحت لى رباب قادمة من بعيد . هذه هى الساعة التى أتربص بها منذ أربعة أيام هى أشقى أيام حياتى . سأتبعها ما فى ذلك شك تاركا الموعد للظروف وحدها . وتوقعت أن تميل إلى اليسار ، صوب محطة الترام الصاعد إلى مصر الجديدة ، ولكنها عدلت إلى اليمين ، إلى المحطة المعتادة التى تنتظر بها كل يوم !. وأدركت لتوى أنها اختلقت قصة الزميلة المريضة لتنتحل عذرا لغيابها ، واضطرب صدرى اضطرابا لم أدر معه كيف أتمالك أنفاسى . هل آن لى أن أنتهى من هذا العذاب ؟ ورمقتها بموقفها من الطوار بنظرة نارية وأنا أعجب لهذا الاحتشام الزائف الذى يطوى فى أعماقه شرا فظيعا وفسقا مخجلا . ثم جاء دور المطاردة التى أرجو أن تكون مجدية هذه المرة . فصعدت إلى الترام ، وناديت التاكسى ، وجعلت ناظرى إلى مقصورتها لا تتحولان عنها . ترى أين

تغادر الترام ؟ أين تفعل فعلتها ؟ لشد ما يكبر على أن أتصورها فى أمثال هذه المواقف المريبة ! ولئن تكذبنى الحقيقة الواقعة وتكشف لى عن وجهها الشائه الذميم فما يشبعنى ويطفئ غلى أن أدك رأسها بأحجار هذه المدينة الهائلة ، ماذا يدفعها إلى هذا الانزلاق الآثم هى التى تعف عن علاقة الزوجية المشروعة ؟أم أنها لا تبغيها إلا عوجا ؟. لشد ما مزقتنى الحيرة ، لشد ما عذبنى الغضب والحقد. على أننى منيت نفسى بالراحة من هذا العذاب كله ، والخلاص من هذه الحياة المرة الطافحة بالخيبة والشك . سينتهى كل شىء بعد دقائق معدودات ، فلا يبقى داع لأن أسأل نفسى أهى بريئة أم مذنبة ، ولا يسوقنى وسواس لتجشم أهوال المراقبة والتجسس ، وسيخلو البيت إلا من الوجوه القديمة الآمنة ، والحياة الهادئة الوادعة . أجل وددت لو أحطم الرأس الذى حطم قلبى ، ولكننى أضن بنفسى عن أن تضيع بسبب امرأة آثمة . كان غضبى قويا وحشيا ، ولكن حبى السلامة كان أقوى وأعمق . ألم يكن غريبا أن تدور أفكارى حول محور الخوف والسلامة حتى فى تلك اللحظة المخيفة ؟!.. وتراءت لى العتبة فتساءلت مرة أخرى أين تغادر الترام ؟ ورأيتها فى محطة الميدان شأنها كل يوم ، فنزلت من التاكسى أن أفقدها فى الميدان المكتظ . ثم رأيتها تخترقه إلى المحطة الأخرى التى تنتظر بها عادة ، فدرت مع محيط الميدان ووقفت عند جدار القسم . وما أحنقنى إلا أن تقف فى احتشامها المألوف هادئة ساكنة كأننى لا أشتعل من أجلها نارا .. واستبعدت أن تقابل أحدا فى هذه الزحمة فتطلعت إلى رؤية الترام الذى تصعد إليه ، وتتابعت المركبات بأرقامها المختلفة حتى جاء ترام الروضة فسارعت إليه واستكنت فى مقصورة السيدات . وتولتنى الدهشة ، أيكون الأمر فى حينا ؟! وهرعت إلى تاكسى وتبعنا الترام . وجعل قلبى يدق فى عنف ، وتشتد ضرباته كلما مررنا بمحطة .. ثم دخلنا شارع قصر العينى ، وقطعنا محطة وثانية وثالثة ورابعة حتى بلغنا محطة بيتنا ، فما راعنى إلا أن أراها تغادر الترام . ونظرت من نافذة التاكسى الخلفية فرأيتها تعبر الطريق وتدخل باب عمارتنا !. ونوسدت

مسند المقعد وأغمضت عينى فى إعياء وذهول . ماذا وراء هذا كله ؟. هل فقدت عقلى ؟. أما من نهاية لهذا العذاب ؟. وعدت إلى البيت فوجدتها لم تكد تفرغ من ارتداء الروب بعد أن خلعت ملابسها ، وبادرتها قائلا فى دهشة :

ـــ حسبتك فى زيارة زميلتك !.

فافتر ثغرها عن ابتسامة وقالت :

ـــ لم يكن بها إلا وعكة خفيفة وقد عادت اليوم إلى عملها دون أن تجشم أحدا مشقة عيادتها .

ترى هل تنتهى وساوسى جميعا إلى قبضة من الريح ؟. ولا أتمنى على الله من شىء إلا أن أسكن إليها فى طمأنينة وسلام . وقالت لى وأنا أبدل ثيابى :

ـــ دعتنى خالتى بالتليفون إلى زيارتها مساء اليوم وكلفتنى أن أنوب عنها فى دعوتك ..

فقلت لها وأنا لا أدرى ماذا أقول :

ـــ إن شاء الله .

وأدركت فى اللحظة التالية أننى تسرعت بإجابتى تلك إذ ذكرت الموعد عند جسر العباسية . ولكن هل أروم حقا أن أذهب إليه ؟!. إنى الآن بعيد عن النافذة والشرفة وتأثيرهما أفلا أزال أفكر فى المرأة تفكيرا جديا ؟.. أى شيطان يغرر بى ؟!. إن قلبى لحبيبتى دون سواها ، فما بال نداء المرأة الغريبة قهارا لا يقاوم ؟!. وتفكرت طويلا وما أزداد إلا استسلاما للنداء الشيطانى ، حتى لم يعد يحول بينى وبينه إلا ما أخذت به نفسى من ملازمة زوجى مساء . ولكن أكانت تدعونى إلى زيارة خالتها لو كانت تضمر سوءا ؟! وعاودت التفكير فى جهد لأنه ليس أشق على من الاختيار بين أمرين . وترددت طويلا قبل أن أقول :

ـــ أوه لقد نسيت .. إنى مرتبط بموعد هام ..

فتساءلت فيما يشبه الكدر !

ـــ أتعنى أنك لا تستطيع الذهاب معى ؟.

فقلت وأنا أشعر بأن قدمى تنزلق إلى هاوية ما لها من قرار :

ــ اعتذرى عنى للست خالتك ..

٥٥

بلغت جسر العباسية قبل الميعاد بدقائق .. كان الجو لطيفا والظلام شاملا فاخترت موقفا تحت مصباح غازى .. ذهبت إلى الموعد بحال من القلق والتوتر ذكرتنى بحالى يوم حملتنى العربة إلى حانة شارع الألفى لأول مرة .. كل هذا من أجل امرأة لا جمال لها ولا رشاقة ، يخجلنى والله أن أظهر معها أمام الناس !. ولما اقترب الميعاد ركبنى الخوف الذى تناوبنى كثيرا فى فترة الانتظار منذ العصر ، ماذا يحدث لو تكرر وقوع المأساة ؟.. آ .. لا يزال أمامى متسع للهرب . ولكنى لم أبد حراكا . إن هذه المرأة هى فرصتى الوحيدة لاسترداد الثقة الضائعة . وملكتنى روح مغامرة لا عهد لى بها قالت لى : جرب ، لن تخسر شيئا ، وعلى أسوأ الفروض فلن تخسر شيئا جديدا .. واستيقظت من أفكارى على سيارة متوسطة الحجم تقف أمامى بحذاء الطوار ، ثم انخفض زجاج نافذتها الجانبية وبرز منه وجه المرأة الغريبة وهى تجلس أمام عجلة القيادة . ابتسمت إلى ، ودعتنى إلى الالتفاف حول السيارة لأجلس إلى جانبها من الباب الآخر ، فأطعت فى اضطراب وفى أقل من ثانية كنت إلى جانبها ، فجذبت الباب والتصقت به وأنا لا أكاد أشعر بما حولى من فرط الحياء . وأحسست بعينيها على خدى اليسرى ، فلازمت النظر إلى الأمام ، حتى ضحكت ملء فيها بصوت يعد إلى غلظة وجهها وجسمها رقيقا وقالت بلهجة تنم عن التحريض :

ــ لم يعد من داع للحياء !.

وانطلقت بالسيارة فى مهارة ويسر وهى تقول :

ــ لنذهب إلى طريق الأهرام ..

اندفعت بسرعة فائقة فولى قلبى خوفا ، وجعلت كلما اعتاقها عن الاندفاع زحام أو إشارة المرور أتنفس الصعداء .. والأعجب من هذا أنها خففت من سرعتها الجنونية حين تركت وراءها الطرق المزحومة . واسترددت أنفاسى ، واسترقت إليها النظر ، فرأيت جانبا من وجهها الغليظ عن كثب ، وذاك الصدر المكتنز ، وتمثل لعينى صورة ساقها البرونزية المرتوية ، وذكرت أن قيراطا واحدا يفصلها عن ساق ، فاضطرب دمى . وأدهشنى هدوؤها وطمأنينتها فكأنها تصاحب زوجها أو أخاها لا رجلا غريبا لا يتمالك نفسه من الحياء والارتباك .

سألتنى دون أن تحول عينيها عن الطريق :

ـــ ماذا أدعوك ؟.

فقلت فى اقتضاب :

ـــ كامل رؤبة ..

واكتفيت بذلك عن ذكر اللقب الذى كثيرا ما يثير الضحك ، فتمتمت قائلة « عاشت الأسماء » ، وشعرت بأنه ينبغى أن أسألها كذلك عن اسمها . وتخيرت عبارة مناسبة ، واستجمعت قواى للفظها ، ولكنها لم تنتظر ، وقالت ببساطة :

ـــ ادعنى عنايات إذا شئت .

وغمغمت فى خجل « عاشت الأسماء » ولكنها لم تسمع إلا همسا ، والتفتت نحوى فجأة وقالت مبتسمة :

ـــ يا له من حياء غريب !. ألم تعلم بأن الحياء موضة قديمة ؟. وإن العذارى أنفسهن نبذنه بلا أسف ؟ ففيم تستمسك به أنت ؟.

فندت عنى ضحكة مرتبكة ولم أنبس بكلمة ، فاستطردت قائلة :

ـــ ولكن دعنا من هذا الآن فالدواء الناجع لا ينفع إلا فى حينه ، وخبرنى بالله عليك ما الذى دعاك إلى مخالطة النوبيين فى تلك القهوة القذرة ؟!.

وتفكرت قليلا متحيرا حتى وجدت فى الكذب منجى فقلت :

ـــ كنت يوما راجعا من مشوار طويل فلم أجد من مكان أستريح فيه إلا هذه

القهوة .

ــ هذا عن أول يوم ، وما قولك عن اليوم الثانى والثالث ؟

وجاءنى على البداهة جواب حسن ، فتغلبت على الحياء وقلت بصوت منخفض :

ــ إنك المسئولة عن بقية الأيام ..

فلحظتنى ضاحكة وقالت بمكر :

ــ أحقا تقول أم أردت التهرب بالغزل ؟.

فغمغمت :

ــ بل قلت الحق ..

فرمت بنظرها إلى الطريق فى دلال وقالت :

ــ فلماذا إذن تلتصق بالباب مبتعدا عنى كأنك تكره لمسى !

وتولانى الاضطراب ، ولم أدر ماذا أفعل ، ثم قلت كالمعتذر :

ــ ولكننا فى الطريق :

وأغرقت فى الضحك ثم قالت :

ــ نحن فى السيارة لا فى الطريق . إلا أن الطريق نفسه لا يمنع أمثالنا من الالتصاق إذا شاءوا . لا تتوار وراء الأعذار الكاذبة . خبرنى ما عمرك ؟!.

ــ فى الثامنة والعشرين من عمرى .

ــ يا للعار !.. وكم امرأة عشقت ؟.

ولذت بالصمت شاعرا بأنه لا قبل لى بها . وكأنها عجبت لصمتى فقالت بإنكار :

ــ أتريد أن تقول إنك لم تعشق امرأة من قبل ؟!. هل أنا أول امرأة فى حياتك ؟.. رباه وعيونك الخضر ألم تجذب أحدا !؟ لا شك أننى أدركتك وأنت مشرف على الغرق ، فليجزنى الله على صنيعى خير الجزاء .. رباه من يصدق هذا ؟ كيف تعيش وماذا تصنع بحياتك ؟.

ولم أحر جوابا ، وأثر فى قولها تأثيرا موجعا لم تدرك كنهه . ولعلها قرأت فى وجهى الارتباك فرحمتنى بالصمت مليا . ثم سألتنى عن عملى فأجبتها بأننى موظف .. واستدركت قائلا إننى فى إجازة قصيرة . وساد الصمت مرة أخرى ، وفى أثناء ذلك تزحزحت قليلا صوبى حتى مس منكبها منكبى فى رفق ، فبعثت فى قلبى المنكمش حياة ويقظة فتتابع وجيبه على خوف وخجلى ولما لازمت جمودى والتصاق بالباب قالت باقتضاب وهى تكتم ضحكة :

— منى خطوة ومنك خطوة . ألا زلت هيابا ؟!.

ولاقى منى النداء نفسا راغبة وقلبا خائفا ، ولكن جالدت الخوف مجالدة وتزحزحت فى حذر وإشفاق حتى مس جانبى — من أسفل الساق إلى أعلى المنكب — لحما طريا يتطاير منه عرف طيب ساحر ، ولبثت هنيهة متمليا مسه اللذيذ وكل جوارحى تنتفض ، حتى التفتت نحوى وشعرت بأنفاسها تتردد على خدى ، وهمست فى أذنى :

— أما زلت هيابا ؟!.

كلا ، لقد أسكرتنى العاطفة . وكانت أنفاسها لا تزال تتردد على خدى فمال رأسها نحوى حتى غاص فمى فى شفتيها الرابيتين وسرعان ما حولت رأسها عنى إلى الطريق أمامها ، فأحطت خاصرتها الغليظة بيسراى وانهلت على جانب عنقها تقبيلا . وانحرفت بالسيارة إلى جانب الطريق وهى تغمغم ضاحكة « رويدك » ثم أوقفتها وهى تقول :

— لنستريح هنا قليلا فهذا مكان آمن ..

وألقيت نظرة على الخارج فوجدتها اختارت موقفا وسيطا فى المسافة بين مصباحين من مصابيح الطريق ، تشمله الظلمة ويكتنفة الخلاء من الجانبين ، وفيما عدا أزيز السيارات التى كانت تمر بنا مرور البرق كان الصمت عميقا محيطا ، سألتها هامسا :

— أليس ثمة خطر ؟

فقالت وهى تلف عنقى بيمناها :

— إنه آمن من بيتك ؟

واستدارت فى جلستها حتى مس منكبها المسند ، وثنت ساقها اليمنى تحت فخذتها اليسرى ، فصرنا وجها لوجه ، وانبرى لى صدرها العالى ينحسر عنه عنق الفستان ومال وجهى نحو صدرها فتوسده فى حنان وذهول ، وأسكرتنى رائحة جسم آدمى أشهى من العرف الذكى . وسكنت إليه ما طاب لى السكون ويدها تعبث بشعر رأسى . ثم رفعت إليها وجهى والتهمت شفتيها ، والتهمت شفتى ، وكأن كلينا يأكل صاحبه ويزدرده ، وولى الخوف إذ لم يعد له مسوغ ! وامتلأت حياة وجنونا وثقة لا حد لها ، لا أدرى كيف واتتنى الثقة ، كانت المرأة سيدة الموقف فوجدت فيها المرشد الذى ضللته حياتى كلها ، أعادت إلى الثقة والطمأنينة لأنها أخلتنى من كل مسئولية وأخذتنى بالهوادة والرفق ، أدركت فى تلك اللحظة — أكثر من أى وقت مضى — أن إلقاء أية تبعة على خليق بأن يفقدنى نفسى ، وأننى لا أجد هذه النفس المتهافتة إلا بين يدين ثابتتين قويتين . ذابت الدنيا فى نشوة جنونية ساحرة خرجت منها سكران بخمر الظفر والارتياح العميق . وشعرت من الأعماق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة ، بل هى الحياة نفسها والكرامة والرجولة والثقة والسعادة . افتر ثغرى عن ابتسامة ظفر وسعادة ، ورمقتها ، بنظرة امتنان لم تدرك عمقه وهيهات لها . إنى بين يديها أتمرغ فى التراب ، ولكنه تراب طيب حنون يجود بالثقة والسعادة . وأدركت أخطاء الحياة الماضية ، وذكرت زوجتى المحبوبة فى حزن وقنوط أوشكا أن يقصفا بعمر الساعة الساحرة ، ولم أتردد عن تحميلها تبعة تعاستى كلها !.. هكذا بدا لى الأمر . على أن قلبى هفا إليها حتى فى تلك اللحظة وفى ذلك المكان !. أما المرأة فقد ضربت أنفى بأنملتها وسألتنى :

— مبسوط ؟..

فقلت من قلبى :

ــ جدا .

وأخذت يسراى بين راحتيها ورنت إلى طويلا ثم غمغمت :

ــ يا لك من طفل رائع ..

فتضاحكت قائلا فى حياء :

ــ طفل فى الحلقة الثالثة !

ولاحت فى عينيها نظرة جد واهتمام ، وانتبهت إلى أصابعها وهى تتحسس خاتم الزواج ، ثم ألقت عليه نظرة ذاهلة وهتفت بى :

ــ أأنت متزوج ؟!. لم يدر لى هذا بخلد !!

واستحوذ على الخوف ونظرت إليها صامتا . وعادت تقهقه ضاحكة ثم قالت :

ــ كيف لم يخطر لى هذا على بال ؟!. ولكن كيف أصدق هذا ؟!. رباه جريت ورائى ؟.. ألا تعجبك زوجك ؟! يا لك من فاسق !.

فخفقت عيناى فى حيرة وارتباك ولم أنبس بكلمة ، فسألتنى باهتمام :

ــ ألا تحب زوجك ؟

وضايقنى السؤال ، وترددت لحظة لا أدرى ماذا أقول ،ثم أرغمنى حرج الموقف على أن أقول بصوت لا يكاد يسمع :

ــ إنها ست طيبة !

فقالت بعجلة :

ــ إنى أسألك ألا تحبها !

وشعرت بأن الكذب ينقلب فضيلة فى حضرة النساء فقلت باستياء أخفيته بابتسامة :

ــ كلا ..

فانبسطت أساريرها وسألت باهتمام :

ــ كم مضى على زواجك ؟

فقلت وقد أهاجت سيرة الزواج أشجانى :

ــ قرابة عامين !

ــ ألم تكن تحبها قبل ؟

ــ كلا ..

ــ زوجوك منها بغير سابق معرفة ؟

ــ نعم ..

فهتفت بغضب :

ــ يا له من إثم لا يغتفر ، وهى ألا تحبك ؟!

فقلت صادقا لأول مرة :

ــ أنها لا تحب الحب !

واتسعت عيناها دهشة ، وفتحت فاها ــ رأيت فى جانب فمها سنتين ذهبيتين لأول مرة ــ وقالت : آه ــ (بصوت ممطوط) .. فهمت كل شىء . توجد نساء على هذه الشاكلة ، لم لا ، ليس كل النساء بالكاملات ..

وتبادلنا نظرة طويلة فى ابتسام وصمت ، ثم سألتها ضاحكا :

ــ وأنت ، ألست متزوجة ؟

فقالت وهى لا تحول عينيها عنى :

ــ لست إلا أرملة ، كان زوجي لواء عظيما يدعى على باشا سلام ، تزوجنى على كبر وتزوجته على صغر ، ثم مات من بضع سنين فعدت إلى أمى نعيش معا ، والله وحده يعلم مع من أعيش غدا !!

جعلت تصفر بفمها وهي تبسم إلى . ثم تناولت حقيبتها واستخرجت منها فرشاة بودرة ومسحت على وجهها وعنقها وصففت خصلات شعرها المبعثرة ، وراحت تلقى نظرة على وجهها فى مرآة صغيرة مثبتة فى جانب السيارة وهى تسألنى :

ــ متى تنتهى إجازتك ؟

ـــ بعد أيام قلائل ..

فقالت بهدوء :

ـــ سنلتقي كثيرا ، كل يوم إن أمكن ، ولنا فى السيارة متسع حتى نجد مكانا صالحا ..

واستوت جالسة أمام عجلة القيادة ، ولكنى أمسكت بمعصمها ، ثم أحطت عنقها بذراعى ، وضحكت ضحكة قصيرة ، وضمتنى إلى صدرها الرابى وهى تقول :

ـــ لماذا تركتنى أستعيد زينتى يا شاطر ؟!

٥٦

عدت إلى البيت فى تمام العاشرة ، ولم أسائل نفسى عما إذا كنت قد أخطأت لأن ما استرددته من السعادة والثقة كان فوق الخطأ والصواب ، وكانت أمى قد نامت ، أما رباب فقد جلست فى الفراش تطالع مجلة . ما أن رأيت وجهها الصبيح حتى أشرق بروحى نور بهيج وأحسست بأننى أنتقل من دنيا إلى دنيا أخرى . وآلمنى تقزز مفاجئ لما صنعت بنفسى ، ولكنه لم يتمكن منى ، فأنسانيه ذلك الحجاب الكثيف الذى يحول بينى وبين زوجى .. واستقبلتنى بابتسامة وأبلغتنى سلام خالتها وعتابها ، ثم أخبرتنى بأن عشائى جاهز على السفرة فمضيت إليه والتهمته بنهم متعب جائع . وعدت إلى مخدعنا وأنا أتساءل عما تفعل رباب لو علمت بذنبى ؟!. وأخبرتنى بأنها دعيت إلى إعطاء درس خاص لابنة قاض كبير بالسنة الأولى الابتدائية وسألتنى عن رأيى . ومع أننى لم أقف منها على ما يريب إلا أننى لم أرتح للاقتراح وقلت :

ـــ حسبك ما تتجشمين من مشقة طول النهار !

فقالت بغير اكتراث :

ـــ صدقت ..

وسررت لموافقتها السريعة ، وقلت لنفسى فى شبه ندم : « هيهات أن أقع على شبه شك ؟ » . واضطجعت إلى جانبها ، فنحت المجلة جانبا ، وأطفأت النور واضطجعت بسلام . كان النوم حريا بأن يسارع إلى جفنى ، لكن حالت دونه يقظة غريبة فى النفس ، طار خيالى إلى عنايات ، والسيارة فى طريق الهرم ، إنى خائن ! أعجب بها من حقيقة ! فمن يصدق أن يتخذ الزوج العاجز عشيقة ؟!. تمنيت فى تلك اللحظة لو تعلم زوجى بهذه الحقيقة العجيبة ، على أنها لم تكن إلا لحظة عابرة ، وسرعان ما تقبض قلبى خوفا وخجلا . لقد تعقبت زوجى وبى شك فى خيانتها فعدت خائنا لا شك فيه ، أما هى فما وقفت منها على غير الاستقامة والاحتشام . كيف كان نصيبى منها العجز والإخفاق على حين أننى نعمت بين يدى المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية ؟! لفتنى حيرة شديدة ، تلهفت نفسى على بصيص من النور .

وزاد من حيرتى أننى شعرت شعورا عميقا بأننى لا غنى لى عنهما معا . بل لم أجد سبيلا إلى المفاضلة بينهما ، فهذه روحى وتلك جسدى ، وما عذابى إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده . ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل المتسم بالطهر والكمال ؟ ولكن ماذا يبقى لى من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى ؟. وأغرقت فى التفكير إغراقا لم يدع للنوم سبيلا إلى ، ومضت تتراءى لعينى رباب ثم عنايات ، وانحرف الخيال بغتة إلى أمى بلا داع فاتخذت مكانها فى شريط هذه الصورة المتلاحقة !. وتناهت بى الحيرة حتى شملتنى حال من الحزن والكآبة ..

بيد أن أحاسيس الليل قل أن تعيش فى ضوء النهار . إنها فى الليل تندمج فى تيار لحن غامض ينطلق فى جو أثيرى يكتنفه الضباب ، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلا أصداء خفيفة لا تمنعنا من أن نلتمس سبيلها فى الحياة . جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة إلى العباسية ، ترى أقتفى أثر رباب حقا أم ألبى ذاك

النداء المطاع ؟ إن سيرة زوجى لا تدع مجالا للشك ، سرها كجهرها ، فلا شك أنها صدقت فيما قالت عن الخطاب المشئوم ، وإذا كان ثمة خائن فهو أنا .

وذهبت إلى قهوة النوبيين فما أوفقها رمزا لحبى الجديد . وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة . وغابت برهة ثم بدت لى مرة أخرى وقد أخذت أهبتها للخروج ، وأشارت إلى إشارة ذات معنى أن أنتظرها فى مكان الأمس . لم أتوقع أن نتقابل صباحا بيد أننى لم أتردد فناديت النادل ودفعت له الحساب ومضيت من فورى إلى الجسر ، وخيل إلى — فى طريقى — القصير — أننى أدركت حقيقة من حقائق الحياة ، هى أنه لا توجد ثمة حركة بين الرجال إلا ووراءها امرأة ! المرأة تلعب فى حياتنا الدور الذى تلعبه قوة الجاذبية بين الأجرام والنجوم . فما من رجل « حى » إلا وفى خياله امرأة ، حاضرة أو غائبة ، ممكنة أو مستحيلة ، محبة أو كارهة ، مخلصة أو خائنة . وفهمت فهما جديدا ، كأنه لقوته بكر جديد ، معنى قولهم : إن الحب الحياة والحياة الحب : لم تكن حياة ثم كان حب ، ولكن كان حب فكانت حياة ، وأقسمت فى تلك اللحظة ألا أعرض عن الحب ما حييت !

وجاءت السيارة فاتخذت مكانى كالأمس . وتساءلت المرأة ضاحكة :

— ما الذى جاء بك الآن ؟ ألم يكن موعدنا المساء ؟

فقلت مبتسما :

— أنت أنت السبب ..

فابتسمت فى سرور وقالت :

— يجب أن نلتزق بالغرا فلا ننفصل أبدا ..

وتصاعد أزير المحرك ينذر بانطلاق السيارة فقلت برجاء :

— الدنيا نهار فهلا عدلت عن الطرق المزدحمة !

— أتخاف أن يراك أحد ؟

فقلت بخجل :

ـــ نعم .

ـــ آه : نسيت أنك متزوج !.. لا تؤاخذنى يا حضرة الزوج لنذهب إلى مصر الجديدة !

وانطلقت السيارة بالسرعة الجنونية ، وسألتنى فى الطريق قائلة :

ـــ ماذا فعلت بزوجك الأمس ؟

فقطبت وأنا لا أدرى ، ولم أحر جوابا ، فقالت :

ـــ لهذا الحد لا تحب ذكرها ؟

ثم تساءلت متجاهلة صمتى وارتباكى :

ـــ ألا تنامان فى فراش واحد ؟

وحاولت أن أغتصب ضحكة ولكنى عجزت ، وشعرت بامتعاض كدر على صفوى ، فقهقهت ضاحكة وقالت :

ـــ لشد ما أرغب فى رؤيتها ..

وأرادت أن تسرى عنى بطريقتها فداعبت شفتى بأصبعها وقالت محاكية الأم التى تداعب طفلها :

ـــ كتكوتى ..

ووقفت السيارة أمام مشرب شاى .. فجلسنا معا نقلب الحديث ظهرا البطن فى لذة وسرور . وأخبرتنى أن اختيارها قد وقع على بيت الخياطة ليكون مهدا لغرامنا . وعند الظهر غادرنا المكان ، وقد أرادت أن تدفع الحساب ولكننى أبيت عليها ذلك ، وافترقنا بعد أن تذاكرنا موعد المساء . وتكرر اللقاء . ولما انتهت الإجازة بعد ذلك بيومين واصلنا لقاءنا فى الأماسى . واقنعتنى التجربة الناجحة بأن الحب صحة وعافية . ولم يخف على أحد دأبى على السهر ، ومع أن رباب كانت تفضل ـــ على حد قولها ـــ أن أمضى سهراتى معها فى زياراتها التى لا تنقطع ، إلا أنها تحاشت مضايقتى ، فباشر كلانا حياته بالسبيل الذى يرضاه . ولم يخف ذلك عن أمى أيضا ، وقد قالت لى : لاحظت يا بنى أنك لم تكن على

حالك الطبيعية فى هذه الأيام الأخيرة ، وقد خفت أن أعلن لك ملاحظتى أن تغضب ، فإذا وجدت فى السهر راحة فاسهر ، هكذا الرجال جميعا !!.

٥٧

وانقضى شهر أو أكثر على حياة سعيدة لا يشوب صفاءها كدر . حل السلام مكان الشك وعادت علاقتى برباب إلى أصفى ما كانت عليه من الود الطاهر والحب البرىء : أما من الناحية الأخرى فقد أسلمت نفسى لعنايات فى حب مضطرب وسرور ظافر . إنها امرأة موفورة الثروة . وما من مرة نذهب إلى مهدنا المحبوب ببيت الخياطة إلا وتنفحها بريال وأحيانا نصف جنيه ، وأبت على كرامتى إلا أن أكون كريما كذلك ، ولو فى حدود طاقتى . وهيأت لى — وهى لا تدرى — معاودة الشراب على حال لا تنقطع ، فكانت الخياطة تحتفظ لنا بقوارير الويسكى والصودا دواما ، بل أوشكت أن تعودنى التدخين ، وكان لها مزايا وأى مزايا . كانت كاملة الأنوثة والحيوية ، فهى متعة للعشاق على كهولتها ودمامتها المحبوبة ، بيد أنها كانت كذلك على استهتار وجسارة يقشعر لهما البدن . عندها الحب كل شىء ، وفى سبيله تستبيح أى شىء . ولعلها لم تكن من النوع الهلوك ، ولعلها لم تكن إلا امرأة هالعة ، تشعر دواما بإدبار الحياة الزاهرة ، وذبول الشباب اليانع ، فلا تطيق أن يمضى يوم بلا حب . وكان أعجب ما فى حبى لها أننى فتنت منها بما هو حرى أن يعد من النقائص فى نظر الغير ، بكهولتها ودمامتها وجسارتها ، وكانت تملؤنى ثقة لا حد لها ، فلم أكن أحمل لشىء هما . ولولا ما كان ينتابنى من قلق ، منشؤه ذلك الانفصال المخيف بين روحى وجسدى ، لتمليت الحياة صفاء خالصا .

على أنها كانت حياة سعيدة .

وفى ذات يوم ، وبعد فراغى من الغداء مباشرة ، ذهبت إلى حجرة أمى

لأشرب فنجانا من القهوة وأجاذبها الحديث كعادتى كل يوم ، وسرعان ما لاحظت أنها تردد فى وجهى عينيها الصافيتين فى قلق وتفكر ، فتفرست فى وجهها الذابل الذى فقد مرحه وسعادته ، فأدركت لتوى أنها تريد أن تقول شيئا ، وداخلني القلق ، ولكنى قلت مبتسما :

— ماذا وراءك : هاتى ما عندك !

فلاح التردد فى عينيها لحظات ثم قالت :

— بالأمس سمعت أمورا أدهشتنى ، فهلا خبرتنى عما بين رباب والست والدتها ؟.

كل شيء توقعته إلا هذا . وغامت عيناى بسحب ذكريات سود ، وتساءل قلبى الخافق : هل عادت المرأة إلى لجاجتها القديمة ؟! ولم تكن رباب قد أخبرتنى شيئا عن زيارة أمها لها بالأمس إلا أن أقرأتنى سلامها .

وعدت إلى أمى أقول لها بصوت هادئ أو جعلته هادئا :

— ليس بينهما إلا كل خير ..

فهزت أمى رأسها فى ارتياب وقالت :

— لعله غابت عنك أشياء ، أما أنا فلم أستطع استقبال نازلى هانم لأننى كنت متعبة ، ولما جاءت صباح لتخبرنى بقدومها تصنعت النوم . وطالت الزيارة ، فانسللت من الحجرة لقضاء حاجة ، ودنوت من باب حجرة الاستقبال ، فما راعنى إلا أن أسمع الست وهى تقول فى انفعال وغضب : « هذا شيء لا يحتمل » فترد عليها رباب بعنف قائلة : « لا تتدخلى فى شئونى ! » فما ملكت أن تراجعت إلى حجرتى ..

التهب جبينى حياء ، ثم ركبنى الغضب ، فشعرت بمقت شديد نحو هذه المرأة الفضولية . واقتحمت أمى على أفكارى متسائلة :

— ألم تعلم عنهما شيئا ؟.

فقلت بحزم :

ـــ لا شأن لنا بهما .

وعدت بعد ذلك إلى مخدعى فوجدت رباب مستلقية على المقعد الطويل ، فلما رأتنى ألصقت ساقيها بمسنده لتفسح لى مكانا فجلست متفكرا ، كيف أخفت عنى ذاك النزاع ؟ هل أشفقت من إزعاجى ؟ ولعلها لم تلحظ تغير حالى فراحت تقول لى : إن اليوم الجمعة ، وأنها تقترح على أن نذهب معا إلى السينما ، فتركتها تتحدث حتى انتهت فسألتها قائلا :

ـــ كيف حال والدتك ؟.

فأجابتنى بأنها على ما يرام ، فنظرت إلى عينيها وتساءلت :

ـــ هل مرت زيارة الأمس بسلام .؟

فلاحت فى عينيها نظرة ارتباك وقالت :

ـــ ماذا تعنى ؟.

فقلت بحزن وكآبة :

ـــ رباب ، لا تخفى عنى شيئا . أعادت والدتك إلى ذاك الموضوع القديم ؟.

فلاذت بالصمت مليا وقد تجهم وجهها ، ثم تساءلت بحدة :

ـــ من أدراك بذلك ؟ أريد أن أعرف كل شىء !.

فأخبرتها بما قالت لى أمى ، وكانت تصغى إلى باهتمام ثم انفجرت قائلة :

ـــ أمك .. أمك .. ودائما أمك !.

ووخزنى الألم الذى يحز فى نفسى كلما لاحت لى آى الكراهية المتبادلة بينهما ، وقلت :

ـــ لا داعى للغضب ، لقد سمعت ما سمعت اتفاقا ، ونقلته إلى بقصد حسن كما هو ظاهر . بالله لا تستسلمى للغضب ، وخبرينى هل عادت أمك إلى ذاك الموضوع القديم ؟:

وسحبت ساقيها من ورائى ، وألقتهما على الأرض ، وأطرقت فى تجهم وغيظ وقالت :

ــ الأمر الذى لم أشأ تعكير صفوك به أنها اقترحت على أن أعرض نفسى على طبيب ليرى أسباب عدم الحمل ، فرفضت اقتراحها بطبيعة الحال فتشاجرنا !.

وواصلنا الحديث البغيض مليا حتى طلبت إلى أن أمسك . وأن أقيل طلبا للراحة من تعب اليوم ، فأذعنت لمشيئتها ومضيت إلى الفراش واستلقيت عليه محزونا مكتئبا . ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن أغفو ، ولا أدرى كم غفوت ، ولكنى استيقظت على شىء أطار عن عينى النوم . وفتحت عينى فى انزعاج فسكت مسامعى ضوضاء آتية من الصالة ، فأرهفت السمع ، ولم ألبث أن أدركت أن رباب وأمى تتبادلان أقسى الكلمات فى ضجة وصياح . وقفزت من الفراش فى هلع ووثبت إلى الباب ثم مرقت منه إلى الصالة فإذا برباب تصيح وقد تطاير الشرر من عينيها :

ــ هذا تجسس لا يليق بسيدة محترمة .

ووقع بصر أمى على فخفضت بصرها وهى تقول :

ــ لا يسعنى أن أجاريك فى قلة أدبك !.

وهتفت برباب قائلا : « رباب .. » ولكنها تحامتنى ورجعت إلى حجرتنا فى غضب جنونى . ودارت أمى على عقبيها وسارت إلى حجرتها بخطوات ثقيلة فاتجهت نحوها صامتا متألما . رأيتها تمسك بأكرة الباب ثم تقف دون أن تضغط عليها كأنها عدلت عن الدخول . ورأيتها تضع راحتها على جبينها فخيل إلى أنها تنحنى رويدا ، وأسرعت نحوها ، فما كدت ألمسها حتى سقطت على يدى فتلقيتها بهما فى رعب وفزع . وناديتها فلم تجب ، وتدلى رأسها وذراعاها . وصرخت مناديا صباح فجاءت تجرى ، فحملناها معا وأنمناها على فراشها . وجئت بزجاجة كولونيا ورششت منها على وجهها وعنقها ، ودلكت بها أطرافها ، وجعلت أناديها بصوت متهدج مبحوح دون توقف ، وغشيها الإغماء دقائق مررن بى كالساعات ، ثم فتحت جفنيها عن عينين غائمتين ، فهتفت بها وأنا أزدرد ريقى :

ــ أماه ..

فشخصت ببصرها إلى ، وأشارت بيدها إلى قلبها دون أن تنبس بكلمة ، وانطلقت مغادرا الشقة إلى البدال فى أسفل العمارة ، وتلفنت إلى طبيبها أن يحضر ، ثم صعدت إلى الشقة وجلست إلى جانبها فى حال من الذعر والحزن لا توصف . لم تفارقها عيناى لحظة واحدة حتى استلت نظرة عينيها الغائمة دمعى الحبيس . شعرت بأننى أشقى إنسان فى الوجود ، وأفعمت نفسى كآبة وامتعاضا . ثم جاء الطبيب وفحصها ، وقال إنها نوبة قلبية ، تستلزم رقادا طويلا ، وعناية كبيرة ، ووصف الدواء كالعادة . وكنت قد قصصت على الطبيب كيف أغمى عليها عقب شجار مع الخادم ! فقال لى : إن الشجار سبب طارئ ولكن الداء قديم ، وقضينا ليلة عبوسا . أما رباب فقد توارت فى حجرتنا فى شقاء بالغ وقد ناءت بثقل تبعتها ، وما زالت تبكى حتى انفطر قلبها من البكاء فلم يسعنى إلا أن أطيب خاطرها وأربت على منكبها قائلا :

ــ حسبك بكاء ، هذا قضاء الله ، وربنا يجعل العواقب سليمة ..

٥٨

وامتلأ البيت بالعواد ، فزارتنا أسرة رباب وجمع من أقاربها ، وجاءتنا أختى راضية وأسرتها ، وعادت رباب المريضة وقبلت يدها واستوهبتها العفو بعين باكية حتى رجوت أن نبدأ ــ بسبب هذا الحادث ــ حياة جديدة خالية من كدر القلوب . وتحينت راضية فرصة خلو الحجرة من الأغراب وقالت لى :

ــ إنى أستأذنك فى أن آخذ أمى إلى بيتى حتى تسترد قواها ؟ فهالنى الاقتراح وقلت بارتياع :

ــ هذا مستحيل .

فابتسمت إلى متلطفة واستطردت قائلة :

ـــ ألا ترى أنها تحتاج لخدمة وعناية فى كل حين ، فمنذا الذى يقوم بخدمتها هنا ؟. وأنت مشغول بعملك ، وزوجك مشغولة بعملها ، وصباح تقوم على خدمة المنزل ، فإلى من تكل أمر أمنا ؟

ولكننى استفظعت اقتراحها ، وثرت على ما قدمت من حجج قوية ، وقلت بإصرار صادر من أعماق قلبى :

ـــ لن يطول رقادها بإذن الله ، ولن تحتاج إلى من يلازمها إلا فى الأسبوع الأول كما قال لى الدكتور ، ولأجدن خادما خاصة تتوفر للعناية بها :

وحاولت راضية أن تثنينى عن إصرارى ولكن لم تجد محاولتها ، وانتهى النقاش بأن قررت الإقامة فى بيتى حتى أوفق لإيجاد خادم . وفى اليوم الثالث لمرض أمى حضر أخى مدحت ـــ وكنت أخبرته بمرضها فى خطاب مستعجل ـــ وجاءت معه زوجه . وقد اشتدت وطأة المرض على أمى فى الأيام الأولى لمرضها . لم تكن تبدى حراكا ، ولا تكاد تنبس بكلمة . كانت إذا فتحت عينيها المتعبتين لاحت فيهما نظرة ذابلة غائمة تقلبها بيننا فى صمت وتسليم فتمزق قلبى أربا . ولم نكن نفارقها ، وكانت إذا عاودتها يقظة خفيفة تردد عينيها بيننا ، وترسم على شفتيها الجافتين ابتسامة ، أو تبسط راحتها وترفع بصرها إلى أعلى وتغمغم داعية لنا بصوت منخفض وان . ولكن لم تطل بها الغيبوبة ، فتحسنت حالها قليلا فى نهاية الأسبوع الأول من الأزمة . واستطاعت أن تدرك بوضوح أن أبناءها جميعا يحيطون بها ، ولعلها رأتهم كذلك لأول مرة فى حياتها . وقد جمعنا الفراش مرة فجلست راضية تنظر إلينا فى صمت طويل ، ثم طفح وجهها بالبشر ، وهمست بصوت ضعيف :

ـــ ما أسعدنى بكم !.. الحمد لله والشكر له .

ولاحت فى عينيها نظرة رقيقة تنم عن الحنان والتأثر ، ثم استدركت قائلة :

ـــ إذا كان المرض يجمعنا هكذا فكم أتمنى ألا يزول .

وبدت ـــ على مرضها ـــ سعيدة ، فانتقلت سعادتها إلى قلوبنا ، التأمت

أسرتنا التى قضى الله على عقدها بأن ينفرط منذ البداية : بتنا تحت سقف واحد ، وأكلنا وشربنا معا ، وانتظمت قلوبنا خفقة واحدة . يا لها من أيام رددت أنفاسنا فيها الإشفاق والحنان والسعادة . بيد أنها كانت أياما قلائل . فقد تقدمت صحة أمي تقدما حسنا ، وزال الخطر عنها وإن حتم الطبيب عليها بألا تبرح الفراش شهرا كاملا على أقل تقدير . وعند ذاك ودعنا مدحت وعاد بأسرته إلى الفيوم واعدا بالزيارة من آن لآن . وعادت راضية كذلك إلى بيتها — وكنت قد وفقت إلى اختيار خادم لأمي — على أن تعود أمها كل يوم . انفض السامر ، وتفرق الشمل ، وعاد كل شيء إلى أصله . ولم يكد يمضي أسبوعان حتى أخذت أمي تسترد حيويتها ويقظتها ، وأمكنها أن تجلس إلى الفراش مستندة إلى وسادة منكسرة . ولشد ما سرنى أن تقوم رباب بواجبها نحو حماتها ، ولن أنسى ما عانت من مرارة الألم والقهر فى الأيام الأولى للمرض .

ولما عاودتنا الطمأنينة . ولم يعد أمام أمي إلا رقاد وإن يكن طويلا إلا أنه مأمون ، عدنا إلى سيرتنا المألوفة فى الحياة . عادت رباب تروح عن نفسها بزياراتها المسائية ، وانطلقت على سبيلى القديم : وقد استأذنتها فى الخروج بضع ساعات ترويحا عن النفس ، فأذنت لى بحماس ، وأفصحت لى عما كان يساورها من ألم لبقائى إلى جانبها كالسجين . وغادرت البيت متفكرا ، متسائلا ترى لو كنت أنا المريض أكانت تستأذن هي فى مغادرة الحجرة ترويحا عن النفس ؟ وبدا لى منطق الحياة قاسيا ولكن لا حيلة لنا فيه .!

وطرت إلى عنايات . وكانت تتلفن لى كل صباح بالوزارة فبينت لها الأسباب التى حالت دون لقائنا . وعدنا كما كنا نلتقي فى مهدنا فنسكر ونحب : كانت حياة غريبة ، وأخوف ما أخافه أن تكون الذاكرة قد خانتنى ولو فى القليل من تفاصيلها . أكنت سعيدا حقا ؟ كان قلبى موزعا بين أمي وزوجي وعنايات ، وبين الذكريات العميقة والهيام السامي والحب العارم . وحسبتنى قد آويت من زوابع الحياة إلى مرفأ هادئ ، ولكن القلق القديم عاد يطرق بابى فى حذر وتردد

كأنما يمنعه الخجل من اقتحامه بلا سبب ظاهر . أجل كنت أمضى فى طريقى ، ثم أتوقف حينا بعد حين فى تردد كأننى أتساءل عن شيء أنسيته ، هل أجد فى السير أم يحسن بى أن ألقى نظرة إلى ما حولى ، ثم يتبين لى أنه ليس ثمة ما يستوجب التردد فأمضى على وجهى ..

ويوما وجدت رباب على غير ما عهدتها من المرح والنشاط فسألتها عما بها ؟ فقالت لى : إنها قضت نهارا متعبا بالمدرسة ، وأنها ترجح أن تكون مصابة بإنفلونزا : وعدلت ذلك المساء عن الخروج . وفى صباح اليوم التالى ، وعقب استيقاظها بقليل تقيأت بغتة ، واستلقت فى إعياء ووهن ، فاقترحت عليها أن أستدعى لها الطبيب ، ولكنها لم توافق قائلة : إنه برد خفيف وستعالجه بغير معونة الطبيب . وجاءت أمها تزورها فلبثت النهار كله بحجرتها . على أن رباب أصرت فى صباح اليوم الثالث على استئناف عملها وقالت لى : أنها تشعر بأنها استردت صحتها تماما ، ومضت بالفعل إلى الروضة على رغم نصحى لها بالبقاء فى البيت يوما أو يومين آخرين . وعادت من الروضة فى ميعادها فوجدتها أسوأ مما كانت فى الصباح ، ولكنها أصرت على أنها متمتعة بكامل صحتها ، ولم تقنع بهذا فارتدت ملابسها وغادرت البيت يوما أو يومين آخرين . وعادت من الروضة فى ميعادها وكنت فى بيت الخياطة ولما عدت إلى البيت فى منتصف الحادية عشرة لم أجد رباب فى حجرتنا . وكأن صباح كانت تنتظر عودتى فجاءتنى على عجل وقالت لى :

— ستبيت ست رباب عند والدتها وقد أرسلوا الخادم لتخبرنا بذلك ..

ووقع الخبر من نفسى موقع الدهشة والانزعاج ، فسألت صباح قائلا :

— وما الذى دعاها إلى ذلك ؟

فقالت الجارية بلهجة تنم عن الإشفاق :

— إنها بخير يا سيدى . ولقد زرتها ورأيتها بنفسى ، إلا أن حرارتها مرتفعة قليلا فلم توافق الست الكبيرة على تعريضها للهواء ، وآثرت على أن تبيت عندها حتى تنخفض الحرارة .

وغادرت الحجرة بلا تردد وأنا أقول فى حنق :

— لقد حذرتها من هذا ورجوتها مرارا ألا تبرح البيت .

وقابلتنى فى الصالة نفيسة « خادم أمى » وأخبرتنى بأن أمى ترجو أن أذهب إليها ، فمضيت إلى حجرتها فأفصحت لى عن أسفها وكلفتنى بأن أحمل دعاءها إلى « رباب » فشكرت لها ، وغادرت البيت حانقا قلقا .

٥٩

كان البيت نائما تشمله ظلمة إلا نورا ينبعث من حجرة الأم ، فقصدتها لا ألوى على شىء ، ووجدت « رباب » مضطجعة فى الفراش ، والأم جالسة فى فراش يقابله بالناحية الأخرى من الحجرة ، فقابلتنى بابتسامة ، وانزلقت الأم من فراشها وأقبلت على وهى تقول :

— هذا ما قدرناه ! قلنا سينزعج ويجىء من توه ، والأمر لا يعدو أن يكون إنفلونزا .

واتجهت صوب فراش « رباب » ، وتناولت يدها ، وقلت لها معاتبا :

— ألم أنصحك بعدم مبارحة البيت ؟.. ماذا بك ؟.. لماذا لم تعودى إلى بيتك ؟.

فابتسمت إلى وقالت وهى تشير بأصبعها إلى أمها :

— أردت أن أعود ولكن « ماما » لم توافق .

فابتدرتنى نازلى هانم قائلة :

— إن حالها لا تدعو للقلق مطلقا ، بيد أن تعرضها للهواء أمر شديد الخطورة .

فقلت بحزم :

— سأدعو الطبيب بلا إبطاء .

فقالت الأم :

— لم يفتنا هذا ، والطبيب نفسه الذى نصح بعدم تعريضها للهواء ، ليس فى الأمر خطورة ألبتة ، وستعود إلى بيتها بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر .

وغلبت على أمرى فجلست على كنبة وثيرة تتوسط الفراشين ، بيد أن هدوء الأم الظاهر انتقل إلى رويدا ، وجعلت الأم تقول : إن الإنفلونزا بسيطة فى ذاتها ولكن ينبغى أن نتقى نكستها .

فأصغيت إليها بغير وعى على حين رنوت إلى محبوبتى بعينى وروحى ، وتطلعت إلى رباب مبتسمة ابتسامة فاترة ، يلوح فى عينيها الإعياء وقد رانت على نظرتها العذبة اللامعة غشاوة : وساد الصمت حينا ، ثم تذكرت جبر بك فجأة فسألت عنه ، فأجابتنى الأم بأنه فى رحلة تفتيشية يعود منها فى نهاية الأسبوع ، ولما دقت الساعة منتصف الثانية عشرة استأذنت فى الانصراف ، وقبلت جبين زوجى ، وغادرت البيت .

* * *

وفى صباح اليوم التالى تركت البيت قبل ميعاد خروجى المعتاد بثلث ساعة ، وكانت « صباح » قد استأذنتنى فى زيارة رباب ، فعهدنا بشئون البيت إلى نفيسة ، ومضيت من توى إلى بيت جبر بك ، فقابلت على السلم محمد وروحية ، فسلمت عليهما وسألتهما عن رباب ؟ فأجابتنى الأخت الصغيرة بأنها بخير ، ودخلت الشقة وذهبت إلى الحجرة فوجدتها فى الفراش ، والأم جالسة على الكنبة ، وردت تحيتى برقة وابتسام ، ولكنى رأيت فى عينيها ذبولا شديدا كأنها لم تنم ساعة واحدة فى ليلتها الماضية ، وساورنى القلق واستحوذ على الانقباض . ولكننى أخفيت ما قام بنفسى أن أخيفها ، وقلت متعمدا الكذب :

— أراك أحسن حالا !؟.

فقالت باستسلام أوجع قلبى :

— الحمد لله ..

وجلست على طرف الكنبة قريبا منها ، وثبت على وجهها عينى ، كانت عاصبة وجهها بمنديل بنى ، يبدو وجهها تحته شديد الشحوب ، وتلوح فى عينيها الذابلتين نظرة ساهمة ، فغشيت صدرى كآبة ، وضاقت بى الدنيا وبدا لى وجهها قبيحا كالحا ، ولاحظت نازلى هانم كآبتى فقالت بدهشة :

ــ ألم تجرب وعكة البرد قبل اليوم ؟. إنك تدللها يا سى كامل أكثر مما ينبغى ..

وسرى عنى قليلا بأن التى تستهين بالحال هى أمها ، ولو كان بزوجى ما يدعو للقلق لما ملكت الأم نفسها . وملت نحو الفراش قليلا ، ووضعت راحتى على خدها فوجدته ساخنا ، ولكنها ابتسمت إلى وقالت :

ــ إذا كان بى تعب فالمسئول عنه أرق ألم بى الليلة الماضية ، وسأسترد انتعاشى إذا ما نمت ولو ساعتين ..

فقلت لها برجاء :

ــ حاولى أن تنامى مهما كلفك الأمر ..

ونظرت فى عينيها طويلا ، فرنت إلى دقيقة ثم خفضت عينيها بلطف ، ولم أجد بدا من الانصراف ، فنهضت واعدا بالزيارة عقب عودتى من الديوان ، وذهبت .

بلغت الديوان بعد الثامنة بعشر دقائق ، وعكفت على عملى ، ولكن العمل لم يستطع أن يغيبنى عن نفسى ، وعدت بفكرى إلى رباب فتمثلت لى نظرة عينيها الساهمة واستشعرت وحشة لم أدر لها سببا ، وحاولت أن أفنى فى العمل ولكنى لم أفز بطائل ، وغلبتنى على أمرى نفسى التى تخلق المخاوف من لا شىء ، فاشتد بى القلق وجعلت أقول لنفسى : إن رباب عجزت عن العودة إلى بيتها ، وهى تبدو مهزولة متضعضعة فكيف أطمئن ؟.. كيف أتركها ؟!. ولم يكن تهافت قلبى حيال أخف الملمات بجديد على ، وطالما جافانى النوم لوعكة خفيفة تنتاب أمى ، فلعل ذلك الخوف كان أثرا من هذا التهافت المقيم . أفظع بها من كآبة ثقيلة ؟!.

إن قلبى ينقبض فى خوف وألم ، وكأنه يكاتم صرخة استغاثة تحاول أن تنطلق . لماذا أعذب نفسى بتجرع غصص انتظار لا موجب له ؟ وعند ذاك طويت الأوراق واستأذنت فى الانصراف معتذرا بمرض زوجى . وغادرت الوزارة فى منتصف العاشرة ، فبلغت البيت قبل العاشرة بدقائق .. وكنت كلما اقتربت من البيت ازداد قلبى وحشة ، حتى دخلته فيما يشبه الهلع ، ودققت الجرس ، وفتح الباب بعد قليل ، ولشد ما كانت دهشتى حين رأيت أمامى الدكتور أمين رضا ، وكان هو الذى فتح الباب ، وكانت الصالة الصغرى التى يفتح الباب عليها مغلقة الأبواب وليس بها سواه ، ولم أكن رأيته منذ اجتماعنا فى مأدبة الغداء بهذا البيت . ترى ما الذى جاء به فى هذه الساعة المبكرة ؟!. وما الذى أبقاه وحده فى هذه الصالة المغلقة ؟. ومددت له يدى وأنا أقول :

— السلام عليكم !.

فمد لى يده قائلا : « وعليكم السلام » ، وكأننى لاحظت أنه يحدجنى بنظرة غريبة من وراء عويناته ، فقلت له :

— ألا تتفضل بالدخول ؟..

فتحول عنى وهو يقول :

— إنى منتظر فى حجرة الاستقبال .

واتجه بالفعل نحو باب الحجرة ، وفتحه ، ودخل ، ومضيت إلى باب الصالة الكبرى وفتحته ودخلت ، وسرت نحو حجرة نازلى هانم ، ولكننى ما قطعت خطوتين حتى قرع أذنى صوت غريب لا أدرى كيف أصفه ، أكان تنهدا طويلا ؟ أكان صراخا مكتوما ؟. ولكنه كان آتيا بلا ريب من وراء باب الحجرة المغلقة ، حجرة رباب ، واندفعت نحو الباب ، وأدرت الأكرة وفتحته ، ودخلت خافق الفؤاد من الهلع ، واتجه بصرى إلى الفراش فرأيت رباب نائمة ، مغطاة إلى عنقها ، وقد التف منديلها حول وجهها من قمة الرأس إلى أسفل الذقن مارا بالأذنين ، كانت عيناها مغمضتين ، وبشرة وجهها شاحبة باهتة ، يشوبها

بياض مخيف . لقد بعث الوجه المعصوب فى نفسى ذكريات غامضة لم أجد وقتا لتوضيحها ولكنه حرك رعبا كامنا فى أعماق ، ثم تبين لى فى اللحظة التالية أن نازلى هانم جالسة على طرف الكنبة دافنة وجهها فى وسادة الفراش ، مغرقة فى نحيب موجع ، وأن « صباح » واقفة عند أسفل الفراش تولول باكية فلم تنتبه لدخولى ..

رباه !.. هل حقا ماتت رباب ؟!.

٦٠

هتفت كالمجنون :

— خبرانى ماذا حدث ؟.

والتفتت نحوى صباح وصاحت وهى تنشج :

— سيدى .. سيدى ..

ورفعت المرأة وجهها فى فزع ظاهر ، وحملقت فى وجهى بعينين محمرتين ، ولبثت لحظة جامدة لا تتكلم ولا تبكى ، كأن محضرى كان عليها أشد من الموت ، ثم شهقت وأفحمت فى البكاء . رددت بصرى بين المرأتين فى ذهول ثم استقر بصرى على الوجه المعصوب . كيف أذعن لحكم هذا الواقع المخيف ! ونازعنى قلبى المتفتت إلى أن أرتمى على زوجى ، وأن أبكى وأصرخ حتى أموت . بيد أننى لم أبد حراكا ، سمرتنى قوة غريبة فى مكانى ، وملأتنى قسوة وجنونا .. واجتاحتنى ثورة عارمة تتحدى قوة الموت نفسه وبطش القضاء . أبيت أن أصدق عينى ، واستعصى على الاقتناع . ما معنى هذا ؟ ولوحت بيدى للأم وسألتها بصوت كنت أسمعه لأول مرة :

— كيف ؟.. كيف ؟..

فبسطت ذراعيها فى قنوط وقد خنقتها العبرات ، ولكن صباح أقبلت نحوى

فى حال من الهذيان مرعبة وصاحت بصوت مبحوح :

ـــ العملية المشئومة !.. لعن الله العملية .

وتحولت إلى الجارية فى ذهول وصحت بها :

ـــ عملية ؟.. أية عملية !!؟

وأدركت عند ذاك أننى أشم رائحة غريبة ، فأدرت بصرى فى الحجرة حتى وقع على خوان فى ركن منها صفت عليه أدوات طبية وأوعية وزجاجات وقطن . اقتربت من الخوان وتفحصته بعينين زائغتين ، متى جاءوا بهذا كله ؟ ومتى استقر الرأى عليه ؟ كيف حدث هذا ؟.. ونظرت إلى المرأة فوجدتها ترمق الجارية بنظرة قاسية غريبة ، فازداد ذهولى وحيرتى ، ثم تحجر قلبى قسوة وجنونا ، فألقيت عليها هذا السؤال بصوت رهيب :

ـــ أية عملية التى تتحدث عنها صباح ؟

ونظرت المرأة إلى بارتياع وارتباك ثم قالت بصوت مختنق بالعبرات :

ـــ اشتد حال ابنتى فجأة فاستدعيت الطبيب فأشار بإجراء عملية فى الحال ..

فسألتها وقد استحلت شخصا جديدا مخيفا غير الشخص الذى عرفه العالم قرابة ثلاثين عاما .

ـــ فى أى عضو ؟

فقالت المرأة :

ـــ قال الدكتور إنه البروتون ..

وكنت أسمع الاسم لأول مرة ، ولكننى لم أبال ذلك ، وسألت بالصوت الرهيب نفسه :

ـــ هل أجرى العملية ؟

فقالت وهى تبكى :

ـــ نعم .. وانتهت بما ترى !

فضربت الأرض بقدم حانقة وصحت بها :

ـــ ولكنى كنت هنا منذ ساعتين ولم يكن بها شىء !: ألم تؤكدى لى أن الحال أبسط من أن أجزع لها ؟!؟

فقالت بصوت تخنقه الدموع :

ـــ اشتدت وطأة الألم فجأة !.. ما حيلتى ؟.. ما حيلتى !

فسألتها دون أن تأخذنى بها رحمة :

ـــ ومن عسى أن يكون الدكتور القاتل ؟!

فرمقتنى بنظرة كسيرة خلال دموعها وغمغمت :

ـــ لقد بذل ما فى وسعه ، ولكن قضاء الله سبق !

ـــ من عسى أن يكون ؟

فصمتت لحظة كأنها تأخذ نفسها ، ثم قالت :

ـــ الدكتور أمين رضا ..

فسرت فى جسدى رعدة شديدة ، ورددت قولها فى ذهول : « أمين رضا ! » ، ثم هتفت بها فى غضب وازدراء :

ـــ الدكتور أمين رضا ؟!. إنه شاب مبتدئ !.. ثم إنه أخصائى فى الأمراض التناسلية !

فتولاها الارتباك ، وراحت تقول : إنه كان أقرب طبيب إليها ، وأنها ظنت أن الطبيب يفهم الأمراض كافة مهما كان اختصاصه ، وأن الوقت لم يكن يسمح بالتردد إلخ إلخ ، فانتظرت حتى انتهت وأنا أنتفض غضبا وحنقا ، ثم انطلقت منى ضحكة باردة كرنين النحاس وصحت :

ـــ طبيب تناسلى ويجرى عملية فى البروتون !.. لا عجب إذا كنتم قتلتموها ..

ودرت على عقبى واندفعت إلى الباب وصحت بصوت كالرعد :

ـــ يا دكتور ..

وكررت النداء ، حتى جاء من أقصى البيت ممتقع الوجه ، ودخل الحجرة فى خشوع لا يوائم كبرياءه المعهود ، فشعرت نحوه بحنق وكراهية تضيق عنهما الأرض ، وبادرته قائلا :

ــ أخبرتنى الهانم أنك أجريت العملية التى قتلت زوجى ، فهلا دللتنى على ما جعلك تأخذ على عاتقك إجراء عملية جراحية خطيرة على رغم أن الجراحة ليست من اختصاصك ؟!

وبدا فى وجهه الانزعاج ، وحدج نازلى هانم بنظرة غريبة أعادت إلى مخيلتى نظرة المرأة إلى صباح فطفح بى الحنق ، وداخلنى شعور غامض بأنهم يدارون عنى أمرا خطيرا ، وصحت به بوحشية :

ــ أجبنى !

فالتفت نحوى مقطبا ، وصمت لحظة كأنما يشاور كبرياءه الضائع ، ثم قال بصوت منخفض :

ــ كانت فى حاجة إلى عملية عاجلة ..

فقلت وأنا أضرب كفا بكف :

ــ لماذا لم تدعونى ؟.. لماذا لم تستدعوا طبيبا جراحا ؟!

فقالت الأم بجزع :

ــ لم يكن فى الوقت متسع !

فزعقت بها :

ــ ولكن كان فيه متسع لقتلها ..

وحملقت المرأة فى وجهى بجنون وجعلت تردد : « قتلها .. قتلها .. قتلها ! » ثم انفجرت بغتة ففقدت صوابها ، وانهالت على خديها لطما ، وقد أرادت صباح أن تحول بين كفيها وخديها ، ولكنها ضربت وجه الجارية بقبضة يدها ضربة هائلة فتراجعت الجارية فى فزع ، ثم التفتت نحونا ممسكة عن اللطم وصرخت فى وجهينا ــ أنا والطبيب ــ بصوت كالزئير :

ـــ أنتما اللذان قتلتماها .. اغربا عن وجهي :

وانفلت الطبيب من الباب ، ولبثت وحدى أحدجها بنظرة قاسية لا تأبه لثورتها . « أنتما اللذان قتلتماها » : إن المرأة تهذى ، ولن تأخذنى بها رحمة ، ولن يهدأ خاطرى حتى أعمل عملا ترتج له القلوب . إنى حيال جريمة ، إلا تكن جريمة جهل وغباء ، ولا بد أن يؤدى الثمن غاليا . لقد تمخض خضوع العمر فىّ عن ثورة جائحة وغضب نارى وشر مستطير . نسيت الجثة والحزن وتخايلت الشياطين لعينى . لتنقض الدواهى على رءوس المجرمين .

وكانت المرأة تعول بصوت مزعج ، وصباح تنتحب انتحابا متواصلا ، فتحولت عنهما بحركة مفاجئة ، وغادرت الحجرة لا ألوى على شيء ، ثم مرقت إلى الخارج مهرولا كأنى أفر فرارا .

٦١

بدت الدنيا لعينى حمراء قانية . وركبنى عناد جهنمى دفعنى دفعا لا قبل لى به إلى ارتكاب أى شر أنفس به عن صدرى . وكنت فى شك من بلوغ أية نتيجة تشفى غليلى ولكنى لم أتردد لحظة واحدة ، وناديت تاكسى وأمرته أن يذهب بى إلى النيابة . ودخلت دار النيابة وليس فى ذهنى خطة معينة أو تهمة صريحة . وجدتنى فى زحمة خانقة وصكت مسامعى ضوضاء غير مميزة كهدير البحر ، فلبثت حائرا لحظات حتى رأيت شرطيا فتقدمت منه وسألته أن يدلنى على حجرة وكيل النائب ، فقال لى بخشونه ، « فى الطابق الثانى » ، فارتقيت السلم واسترشدت بموظف إليها ، ثم استأذنت ودخلت ، رأيت مكتبا فى مواجهة الداخل جلس وراءه شاب قصير نحيل ، مكبا على أوراق بين يديه ، فرفع رأسه حين دخولى ، وتفحصنى بنظرة ثاقبة ، ثم سألنى :

ـــ ماذا تريد ؟

صدمنى هذا السؤال البسيط فاستحال عقلى خواء ، ووقفت ذاهلا كأننى لا أدرى على وجه التحديد لماذا جئت . ولاح التساؤل على وجه الشاب فأعاد سؤاله قائلا :

— ماذا تريد ؟

ينبغي أن أتكلم مهما كلفني الأمر ، فقلت تاركا مقودى للسانى :

— زوجى .. (كدت أقول قتلت ولكنى عدلت عن ذلك خوفا) .. ماتت ..

فقطب الوكيل فيما يشبه الدهشة وقال :

— وما شأن النيابة فى ذلك ؟!. ولكن من حضرتك ؟

وتنفست تنفسا عميقا ، ووجدت رهبة الخوف تزايلنى ، وعرفته بنفسى ثم قلت :

— إليك قصتى يا سعادة الوكيل : تركت زوجى متوعكة فى بيت أمها صباح اليوم ، وعدت إلى البيت بعد مغادرتى إياه بساعتين فوجدتها ميتة . وقالوا لى أن وطأة التعب اشتدت عليها فجأة فاستدعوا طبيبا قريبا من أقرباء أمها ، فرأى أن حالها تتطلب إجراء عملية عاجلة فقام بها وماتت على الأثر ..

وازدردت ريقى وأنا أرمق الرجل بنظرة طويلة ، ولما وجدته غير قانع بما سمع استطردت قائلا :

— الواقع أن هذا الطبيب أخصائى فى الأمراض التناسلية ، فهل يجوز أن يجرى عملية جراحية ؟ وإذا انتهت هذه العملية بالوفاة ألا يعد مسئولا عنها فيجب أن ينال جزاءه ؟!

فصمت الرجل لحظة ثم سألنى :

— هل نقلت إلى مستشفى ؟

— كلا .. أجريت العملية فى البيت حيث ترقد ميتة للآن .

— من الذى استدعى الطبيب ؟.

— حماتى ..

— وكيف استدعت طبيبا تناسليا لا شأن له بمرض زوجك ؟

— لقد سألتها نفس السؤال فقالت لى أنه أقرب الأطباء إليها ، وأنها تظن أن الطبيب ، مهما كان اختصاصه ، فهو يفهم الأمراض جميعا ..

— وهل هو الذى أشار بإجراء العملية ؟

— نعم .

— وهو الذى أجراها ؟

— نعم ! وقد سألته كيف يجرى عملية جراحية على حين أنه ليس جراحا ؟ فقال لى إن الحال كانت تستدعى عملية عاجلة ..

فتفكر الرجل مليا ، ثم سألنى :

— هل تتهم هذا الطبيب اتهاما معينا ؟

فلم أفهم ما يعنيه ، ورنوت إليه فى حيرة دون أن أنبس بكلمة ، فسألنى :

— هل لديك من الأسباب ما يحملك على اتهامه بقتلها عمدا ؟

فخفق قلبى ، وهززت رأسى سلبا ، فقال متسائلا :

— هل تشك فى حدوث خطأ أثناء العملية أدى إلى الوفاة ؟

— هذا جائز جدا يا سعادة البك ، ولن يكون مجرد خطأ ، ولكنه خطأ رجل ليس له خبرة بالجراحة ، فمسئوليته لا شك فيها .

فعاود التفكير مرة أخرى ثم قال :

— لا أستطيع أن أفضى برأى قبل أن يفحص الطبيب الشرعى الجثة ، ويوضح أسباب الوفاة ..

فاستحوذ على خوف وكآبة ، ولم أطق تصور عبث الطبيب بالجثة ، وفاض بى الألم فقلت :

— هلا استدعيت الطبيب للتحقيق معه أولا ؟

فلم يحفل باعتراضى ، وأمسك بسماعة التليفون وطلب رقما ، ثم سمعته

يحادث الطبيب الشرعى ، ثم سألنى عن عنوان البيت ، وطلب إليه أن ينتقل إليه ليفحص الجثة ويكتب تقريرا عن سبب الوفاة ، وأنهى الحديث ثم التفت نحوى قائلا :

— إذا كان ثمة مسئولية جنائية فسأذهب للتحقيق ..

وغادرت دار النيابة بعد إتمام الإجراءات الرسمية وقد فقدت تهورى ، فاستشعرت خطورة ما أقدمت عليه . ليس الأمر لعبا ، إنه نيابة وطبيب شرعى وبوليس وفضيحة وقيل وقال ، وقد يتمخض التحقيق عن لا شيء فلا يبقى لنا إلا الفضيحة والقيل والقال ، بأى وجه ألقى الناس بعد ذلك ؟ كيف ألقى أهلها وأهلى والناس جميعا ؟!. أولم يكف زوجى ما قدر لها من مصير تعيس حتى أجعلها معرضا للأطباء الشرعيين ومضغة للأفواه ؟ وآحر قلباه ! هكذا عدت صوب البيت مثقل النفس بالهم والفكر ، ولما طالعتنى العمارة توقفت مترددا وقد أهاب بى نداء أن أنكص هاربا ! ولكن لم يكن لى مهرب ، ولم يكن بد من أن أتجرع مرارة الكأس حتى الثمالة ..

ودققت الجرس ، ثم دخلت واجما مستخذيا ..

٦٢

كانت الأبواب مغلقة إلا باب حجرة الاستقبال كان مواربا ، ولم يكن بالبيت أثر من الضجة التى تشمل البيوت حين الموت ، فتولتنى دهشة عفت على اضطراب نفسى . لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة فكيف لم يطيروا الخبر المفجع إلى بيوت الأهل والأقارب ! وعاودنى شعور الارتياب والحنق ..

فنظرت إلى الخادم الصغيرة التى فتحت لى — وكانت ملتهبة العينين من البكاء — وسألتها ألم يحضر أحد ؟

فهزت رأسها سلبا فى صمت وحزن ، فأشرت إلى باب حجرة الاستقبال

الموارب وسألتها :

ـــ هل ثمة أحد هنا ؟

فغمغمت قائلة « الدكتور أمين » فانتفض جسمى غضبا ومقتا . ثم مضت الخادم إلى باب الصالة الكبيرة فدفعته ودخلت وذهبت إلى الحجرة التي ترقد فيها رباب فى أقصى البيت . لبثت وحيدا فى الصالة الصغرى لا أدرى ماذا أنا فاعل . تنتابنى مشاعر الرهبة بما أقدمت عليه وأحاسيس الغضب والمقت التى يثيرها فى نفسي الجو المحيط بى . ثم سمعت وقع أقدام آتية من الداخل ، وظهرت من باب الصالة الكبيرة نازلى هانم مكللة فى السواد ، فألقت على نظرة باردة وسألتنى بانفعال قائلة :

ـــ أين كنت يا سيدى ؟

فاستثار منظرها وسؤالها خوفى وشعور الخزى الذى ركبنى منذ فارقت دار النيابة ولم أعد أطيق حبس السر الرهيب فى صدرى : نازعتنى نفسى إلى الاعتراف ، وإلى لقاء الخطر وجها لوجه ، فقلت بهدوء :

ـــ ذهبت إلى النيابة وطلبت إجراء التحقيق !

فاتسعت حدقتاها وفغرت فاها ، وجعلت تحملق فى وجهى كأنها لا تصدق ما سمعت أذناها ، ثم غمغمت بذهول :

ـــ النيابة ..!

فقلت بهدوء رهيب ، وبصوت مرتفع لأسمع من فى حجرة الاستقبال :

ـــ أجل ذهبت إلى النيابة وسيجىء الطبيب الشرعى إلى هنا عما قليل .

وسرعان ما بدا الدكتور خارجا من الثوى ، فوقف غير بعيد ممتقع اللون ساهم الطرف ، وعادت المرأة الذاهلة تسأل :

ـــ وأية تهمة وجهتها إلينا ؟

فقلت وأنا أتملى الحقد والتشفى بوحشية :

ـــ ليس ثمة تهمة ، ولكن أجزم بوجود خطأ خطير نجمت عنه الوفاة ، خطأ

خليق بأن يقع فيه من ليس له خبرة بالجراحة وهو يتصدى للعبث بأرواح العباد !..

وساد صمت متوتر أليم تلاقت فيه الأعين وافترقت . ثم شهقت المرأة شهقة عصبية وهتفت بى :

— كيف هان عليك أن تسلم جثة زوجك للنيابة ؟

ووخزنى ألم عميق فكادت تنهار قواى ، ولكنى غطيت على الألم بغضب مفتعل وصحت بعنف قائلا :

— يهون على ذلك ألا تضيع حياتها هدرا !

وفغز الطبيب فاه ليقول شيئا ولكن الجرس دق بقوة هلعت لها القلوب ، فمضيت إلى الباب وفتحته ، فبدا شرطى ابتدرنى قائلا :

— هل توجد فى هذه الشقة المرحومة حرم كامل أفندى رؤية الموظف بالحربية ؟

فأجبته بالإيجاب ، فتنحى الرجل جانبا وهو يقول « سعادة الطبيب الشرعى » ، ودخل رجل ربعة يحمل حقيبة طبية وتبعه الشرطى على الأثر ، وصادف الطبيب الشرعى الدكتور أمين فى مواجهته فسأله :

— هل حضرتك الزوج الذى بلغ النيابة ؟

فقلت له وأنا أغلق الباب :

— أنا الزوج يا بك ، وهذا هو الدكتور الذى أجرى العملية ..

وردد الطبيب عينيه بيننا فى دهشة ، وجرت على شفتيه ابتسامة خفيفة ، ثم سأل الدكتور أمين قائلا :

— أى عملية كانت ؟

فقال الدكتور أمين بصوت منخفض :

— عملية فى البروتون ..

— وما سبب الوفاة ؟

ـــ حدث ثقب فى البروتون نتيجة خطأ خارج عن إرادتى ..

وقلت عند ذاك فى انفعال شديد موجها خطابى للطبيب الشرعى :

ـــ اسأله يا سعادة الطبيب عما جعله يجرى عملية جراحية وهو ليس جراحا ..

فتردد الرجل لحظات ثم قال بصوت مرتفع :

ـــ لقد جئت لمهمة أخرى . أين الجثة من فضلكم ؟

وكانت نازلى هانم واقفة بمكانها على كثب من باب الصالة الكبرى تردد عينيها المحمرتين فى وجوهنا فى صمت وذهول ، فلما سمعت الطبيب يسأل عن مكان الجثة ندت عنها آهة وهتفت بلا وعى قائلة :

ـــ هذا لن يكون أبدا ..

فرمقها الطبيب بنظرة سريعة ثم قال لها برقة :

ـــ تجملى بالصبر يا سيدتى ..

وألقت على المرأة نظرة مشتعلة بالغضب ثم عادت إلى الطبيب تقول برجاء :

ـــ إن المتوفاة كريمة رجل من كبار موظفى الدولة ، جبر بك السيد ، كبير مفتشى الوجه البحرى ، لعلك تعرفه يا سيدى ، فارحم ضعف امرأة مثلى وانتظر عودته ، لقد أبرقت له بالفاجعة :

فقال الطبيب برقة :

ـــ ينبغى فحص الجثة بلا إبطاء حتى يمكن التصريح بدفنها فى الوقت المناسب ، لا تفزعى يا سيدتى فسينتهى كل شىء فى دقائق ..

وارتمت المرأة على مقعد مغلوبة على أمرها وراحت تنشج باكية ، على حين سرت أنا بين يدى الطبيب إلى حجرة رباب ! ولما بلغت الباب جاءنى نحيب صباح من الداخل ، فدفعت الباب وناديتها دون أن تواتينى الشجاعة على النظر صوب الفراش ، ولبت الجارية ندائى فنحيتها جانبا موسعا للطبيب الذى دخل الحجرة بلا تردد ، ثم رددت الباب وراءه ، وسألتنى الجارية عن الرجل الذى

جئت به فنهرتها فى جزع ودفعتها خارج الصالة . ورحت أذرع المكان جيئة وذهابا فى اضطراب شمل أعصابى جميعا ، ورانت على صدرى كآبة قاتلة ، فتصورت جثة زوجى الحبيبة بين يدى هذا الطبيب الغريب ، ينزع عنها الأستار ، ويعبث بها فى برود لا يعرف الرحمة .

لقد ند عنى أنين موجع ، وشعرت بألم حاد يمزق قلبى إربا ، ومرت بى لحظات ذهول فخيل إلى أنى فريسة كابوس شيطانى ، وتلفت فيما حولى كأنما أتلمس منفذا للنجاة . ولكن هل نسيت الوجه الشاحب المعصوب يجثم على جبينه شبح الموت الرهيب ؟. رباه .. إنى أثوب إلى نفسى رويدا رويدا ، تاركا دنيا الجنون الذى ركبنى إلى عالم الفجيعة الواقع ، تمثلت لى الحقيقة المروعة فى شيء من الهدوء المحزن فكأننى أدرك لأول مرة أن رباب قد ماتت حقا . لم تعد من الأحياء : وخلت منها حياتى إلى الأبد . لن تعود إلى بيتى كما قالت أمها ، ولن أصحبها صباحا إلى الترام ، ولن أستقبلها مساء عقب عودتها من المدرسة وهى تغالب التعب بابتسامة حلوة ، انتهى الشباب الريان ، وانطفأ الحب الباهر ، وصوحت آمال وآمال . أين منى ذاك التاريخ السعيد الذى بدأ على طوار المحطة ، فنسج ذكرياته من مادة الحب الأثيرية ، وطاف بى فى وديان السعادة ، ثم خلقنى خلقا جديدا ، أين منى هذا التاريخ الساحر ، هل انتهى حقا فى دقيقة من الزمان بخطأ طبيب أحمق ؟.. وما ذنبى أنا ؟.. الموت كارثة فظيعة بيد أنه غير مقنع !.. ألم أكن أحدثها منذ ساعتين ؟ ألم تكن كالوردة اليانعة منذ يوم أو يومين ؟. فكيف أصدق أنها صارت وأول ميت منذ ملايين السنين سواء . ثم أنها حية فى نفسى ، إنى أراها رؤية العين ، وأسمعها ! وألمسها ، وأشمها ، إنها ملء النفس والقلب ، فهل من سبيل إلى إصلاح خطأ بسيط ؟!.

وحدثت حركة ـــ لا أدرى إن كانت جاءت من الصالة الخارجية أو من الحجرة المحزونة ـــ ولكنها أعادتنى إلى وعيى فعلق خاطرى بالطبيب وما يفعله . عاودنى اضطرابى وقلقى ومخاوفى ، ماذا أفعل لو لم يعثر الطبيب بشيء ذى بال ؟

كيف ألقى القوم فيما بعد ؟ لشد ما تمنيت أن ينزل الله عقابا بالقاتل ؟ بيد أننى لبثت على حال من الاضطراب لم تترك لى سبيلا إلى نفسى أو عقلى . وطال الزمن واستطال حتى خيل إلى أنى شخت وهرمت وأنى أموت . ثم فتح باب الحجرة ولاح وراءه الطبيب بوجه جامد لا يبين عن شىء ، وتقدم خطوات فصار فى منتصف الصالة ، فوقفت حيالة فاغر الفم شاخص البصر ، ومسح بأنامله على جبينه ثم قال بنبرات واضحة :

— لقد انتهيت من كتابة تقريرى ، وسأحوله إلى النيابة فى الحال ، وأظنه يستوجب تحقيقا عاجلا ..

٦٣

كان ينبغى أن أشعر بارتياح وتشف ، ولكن خارت قواى فجأة فارتميت على أقرب مقعد ومددت ساق واستسلمت لما يشبه النوم . ولم يحدث فى فترة الانتظار التى أعقبت خروج الطبيب إلا اند فاع نازلى هانم وصباح إلى حجرة المتوفاة ، وتصاعد النواح والبكاء . ولاحت منى نظرة إلى الصالة الصغرى فرأيت الدكتور أمين رضا يذرعها فى بطء وتثاقل ، وقد جلس الشرطى على كرسى عند باب حجرة الاستقبال .

وعند منتصف الساعة الواحدة دق الجرس ، فنهض الشرطى وفتح الباب ، ودخل وكيل النائب يتبعه كاتب وشرطى ، وخفق قلبى فى ارتياع لرؤية رجال الحكومة ، ونهضت قائما واتجهت صوب الرجل ، ثم رفعت يدى بالتحية . وسأل وكيل النائب عن حجرة المتوفاة ، ثم مضى إليها توا يتبعه الكاتب ، ولم أجد الشجاعة للحاق بهما ، فانتظرت خارجا : ولم يطل غيابهما فعادا مرة أخرى ، ونظر الرجل فيما حوله ثم سار إلى حجرة الاستقبال وأنا فى أثره ، وجلس على كنبة ، واقتعد الكاتب كرسيا قريبا باسطا أوراقه على نضد . ووجه إلى أسئلة عن

اسمى وعمرى ووظيفتى وطلب إلى أن أروى معلوماتى عن الحادث . فصدعت بأمره والكاتب يسجل كل كلمة أقولها . ثم استدعى الدكتور أمين رضا فجاء الدكتور جامد الوجه شاحب اللون ، وسمح له بالجلوس أمامه ، ثم وجه إلى الخطاب قائلا :

ــ بوسعك أن تبقى معنا إذا شئت !.

وخيل إلى أنى وجدت فى لهجته ما يشبه الأمر ، وكانت رغبتى فى حضور التحقيق لا توصف ، فجلست على مقعد ملاصق للكنبة التى جلس عليها المحقق وقد ملكتنى الرهبة والتأثر : وبدأ الرجل يلقى عليه أسئلة عامة عن الاسم والعمر والمهنة ، ثم قال له :

ــ أخبرنى كيف اتصلت بهذا الحادث من بادئ الأمر ؟

فقال الدكتور أمين بلا تردد :

ــ استدعيت إلى عيادة المريضة زهاء التاسعة صباحا فوجدتها فى حال سيئة من الألم ، ففحصتها فتبين لى أن البروتون ملتهب وأنه يستوجب عملية عاجلة فقررت إجراءها إنقاذا لحياة المريضة ، وأعلنت رأيى لأمها فوافقت ، وفى الحال أجريتها ، ولكن حدث أن ثقب الغشاء ثقبا خطيرا ، وذهبت مجهوداتى فى إنقاذها سدى ، فتوفيت ..

ــ هل سبق لك أن عالجت المتوفاة ؟

ــ كلا ..

ــ ولا فى هذا المرض الأخير ؟.

ــ كلا ، وقد علمت أنها رقدت ليلة واحدة وكانوا يظنونها مصابة بنوبة برد .

ــ هل من عادة هذه الأسرة أن تستدعيك فيما يلم بها من أمراض ؟..

ــ لم يحصل هذا ، إلى أنى لم أزاول مهنتى إلا منذ شهور تجاوز العام ، ولا أذكر أن أحدا من الأسرة قد مرض فى هذه الفترة ..

— هل تظنهم كانوا يستدعونك فى مثل هذه الحال ؟.

— الواقع أنهم استدعونى فى أول حال عرضت لهم .

— ألا يعرفون اختصاصك ؟.

— بلى ولكن شدة الحال جعلت الأم تستنجد بى ، لقرب عيادتى من ناحية ، وللقرابة التى تربطنى بها من ناحية أخرى .

— لا أرى فى هذه الظروف ما يمكن أن يؤثر فى اختيار الطبيب ، ثم أنت كيف توافق على تلبية دعاء لحال مرضية تعلم أنها ليست من اختصاصك ؟ ألا يشير الأطباء فى أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب المناسب ؟.

— رأيت اللياقة تقضى بأن ألبى الدعوة على الفور ، فذهبت وفى ظنى أنها حال إغماء أو مغص شديد أو ما شاكل ذلك مما لا يعجز طبيبا على الإطلاق ، وأظن هذا ما دار بخلد الذين استدعونى .

— ولكنك وجدت الأمر أخطر مما تصورت فكيف كان تصرفك ؟.

فأمسك الدكتور عن الإجابة وخفض بصره فى ارتباك وترو ، فبادره المحقق قائلا :

— لماذا لم تشر باستدعاء جراح ؟.

— كانت الحاجة ماسة إلى عملية عاجلة .

— هل مارست الجراحة قبل ذلك ؟

— فى الكلية طبعا !.

— أعنى بعد ذلك ؟.

— كلا ..

— يدهشنى أن أتصور إقدامك على إجراء هذه العملية الخطيرة .

فقال الدكتور أمين وقد تغيرت نبرات صوته قليلا واعترتها جدة عصبية :

— قلت إن الحال كانت خطيرة وتستدعى إجراء سريعا !

— وكيف أحضرت الأدوات الطبية اللازمة لهذه العملية ! هل كانت توجد

بعيادتك ؟

ولأول مرة تردد الدكتور قبل الإجابة ، ثم قال :

ــ كلا !..

ــ كيف أتيت بها ؟.

ــ من زميل .

ــ جراح ؟.

ــ أجل ..

ــ ولماذا لم تحضره ؟.

ــ كان مرتبطا بعمل فى نفس الوقت ..

ــ من عسى أن يكون هذا الدكتور ؟.

فتردد مرة أخرى ، ثم تورد وجهه الشاحب وقال بصوت منخفض :

ــ الحق أنى أحضرتها من المستشفى ، مستشفى فؤاد الأول .

ــ بصرف النظر عما إذا كان هذا التصرف سليما أم لا من الناحية الإدارية . ألم يكن الأخلق بك وقد رأيت أنك لا بد منفق وقتا غير قصير فى إحضار الأدوات بطريقة غير مشروعة ، ألم يكن الأخلق بك أن تستدعى جراحا خصوصا وأن استدعاءه لم يكن يستنفد من الوقت أكثر مما يستنفده إحضار الأدوات ؟.

فتفكر مليا ثم بارتباك ظاهر :

ــ كنت متأثرا بحال المريضة فلم أفكر فى هذا ..

ــ الأقرب إلى المنطق أنه كان ينبغي أن تفكر فى هذا بسبب هذا التأثر نفسه . وهب الحق كما تقول ، فلماذا لم تنقل المريضة إلى المستشفى حيث يوجد الأخصائيون بوفرة ؟

ــ لم توافق أمها على نقلها ..

ــ ألم يكن هذا أقل خطورة من تسليمها ليد غير خبيرة ؟. ولكن لندع هذا الآن ..

وبسط المحقق صحيفة بين يديه ، جرى بصره على سطورها ، ثم قال وهو يعتدل فى جلسته :

ـــ ما رأيك فى هذا ، إنى أراجع الآن تقرير الطبيب الشرعى فإذا به يؤكد أن التهاب البروتون لا يستوجب هذه السرعة التى تتحدث عنها كما تستوجبه بعض حالات الزائدة الدودية مثلا ، فما رأيك فى هذا ؟.

فلاذ الدكتور بصمت عميق ، ونم لمعان عينيه عن تفكيره وقلقه . وعاد المحقق يقول :

ـــ ويقول أيضا إن العملية تستدعى بضع ساعات للتأهب لها بتناول المريض فى أثنائها شربة عادة ، ألم تعلم بهذه المبادئ الأولية فى فن الجراحة ؟.

ـــ علمت أن المريضة تناولت شربة مساء أمس ولم تذق بعدها طعاما ..

ـــ هل أخذتها استعدادا للعملية ؟.

ـــ كلا .. أخذتها بسبب ما ظن بها من برد ، أما فكرة العملية فلم تنشأ إلا بعد حضورى اليوم .

واشتد انتباهى عند ذاك ، وعجبت كيف لم يذكر لى أحد أن زوجى تناولت شربة . وذكرت كيف أبقيت بهذا البيت مع أنه كان بوسعها أن تعود إلى بيتنا ولو فى تاكسى ، وداخلنى شعور ثقيل بالغموض والحيرة .

وعاد المحقق يقول :

ـــ إنى حيال عملية أجريت بسرعة جنونية لغير ما سبب فنى يستدعى ذلك ، وبيد طبيب غير جراح كان بوسعه ولا شك أن يدعو جراحا مختصا .. فما معنى هذا ؟.

وألقى المحقق على الدكتور نظرة نافذة باردة ، فتردد بصرى بينهما فى قلق متزايد وخوف غريب . وبعث الاضطراب فى نفسى توترا حادا . ثم سمعت المحقق يقول :

ـــ إنى أتساءل عن الضرورة التى حتمت أن تكون أنت الجراح ، وفى هذا

الوقت بالذات ؟.

وسكت مليا ثم استدرك متسائلا :

— وما سبب الوفاة ؟.

— ثقب البروتون ..

فقال المحقق ببرود :

— يقرر الطبيب الشرعى غير هذا :

فتساءل الدكتور أمين رضا مستنكرا .

— فما عسى أن يكون السبب إذن ؟

— هذا ما يخلق بك أن تدلنى عليه بنفسك !.

فقال الدكتور وقد اعتور نبرات صوته ذلك التوتر العصبى :

— لا أفهم ماذا تعنى ..

— سأزيد لك المسألة بيانا ، يقرر الطبيب الشرعى أن البروتون قد ثقب حقا ولكن يؤكد أنه لا يوجد به شيء على الإطلاق من مرض أو التهاب ، وأن حاله لم تكن لتستدعى علاجا على الإطلاق فضلا عن عملية جراحية !.

— ولكنى أجريت العملية بنفسى .

— لم تجر عملية على الإطلاق فيما عدا ثقب البروتون .

فقال الدكتور بصوت متهدج وبحدة غاضبة :

— أتريد القول بأنى ثقبت البروتون بلا داع !.. ما معنى هذا ؟..

— أنت ثقبت البروتون فقتلتها !

— فى أثناء إجراء العملية ..

— أؤكد لك أنك لم تجر عملية البروتون ..

فصاح الدكتور فى غضب :

— أتتهمنى بأنى تظاهرت بإجراء العملية كى أقتلها ؟.. أتتهمنى بالقتل يا حضرة المحقق ؟

فقال المحقق بهدوء :

ــ إننى أتهمك بالقتل حقا ، وستوافقنى عما قليل على رأيى . وسترى بنفسك ــ بغير حاجة إلى نصيحتى ــ أنه لن يهيئ لك بعض النجاة إلا الصدق والصراحة .

انكفأ وجه الدكتور وازداد تجهما ، وركبته حال تعسة من القهر . أما المحقق فقد ألقى نظرة أخيرة على تقرير الطبيب الشرعى ، ثم استطرد قائلا :

ــ لماذا أحدثت هذا الثقب القاتل بالبروتون ؟

فقال الطبيب فى تجهم ، وفيما يشبه اليأس :

ــ لقد أجبت على هذا من قبل !

ــ يجدر بك ألا تتغابى وأنت بلا شك شاب ذكى ، لقد أحدثت هذا الثقب لتخلق سببا ظاهرا « مشروعا » للوفاة التى ظننتها لا محالة واقعة ..

أطرق الدكتور صامتا وبدا كشخص يعترف مستسلما ، واستطرد المحقق قائلا :

ــ كنت تجرى عملية حقا ولكن فى موضع آخر من الجسم ، ثم حدث ثقب خطأ فى هذا الموضع الآخر فظننت لقلة خبرتك بالجراحة أنه سيقضى على المريضة حتما فما عسى أن تفعل ؟ لو عرف سبب الوفاة الحقيقى لكشف الغطاء عن العملية الجراحية وهى غير مشروعة ، وهنا هداك عقلك المضطرب إلى حيلة جنونية ، وهى أن تثقب البروتون فيظن أنه سبب الوفاة ، ثم تدعى كذبا بأنك كنت تجرى عملية فى البروتون ، بذلك تحكم الستار على جريمة العملية غير المشروعة ، أما قتلك مريضا خطأ فلا يقع تحت طائلة القانون ، ولكنك أخطأت ، فالمريضة لم تمت من الثقب الأول ولكنك قتلتها وأنت تثقب البروتون .

انتفض الدكتور انتفاضة عصبية عنيفة ، وهتف بالمحقق وكأنه فقد وعيه :

ــ كلا .. كلا .. لقد توفيت تماما قبل أن أثقب البروتون ..!

وجرت على شفتى المحقق ابتسامة خفيفة ، ألقى على الدكتور نظرة ظافرة ، على حين أطبق الآخر شفتيه فى صمت وذهول ، ورفع عينيه مرتين إلى وجه المحقق فى حنق وقنوط بدا لى وكأنه قد صرع تحت وقع ضربة قاضية فغلب على أمره . بيد أننى لم ألق بالا إليه . كان عقلى ينتفض حرارة حركة وهياجا ، عملية غير مشروعة ! عملية البروتون ما هى إلا خدعة زائفة للتستر على جريمة !. إما أن أكون مجنونا أو يكون الرجلان مجنونين !.. توفيت تماما قبل أن يثقب البروتون !.. رباه ! أكاد أخرج عن طورى فينفلت لسانى هاذيا رغم وجود هذا المحقق المخيف . على أن المحقق خرق الصمت الثقيل قائلا فى هدوء :

ـــ اتفقنا ، وأظن أنه آن أن تعترف بأنه وقع الاختيار عليك بالذات دون أطباء مصر جميعا لإجراء عملية إجهاض !.

لم يتوقف عند هذا الحد ، ولكنه واصل حديثه ، ولعله ذكر فيما قال البنج وأثره أو شيئا من هذا القبيل ، ولعل الآخر نطق ببضع كلمات كذلك ، ولكنى لم أعد أعى شيئا مما يقال . تعلق ذهنى بقوله : « عملية إجهاض » وامتنع عن السير . لقد وقعت على هذه العبارة فشطرتنى شطرين ، ثم مزقتنى إربا ، ودوت فى رأسى حتى ذهلت بها عن كل شىء ، غاب الرجال الثلاثة عن ناظرى . وغابت الحجرة ، ورأيت فراغا مخيفا تمتزج فيه الحمرة بالسواد ، وتتراقص فيه أشباح مرعبة من الذكريات والخواطر .. عملية إجهاض .. كانت رباب حبلى !. الخطاب . هذا الطبيب الشاب .. يستطيع الشيطان ولا شك أن يؤلف من هذه الحقائق المتناثرة جريمة مروعة ، ساخرا من شكى الذى دفعنى إلى التجسس حينا ، هازئا بالطمأنينة التى آويت إليها سادرا حينا آخر .. إن المحقق يسعى جاهدا وراء جريمة طبية ، وسيعثر فى طريقه الشائك بجريمة أدهى وأمر . ألم يحدس قلبى الكارثة من بادئ الأمر ؟! أيكون الطبيب هو صاحب الخطاب ؟ أم أنهم استشفعوا بقرابته على التستر والكتمان ؟. ولكن لا شك أن الأم كانت تعلم كل شىء .. كل شىء عن حياتى الزوجية ، وزلة ابنتها ، ولعلها أرادت أن تطمس

آثار الفضيحة بالعملية لولا أن هتك الموت تدبيرها . آه يا رباب .! إن كل عذاب نصاب به فى هذه الدنيا حق وعدل لأننا نتفانى فى حبها على حين أنها لا تستحق إلا المقت .

واستيقظت على صوت المحقق وهو يهتف بى : « هو .. اصح ! » فرفعت إليه عينى مرتجفا وعدت رويدا رويدا إلى الشعور بما حولى . قال الرجل :

ـــ إنى أسألك ألم تصارحك زوجك بكراهيتها للحبل ؟. ألم تفض إليك برغبتها فى إجهاض نفسها ؟.

واسترقت من الدكتور أمين نظرة سريعة ، وقلت لنفسى إنه يعلم السر كله من بادئ الأمر ، ولعله يعلم أضعاف ما أعلم ، فعز على أن أكذب وأن أعرض نفسى لإهانة جديدة ، وتمتمت قائلا :

ـــ كلا ..

ـــ أكنت تراها مسرورة بحبلها ؟

فقلت فى غير مبالاة وقنوط :

ـــ لم أعلم أنها كانت حبلى إلا هذه الساعة !.

فارتفع حاجبا المحقق فوق عويناته ، وثبته على عينيه وهو يقدح فكره ثم سألنى :

ـــ كيف تعلل إخفاءها الأمر عنك ؟.

لشد ما زلزلنى هذا السؤال ! إنها كلمة واحدة ثم يصبح سرى نادرة المتندرين . إن مشاعر الحقد والانتقام تستفزنى جميعا إلى نشر هذا السر الدفين كى أهتك سر الآثمة وأنزل انتقامى بالمجرم . أريد أن أقول إنه لم يكن فى حياتنا ما يدعو إلى الحبل ليضع المحقق يده القاسية على الفاسق . ولشد ما نازعتنى نفسى إلى ذلك ، وأوشكت الكلمات أن تثب إلى طرف لسانى . بيد أننى لم أنبس بكلمة ، وحل بى شلل عام لا أدرى ما كنهه . هل يمكن أن يكون للخجل أثر حتى فى مثل هذا الحال ؟.. هل يمكن أن تفوق رغبتى فى التستر على عجزى تحرق إلى

الانتقام ؟ لم أستطيع التفوه بالكلمة الفاصلة ، وكلما مرت ثانية ازددت عجزا ونكوصا ، ثم تمتمت قائلا وأنا ألهث :

ـــ لا أدرى ..

وما أدرى إلا والدكتور ينتفض واقفا ثم يتراجع خطوتين شابكا ذراعيه على صدره فى تحد وكبرياء وغطرسة ! ويقول للمحقق بثبات وعجرفة :

ـــ تسأله عما لا يدرى ، إنها لم تكن زوجه إلا رسميا فحسب ، وإنى أنا المسئول عن كل شيء من البداية إلى النهاية ..

٦٤

غادرت البيت دون أن أرى أحدا من أهله ، فلم يعد البيت بيتى ولا الأهل أهلى . ووقفت عند باب العمارة فجرى بصرى إلى المحطة ، محطة الذكريات ، وطاب لى أن أردده بينها وبين الشرفة ، ثم أغمض عينى لأرى موكب الذكريات يمر كلمح البصر ، صورة صادقة من الحياة ، جامعا بين طرفى ملهاتها ومأساتها . ثم انطلقت فى الطريق بلا غاية كأنما أجد فى الهروب ، استحال قلبى جمرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والشقاء والمقت . وقد خيل إلى أن هذه الدنيا العاكفة على همومها ستتناسى شجونها غدا وتغرق فى الحديث عن فضيحتى ، على أننى لم أكن قد أفقت من دهشتى ولم أزل أتساءل عما حمل الدكتور المجرم على الاعتراف بالحقيقة الهائلة ! لقد هاضنى الجبن فكتمت الحقيقة ، ووهبته بذلك فرصة للهرب لو أراد هربا ، ولكنه انتفض واقفا غاضبا ، وألقى بالحقيقة من بين شفتيه فى غطرسة وكبرياء : « لا تسأله عما لا يدرى ، أنها لم تكن زوجة إلا رسميا فحسب » . رباه ، لماذا لم أدق عنقه .. لماذا لم أرم بنفسى عليه وأنشب أظافرى فى قلبه .. لتلهبننى هذه الذكرى حتى الموت بمثل السوط اشتعلت أطرافه بالنار . ولكن ما الذى جعله يرمى بنفسه إلى الهلاك !.

هل حمله اليأس من تبرئة نفسه من إحدى التهمتين على الاعتراف بالأخرى ؟ أو أنه راعه ما جنى الحب على حبيبته فنازعته نفسه فى ساعة يأس إلى أن يشاطرها المصير الأليم ؟ أهى ثورة ضمير أم ثورة قلب أم الاثنين معا ؟!. من لى بأن أطلع على سر هذا القلب المتغطرس ؟ بيد أننى ازددت حيرة وجعلت أتساءل : كيف هان عليه أن يرسلها إلى القبر مكفنة بالفضيحة ؟ ألم يكن الأخلق به أن ينتهز الفرصة المبذولة فينقذ نفسه ، ويستر شرف المرأة التى أحبها .. وأحبته ؟!.. أتراه نادما الآن على ما بدر منه أم لا يزال منتصب القامة غطرسة وعجرفة ؟.. إنه لغز ، وسيظل لغزا بالنسبة لى إلى الأبد ، وكان قلبى متورما من الحقد والغضب فوجدت فى المصير الذى قضى عليهما به — هى فى القبر وهو فى السجن — راحة وغبطة .

وكانت قدماى قد حملتانى إلى ميدان الإسماعيلية ، فلم أجد مهربا خيرا من حدائق قصر النيل فاتجهت صوب الجسر .. آه لو أستطيع أن أغيب عن القاهرة عاما ! ولم يدر لى بخلد أن أشيع جنازة المرأة التى كانت زوجا لى ، إذ لم يعد بوسعى أن أبدو أمام أحد ممن يعلمون بحقيقة المأساة . ولكن هل تزوجت حقا ؟ لم تكن إلا مهزلة طويلة ، أو مأساة على الأصح ، ولشد ما تملك الدهشة أهلى اليوم أو غدا إذا علموا بأن زوجى ماتت ودفنت دون أن يدعى أحد منهم لتشييع الجنازة ، ولكن سرعان ما تذهب دهشتهم إذا عرفوا الحقيقة وسرعان ما يلهيهم التندر بها عما عداه ، ويا لها من أحدوثة حقيقة بأن تحيى محافل السمر !. وتقبض قلبى وشعرت ببرودة تسرى فى أطرافى . لشد ما تعاودنى تلك الرغبة القديمة فى الهرب !. أين منى بلد بعيد لم يطرق أبوابه طارق ، من لى بأن أقطع كل صلة تربطنى بماضى البغيض !. آه لو يمكننى أن أولد من جديد فى عالم جديد لا تطالعنى فيه ذكرى من ذكريات هذا العالم ، أجل لن أستطيع أن أواصل حياتى على حين يتبعنى هذا الماضى كالظل الثقيل .. وقضيت بقية النهار متخبطا فى الطرق أو جالسا شاردا فى الحدائق ، لا أشعر بحر ولا ببرد ، ولا بظمأ ، حتى

آذنت الشمس بالمغيب وانتشرت سمرة المساء فوق رءوس الشجر ، فعدت من حيث أتيت فى خطو ثقيل ، وبلغت ميدان الإسماعيلية وقد هبط الظلام على الكون فملكتنى الحيرة ولم أعرف لنفسى مذهبا ، ثم وثبت إلى ذهنى صورة الحانة فجأة فتنهدت من الأعماق ، وندت عن أعصابى المتوترة المكلومة آهة ارتياح كأنما حظيت بفرحة بعد طول اختناق . وفى اللحظة التالية كان التاكسى ينطلق بى إلى شارع الألفى . بيد أن ارتياحى ولى سريعا ، وحل محله قلق وانقباض وتردد ، وجعلت أتساءل : ألا يجمل بى أن أولى وجهى وجهة أخرى ! وغادرت التاكسى حيال الحانة ولكنى لم أمض إليها ، ورحت أتمشى على الطوار فى خطى بطيئة مثقل الرأس والقلب ، وغلبنى اليأس ، فانسقت معه إلى داخل الحانة وانتبذت ركنا منفردا ، وشربت كأسا وأخرى ، وعللت ، وما تكاد رأسى تستجيب للخمر ، ولكنى شعرت بالجوع بغتة فأكلت بنهم وشهوة عجيبة وما كدت أفرغ حتى حل بى تعب شمل معدتى ورأسى وأعضائى جميعا فكأن جهد اليوم المبرح قد وجد غرة فزحف على بجحافله وناخ على بكلكله ، ونهضت مترنحا ، وغادرت الحانة إلى تاكسى واقف غير بعيد ، فانطلق بى صوب قصر العينى ، علانى التعب والجهد ، وسرى فى جسدى تخدير ، وتولانى شعور طارئ بعدم المبالاة ، فرمقت مأساتى بعين ساخرة ، فبدت لى لحظة كأنها مأساة شخص غريب ، أو كأنها انتزعت من حياتى الخاصة واحتلت موضعها من موكب المأساة الإنسانية العامة . وجعل التاكسى يطوى الطريق حتى شارف موقع العمارة التى امتحنتنى بها الدنيا ، وانطلق بصرى صوبها لا يغمض وقد تقلص قلبى وتوالت ضرباته فرأيت النور يشع من الشرفة والنوافذ . أما أمام مدخل العمارة فقد أقيم عمودان طويلان يتدلى منهما مصباحان كبيران مضاءان . قضى الأمر ..

٦٥

ذكرت وأنا أرتقى سلم بيتنا أمى فارتعدت فرائصى واستحوذ على حنق فظيع كأنه شيطان ، ترى ماذا أحنقنى ؟.. وسألت نفسى فى حيرة عما عسى أن أقول لها .. رباه ! ما الذى جاء بى إلى البيت ؟. هل ظننت أنه يسعنى أن أقضى هذه الليلة فى حجرة « رباب » وعلى فراشها ؟. على أننى واصلت ارتقاء السلم كأنه قضاء محتوم ، ودخلت الشقة بصدر منقبض ووجه مكفر ، وجاءنى صوت أمى وهى تتساءل فى لهفة وجزع قائلة : « من ؟ » فجمدت فى مكانى غاضبا حانقا ثم قلت بخشونة : « أنا » فهتفت بى بصوت باك :

ـــ كامل . تعال يا بنى ..

فخفق قلبى بعنف ، وأيقنت أنها علمت بمصير « رباب » وذهبت إلى حجرتها وكانت جالسة فى الفراش ، فمدت إلى يديها وهى تنشج باكية وقالت بصوت تخنقه العبرات :

ـــ ليتنى كنت فداءها .. كان ينبغى أن تبقى هى لك ..

فوقفت فى وسط الحجرة متجاهلا يديها الممدوتين ، وسألتها فى جمود وغلظة :

ـــ كيف علمت بالخبر ؟

فهتفت بصوتها المختنق :

ـــ كيف نسيت يا بنى أن تخبرنى ؟ إنى أدرك من هذا شدة حزنك . وقد تفتت قلبى رثاء لك .. ليتنى كنت الفداء لك ولها ، أنا العجوز المريضة ، ولكنه قضاء ربنا .

لم ينل تأثرها من جمود نفسى ، فلم أستجب لها ، وسألتها وكأننى لم أسمع كلامها :

ــ كيف علمت الخبر ؟.

ــ لقد انتظرت عودتك اليوم فى قلق ، ولما أن جاء المساء ولم تحضر بلغ منى الخوف ، فوصفت للخادم موقع العمارة وأرسلتها إلى هناك ، فعادت إلى بالخبر الأسود ..

ورمقتها بنظرة مسترية وسألتها بصوت منخفض :

ــ هل علمت كيف ماتت ؟.

فعاودها البكاء وهى تقول :

ــ كلا يا بنى ! ولا زلت فى حيرتى وذهولى ، أسفى على الشابة المسكينة ، كيف وافاها الأجل على غير ميعاد ؟.

وداخلنى ارتياح سرعان ما فتر وخمد .. ففيم أخدع نفسى براحة كاذبة وما من قوة فى الأرض تستطيع أن توارى فضيحتى ؟ وأضجرنى بكاؤها ، ووقر فى نفسى أنه أمارة حزن كاذب مما يصطنعه النساء فقلت بفظاظة :

ــ ماتت كما يموت الناس آناء الليل وأطراف النهار ، وكما مات جدى وأبى وكما سنموت جميعا ..

وضغطت على « جميعا » فى حنق ، ثم بادرتها متسائلا فى سأم :

ــ لماذا تبكين ؟

فرنت إلى خلال دموعها بوجوم وكآبة وتمتمت :

ــ وددت لو كنت فداءها :

فغلبنى الانفعال وقلت بحدة :

ــ كذب ؟!.. محال أن يرضى إنسان بأن يفتدى آخر من الموت .. أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة ؟!.

وأحدقت فى وجهى بارتياع ، ثم غضت بصرها فى وجوم وألم ، وساد الصمت مليا ، حتى خرقته متمتمة :

ــ أسأل الله أن ينزل سكينته على قلبك :

فقلت بجفاء :

— لا حاجة بى إلى الدعاء . بيد أننى أكره الرياء ، ولا يمكن أن أنسى أنك أبغضتها حتى قبل أن تقع عليها عيناك .

فرفعت إلى وجهها فى استعطاف وألم وقالت :

— كامل ! رحمة بأمك .. يعلم الله أننى لا أخادعك ، ولكن مثل ما كان بيننا من نقار لا يكاد يخلو منه بيت ..

ولكنى لم أرحمها ، ولم أفهم فى الوقت نفسه كنه القوة التى دفعتنى إلى تذكيرها بالماضى الأسيف كأنما آسى حقا على « رباب » ، بل غاليت فى الحنق عليها كما لو كانت السبب فيما حل بى من كارثة ، وضاعف من حنقى ما وقع فى نفسى من أنها تدارى بهذا الحزن فرحا وشماتة ، فأردفت فى غضب قائلا :

— الحق أن الدنيا لا تسعك من الفرح !.. إنى أعرفك حق المعرفة كما أعرف نفسى سواء بسواء ، فلا تحاولى خداعى ، أنك تدارين فرحك بهذه الدموع الكواذب .

فتأوهت هاتفة :

— كامل لا تقس على أمك ، لا تقل هذا ، لم أكرهها علم الله ، يحزننى ما يحزنك ..

فبدرت منى ضحكة باردة كفرقعة السوط فى الهواء وقلت :

— لأزيدك فرحا فاعلمى أنها لم تمت ولكن قتلت !.

فحملقت فى وجهى فى فزع ولعلها خافت على الجنون وغمغمت :

— اللهم لطفك :

فصحت باستهانة وجنون :

— قتلت حين كان الطبيب يجهضها .

فضربت صدرها بيدها وهتفت :

— يجهضها !. وهل كانت حبلى ؟. رباه لم أكن أعلم هذا .

— ولا أنا !.. أخفته عنى لأننى لم أكن أبا الجنين ..! وصرخت أمى فى فزع :

— كامل : رحمة بنفسك ، رحمة بى ، أنت لا تدرى ماذا تقول .

— بل أدرى أكثر مما تتوقعين ، لقد عرفت فى يوم ما لا يعرفه مثلى فى جيل ، قلت لك أخفت الأمر عنى وذهبت إلى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها ..

— اللهم لطفك يا أرحم الراحمين .

— ألا يزال أرحم الراحمين ؟: وداعا فلن أعبده بعد اليوم ! أما أنت فلعلك تقولين لنفسك فى سرور غريب : « لقد نالت الآثمة بعض ما تستحق من جزاء ، لقد حدثنى قلبى بذلك من أول يوم ولكنك لم تصغ إلى ! » .

فزفرت أمى فى شقاء وتعاسة وقالت بصوت كالأنين :

— لشد ما يحزننى كلامك ، إنك تقتلنى بلا رحمة .

فصحت بها كالمجنون :

— اشمتى ما شاءت لك الشماتة ، ولكن إياك أن تتصورى أننا سنعيش معا . انتهى الماضى بخيره وشره ولن أعود إليه ما حييت . سأنفرد انفرادا أبديا . لن أعيش معك تحت سقف واحد ، وسأطلب من الوزارة نقلى إلى مكان قصى أقضى فيه البقية من عمرى .

أشرق الدمع بعينيها وعقد الألم لسانها ولبثت ترنو إلى فى فزع ووجوم . وكأنه لم يكفنى ما قلت فأردفت مرغيا مزبدا :

— اذهبى إلى أختى أو إلى أخى واحسبينى منذ اليوم فى عداد الأموات .

ووليتها ظهرى وغادرت الحجرة ونحيبها يقرع أذنى ..

٦٦

لم يخطر لى لحظة واحدة أن أذهب إلى حجرتى ، كان ذلك أبعد شيء عن تصورى ، حتى النظر إليها تحاميته ، ومضيت إلى حجرة الاستقبال وارتميت على الكنبة فى إعياء وقنوط ، ومضى الليل ثقيلا مضجرا فلم يعد نصيبى من النوم إغفاءات متقطعات تتخللها أحلام مزعجة . ثم أخذ خصاص النوافذ ينضح بنور خافت إيذانا بمطلع الصبح فتنفست الصعداء وتمطيت متعبا ، ثم نهضت قائما وغادرت الحجرة مدفوعا برغبة فى الهروب والاختفاء . واقتربت من الباب الخارجى فى خطو خفيف حذر حتى وضعت يدى على مقبضه ، ولكنى جمدت مترددا دون أن أبدى حراكا ، ثم تراجعت فى سكون نحو حجرة أمى ، ودفعت بابها الموارب فى حذر بالغ وأدخلت رأسى . كان شخير الخادم يتصاعد فى انتظام ، وعلى الفراش رقدت أمى فى سكون عميق لا يكاد يرى من وجهها إلا نصفه الأعلى . ألقيت عليها نظرة قصيرة ، ثم تراجعت إلى الخارج ، واتجهت نحو الباب الخارجى مرة أخرى ومرقت منه ثم أغلقته دون أن أحدث صوتا ، وترامى إلى أذنى ، أو خيل إلى أن صوتا يهتف بى ، فظننتها استيقظت على حذرى وحرصى وأنها تنادينى . وتوقفت ويدى على الدرابزين على حين تراخى قلبى ورق ، ولكنى كنت على حال من القنوط لم أحسن معها التدبير فهززت منكبى استهانة ونزلت . واستقبلت الصباح الباكر فى طريق مقفر أو يكاد فهفا على وجهى نسيم رطيب بارد ، وتلبثت متحيرا لا أدرى أين أذهب ثم قصدت محطة البترول حيث موقف التاكسى واستقللت واحدا إلى ميدان الإسماعيلية . ومال بصرى إلى العمارة الأخرى فى الطريق فرأيت نوافذ مغلقة وسكونا مطبقا والمصباحين المعلقين وقد انطفأ نورهما . وانتهيت إلى الميدان فمضيت إلى لبان وجلست إلى مائدة فى أقصى المحل ، وتناولت فطورا بسيطا ، وعلانى تعب

مباغت فمددت ساق ، ثم زحف على جوارحى نعاس قهار لم أعد أملك معه رأسى فاستسلمت لسلطانه . وسرعان ما رحت فى سبات عميق . وعاودتنى اليقظة فوجدتنى منكفئا على المائدة وقد توسدت ساعدى ، فرفعت رأسى ناظرا فيما حولى فى دهشة وارتباك ، وسرعان ما استحوذ على حياء شديد .

وغادرت المكان مغمضا عينى عن الجلوس وما كان أشد دهشتى حين رأيت ساعة الميدان تجاوز الثانية عشرة !. نمت دهرا طويلا غائبا عن دنياى المتجهمة فما ألذ أن أنام إلى الأبد !. واتجهت صوب حدائق قصر النيل وأنا أشعر شعورا أليما برثاثة هيئتى وذبول منظرى !. وساءلت نفسى وأنا أجد فى السير عما عسى أن أصنع بحياتى ، ولكن وسوست لى النفس أن أؤجل البت فى هذه المسألة جريا مع طبيعتى التى تنكص عادة عن مواجهة المشكلات الخطيرة . ثم وجدتنى أفكر فى رباب !. إن بنفسى غضبا عليها لا يزول كأنه عاهة مستديمة ، ولشد ما أتمنى لو تبعث حية ولو دقيقة واحدة ريثما أبصق على وجهها !. وهل أنسى أننى فرحت لموتها فرح حاقد شامت ؟.. هكذا أنا ولا داعى للخفاء !. بيد أننى على حال من السكينة أستطيع معها أن أفكر وأن أتأمل . ومن عجب أننى على أنانيتى المفرطة لا أبخل على خصمى بالإنصاف والعدل . لا حبا فى الإنصاف والعدالة ولكن لأننى ألفت أن أقيم الأعذار للخصم مداراة لعجزى عن الانتقام منه ! لذلك تلمست الأعذار لرباب فى مأساتها ، وقلت لنفسى : إننى أخطأت فى تصديق ما ادعت من أنها تكره الحب الجنسى ، وإن عجزى حيالها هو الذى رمى بها إلى أحضان الغواية ، وكيف يمكننى أن أشك فى أنها أحبتنى بإخلاص ؟. وهبت على خيالى الذكريات كما تهفو نسائم عطرة على نار مؤججة ، ذكريات النظرات المتبادلة ، واللقاء الخالد فى الترام ، وصدودها عن خطيبها الأول وميلها إلى فى سحر هو أبهج ما اقتنيت من تحف السعادة المولية . كان حبا صادقا ، ولكن عرضت له ريح ثلجية فاقتلعت جذوره وأغاضت منها ماء الحياة . ألست شريكا فى قتلها ؟!. ودعوت الله فى تلك اللحظة أن يختصر الطريق فيقيم القيامة ويرحم

العباد من محنة الحياة ، كان حبى سرورا إلٰهيا ثم مضى مخلفا وراءه مقتا وغضبا . ولكن هل مضى حقا ؟ هب ما حل بى قد تمخض بمعجزة عن حلم مزعج ولا شيء غير هذا ألا يعود حبى أقوى مما كان ؟ بلى ، فهو موجود إذن تحت ركام البغض والمقت ، إن العضو الذى ينفصل عن الجسد لا يعود إليه أبدا فهو غير موجود حقا ، أما الحب الذى يعود فلا يمكن أن يكون قد ذهب حقا . ولكن ما جدوى هذا التفكير الأليم ؟! وقطبت كأنما لأخيف الذكريات التى تنثال على . وصممت على الهرب منها ولو بمواجهة المشكلة الخطيرة التى تهربت منها منذ حين قصير ألا وهى مشكلة حياتى وماذا أصنع بها . لا ينبغى أن أترك أمورى للمقادير . سأجد طريقة للتخلص من أثاث رباب ثم أنتقل إلى حى جديد . أأسعى حقا إلى الانتقال لبلد بعيد ؟ لشد ما تنازعنى نفسى إلى الفرار ، بيد أننى أعجز من أن أهجر القاهرة . هذا شعورى ويقينى . فهل أهجر أمى حقا ؟ هل يسعنى هجرها ! طالما رفت على خاطرى الرغبة فى هجرها فى صور أحلام غامضة ، ولكن هل يسعنى حقا أن أهجرها ؟ يا لها من خطوة خطيرة ما أخلقنى أن أقف منها موقف المتفكر المتردد . لماذا أقسو عليها ؟ فيم أنتقم منها ! وإنى لأعلم أن خطرة منها تخطر على الفؤاد حقيقة بأن تردنى إلى أحضانها نادما باكيا ، يا له من حب بغيض لا أجد إلى الخلاص منه سبيلا .

ورجعت إلى الميدان بعد الساعة الثانية بقليل ، ووجدتنى أذكر شارع الألفى بلهفة معهودة . وعلى كثب من محطة الترام لمحت زميلا لى من الوزارة فتجاهلته ، ولكنه لمحنى أيضا وأقبل نحوى فى اهتمام ووجوم وبسط لى يده قائلا :

— البقية فى حياتك يا كامل أفندى .

فسرت فى جسدى رعدة وتساءلت فى قلق كيف علم بالخبر وماذا علم عنه ، وتمتمت فى ارتباك .

— حياتك الباقية .

فقال الرجل وهو يضغط على يدى :

— عن إذنك ريثما أتناول لقمة ثم أعود للاشتراك فى تشييع الجنازة .

رباه ، كنت أظن أن الجنازة شيعت أمس أو صباح اليوم وانتهى المأزق الحرج ، ولكنها لا تزال تنتظر مقدمي وقد أذاعوا النعي فى الصحف ! أى مأزق يتربص بى !.. وسألته بصوت منخفض :

— هل قرأت النعي فى الأهرام ؟.

فقال لى بدهشة :

— كلا ، لا أظنه ظهر فى الأهرام وإلا لكنا علمنا به فى الوزارة ، ولكنى اطلعت عليه فى البلاغ .

واستخرج الجريدة من تحت إبطه وفتحها ثم أشار إلى عمود وهو يقول : « هاك النعى » وتناولت الجريدة فى ارتباك وخجل وجرى بصرى على السطور القلائل الآتية : « انتقلت إلى رحمة مولاها كريمة المرحوم الأميرالاى عبد الله بك حسن ، والدة مدحت بك رؤبة لاظ من أعيان الفيوم وكامل أفندى رؤبة لاظ الموظف بالحربية وحرم صابر أفندى أمين .. » ..

حملقت فى وجه صاحبى كالمجنون ، ثم أعدت تلاوة النعى ، وجميع جسمى ينتفض ، وصرخت بلا وعى :

— هذا محال .. هذا كذب ..

ركضت لا ألوى على شيء نحو تاكسي غير بعيد وارتميت داخله وأنا أحث السائق على السرعة : إنه لكذب وافتراء ، ولأعلمن جلية الخبر وعندها أعرف كيف أؤدب من رامنى بهذا العبث السخيف . وانطلق التاكسي يطوى الأرض وعنقى مشرئب صوب الطريق ، حتى تراءى لعينى سرادق مقام أمام بيتنا ، وتنزى قلبى فى صدرى وارتعشت أطرافى جميعا ، وتوقف التاكسى فغادرته زائغ البصر ، لم أكن حزينا أو متألما وإنما كنت مجنونا ، ها هو عمى جالسا عند مدخل السرادق ، وهذا أخى مدحت قادما نحوى . وقد هرعت إليه فاقد الوعى وقبضت على رباط رقبته وصرخت فى وجهه :

— كيف تخفون عنى الخبر !

وتخلص أخي من قبضة يدى بجهد وهو يرمقنى بقلق وانزعاج ، على حين تدانى منا عمى وهو يقول :

— أين كنت يا كامل ؟، لقد بحثنا عنك فى كل مكان فلم نعثر على أثر ..

فرددت بصرى بينهما ، ثم ألقيت على السرادق نظرة غريبة وغمغمت :

— أحق هذا ؟.

فقال لى عمى :

— تمالك نفسك وكن رجلا .

فسألت أخي فى همس وإشفاق :

— ماتت حقا ؟.. كيف ؟ متى علمتم ؟

فقال مدحت فى كآبة :

— تلقيت برقية فى التاسعة صباحا . هذا قضاء ربنا . أين كنت ؟ لشد ما أرعبنى أن نضطر إلى الخروج بالجنازة فى غيابك .

فصحت به فى غضب :

— فيم هذه العجلة ؟: لماذا لم تؤجلوا الجنازة إلى غد ؟

فقال أخي معترضا :

— أكد الطبيب أن الوفاة حصلت عند منتصف الليلة البارحة فقر رأينا على أن نخرج الجنازة اليوم ..

وارتعد جسمى المحموم وتمتمت فى ذهول :

— منتصف الليلة البارحة ؟. ولكنى رأيتها نائمة فى فراشها هذا الصباح !..

ولاحت فى عينى مدحت نظرة حزينة وقال برثاء :

— لم تكن نائمة . إنه القلب يا كامل .

تخيلت صورة ما بدا لى فى وجهها من قنوط ، وأطرافى ترتعش ، وأعملت ذاكرتى لأستحضر الصورة كما رأيتها ، وساءلت نفسى أكان وجه ميت حقا !..

وخارت قواى ، ثم قلت بصوت ضعيف :

ـــ أريد أن ألقى عليها نظرة الوداع ..

فوضع أخى يده على منكبى وقال :

ـــ اصبر حتى تتمالك قواك . ثم إن الحجرة ملأى بالنساء .

ولكنى نحيته عن سبيلى واندفعت إلى داخل العمارة وجرى أخى ورائى ، فارتقينا السلم وثبا ، ثم مرقت إلى الشقة وأصوات البكاء تملأ أذنى ، فما راعنى إلا أن أجد نفسى محاطا بالنسوة من جميع الجهات . وزاغ بصرى وحل بى إعياء وارتباك ، ولكن أدركنى أخى فقبض على ذراعى واتجه بى إلى حجرة النوم وهو يقول :

ـــ لا تقاوم .. ينبغى أن تخلو إلى نفسك قليلا ..

وأجلسنى على المقعد الطويل ، وأغلق الباب ، ثم جلس على حافة الفراش أمامى وقال بحزن :

ـــ ثب إلى رشدك . لا ينبغى أن يغلبنا الحزن كالنساء ، أليست هى أمى أيضا ؟ ولكننا رجال ..

وراح عقلى يتردد ، كبندول الساعة ، بين أمرين فى تركيز جنونى بين شجار الأمس المشئوم وبين رؤيتى لها هذا الصباح : وعلى حين بغتة وثبت إلى ذهنى ذكرى فهتفت بأخى :

ـــ كذب الطبيب !.. لم تمت عند منتصف الليل .. لقد سمعتها تنادينى وأنا أغادر الشقة ..

فلاحت الدهشة فى وجهه وسألنى :

ـــ وهل لبيت نداءها ؟.. هل تحدثت إليها ؟

فتنهدت من الأعماق فى شقاء مميت وقلت :

ـــ لم ألب نداءها لأننى كنت ناقما عليها !.. لشد ما كنت فظا غليظا معها ..

وسادنا صمت وحزن . وكان رأسي يكاد ينفجر من الألم والحمى . ثم قلت وكأنني أحدث نفسي :

ـــ لقد قتلتها ما فى ذلك ريب . رباه . كيف هان على أن أقول لها ما قلت !.

فرمقني أخي بوجوم ، وقال بلهجة تنم عن تحذير :

ـــ إياك وأن تستسلم لهذه الأفكار !..

فقلت بعناد ورأسي يدور جنونيا :

ـــ لم أعد الحق فى قولى . لقد قتلتها ، ألا تفهم ؟.. إذا أردت أن تستوثق من صحة قولى فادع النيابة والطبيب الشرعى ..

فتأوه مدحت قائلا فيما يشبه الخوف :

ـــ أنت تهذى بلا ريب ، وإلا تتمالك نفسك فلن أسمح لك بالسير فى الجنازة :

فندت منى ضحكة باردة وقلت :

ـــ إن أسرتنا مصابة بداء قتل الوالدين ، ولقد حاول والدنا أن يقتل جدنا فأخفق ، وأعدت الكرة على أمنا فنجحت ، وهكذا ترى أننى كنت أعظم توفيقا من أبى .

فلاح القلق فى وجه الشاب ونهض قائما . ثم ثبت عينيه فى وجهى وتساءل :

ـــ ماذا تنوى أن تصنع بنفسك ؟.. لم يبق إلا ساعة على تشييع الجنازة .

فقلت فى دهشة :

ـــ أتسمح بتشييع الجنازة دون تحقيق ؟ يا لك من أخ رحيم ! ولكن الواجب فوق الأخوة . ادع النيابة ، وسأدلك على الطريق إليها فقد عرفته بنفسى أمس ، وقل لوكيل النيابة إنك تدعوه للتحقيق مع الشخص الذى دعاه أمس للتحقيق فى مقتل زوجه .

وبدا أخي كأنه تذكر أمرا مزعجا فصاح :

ـــ يا له من حدث ألم .. كيف لم تبرق إلى يا كامل ؟: لقد أخبرتنى الخادم

اليوم فلم أكد أصدق ..

فقلت فيما يشبه الهذيان :

— صدق يا أخى : أنك إذا لم توطن نفسك على تصديق هذه المآسى وأمثالها خرجت من الدنيا كما دخلتها غرا جاهلا : لقد قتلت زوجى أيضا ولكن كان معى شريك هذ المرة هو عشيقها .

وضرب مدحت كفا بكف وهتف بى :

— لا يمكن أن تغادر الحجرة وأنت على هذه الحال ..

فهززت رأسى فى غضب ونهضت قائما وأنا أقول :

— هلم بنا .

ولم أكد أتم هذه الجملة حتى غبت عن الوجود ..

٦٧

لا علم لى بالساعات الطوال التى قضيتها فى غيبوبة تامة ، ولكن ثمة أويقات أخريات كنت أتخبط فى ظلمات بين الغيبوبة واليقظة . إنها دنيا غريبة معتمة ، تتوزعها الأحلام ، فكان يداخلنى شعور أننى حى ، ولكن حى كميت وهنا وعجزا ، وكم من مرة جهدت فى شقاء ويأس كى أحرك عضوا من أعضائى فأعيانى الجهد وسلمت للضغط الخانق والخوف المبهم ، وفى أحوال أخرى عابثنى الوهم فخيل إلى أنى غير بعيد من اليقظة ، وأنى أكاد أميز أصواتا مألوفة وأرى وجوها أعرفها حق المعرفة فاستصرختها أن تهرع إلى نجدتى ، وناديت أمى كثيرا حتى أحنقنى تقاعدها عنى وعجبت له عجبا شديدا ، وطافت برأسى المحموم أحلام غريبة ، فرأيت فيما يرى النائم أننى ممتط منكب أمى وأنها تذهب بى وتجىء كما كانت تفعل على عهد طفولتى ، ورأيتنى حينا آخر ممسكا بتلابيب أخى مدحت فى نضال عنيف فى جو صاخب وهو يصيح بى : لا تقتلنى ، وخيل

إلى أنى رأيت أحلاما كثيرة ولكن ابتلعتها الظلمة . وطالت غيبوبتى حتى ظننتها لا تنتهى ، ثم تفتحت عيناى ، وعدت إلى نور الدنيا ، وتنهدت من الأعماق . ووقع بصرى على مرآة تعكس صورتى ، وشعرت بوجود شخص عند رأسى فحركت عينى نحوه فرأيت أختى راضية جالسة على الفراش ويدها على رأسى ، والتقت عينانا فابتسمت أساريرها ولاحت فى عينيها نظرة إشفاق وغمغمت بصوت حنون :

ــ كامل ..

وحاولت أن أبتسم . وندت عنها تنهدة حارة وتمتمت :

ــ أشهد أن لا إلـٰه إلا الله .

تشهدت بصوت ينم عما برح بها من خوف وعذاب ، ووجدتها لا ترفع يدها عن رأسى ، ثم شعرت فى اللحظة التالية بوجود شىء تحت راحتها ، فسألتها بصوت ضعيف وقع فى أذنى كالصفير المكتوم :

ــ ما هذا الشىء على رأسى ..

فجاءنى صوت آخر يقول :

ــ كيس ثلج يا سيدى ..

فالتفت إلى الناحية التى جاء منها الصوت فرأيت أخى مدحت جالسا على المقعد الطويل ، وأدركت فى تلك اللحظة أين أكون ، وهجمت على الذكريات التى فررت منها بهذه الغيبوبة الثقيلة ، وطالعتنى الحياة بوجهها الكالح مرة أخرى ، ووقع بصرى على المنبه فإذا بعقربه قد جاوز العاشرة بقليل ، العاشرة صباحا كما يدل عليه ضوء النهار . وإذن فقد انقضت الليلة الكئيبة وأنا فى نوم عميق !. ونظرت إلى أخى بطرف كسير وتساءلت:

ــ هل شيعت الجنازة ؟

فألقى على نظرة طويلة ثم قال باقتضاب :

ــ طبعا ..

وصمت مليا ثم استدرك قائلا :

ــ لعلك لا تدرى أنك غبت عن الوجود ثلاثة أيام كاملة .

ورنوت إليه بدهشة ، ثم أغمضت جفنى فى ذهول ، وتمتمت فى حزن بالغ :

ــ قضى الله بألا أشيع لا أمى ولا زوجى إلى مرقدهما الأخير .

وتحول بصرى إلى أختى فرأيت عينيها مغرورقتين بالدموع ، فغشيتنى كآبة موحشة بدت الحياة خلالها كالموت . لشد ما بدت لى الحياة فى تلك اللحظة الرهيبة غريبة خالية . وشعرت بفراغ مخيف جدا . فقد خلا البيت ، وخلت حياتى ، وخلت الدنيا جميعا . وكنت فى حياتها أجد طمأنينة راسخة ، وأشعر فى أعماق قلبى بأنه مهما نكدت الدنيا فلى فيها حجرة دائمة الإشراق بالابتسام والحنان ، أما الآن فما أشبهنى بقارب تمزقت حبال مرساته فى بحر هائج عاصف . وحتى شقيقتى التى تحنو على فى مرضى فما أسرع أن تعتذر لى غدا أو بعد غد ببيتها وأولادها وتتركنى وحيدا . رباه هل خلقت ، أنا الطفل المدلل ــ لمثل هذه الحياة ؟!.

ونظرت إلى أختى طويلا فى حب وامتنان ، وأنعمت النظر فى وجهها بشوق لا تدريه مجذوبا إلى مشابه فيه من وجه أمى ، فاهتز صدرى ودر حنانا وحزنا عميقا . وألقيت على ما حولى نظرة حائرة فوجدت أثاث رباب يحدجنى بنظرات غريبة ، فقلت فى ضيق :

ــ هيهات أن تطيب لى الإقامة فى هذا البيت . سأقيم عندك يا أختاه ..

فقالت أختى بصدق وإخلاص :

ــ هذا ما كنت عقدت العزم عليه .. أهلا بك وسهلا !

وسألتها أن تقرب أذنها منى ثم قلت لها بحزن :

ــ خذينى إلى حجرتها لألقى عليها نظرة ..

فأظلمت عيناها واغرورقتا بالدمع ، وقالت لى همسا :

ـــ لا يمكن أن تفارق الفراش الآن ، ثم إنه لم يعد بالحجرة شيء .

تخيلت الحجرة الخالية ، أربعة جدران وسقفا وأرضا . ما أشبهها بحياتى : وتنهدت محزونا وتمتمت :

ـــ ما أشقانى ..

فقالت راضية برجاء وضراعة :

ـــ هلا أجلت الحزن حتى تبرأ !!

* * *

ولازمت الفراش زهاء شهر ، وأقامت راضية عندى أسبوعا ثم عادت إلى بيتها مضطرة ولكنها دأبت على زيارتى كل يوم عصرا ، ولم تكن تفارقنى قبل أن يغمض النوم جفني .. وعاد مدحت كذلك إلى الفيوم ، ولكنه كان يمضى عندى نهاية الأسبوع .

ولما دخلت طور النقاهة كانت الحمى قد عرقتنى وخلقتنى جلدا على عظم . ولم تكد تبقى ثمة حياة إلا فى خيالى ، فازدهرت حيويته وامتلأ قوة ونشاطا فكاد يبلغ حد الهوس . ولم يكن شعور الوحشة والخوف ليفارقنى ساعة من ساعات اليقظة . فبدت لى الحياة شاقة مرعبة لا قبل لى بها ، وامتلأت أذناى بذاك النداء القديم الذى يهيب بى ـــ عند الشدائد ـــ أن أولى فرارا . ولكن أين المفر ؟. ليتنى أخلق شخصا جديدا ، سليم الجسم والروح ، لا يعشش بأركان نفسه الخوف والجفاء ، فألقى بنفسى فى خضم الحياة الإنسانية بلا خجل ولا نفور ، أحب الناس ويحبوننى ، وأعينهم ويعينوننى ، وآلفهم ويألفوننى ، وأندمج فى كائنهم الكبير عضوا عاملا نافعا !. ولكن أين منى هذه السعادة ؟! وفيم أعلل النفس بالأمانى الكاذبة ؟. لم أخلق لشيء من هذا ، وإنما خلقت للتصوف ، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهنى بغير قصد ، ولكن سرعان ما تشبثت بها بدهشة وحيرة .. التصوف ؟ لست أدرى ما هو على وجه التحقيق !، ولكنه

وحدة وعزوف وتفكير وما أحوجنى للوحدة والعزوف والتفكير . عجبا ألم أكن أشكو الوحدة طوال رقادى ؟. الحق أننى لم أشك الوحدة التى ألفتها العمر كله ولكننى استوحشت الوحدة التى خلفتها أمى . أما الوحدة المعهودة فما أشد لهفتى إليها ؟. ينبغى قبل ذلك أن أطهر جسمى ظاهره وباطنه ، ثم أكرس قلبى للسماء . لقد خلقت فى الواقع متصوفا ولكن أضلتنى نوازع الحياة : وتصورت نفسى فى طهر عجيب ، يستحم جسدى بماء عطر ، وتتسامى روحى فى صفاء ونقاء ، فلا مشهد أرنو إليه إلا السماء ولا خاطر ينبثق فى نفسى إلا الله ، وهذه بلابل الجنة تسجع فى أذنى ، وتلك طمأنينة السلام تقر فى قلبى !. كان خيالى نشيطا ولكنه غادرا فى كثير من الأحايين ، فلم يكن يصعد بى إلى ذاك المرتقى حتى يتخلى عنى بغتة فأهوى من عل ، ثم أعود إلى قلقى القديم وخوفى المقيم ..

* * *

وفى ذات صباح من أيام النقاهة الأخيرة جاءتنى الخادم العجوز وقالت لى :

— جاءت سيدة تريد مقابلتك وقد أدخلتها حجرة الاستقبال .

فرفعت إليها عينى فى دهشة وسألتها :

— ألا تعرفينها ؟.

فهزت المرأة رأسها قائلة :

— لم أرها يا سيدى قبل اليوم .

ووثب إلى خاطرى طيف فانتفض قلبى الضعيف واشتدت ضرباته حتى انبهرت أنفاسى : رباه أتكون هى حقا ؟. وهل واتتها الجرأة على اقتحام البيت ؟ ألم تقدر العواقب ؟: ونظرت إلى الخادم فى حيرة شديدة ثم تمتمت :

— أدعيها إلى حجرتى ..

وألقيت على المرآة نظرة متفحصة ، ثم تناولت المشط ورجلت شعرى على عجل ، وفى حياء شديد اتجه بصرى نحو الباب : ترى هل يصدق ظنى .. وكيف

غابت عن ذاكرتى طوال العهد كأنها كانت كامنة فى دم الصحة الذى نضب ؟:
ثم سمعت وقع أقدام تقترب ، وأطل على وجه القادم يبتسم فى شوق وإشفاق ، فهتفت فيما يشبه الاستغاثة وقد وشى صوتى بما شاع فى صدرى من الانفعال :
— أنت !..

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعه :	تاريخ آخر طبعة	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	الحادية عشرة	١٩٨٥
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	الحادية عشرة	١٩٨٥
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثالثة عشرة	١٩٨٧
خان الخليلى	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	الحادية عشرة	١٩٨٥
السراب	رواية	١٩٤٨	الثالثة عشرة	١٩٨٧
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الخامسة عشرة	١٩٨٧
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثالثة عشرة	١٩٨٦
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الرابعة عشرة	١٩٨٧
السكرية	رواية	١٩٥٧	الثالثة عشرة	١٩٨٧
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	التاسعة	١٩٨٥
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	السادسة	١٩٨٧
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيئ السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الثامنة	١٩٨٥
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السابعة	١٩٨٧
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الأسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السابعة	١٩٨٧
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الخامسة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السابعة	١٩٨٦
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	السادسة	١٩٨٦
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الرابعة	١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
عصر الحب	رواية	١٩٨٠	الثانية	١٩٨٧
أفراح القبة	رواية	١٩٨١	الثالثة	١٩٨٧
ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
التنظيم السرى	مجموعة	١٩٨٤		
العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥		
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧		
صباح الورد	مجموعة	١٩٨٧		
تحت الطبع				
قشتمر	رواية			
الفجر الكاذب	مجموعة			

كلمة الناشر

تعرفت بالأستاذ نجيب محفوظ ـ أول معرفتي به ـ سنة ١٩٤٣ م ؛ ذلك أن شقيقي الأديب الراحل عبد الحميد جودة السحار ، حضر إليّ في المكتبة التي أملكها ـ مكتبة مصر بالفجالة ـ وبصحبته شاب في مثل سنّه ، في حوالي الثلاثين من عمره ، وقدّمه إليّ باسمه « نجيب محفوظ »(١) ، وقال لي : إنه يحمل معه رواية من تأليفه يرجو أن أقوم بطبعها ونشرها له .

وقدّم إليّ نجيب محفوظ روايته « رادوبيس » ، وهي ليست أول رواية يكتبها ؛ فقد كتب قبلها رواية « عبث الأقدار » ، وكان قد طبعها ونشرها له الأستاذ سلامة موسى .

أخذت منه الرواية ، ووعدت أن أبدي فيها رأيي بعد يومين .

وقرأت رواية « رادوبيس » فذهلت ! فهي مكتوبة بلغة عربية رصينة وبليغة ، وتختلف عن كل الروايات العربية التي ظهرت حتى ذلك الوقت ؛ فحوادثها شائقة ، محبوكة بمهارة عجيبة وأستاذية مقتدرة ، وتحكي قصة غرام الفرعون ، أو الملك مرنرع الثاني بالراقصة الفاتنة رادوبيس ، واستيلائه على أملاك المعابد وأموال الكهنة ، وإنفاقها على نزواته الخاصة في بذخ شديد ، حتى أطلق عليه الشعب لقبَ « الملك العابث » . وقد انتهت الرواية بقتل الملك بسهم أطلقه عليه أحدُ أفراد الشعب .

والشيء بالشيء يُذكَر ؛ فقد رأى أعوان الملك فاروق ـ فيما بعد ـ أن

---

(١) قال لي شقيقي عبد الحميد : إن والدة نجيب محفوظ تعسرت في ولادته تعسراً شديداً ، وأن الفرج جاء على يدَي الطبيب المعروف د . نجيب محفوظ ، وأنها أطلقت على وليدها اسم نجيب محفوظ ، تيمناً به .

بالرواية تعريضاً مقصوداً بالملك فاروق ، حيث كان الشعب فى مصر يطلق عليه كذلك لقب « الملك العابث » ، وأن فيها دعوة إلى الخلاص منه بقتله .

ولما حضر نجيب محفوظ ليعرف رأيى فى الرواية ، أبديت له استعدادى ، بل وترحيبى بطبعها ونشرها .

واعترضتنى عندئذ مشكلة الحصول على الورق الذى تطبع عليه الرواية ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية فى عنفوانها ، والورق معدوم تماماً من السوق .

ومهما يكن من أمر ، فقد حصلت على كمية من الورق من الجيش البريطانى ، وطبعت عليه الرواية — ٥٠٠ نسخة فقط — بناء على نصيحة نجيب محفوظ ، الذى كان يخشى أن يعرضنى للخسارة ، بألا تستوعب السوق عدداً أكبر .

وأخيراً وضعَت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وساد السلام ، ونشرنا لنجيب محفوظ روايات وقصص همس الجنون ، كفاح طيبة ، خان الخليلى ، القاهرة الجديدة ، زقاق المدق ، السراب ، بداية ونهاية ؛ طبعنا منها أعداداً تتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف . وقد أعيد طبع كل منها حتى الآن ست عشرة طبعة أو يزيد .

* * *

حتى كان يوم من سنة ١٩٥٦ م ، إذ فوجئت بنجيب محفوظ يحضر إلى المكتبة يحمل على ذراعه كمية ضخمة من الأوراق — أكثر من ألف فرخ فولسكاب — وطلب منى أن أطبعها وأنشرها له فى كتاب واحد .

وكانت هذه الأوراق تحتوى على ثلاثية نجيب محفوظ .

وكان نجيب قد عرض ثلاثيته على الدكتور طه حسين ليقرها ويبدى رأيه فيها ، فنشر عنها بحثا مطوَّلا فى جريدة الأهرام ، بشَّر فيه بمولد روائى كبير فى الأدب العربى ، بل مولد رائد فن كتابة الرواية العربية الحديثة .

وكان رأيى أنَّ طبع الرواية فى كتاب واحد ، يحدّ من بيعها على نطاق واسع ،

واقترحت أن تُطبع فى ثلاثة أجزاء ، فوافق نجيب على رأيى .

وفعلًا ظهرت الثلاثية فى ثلاثة كتب هى : بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكريَّة .

وبظهور هذه الكتب اتسعت شهرة نجيب محفوظ كأعظم روائىٍّ فى مصر ، بل فى العالم العربى كله .

وتنحصر عبقرية نجيب محفوظ فى أن شخصيات قصصه ورواياته هى من واقع الحياة فى الأحياء الشعبية بخاصة ، التى عاش طفولته يرتع بين ربوعها ، وقضى فترات كثيرة من شبابه وكهولته وهو يتردد على شوارعها وحاراتها وأزقتها ، يعاشر ناسها .. يكلمهم ويستمع إليهم ، وفى نفس الوقت يغوص فى أعماقهم ويدرس طباعهم ، ثم يصور ما ينطبع فى نفسه من كل ذلك فى كتاباته .

وإن كتابات نجيب محفوظ تتميز بميزة فريدة ، فهو يصغى بإمعان إلى كل من يحادثه ، ويهتم بكل ما يُروَى أمامه ، سواء أكان حكاية غريبة ، أو قولًا طريفاً ، أو نكتة ظريفة ، فيحفظ ذلك فى ذاكرته جيداً ، حتى إذا عاد إلى منزله أسرع بتدوينه حتى لا يضيع منه أو ينساه ، ثم يفيد منه بعد ذلك فى كتاباته ، حيث يظهر فى المكان والزمان المناسبين له .

وبعد الثلاثية تلا حصاد وافر من القصص والروايات ، ولا يزال نجيب محفوظ ـــ مدَّ الله فى عمره ـــ يتدفق عطاؤه للمكتبة العربية .

وإن حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية فى الآداب هو اعتراف بقيمة الأدب العربى بين الآداب العالمية ، ولو أن هذا التقدير جاء متأخراً عن موعده خمسة وعشرين سنة .

سعيد جودة السحار

رقم الإيداع ٢٥٥٥
الترقيم الدولى ٤ ــ ٢٢١ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه